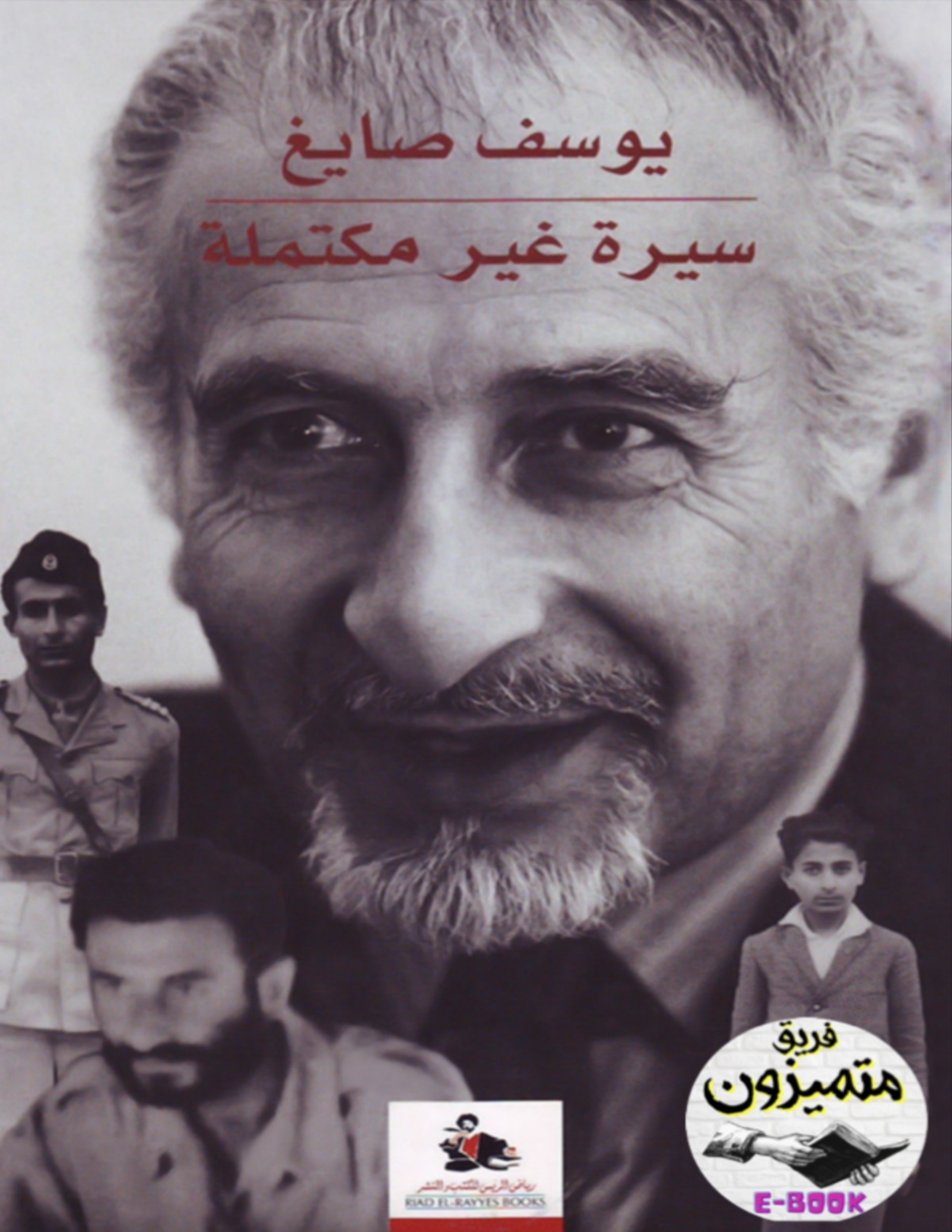

يوسف صايغ
سيرة غير مكتملة
رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS
فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)
لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية
قام بالتحويل لهذا الكتاب:


كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

يوسف صايغ

سيرة غير مكتملة

عن الكتاب..

تكتسب مذكرات الدكتور يوسف صايغ أهمية متعددة الجوانب: تاريخياً – اجتماعياً- سياسياً- وعلمياً . وتلقي الضوء على حقبة ما قبل تقسيم فلسطين (1948) كاشفة بعض التفاصيل محفزة الآخرين على دراسة تلك الحقبة دراسة وافية، حيث يدرك القارئ مثلاً أن "الفلسطيني لم يبع أرضه لليهود". كما يكشف الكتاب بعض الوقائع السياسية واللحظات الحرجة التي عاشتها القضية الفلسطينية في الفصل الثالث عشر من الكتاب تحت عنوان في السياسة الفلسطينية.نبذة النيل والفرات:

وضع الكاتب ذو الشخصية الفريدة مذكراته في أيدي القرّاء، كي تحفظ الذاكرة تفاصيل مرحلة تاريخية لم يكتف أبناؤها بالحلم، بل اقتنعوا بإمكانية العمل والفعل والتأثير لجعل الحياة العربية أفضل، وللتخفيف من وقع المآسي الإنسانية والتي هي نتاج الأوضاع السياسية، ومخلّفاتها.

"حياة يوسف صايغ سلسلة من النشاطات الجادة في خدمة المجتمع العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً"، وهو المولود من أم فلسطينية وأب سوري، وقد عانى أفراد عائلته عام 1948، "مع غيرهم من الفلسطينيين صدمة الترحيل القسري، فأصبحوا لاجئين للمرة الثانية، فلجأوا إلى لبنان". ولأنه اكتشف في تلك المرحلة أن "النضال المحلي الفلسطيني يعاني من ضعف في الإعلام و"شحّ في المال"، فقد عمل على تكثيف الدراسات العلمية والاستراتيجية وأنشأ مراكز التخطيط والأبحاث، وأشرف على دراسة "لجامعة الدول العربية عن الكيان العربي الموّحد اقتصادياً وتنموياً واجتماعياً"، "ويوماً ما سيجد الجيل الطالع المتحفز لتطوير بلده مادة خصبة من البحوث والمشاريع التي تركها له هذا الرائد الكبير"، كما أنشأ "بيت المال العربي" وأول صندوق عربي لدعم النضال الفلسطيني، و"أشرف على الصندوق القومي الفلسطيني".

يقسّم الكاتب ذكرياته إلى ثلاثة عشر فصلاً، تبدأ سنة 1918، بـ"باكورة الذكريات" في قرية "خربة" في "جبل الدروز"، إلى البصّة قرية والدته في فلسطين، إلى طبريا-أيام الصّبا، ثم الانتقال إلى الجامعة الأميركية في لبنان، وإلى الوظيفة الأولى في عين القبو وبداية العمل الحزبي، إلى تجربته كمدّرس في العراق، والعودة إلى طبريا أيام الشباب، وإلى القدس، ثم وقوعه أسير حرب أيار من عام 1948، وانطلاقته في عالم الاقتصاد عام 1950. الفصل ما قبل الأخير يخصصه الكاتب للتي "بدونها، لن تكون الحياة كما كانت" أي لوفاة أمه. "في السياسة الفلسطينية" هو الفصل الختامي للكتاب الذي يضم فهرساً بأسماء الأعلام، وفهرساً آخرا بأسماء الأماكن الواردة في المذكرات.

سيضطلع القارئ في هذا الكتاب "على حوالي ستين سنة من العمل الدؤوب"، ومن التجربة الميدانية في جميع المجالات التي دخلها يوسف صايغ، الذي كان يطمح "للوصول بالأمة إلى غد أفضل".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



المقدمة بقلم: أنيس صايغ

فجأة، وفي أقل من تسعة أشهر، انفرط عقد الريادة الثقافية الفلسطينية، وتناثرت حبّاته واحدة تلو الأخرى: من إحسان عباس في عمّان إلى أدوار سعيد في نيويورك، ومن فدوى طوقان في نابلس إلى أحمد صدقي الدجاني في القاهرة. ثم لحق بهم، منذ خمسة أسابيع، كبير آخر: يوسف عبد الله صايغ. وقد جرى التقليد في لقائنا الثقافي الفلسطيني أن نشيّع كل راحل بجلسة وفاء نقرأ فيها العبر من حياته ونسترشد بسيرته.

وإن حاولت هذا المساء أن أتجاهل وشائج القربى الوثيقة مع الفقيد أظل أسير العلاقة الحميمة جداً بين الأخ وأخيه، خاصة حينما يكون الأول أخاً أكبر والثاني أخاً أصغر، والأخ الأكبر في تراثنا الأسري العربي أب أصغر، شريك للوالد في تحمل المسؤوليات وبذل التضحيات، وخاصة أيضاً حينما يكون الأب قسيساً إنجيلياً عاجزاً عن تحقيق طموحاته وطموحات أبنائه السبعة في التحصيل العلمي العالي. تختصر هذه العلاقة بين يوسف وبيني صورتان فوتوغرافيتان أحتفظ بهما عُمر كل منهما أكثر من سبعين عاماً. كان هو قد تجاوز السادسة عشرة وكنت في أشهر الطفولة الأولى: يرفعني في الأولى منهما على كتفيه إلى أعلى ويحتضنني في الثانية بين ذراعيه.

هذه، في الواقع، هي سيرة يوسف صايغ مع الحياة والآخرين: يحتضن قضايا مجتمعه وهمومه في قلبه ووجدانه ويحاول أن يرفع شأن شعبه إلى أعلى مرتبة ممكنة.

حياة يوسف صايغ سلسلة من النشاطات الجادة في خدمة المجتمع العربي عموماً والفلسطيني خصوصاً. حوالي ستين سنة من العمل الدؤوب إما في إقامة المؤسسات وتحقيق المشاريع، الوطنية والقومية، الثقافية أو الاقتصادية أو التنموية أو الاجتماعية أو في وضع الخطط والمخططات والبرامج ورسم الاستراتيجيات للوصول بالأمة إلى غدٍ أفضل. وكأن يوسف كان يأمل دوماً بتحقيق مدينة الفارابي الفاضلة على الأرض العربية. وليست حياته في حقيقة الأمر إلاّ مجموعة هذه المساعي النظرية والتطبيقية في هذا المجال أو ذاك، دون الوقوف أمام المعوقات الدخيلة والشكوك والإحباطات ودون مراعاة تقاعس الآخرين أو مضايقاتهم.

لمس يوسف أواسط الأربعينيات ما عاناه النضال المحلي الفلسطيني من ضعف في الإعلام وشحّ في المال. فزوّد المكاتب والوفود السياسية الفلسطينية بالدراسات العلمية، من جهة، وأنشأ بيت المال العربي، أول صندوق لدعم النضال يعتمد الأسلوب الحديث والشفافية في تمويل الثورة.

وكرر تلك التجربة بعد عشرين سنة، وقد ضاعت فلسطين كلها وأفلست قياداتها معنوياً وإن أتخمت مالياً، فأشرف على الصندوق القومي الفلسطيني وأدخل فيه عنصر الحداثة والتنظيم الرفيع. وأسس من جهة أخرى مركز التخطيط ليكون العقل المفكر للثورة الفلسطينية إلى جانب مركز الأبحاث العقل المنقّب. وبعد سنوات من العمل الشاق في إعداد أول وأوسع دراسة استراتيجية شاملة لتحرير فلسطين بإسهام العشرات من النخب الثقافية الفلسطينية والعربية انتهت تلك الجهود إلى سلال المهملات لا لأن القيادة السياسية لم تقتنع بها بل لأنها افتقدت الرغبة والنية في الاطلاع عليها - وقد رأى يوسف بعينيه حسبما كان يروي بألم وغصة كيف تحولت تلك الأوراق السرية والبالغة الخطورة إلى أكياس يستعملها بائعو الفستق السوداني في أسواق عمّان.

مرة أخرى لم ييأس يوسف صايغ، وكأنه أيوب النضال الفلسطيني المؤمن بقضيته والمتفائل بشعبه باستمرار، بالرغم من انحرافات القيادة وهبوط مستواها. فبعد مأساة مركز التخطيط بعشرين سنة، توجّه إلى تونس ليشرف على إعداد أرصن دراسة شاملة تخطط للمجتمع الفلسطيني بعد التحرير اقتصادياً وتنموياً وإدارياً. وصرف عدة سنوات يعمل ليقدم في النهاية أشمل وأرقى خطة مفصلة وعملية لفلسطين الغد. وبينما نال هذا البرنامج إعجاب خبراء الدول المانحة والهيئات المختصة بالأمم المتحدة والبنك الدولي، استعيض عن الخطة بإجراءات عشوائية أدت إلى حال الفساد المالي والاهتراء الإداري والظلم الاجتماعي السائد حالياً ومنذ عشر سنوات. كان يوسف يؤمن بتحرير فلسطين كاملة من نهرها إلى بحرها، من الناقورة إلى رفح شاملة مسقط الرأس في البصة وملعب الصبا في طبريا. لكنه، في الوقت نفسه، آمن بأنه حتى ولو اختزلت فلسطين في بضع مئات من الكيلومترات المربعة فإنها يجب أن تكون قدوة في الطهارة الثورية. لكن حلمه خاب.

كذلك كان مصير حلمه العربي. لقد ورث يوسف، وأشقاؤه عن والديهم قلوباً تضخ دماء عربية في شرايين فطرية: فلسطينية وسورية ولبنانية. لذلك نراه يصرف وقتاً طويلاً في وضع استراتيجيات لتطوير اقتصاد وتنمية عربيين موحدين. وكان من أبرز أعماله في هذا المجال الدراسة القيّمة التي أشرف عليها لجامعة الدول العربية عن الكيان العربي الموحّد اقتصادياً وتنموياً واجتماعياً. ومرة أخرى يضع صانع القرار العربي الدراسة على الرف وتذهب الجهود سدى.

لم يكن يوسف صايغ حالماً مثالياً. بل كان صاحب مشروع واقعي. استنفد طاقاته العلمية والصحية كلها لتهيئة مجتمع أفضل للفلسطينيين وللعرب.

ويوماً ما سيجد الجيل الطالع المتحفز لتطوير بلده مادة خصبة من البحوث والمشاريع التي تركها له هذا الرائد الكبير.

آمن يوسف بأهمية تدريس الأجيال الطالعة. فصرف أكثر من ربع قرن يدرّس في عدد من الجامعات الكبرى في لبنان وبريطانيا والولايات المتحدة. وألّف عشرات الكتب والبحوث. وشارك في مئات الندوات العلمية وحلقات البحث في أكثر من عشرين دولة على امتداد نصف قرن. وربما أذيع سراً يجهله الكثيرون عن يوسف صايغ، للدلالة على التزاماته النضالية بشقيها الجهادي والفكري: كان يوسف من النخبة الثقافية الفلسطينية، وربما العربية أيضاً، النادرة التي لم تكتفِ بتأييد الكفاح المسلّح والدعوة له من بعيد، بل حمل بنفسه السلاح وقاد مجموعة من المقاتلين في مدينة القدس، أيار/ مايو ١٩٤٨، حتى نفدت الذخيرة ووقع أسيراً لدى القوات الصهيونية ولم يُفرج عنه إلاّ بعد سنة تقريباً.

وإني إذ أقف محيياً ذكرى يوسف صايغ لا أستطيع إلاّ أن أحيّي أيضاً تلك السيدة التي رافقت يوسف في مسيرته أكثر من خمسين سنة. تعارفا في مطلع خمسينيات القرن الماضي. وتحابا، وتزوجا، وترافقا في البحث عن عالم عربي أفضل وعن دعم أفضل للنضال الفلسطيني. إنها روزماري بوكسر، بريطانية استعربت. ويصح أن نقول، بعد أن أعطت الفلسطينيين وخاصة أهل المخيمات أنضج الدراسات الاجتماعية، إنها فلسطينية من أبوين بريطانيين.

إن لقاءنا الثقافي الفلسطيني إذ يودّع عضواً رائداً ومرموقاً طالما أغناه بمداخلاته ومناقشاته طيلة السنوات العشر الأخيرة، يشارك جموع المثقفين العرب في الاعتزاز بهذه القدوة والاستنارة بتجربتها وعطاءاتها.

والشكر، أخيراً، للسادة المشاركين في هذه الأمسية، متحدثين ومستمعين.

أنيس صايغ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



تمهيد بقلم: روزماري صايغ

إن مُذكرات يوسف - عند أيّ مُهتم بتاريخ هذه المنطقة - لها قيمة كنافذة على مرحلة من التوسع الصهيوني، وتصاعُد التدخل الخارجي، والتغيّر الاجتماعي - الثقافي في منطقة الهلال الخصيب بأسرها. كان يوسف، المولود سنة ١٩١٦ في البصّة، قرية والدته، في شمال فلسطين، الابن البكر لعبد الله صايغ وعفيفة البتروني. وقد كان والدُهُ السوريّ من ذوي الأملاك المتواضعة، وهو إنجيلي «بروتستانتي» لديه مَيل لدراسة اللاهوت. التحقت والدة يوسف الفلسطينية، على غير المعتاد في زمانها، بمدرسة داخلية في صيدا، وعمِلَت مُدرِّسة لفترة قصيرة قبل أن تلتقي بأبي يوسف وتقترن به. وهكذا كانت خلفية عائلة يوسف مزيجاً من الموارد المتواضعة، والوَرع الإنجيلي، والتعليم العالي نسبياً. بعد دراسة اللاهوت في القدس، أصبح أبو يوسف قسّيساً، وعمل في قريته خربة «في جبل الدروز»، وقد بنى كنيسة هناك. وفي سنة ١٩٢٥، أجبَرت انتفاضة الدروز ضد الاحتلال الفرنسي أفراد العائلة على الهرب من خربة، فكانت تلك تجربتهم الأولى في التشرد. أقاموا في البصّة، قرية والدته، من سنة ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠، وانتقلوا منها إلى طبريا «١٩٣٠ - ١٩٤٨». وفي سنة ١٩٤٨، شارك أفراد العائلة مع غيرهم من الفلسطينيين صدمة الترحيل القسري، فأصبحوا لاجئين للمرة الثانية، فلجأوا إلى لبنان هذه المرة. ووقع يوسف، الذي كان يعمل في القدس آنذاك، أسير حرب في أيدي الإسرائيليين.

كنتُ، لفترة طويلة، أرغبُ في تسجيل مذكرات يوسف، ويعود ذلك جزئياً أيضاً، إلى كوننا من عائلات الطبقة المتوسطة التي تحيا على حافة الفقر، وتُثَمّنُ عالياً قيمة التعليم. ولكن لم يكن اختلاف مشهد طفولته فقط هو الذي دعاني إلى تسجيل مذكراته، بل لأنه قام بدور أيضاً في الأحداث الخطيرة الكثيرة، أو عاشها، وشارك بنشاط في كثير منها. أحسستُ بأن ذكرياته لا بدَّ أن تكون لها قيمة كجزء من تاريخ منطقة تتميّز بالتغيّر السريع في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية. ويصعبُ على الكثيرين أن يتذكروا كيف كانت الحياة في قرية من قرى جبل الدروز، والجليل، قبل جيل واحد فقط - ماذا كان الناس يلبسون ويأكلون، كيف كانت البيوت، وكيف تتم تنشئة الأبناء، كيف كانوا يلعبون، وما هي أشكال الثواب والعقاب، وكيف تبدو مَدرسة داخلية من مدارس الإرساليات في ذلك الوقت؟ واليوم، بقي عدد قليل من الناس ممّن عاشوا أيام النكبة.

لم يشاطرني يوسف حماستي لنشر مذكراته على الملأ. فكان يقول إنه لم يكن على مستوى كافٍ من الأهمية يؤهّله لتسجيل مذكراته، وإن تسجيل

المذكرات دليل على عدم التواضع، وعلى المباهاة، وهي خصلة لم يكن يحبها. وسيكون في ذلك جرأة وتجاوز للحدود بتقسيم الناس إلى أشخاص مُهمّين وأشخاص غير مُهمين تاريخياً. لم يكن يوسف يقارن نفسه بعبد الناصر وعرفات وحافظ الأسد: فهؤلاء كان لهم تأثيرهم في الآخرين، وأنشأوا حركاتٍ، وصنعوا أحداثاً. وعلى الرغم من أنه كان يعتزّ بإنجازاته، فإنه ما كان يقدم نفسه على الصعيد العربي العام - إلاّ فيما يتعلق بقول الحقيقة. لم يكن يتقبّل بسهولة فكرة أن الناس العاديين يمكن أن يسهموا في صنع تاريخ أكثر ثراءً من خلال كتابة شهاداتهم.

ونظراً لأن عمل يوسف في مجال الاستشارات والمشاركة في المؤتمرات كان يتضمن السفر المتواصل، فقد كان قادراً على تفادي ضغطي عليه لتسجيل مذكراته، وذلك لسنوات عديدة. لكن فرصتي سنحت في نيسان/ أبريل من سنة ١٩٨٩، عندما اضطر لقضاء عدة أسابيع في البيت طريح الفراش بسبب عملية في قدَميه. فكان سجيناً لديَّ، وأخيراً خضَع. إن اعتبار التسجيل مشروعاً مشتركاً، شيئاً نقوم به معاً من أجل أبنائنا وأحفادنا، خفّف من معارضته؛ بل إنه بدأ يستمتع بجلسات التسجيل. لم نكن نتَّبع دائماً تسلسلاً زمنيا صارماً. كان منهجنا أن نناقش قبل كل جلسة تسجيل الموضوع الذي سيتحدث فيه. ولأسباب عاطفية، فإن قصته كأسير حرب في سنة ١٩٤٨ أصبحت البداية. وبعد ذلك، لأن وجوده في القَطَمون في منتصف أيار/ مايو تطلّب شيئاً من التوضيح، فقد رجع بالذاكرة إلى إقامته وعمله في القدس ما بين تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٦، ووقت وقوعه في الأسر. ومن تلك الفترة، عدنا إلى أولى ذكرياته، ذكرى أمّه وهي تبكي لأن وليدها الثاني وافته المنية.

ولأنني كنت أعرف قصصه جيداً، فقد قمت بدور التدخل أثناء عمليات التسجيل بأكثر مما يمكن أن يقوم به مؤرِّخ شفوي مُحترف، فكنت أذكِّره بالحكايات أو أحقق في إفاداته، للحصول على مزيد من التفاصيل حول النقاط التي أثارت اهتمامي. وعندما أستعيدُ ذلك الآن، أرى أن ذلك كان خطأً، إذ حرمَ ذكرياته من الاستقلال الذاتي التام. وكان ذلك يعني أن اهتمامي بالتاريخ الاجتماعي قد وجَّههُ نحو مواضيع لم تكن مُهملة بالنسبة إليه، وأبعدته عن مواضيع أخرى كانت مهمة. وكان من شأن عملية استماع ومراجعة أخيرة أن تصحِّح مثل هذه الأخطاء، بإفساح المجال لأفكار أخرى ومزيد من التأمل الذاتي.

بين ٦ و٢٦ نيسان/ أبريل من سنة ١٩٨٩، كنا قد ملأنا واحداً وعشرين شريطاً من أشرطة «الكاسيت»، تتناول حياته، حتى وفاة والدته في سنة ١٩٥٠ . وتُشكل هذه الأشرطة الجزء الأكبر من المذكرات كما تمَّ عرضها في هذا الكتاب. بعد ذلك فقدنا الاستمرارية التي تتأتّى من خلال السّرد اليومي.

فحالما تمكّن يوسف من المشي من جديد، غادر في رحلة جديدة، حتى إن الإمساك به أصبح أكثر صعوبة من قبل: كانت تلك ذروة سنوات مسيرته المهنيّة، وهي السنوات التي قضاها في تونس كمستشار لدائرة الشؤون الاقتصادية والتخطيط التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية والتي كان يرأسها أحمد قريع. ورغم أننا واصلنا التسجيل بين وقت وآخر على شكل مقتطفات بين الأسفار، لنغطي السنوات اللاحقة، وسيرته المهنية، فقد كانت تلك الجلسات متباعدة جداً وغير رسمية إلى درجة لا يتوافر معها التركيز الذي كان في المجموعة الأولى من التسجيلات. ولكن بين ٢٩ كانون الأول/ ديسمبر، ١٩٩٦ وشباط/ فبراير ١٩٩٧، سجّلنا مجموعة أخيرة وكبيرة حول مشاركة يوسف في السياسة الفلسطينية، وهو ما يشكل الآن الفصل الأخير في هذا الكتاب.

وبعد وقت طويل من وفاة يوسف، بدأتُ في تحرير الأشرطة، وعندها أدركتُ كم تدهورَت نوعية التسجيلات بين الجلسات الأولى الطويلة حين كان طريح الفراش والتسجيلات اللاحقة التي تمّ انتزاعها أثناء تناول الغداء أو في عطلة نهاية الأسبوع. وبعد أن كانت جلسات التسجيل أساساً مناجاة فردية تتخللها أسئلة أطرحُها عليه بين الحين والآخر، تحوَّلت إلى أحاديث عن أبنائنا، وعن البيوت التي أقمنا فيها، والعطلات، والأصدقاء، وطبائع الأشخاص الذين يساعدوننا في الأعمال المنزلية. كان ذلك يعني هبوطاً ملحوظاً في الاهتمام بشكل عام، بعد سنة ١٩٥٣، أي في اللحظة التي بدأت فيها مسيرته العملية تشهد انطلاقتها الأولى، لم تكتمل قط. وهكذا دار نحو ثلثي المذكرات حول سنوات تكوينه الأولى بدلاً من السنوات التي أصبح فيها مُنتجاً. وهذا أحد المعاني لاعتبار سيرة حياته غير مكتملة، فهي لا تغطي ما يريد الكثير من القرّاء معرفته عن يوسف صايغ، الاقتصادي، والمعلم، والقومي العربي، والكاتب والمتحدث في المؤتمرات.

هناك جانبان يعوّضان هذا النقص إلى حدّ ما: الفصل المستفيض حول السياسة الفلسطينية؛ وحقيقة أنه حتى في الفصول الأولى، لم تكن الاضطرابات والشؤون السياسية بعيدة على الإطلاق. ففي خربة، في أوائل العشرينيات، يتعجّب يوسف متسائلاً عما يفعله الجنود الفرنسيون والعلم الفرنسي في سورية. وفي البصّة، حين كان في الثانية عشرة تقريباً من عمره، يحاول إقناع أحد الجيران بعدم بيع أرضه. وكطالب في الجامعة الأميركية في بيروت، ينضمُّ إلى الحزب السوري القومي (والفصل الخاص بهذا يتضمن وصفاً حيوياً للسياسة في الحرم الجامعي في أواخر الثلاثينيات). وعند عودته إلى فلسطين في سنة ١٩٤٠، يصف السنوات الأخيرة التي سبقت النكبة، والشخصيات السياسية التي قابلها كمدير لبيت المال الفلسطيني ووقوعه في الأسر لدى الإسرائيليين في القدس الغربية بعد أيام

من إنشاء الكيان الصهيوني. فالجانب السياسي متشابك كالنسيج في الجانب الشخصي من النص، وما كان لهذين الجانبين أن يتباعدا أبداً عند قوميٍّ ملتزم مثله. كنا نحن، عائلته، ندرك دائماً مضامين نشاط يوسف العملي: الاجتماعات في أوقات متأخرة من الليل، ووجوب إدخال عصا مكنسة في أنبوب العادم من السيارة للتأكد من عدم وجود قنبلة بداخله، ووضع قضيب من الحديد على الباب الخارجي للبيت في الليل، والاحتفاظ برشاش كلاشنيكوف تحت جهاز التلفزيون؛ ونوبات التوتر أو المرض التي كانت تصيبه.

كانت دائماً لدينا نيّة الرجوع إلى الأشرطة ومراجعتها، ولكن من صيف ١٩٨٩ إلى ١٩٩٣، كان يوسف في تونس، يعدّ خطة اقتصادية لدولة فلسطينية مستقبلية. كانت تلك أكثر فترة متوترة في حياة يوسف المهنية. فقد تزامن اكتمال الخطة مع اتفاق أوسلو الذي لا علاقة ليوسف به، على الرغم من صلته الوثيقة مع «أبو علاء». وقد بلغ نفوره القديم من أساليب عرفات ذروته في أعقاب أوسلو، حيث قلب الرئيس عرفات بُنية المؤسسة التي تمَّ إنشاؤها حديثاً، بكدار «المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار» رأساً على عقب لكي يضمن سيطرته التامة على المساعدات المقدمة للتنمية. وبعد أقل من شهرين بعد أوسلو، استقال يوسف من مجلس إدارة «بكدار» وغادر تونس.

كان من شأن المراجعة أن تحقق ما هو أكثر من ملء الثغر، وتسوية اختلاف الروايات، وإعادة تشكيل بُنيتها. إن المذكرات غنية بما تقدّمه، لكنني أشعر بالأسف لخسارة تأملاته الأكثر عمقاً في أمور حياته وزمانه والتي كان يمكن أن تقدمها مراجعة ثانية للتسجيلات. ربما كان من شأن ذلك أن يتيح له الفرصة لتحليل أسباب فشل القومية العربية العلمانية - في وقتنا الراهن على الأقل - والنظر في أمر الحكومات العربية التي ظل يؤمن بقدرتها على الإصلاح إلى آخر أيام حياته. والمسألة التي ربما كان يريد استكشافها هي التناقض بين الدور الذي لعبه التعليم الأميركي في تشكيل شخصيته وفكره و«فكر الكثيرين من أبناء جيله في لبنان وفلسطين»، وبين معارضته المُتنامية بعد سنة ١٩٤٨ للسياسات الأميركية في المنطقة. ويظهر بعض ذلك في الفصل الأخير حول السياسة الفلسطينية. إن توفر وقت للمراجعة كان يمكن أن يشجعه على التعبير عن تلك المواضيع والتفكير فيها على نحو أكثر عمقاً. وبهذا المعنى الثاني، أيضاً، تعتبر هذه المذكرات غير مكتملة.

من الصفات التي أحببتها في يوسف جرأته. كان يُسمّي الأشياء بأسمائها كما يراها، ويتحدث عن الأشياء التي تبقى تقليدياً قيد الكتمان. وعلى الرغم من أنه لم يكن مستفزاً ولا متهوراً على الإطلاق، إلاّ أنه كان شجاعاً بشكل غير عادي قولاً وعملاً، خصوصاً أنه لم يكن قويّ البُنية. فالكلمات التي قالها

لمسؤول في السلطة الوطنية الفلسطينية سنة ١٩٩٤: «أنا بناقش «أبو عمار» نفسه، وحتى اللي أهم من «أبو عمار». ومش رايح أتخلى عن حقي في النقاش أبداً» تصلح لأن تكون نقشاً على ضريحه.

وإلى جانب ذلك، كان يتقن رواية القصص. وأول قصة شدّت انتباهي كانت تدور حول المدة التي قضاها أسير حرب في سنة ١٩٤٨ . ولكني أحببتُ أيضاً قصصه عن أيام الطفولة، خصوصاً قصصه عن البصة، قرية والدته، في شمال فلسطين. كانت طفولته في سورية وفلسطين تشبه مشاهد مأخوذة من فيلم، وتبدو منفصلة من حيث الزمان والمكان عن الوقت الحاضر، إلاّ أنها، مع ذلك، حقيقية إلى حدّ بالغ. فهناك شخصيات من الماضي: أندراوس، ذلك المخنث المُتشبّه بالنساء في قرية البصّة، أم ركاد، التي جعلت أسقف حيفا يجر أذياله عائداً عندما حاول أو يقرِّعها على خطيئة الزنى، بطرس، ذلك المصري الأعمى الذي تنصَّر واتخذ من الدور الأرضي مقراً دائماً له، أبو دخل الله، البائع الكثير الأسفار الذي يبيع المنشورات الدينية والذي تضمّنت جولاته الإقامة في بيت آل صايغ - كلُّ تلك المشاهد حُفظت في ذاكرة طفل حسّاس، ولديهِ، مع ذلك، حُبّ الاستطلاع. وعلى رأس هذه المشاهد المتناثرة، كان الحضور المُحبّب لأم يوسف، التي عرفتُها فقط من خلال صورة عائلية مؤطّرة، ولم تكن واقعية بالنسبة إليّ بسبب وفاتها المبكرة، بعد ثلاث سنوات من النكبة، وقبل سنتين من زواجنا، ومع ذلك أصبحَت جزءاً من ذاكرتي من خلال تعلّقه الاستثنائي بها. فقد كان ابنها المُفضل، لكنها كانت تَحظى بمكانة خاصة ليس في ذكرياته فحسب، بل في ذكريات الآخرين أيضاً. بعد وفاتها، لم يُغير أبو يوسف «كرافتته» السوداء. كان والدهُ وسيماً ومحبوباً كرجل مُسن، لكنه كان والداً صارماً. إن وجوب استهلال المشاهد واختتامها بأمِّه، أمر يبدو مناسباً تماماً.

حين يستمع المرء إلى الأشرطة أو يقرأ النص، يتّضح الدافع الرئيسي وراء تعاون يوسف في التسجيل: إنها الرغبة في الاحتفاء بالعائلة التي ولد في أحضانها، وبوالديه وإنجازات إخوته فقصتهم قصة استثنائية، تتضمن عناصر عديدة تمثل العائلات الفلسطينية والعائلات العربية الأخرى: كفاح الوالدين (خصوصاً أم يوسف) من أجل تعليم الأبناء، وكيف يصبح الابن الأكبر «أباً»، يساعد في تمويل إخوته في الجامعة، والروابط العائلية التي تشبه المغناطيس والتي تعيد الأبناء إلى بيوتهم في المناسبات الخاصة، ولكنها لا تمنعهم من التصدّي للأزمات الوطنية. إن أكثر جوانب هذه المذكرات تأثيراً فيَّ هو وصف يوسف لأمه وأبيه: كيف تقابلا مصادفة في سنة ١٩١٤، وأحبّا بعضهما وتزوّجا، وكيف ثابرت أم يوسف على محاولة إقناع أبي يوسف بالانتقال إلى مكان آخر تتوفر فيه مدارس أفضل من تلك المتوفرة في خربة؛ وكيف قاوم محاولاتها بسبب إخلاصه للكنيسة وعلاقاته في القرية؛ وكيف أدت

انتفاضة الدروز إلى ترحيلهم. وقد تصرفت أم يوسف، وحدها مع أربعة أطفال دون التاسعة، بشجاعة، واستقلالية أظهرت جانباً آخر من شخصية القديسة الذي كان مألوفاً لديّ من خلال وصف العائلة لها. ولأنني لم أقابلها بتاتاً، فإن وصف يوسف أذهلني. ففي صور العائلة يبدو وجهُها نحيلاً وحزيناً، ولكن من خلال كلماته، فإنها تتألقُ إنسانةً محبّة، وذكية، وفكِهة ودبلوماسية بارعة وكادحة. وبالرغم من أن يوسف كان معجباً بأبيه ويحبّه، ويصف مزاياه بعيداً عن كونه قسيساً، مثل مهارته في أعمال التجارة، واهتمامه بالأدوات العصرية، إلاّ أن يوسف لم يكن يستمتع بالنظام الإنجيلي الصارم في حياتهم العائلية، والذي يتمحور حول الصلوات وقراءة الكتاب المقدس. ومن الواضح في المذكرات أن العائلة كلها كانت تتمحور حول أم يوسف - ويؤكد ذلك كل من يتذكرونها.

يبدو التعليم في مذكرات يوسف طموحاً شخصياً، وقيمة أخلاقية، ومصدراً للفخر في العائلة. في خربة والبصّة، وحتى في طبريا، لم يكن هناك تعليم بعد المرحلة الإعدادية. وكان هذا يعني أن جميع الأبناء السبعة، ابتداء من يوسف، يجب أن يُرسلوا إلى أماكن بعيدة للتعلّم في مدارس داخلية للحصول على شهادات المدارس العليا والتأهل لدخول الجامعات. ولم يكن دفع الأقساط من مرتب قسيس أمراً سهلاً. وقد تضافرت المنح الدراسية، وكرم الأصدقاء، والقروض من هنا وهناك مع الإنجازات المدرسية لتمكِّن جميع أبناء صايغ من دخول الجامعة. اختار أربعة منهم المِهَن ذات الصبغة الفكرية، واختار أحدهم الهندسة، فيما اختار الآخر الطب. وحصل أربعة منهم على درجة الدكتوراه. ويوسف نفسه ترك الجامعة بعد حصوله على درجة البكالوريوس، لمساعدة إخوته الأصغر سناً على استكمال دراستهم الجامعية، وفقاً للمسيرة الكلاسيكية للابن البكر. وربما كان تسجيل قصة عائلته هو الدافع الرئيسي عند يوسف لسرد ذكرياته. إنها ملحمة صغيرة، فيها خصوصية في انتصاراتها مآسيها، ولكنها تشكل نمطاً عاماً في زمانها ومكانها.

لم يعد يوسف إلاّ بعد النكبة إلى الجامعة الأميركية في بيروت للحصول على درجة الماجستير في الاقتصاد، ودرّس في الكلية نفسها. وفي سنة ١٩٦٤، قُدِّمت له منحة دراسية للحصول على درجة الدكتوراه من الولايات المتحدة، جامعة جون هوبكنز. وأثناء وجوده في الولايات المتحدة، فاز بمنحة للقيام ببحث حول الأعمال التجارية الحُرّة في لبنان. ومنذ ذلك الوقت عاش حياة حافلة بنشاطات التعليم، والتأليف والنشر، والتحدث في المؤتمرات، وأخيراً، تقديم الاستشارات لمؤسسات مثل الصندوق الكويتي، والجامعة العربية، ومنظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول «أوابك»، ومنظمة التحرير الفلسطينية. وقد مُنح جوائز عديدة خلال حياته، ووساماً من منظمة التحرير الفلسطينية بعد وفاته. ومن أشهر مؤلفاته: «الخبز مع الكرامة» (١٩٦١) الذي

حصل على جائزة (جماعة أصدقاء الكتاب) لعام ١٩٦١؛ «اقتصاديات العالم العربي» (١٩٨٧) ﴿The Economies of the Arab World﴾ (١٩٧٨)، «محددات النمو الاقتصادي العربي» ﴿The Determinants of Arab Economic Development﴾ (١٩٧٨)، «التنمية الخادعة: من التبعية إلى الاعتماد الذاتي في المنطقة العربية» ﴿Elusive Development: From Dependence to Self-Reliance in the Arab Region﴾ (١٩٩١). بلغ عدد المقالات التي كتبها باللغة الإنكليزية ٤١ مقالة. وربما كان أول مفكر عربي اقترح استخدام النفط كسلاح سياسي. وآخر دراسة قيّمة له كانت بعنوان: «برنامج تنمية الاقتصاد الوطني الفلسطيني للسنوات ١٩٩٤ - ٢٠٠٠» Programme for Development of the Palestinian National - Economy for the years (١٩٩٣). كان عضواً في مجالس إدارة: مركز دراسات الوحدة العربية، منتدى الفكر العربي، ومؤسسة التعاون. حصل على التقدير في المنطقة العربية وعلى الصعيد الدولي إلى حدّ ما، كاقتصادي لم يَفصل الاقتصاد عن السياسة إطلاقاً. وعلى الرغم من تقاعده المبكر من الجامعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٧٣ لكي يتفرغ للأعمال الاستشارية، فإن طلابه لا يزالون يتذكرونه أستاذاً مُتحمساً ومُتطلّباً.

بعد عودته من تونس إلى بيروت في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٣، مرّ بمرحلة مؤلمة عندما اتهمه بعض الأصدقاء الفلسطينيين بالتورّط في اتفاقيات أوسلو. إن خيبة أمله إزاء اتفاقيات أوسلو، وإحباطه من الطريقة التي تمّ بها إلغاء خطته الاقتصادية، إلى جانب تأثير ثلاث سنوات من العمل المكثف، كلُّ هذا ترك آثارهُ على صحته، وبدأ ذلك بألَم في الظهر وعَودةٍ لاضطرابات القرحة، وتعقيدات لاحقة في القلب. أصيب بأول نوبة قلبية في سنة ١٩٦٤، لكنه تعافى منها بصورة جيدة. ولكن في منتصف التسعينيات، بدأت قوة الحياة لديه تتوانى. على أية حال، لم يتوقف عن العمل. وبدعم من مركز دراسات الوحدة العربية، بدأ يُعدُّ بحثاً حول السوق الأوروبية المشتركة كنموذج للدول العربية. ولكن في آذار/ مارس ١٩٩٧، كان لا بد من دخوله إلى المستشفى لإجراء عملية مجازة by-pass، وبعد ذلك لم يكن قادراً على القيام بعمل مُكثّف مرة أخرى، على الرغم من أنه ظل نشيطاً كرئيس لمجلس إدارة مؤسسة التعاون - فرع لبنان. وبعد عام أو عامين، أصيب بخفقان في القلب، وكان لا بد من زرع مُنظم لضربات القلب. وفي سنة ٢٠٠١، عاد إلى مستشفى الجامعة الأميركية لاستبدال الشريان الأوُرطي. وخلال السنوات الثماني الأخيرة من عمره، ابتُلي بالاستشفاء المتكرر، والعجز المتزايد. وكان من المستحيل أن يُطلَبَ منه الاستماع إلى الأشرطة.

لقد كان قومياً عربياً وناشطاً فلسطينياً، وعلمانياً وحَداثياً، كرّس فكره المُلهِم، وذكاءَه وطاقتَهُ في خدمة أمّته.

إلى جمعية التضامن التي موّلت تكاليف الترجمة، إلى غانم بيبي وحسناء مكداشي اللذين قرآ المسودة الأولى واللذين شجعاني على الاستمرار وقدما المساعدة القيمة والمشورة في كافة المراحل. إلى أنيس صايغ لقراءته الفصول كافة وتصحيحها. إلى يزيد وجمانة وفارس وكليمنص صايغ وماري أبي عاد وفوزي المعلوف، ولهالة صايغ ومحمود شريح لمساعدتهم القيمة في إعداد هذا الكتاب.

روزماري صايغ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الأول باكورة الذكريات، «قرية خَرَبة» ١٩١٨ ١٩٢٥

تعود أولى ذكرياتي إلى قريةِ «خربة». انتقلَ والداي إليها بعد ولادتي سنة ١٩١٦ في قرية البصّة، قربَ عكّا في فلسطين. كنت في الثالثة من عُمري تقريباً. وكانت أمّي في ذلك الوقت قد وضعَت مولوداً آخر، فؤاد، ما لبث أن تُوفِّيَ إثر حُمّى ألمَّت به. كنت مُستلقياً ورأسي على ساق أمّي، أنظرُ إلى الأعلى مُحدِّقاً في وَجهِهَا، كنتُ دائماً شديدَ التعلّق بأمّي، طوالَ عمري، إلى أن وافتها المنيَّة. كبرتُ وأنا أشعرُ نحوَها شعورَ طفلٍ وليدٍ يحتاجُ إلى حضن أمّه. كانت علاقة خاصةً جدّاً. كنتُ مستلقياً هناك، سعيداً، أحَدِّقُ في وجهها، فرأيتُ دموعَها تنحدِر. قلت:

- ماما، ليش؟ وأشرتُ إلى دموعها. قالت:

- عشان خيَّك الصغير فؤاد، اللي مات.

- شو يَعني؟

- راح عالجَنّة.

تلكَ هي أولى ذكرياتي. كانت أمّي حاملاً آنذاك، وبعد أشهر قليلة رزقت بصبي آخر أطلقوا عليه الاسم نفسه، فؤاد. ولم يكن من المُعتاد أن تطلِق العائلاتُ نفسَ اسم الطفل المتوفَّى على المولود الجديد. لكنّ والديَّ كانا مؤمنيْن، وأحسَّا أن هذه كانت هبة من الله لهما، تعويضاً عن الفقدان الذي تحمَّلا آلامَه.

كان ذلك في «خربة»، القرية التي كنا نعيش فيها في ذلك الوقت، حيث كان أبي واعظاً. لم يكن قد رُسِّمَ قسيساً بعد، إذ لم يكن قد حصلَ على أيِّ تخصص في مَجال اللاهوت. لكنه كان متديّناً جدّاً. وكان نسيبُهُ قسيساً، درسَ في معهد جيرارد في الميِّة ومية، قربَ صيدا، حيث يتوفر قدرٌ كبيرٌ من التعليم الدِّيني، نظراً لكونِهِ من معاهد الإرساليات التبشيرية. كان قرارُه هوَ أن يذهبَ إلى هناك، فقد كان راشداً في ذلك الوقت، ولديه مواردهُ الخاصة. ذهبَ إلى صيدا واستفسرَ عن المدارس. ثم قابلَ مديرَ معهد جيرارد، وكان هو نفسُهُ مديرَ المعهد عندما ذهبتُ أنا بعدَ ذلك بسنواتٍ عديدة، في سنة ١٩٢٩. عرفَ أبي أنه يريدُ أن يصبحَ قسيساً. ومن المثير للاهتمام أن أمّي التحقت بمدرسة البنات في «عين الحِلوة» بين صيدا والمية ومية. فكان بينهما تزامُنٌ على الرغم من أن أمّي كانت أصغرَ من أبي بعدة سنوات. ذلك لأنّ أبي تجاوزَ سنَّ الدخول إلى المدرسة، بينما كانت أمّي أصغر من ذلك. وتخرَّجَ كلاهما قبيل الحرب «العالمية الأولى» مباشرةً كما أظنّ، أو في سنة ١٩١٥. وتزوَّجا بعد ذلك التاريخ بقليل.

لم يلتقيا في صيدا. التقيا عن طريق المِس فورد، وهي مُبشِّرَة أميركية كانت تدير مدرستَها التبشيرية الخاصةَ بها. فقد كانت تملِك مواردَ شخصية، وجاءت إلى المنطقة أساساً لإنشاء المدارس، وتوفير الوُعاظ والقساوسة للتبشير. كانت تقيمُ في صفَد. ولكن يبدو أنها ذهبت إلى مدرسة صيدا لتوظيف المُعلمين المحتمل تعيينهم مستقبلاً، وقابَلَت أبي وأمّي، كُلاًّ على حِدَة. وأخبرتني أمّي أن المِس فورد - واسمها ماري فورد وقد سُمِّيت أختي ماري باسمها - قد أرسلت تدعوها لزيارتها في صفد. كانت المِس فورد قد شيّدت منزلاً رائعاً في صفد، كان رائعاً لدرجة أنه عندما سيطر الإسرائيليون على المدينة، اتخذه الحاكم العسكريّ مقرَّ إقامةٍ له. كان المنزلُ يشرفُ على بحيرة الحُولة وعلى التِّلال الخلابة المحيطة بها.

قامت أمّي بزيارة المِس فورد التي قالت لها:

- شو رأيك تسافري معي؟ بدي أروح إلى حوران عشان أشوف شخص إسمُه عبد الله صايغ. ناوية أعَينُه واعظ هناك.

ذهبَت أمّي معها. وكان أمراً لافتاً أن تتمتعَ أمّي بمثل تلك الحرية. والواقع أن الذهاب إلى مدرسة داخلية كان أمراً غيرَ عاديّ بالنسبة لامرأة ريفيّة في تلك الأيام. ويعود الفضلُ في ذلك جزئياً إلى ابن عمّة لها من البصّة، التحق بمدرسة للبنين هناك قبل أمّي - كانا في الواقع اثنين من والدتين مختلفتين، وديع وجريس خوري، وقد التحق كلاهما بمدرسة صيدا. عرَفا أن هناك مدرسةً للبنات، وكانت هي لطيفة وذكية، وتوقَّعا أنها ستُبلي بلاءً حسناً في المدرسة. وهكذا شجعاها على الالتحاق بالمدرسة وعملا على إقناع والديها للسماح لها بذلك. كان أمراً مُدهِشاً. وإنني أشعر بالنّدم لأنني لم أسألها عن مزيد من التفاصيل. كلُّ ما أعرفُه هوَ أنها ذهبت إلى المدرسة، وتخرَّجت، وحصلَت على الترتيب الأوَّل في صفّها. وأبي أيضاً كان الأوَّلَ في صفِّه. وقد اعتاد الفوز بكثير من الهدايا الجميلة التي كانوا يمنحونهُ إيّاها في كل عام. كانت أفضل هدية عبارة عن ساعة فاخرة، مُنحت له لأن ترتيبَهُ كان الأوّل طيلةَ سنوات الدراسة وحتى السنة الأخيرة. وقد قدَّمها لي، فيما بعد، عندما التحقت بمدرسة صيدا.

اتصلَت المِس فورد بأمّي، وطلبت منها مُرافقتها في تلك الرحلة، وعرضَت عليها وظيفة مُعلِّمة في المدرسة التي ستنشئها في طبريّا أو في صفَد. لم تكن أمّي قد قبلَت ذلك العرض بعد، وذهبَت معها إلى حوران، ورأت ذلك الرجل. مالت إليه، ومال إليها كثيراً. ولا أعلم متى عَرضَ عليها الزواج، لكنه من المؤكد أنهما تزوجا في سنة ١٩١٥، لأنني ولدت في سنة ١٩١٦، في ٢٦ آذار/مارس.

الأمرُ الطريف أنه كان في البصّة اثنان أو ثلاثة من الشبان الذين أرادوا الاقترانَ بأمّي، وعندما سمعوا أنها ستُخطَب لحوراني - وكان يُنظر إلى الحورانيين نظرةً دونيّة في ذلك الوقت كمُتخلفين، لا يرتدون اللباس الغربيّ، ويتحدث الناس عن كثرة القَمْل لديهم - حاولوا إقناع أمّي بتغيير رأيها، وسَعَوْا في ذلك لدى جدَّتي للتأثير على ابنتها. ولكن إما أن جدَّتي كانت تحمل أفكاراً عصريَّة، أو أنها لم تنجح في مساعيها. لذلك كتبَ أحدُ ابني العمّة إلى خالي، الذي كان قد هاجر إلى أميركا، رسالة يقول فيها: «إن أختك، وهي فتاة مُتعلمة، وأولُ فتاة في القرية تلتحق بمدرسة داخليّة وتحصلُ على شهادة، قبِلَتِ أن تُخطب لحوراني بعيْن واحدة! - وهو يقصدُ أبي الذي كان وسيماً تماماً! كان خالي حادَّ الطبع، عصبيّ المزاج، فكتبَ رسالةً غاضبة إلى أخته. فأرسلوا إليه صورة شخصيّة لأبي ليثبتوا له أن أبي له عينان اثنتان سليمتان. ولكن خالي ظلَّ ساخطاً، ومرَّت سنواتٌ عديدة دون أن يكتبَ لها شيئاً. أما الرجل الذي أراد الاقتران بها، أقصد ذلك الذي أفضلُ الانتحار على أن أكونَ ابناً له، فقد كان مُريعاً، وشِبهَ أُمّيّ. كان يَملك أرضاً. ولكن أبي لم يكن بدون موارد.

قبْل أن يتزوجَ أبي، كان لديه اثنان أو ثلاثة أحصنة جيدة، وكان رجلٌ حورانيّ من بُصرى يرغب في اقتناء أحدهما. حدثَ هذا في خربة. رفضَ أبي بيع الحصان له. وذات يوم، عند الفجر، جاءَ الرجل وأرخى زمامَ الحصان وقادَهُ إلى الخارج. سمعَ أبي صوتَ الحوافر ورأى شخصاً يخرجُ من البوابة، راكباً الحصان، وفي نفس الوقت، يُمسكُ بزمام حصان آخر. ارتدى أبي ملابسه على الفور. بدأ الرجل يعدو بالحصان لكي يبتعد عن خربة بأسرع ما يستطيع. أخذ أبي بندقيته وركض باتجاه حصانه الآخر الجيد، وراحَ يعدو وراءه، وهو يصيح بأعلى صوته داعياً إياه إلى التوقف. كان الرجل يسبقهُ ببضع مئات من الأمتار دون أن يعبأ بالتوقّف. أطلق أبي النار عليه لكنه لم يَنَل منه. لم تكن بُصرى بعيدة عن خربة، لذلك وصل إليها اللصُّ بسرعة. وبعد أن تحقّقَ أبي من أنه نفس الرجل الذي كان يرغب في اقتناء الحصان، اتجه نحو بيت المختار، وأيقظهُ من نومه وأخبره بالقصّة. وقال له: «تفضّل معي يا مختار بسرعة، بتلاقي حصاني في بيت الحرامي». ذهبَا معاً، وأحضرا الرجل إلى بيت المختار واجتمع كبار رجالات القرية هناك، وقدّموا الاعتذار عمَّا جرى. هكذا استعادَ أبي حصانه، وعاد إلى البيت. وقد كان أبي هو الذي أخبرني بهذه الحكاية.

ولدتُ في البصّة - وهنا أعودُ إلى الوراء قليلاً - ذلك لأن زواج أبي وأمّي تمَّ هناك. تزوّجا فيها لأن أبي أراد التخلّص من التجنيد الإجباري. أمسكوا به في حوران وأجبر على الانخراط في الجيش العثماني، لكنه افتدى نفسه بالمال - إذ كان يمكنكَ أن تدفع بعض قطع ليرات الذهب لإطلاق سراحك. ثم أدركِ

أنهم سيعودون ثانيةً بعد أشهر قليلة ليعاودوا القبض على الذين دفعوا سابقاً. فهربَ وجاءَ إلى البصّة. وحيث إن خطبة أبي وأمّي كانت قد تمَّت من قبل. فقد تزوجا في البصّة، وأقاما فيها. أُلقي القبض عليه هناك. غير أنه اختبأ ثم أمسكوا به ثانيةً وجنَّدوه، وتنقلَ من معسكرٍ إلى آخر حتى انتهى به المطاف في غزّة. ثم هربَ من وحدتهِ العسكريّة - لَيلاً - ويبدو أنها كانت ليلة شديدة البرودة، فظلَّ هائماً على وجهه يبحثُ عن مكان يختبئ فيه، إلى أن وجدَ تَنّوراً. تنُّوراً واسعاً، وكانت البيوت الكبيرة تضمُّ مثل ذلك التنّور الواسع الذي يمكن أن تخبزَ فيه عشرات الأرغفة في الوقت نفسه. لم تكن في ذلك التنور أية نيران، لكن المكانَ كان دافئاً، فانسلَّ إلى داخله. وعند الفجر، سمعَ صوتَ حركة، وفي اللحظة التي فتحَ فيها عينيه، شاهدَ امرأةً قادمةً لتشعلَ النار وتُعِدّ الخبز. كانت على وشك الصراخ، لكنه قال لها:

- اششش! لا تقلقي! أنا متخبّي من الأتراك.

فظلّت ساكنة، ولا أدري كيف استطاع التخفِّي ومواصلة طريق عودته إلى البصّة - من غزّة في الجنوب إلى البصّة في الشمال - سيراً على الأقدام، أو راكباً في القطارات.

في سنة ١٩١٨، عندما كان عمري سنتين، رجعَت العائلة إلى خربة، لأن المِس فورد أرادت أن يكون أبي واعظاً ومُعلماً في المدرسة هناك. كانت أمّي قد درَّست لفترة وجيزة مع المِس فورد عندما رافقَتها إلى حوران، في مدرسة للبنات. ومعرفتي بتلك الفترة سطحيّة جدّاً. أخبرتني أمّي أن عمرَها كان ثلاثاً وعشرين سنة عندما ولدتُ أنا. وهكذا تولَّدت لدي القناعة بأنها ولدت في سنة ١٨٩٣. وقد اعتادت أمي أن تقول: «كان أبوك أكبر مني بسبع أو ثماني سنوات» وهكذا أيضاً تولّدت لديّ القناعة أن أبي وُلدَ في سنة ١٨٨٥. وفي وقت لاحق، حين بلغ أبي عقدَيْ السبعينيات والثمانينيات، بدأ يَدحَضُ ذلك ويقول: «لأ، إمَّك هيك، بِدها تغيظني، وتخليني أبيّن أكبر منها بكثير».

في خربة، أصبح أبي واعظاً، وأقمنا هناك، بالقرب من درعا، على مسافة يمكن اجتيازها سيراً على الأقدام حتى بالنسبة لصبيّ. كانت درعا مَقرَّ أمير عائلة الأطرش الدرزية. وكانت خربة في الواقع أكثر تبعية لحوران منها إلى جبل الدروز، فقد كانت هناك منطقتان، حوران وجبل الدروز. كانت درعا عاصمة حوران، والسويداء عاصمة جبل الدروز.

كانت خربة تقع بين المنطقتين، وهي آخر قرية من جهة الشمال، وأكثر قرباً إلى درعا. كانت السويداء تقع بعد درعا. وخربة قرية جميعُ سكانها من المسيحيين، من الأرثوذكس والكاثوليك في معظمهم ، وعدد قليل من الإنجيليين. وُلدَ فؤاد الأول في خربة، وأعقبهُ فؤاد الثاني. ثم وُلدَ فايز في

الوقت الذي كان فيه أبي يُخَطط - بمساعدة المِس فورد - للذهاب إلى القدس لدراسة اللاهوت. وأعتقد أنه أقام هناك مُدة سنتين. كانت الكليّة خاصة باللاهوت. ونظراً لأنهُ قرأ كتباً كثيرة في هذا المجال، ولأنه كان ناضجاً، فإن تدريبه استغرقَ أقلّ من سنتين. ذهبنا إلى القدس، ثم جرى ترسيمُه قسيساً في أغسطس، سنة ١٩٢٣.

لم يكن أبي في الأصل من قرية خربة ، فقد وُلدَ في قرية تدعى خِرْبة الشعَّار التي لا تبعدُ كثيراً عن دمشق. فهناك استقرَّ والده، أي جدِّي، يوسف صايغ، مع أبيه، عبد الله صايغ. جاء عبد الله من حِمص، وكان صائغاً للذهب، (صايغ)، غير أن اسمَهُ الحقيقي هو زخّور كباش. ولأنه كان صائغاً، فقد كان من الأسهل التعريف به على أنه «الصايغ»، ثم تبنى هذا اللقب ليصبح اسماً لهُ. وكانَ له وَلدٌ وحيد، هو جدِّي يوسف. عاش جدِّي في خِرْبة الشعار مع أبيه حتى وفاة الأخير. ونظراً لكون جدِّي ميسورَ الحال، فقد اشترى أرضاً «لم تكن كبيرة جداً» وكانت حصته منها نحو ١٣٠ دونماً «دون احتساب حصص شقيقاته» كانت حصتُه أكبرَ من حصصهن، وكان لديهِ مَواشٍ وخيول. ثم انتقل أبي، ولا أدري في أي وقت بالتحديد، وربما كان جدِّي هو الذي انتقل، إلى خربة. تزوجت ثلاثٌ من عمّاتي في خَرَبة، وكان له أربع شقيقات، تزوجت واحدة منهن من رجل مسيحي يقيم في قرية درزية تدعى صلخد، وتقع بعد السويداء.

تمَّ ترسيمُ أبي قسيساً في سنة ١٩٢٣. وفي طريقنا إلى القدس، مَرَرْنا بالبصّة لأن أمّي أرادت زيارة أختها «كانت لها أخت على قيد الحياة في ذلك الوقت» بعد أن فقدت أختين أو ثلاثاً، وكان لها أبناء وبنات أخ وأخت وصديقات. لا أتذكر جدَّتي. وأعتقد أنها توُفيت عندما كانت أمّي في سنتها الدراسية الأخيرة. وكان جدِّي قد توُفي قبلها. مرَرنا بالبصّة وقضينا فيها عدة أسابيع.

وهناك شاهدتُ السيّارة للمرة الأولى على ما أذكر. كانت هناك طريق من البصّة إلى عَكّا، وأتذكر أن سيارة كانت قادمة، والجميع يتراكضون لرؤيتها. وفي آب/أغسطس، لدى عودتنا إلى حوران، عدنا إلى البصّة، بغرض الزيارة أيضاً، ومنها رجعنا إلى حوران عبر لبنان. وتوقّف أبي في صيدا للقاء مُعلميه، ثم واصلنا السفر إلى دمشق، ثم إلى خربة. لا أتذكر الكثير من تلك الرحلة. في ذلك الوقت أصبح أبي قسّيساً.

أذكر أن سبب رغبة أبي في العودة عن طريق بيروت، هو مقابلة رئيس الكنيسة الإنجيلية فيها، القسيس مفيد عبد الكريم، الذي أصبح فيما بعد حَمَا القس عودة. كان شخصية محترمةً جدّاً ومُبجَّلة، وقد أرادَ أبي من كنيسة بيروت أن تساعدَ قرية خَرَبة في بناء كنيسةٍ خاصةٍ بها. كان أبي طموحاً، يتوقُ إلى بناء كنيسة لائقة. وكانت في خربة كنيسة أرثوذكسية وأخرى كاثوليكية،

ولكن لم تكن فيها كنيسة إنجيلية، بل غرفة صغيرة تستخدم ككنيسة. قدَّمت المِس فورد جزءاً من المال، وساعدت بيروت بتقديم المال اللازم لصنع المقاعد. وما أتذكّرُهُ بوضوح تام هوَ أنهم ساهموا بتقديم طقم من كؤوس «الشركة المقدسة» (المناولة). وكانت بيروت قد حصلت على طقم جديد خاص بها. وبالتالي ساهمت في توفير مجموعة من كتب الترانيم، وعشرين أو ثلاثين من تلك الكؤوس الصغيرة.

لدى عودتنا من القدس بعد انتهاء مدة دراسة أبي للاّهوت، حدثَ أن وصلنا إلى جنوب لبنان وقتَ إجراء عملية إحصاء للسكان. وقال الناس الذين كنا نقيم عندهم في صيدا: «ليش ما نسجلكم لبنانيين مثلنا، مش سوريين؟». ضحكَ أبي، إذ يبدو أنهم كانوا قد سجَّلوا أسماءَنا بالفعل. وهكذا لم يكن أبي يجانبُ الحقيقة حين قدَّم بعد ذلك بسنوات، وتحديداً في سنة ١٩٥٨ طلباً للحصول على الجنسية اللبنانية. فقد كانت مفتوحة أمام الذين كانوا يقيمون في لبنان في سنة ١٩٣٢ وقت إجراء الإحصاء السكاني.

عاد أبي منتصراً بحصوله على المساعدة (لبناء الكنيسة) وشرع في البناء على الفور. لم يكن يعرف شيئاً عن خلط الإسمنت أو البناء، لكنه تعلّم. ذهبَ إلى درعا، وتعلّم من مقاولي البناء فيها. وكان قد درس النجارة مدّة خمس سنوات في المدرسة. فصنع بنفسه كل مقاعد الكنيسة ومنبر الوعظ - كل شيء - النوافذ والأبواب - وجميع الأعمال الخشبية، وحدَه. كان شخصية رائعة حين يُصَمِّمُ على إنجاز أمر ما، خصوصاً من أجل الرب. لا توجد لدينا أية صور للكنيسة، لكنني أتذكَّرُها بدقة بالغة. كان هناك «حُوش»، أيْ ساحة مغلقة وعلى جوانبها عدة غرف. وهناك كنا نقيم، بالإضافة إلى واحدة من عمَّاتي، هي أم «أبو فكتور» التي كان زوجها دكتور القرية، الذي يعالج بالطب العربي. بُنيَت الكنيسة فوق تلك الغرف لعدم توفر النقود لشراء أرض تُخصَّص لبناء كنيسة. وقال أبي: «ليش ما نبني الكنيسة فوق الغرف ونبني درج لفوق؟». أتذكر أن أبي قال إن بعضَ أعضاء الكنيسة التقليديين قالوا: «لا يمكن تبني كنيسة إلا في طابق أرضي». «ليش لأ؟» قالوا: «مش لايقة، عيب». وتبين أن الحورانيين لم يكونوا يلبسون ملابس داخلية، ولا حتى نساؤهم. وهذا ما اكتشفتهُ بنفسي حين كنت ولداً صغيراً، إذ كنت مستلقياً على الأرض في غرفتنا، وجاءت عمتي المُقيمة هناك لزيارتنا ومرّت من فوقي، فلاحظت أنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت ملابسها. لذلك كانوا يخشون من أن ينظر أحدُهم إلى أعلى. قال أبي: «طيّب، أحسن لكم تمشوا بحذر، أو البسوا ملابس داخلية».

وهكذا بُنيت الكنيسة، وجُهزت، وأقيم فيها حفل تكريس كبير. وأعتقد أن المِس فورد حضرت ذلك الحفل. لكن استكمال الكنيسة استغرق بعض

الوقت، فلم تكتمل إلا في سنة ١٩٢٥. لكنها بالطبع دُمِّرت في ما بعد. وكان على أبي المسكين إعادة بنائها مرّة ثانية. فقد احترقت عندما هاجم الدروز القرية في سنة ١٩٢٥.

القرية ومحيطها

كان زوج عمّتي يَقرأ كثيراً، ويبدو أنه كان ذا تأثير واسع كطبيب للقرية. أتذكَّرهُ كشخصية توراتية بلحية طويلة بيضاء، ومزاج حادّ كأحد أنبياء العهد القديم. عندما عرفته كان قد بلغَ من العمر عِتيّاً، مقوّس الظهر وبيده عكاز، يأتي الناس إليه من قرى عديدة للعلاج بالطب العربي. كانت لديه كتب كثيرة في هذا المجال. في كل بضعة أشهر، كان ابنه، أبو فكتور، يذهب إلى السويداء أو دمشق ليبتاع له المساحيق والمحاليل من الصيدليات ليُرَكب منها محاليل لمعالجة السّعال، ومساحيق للجروح أو لأمراض المعدة. وكان يستخدم ميزاناً من تلك الموازين الدقيقة الصغيرة التي كان يُمسكها بإصبعين. فيَضعُ حبّات من القمح في كفّة كعيار للوزن، ويضعُ في الكفة الأخرى الكمية المناسبة من المساحيق المتنوعة. وكان عندما يَمزج المحاليل، يستخدم قارورة صغيرة جدّاً، يضعُ فيها المكوِّنات بالمقادير المناسبة. كانت المساحيق توضع في ورق رقيق كأوراق لفافات التبغ، وتُلَفّ بشدّة فتصبح كالقوالب، ويبتلعها الناس كعلاج.

لم يكن في القرية أيُّ مصرف (بنك) بالتأكيد. ولم أسمع بكلمة «بنك» إلا بعد زمن طويل جدّاً. هناك احتمال أن يكون قد وجد بنك في السويداء، ربما كان فرعاً للبنك الزراعي، وهو بنك عثماني بدأ أعمالهُ في مطلع القرن (العشرين)، وله فروعٌ كثيرة. اعتاد الناس اقتراض ليرات الذهب بعضهم من بعض. وكانوا يذهبون إلى قرى مثل بصرى في حوران، عند منتصف الطريق بين خربة ودرعا. وإذا كانوا بحاجة إلى مبالغ أكبر، فإنهم اعتادوا الذهاب إلى التاجر الذي يمدُّهم بالبذور، وهو شخص يعرفهُ المُقترِض عادةً معرفةً جيّدة ويثق به. ولكن كانت هناك ضماناتٌ بالطبع، ومُعدلات فائدة مرتفعة جدّاً.

نادراً ما كنا نذهب إلى تلك الأماكن. وأذكر أن أمّي كانت تبدي تذمُّراً إزاء هذا الأمر. كانت تُحس أنها محبوسة. فأبي لديه عمله، وكنيسته، ورعيته. وهي كان لها أبناؤها بالطبع، ولكنها كانت تريد مُتنفساً، مَكاناً آخر تذهب إليه إضافة إلى خربة. كانت تقول: «نفسي نطلع على شي محل». وأتذكر أنني ذهبت مرة أو مرتين إلى درعا مع العائلة. وأظن أننا أخذنا معنا حمارين وحصاناً. وكان أبي راكباً على الحصان.

بين الفينة والأخرى، كانت أمّي تقول لأبي: «يا ريت نرحل، وناخذ الأولاد لمكان يتعلموا فيه. يمكن تلاقي وظيفة في أي مدينة، في سورية، في لبنان،

في فلسطين؟». وكان ذلك يقودني إلى طرح أسئلة عن البصّة. كنتُ الولدَ الأكبر، وبالتالي، كنتُ الأكثرَ استعداداً لإثارة الأسئلة. «كيف هي البصّة؟». رأيتها بالطبع سنة ١٩٢٣. وأخذوني إلى مختلف الأماكن فيها، رأيت أشجار التين والصبّير. كانت أمّي تحدثني عن البصّة بإسهاب، وعن الذهاب إلى البحر، والقيام برحلات للتنزّه هناك. وكنت كثيراً ما أفكر: «يا إلهي، شو بنسوّي هون؟»، كانت المقارنة بين البصّة وخربة كالمقارنة بين باريس والنبطية.

لم تكن هناك أيّة حافلات، «باصات» على الإطلاق، ولا قطارات. كان أبي يملك درّاجة عاديّة - ومن المشوّق معرفة كيف تعلمَ قيادتَها. كان لدينا بيدَر واسع ومُستوٍ تماماً لدَرْس القمح. وكان يبعد عن بيتنا نحو عشر دقائق سيراً على الأقدام. فكان يأخذ الدرّاجة إلى هناك ويركب ويَقع ويركب ويَقع إلى أن أتقن قيادتها. كانت هي الدرّاجة الوحيدة التي يمكن أن تراها العين. كانت هناك طريق ترابيّة، لا تصلح للسيارات، ولم تكن هناك أيّة طرق معبدة للسيارات تؤدي إلى خربة. «جُبَيْب» كانت قرية مسيحيّة قريبة مِنّا، تبعد نحو عشرين دقيقة بالدرّاجة. وكان أبي يذهب إليها لتقديم عِظاته بعد الوعظ في خربة. يضع خوذة على رأسه، واحدة من تلك البدع الاستعمارية، لوقايته من الشمس، فلم يكن هناك وسيلة أخرى لديه، إذ إن الحرارة تكون أحياناً شديدة جدّاً في الصيف، ويواصل رحلته بالدرّاجة. كان أحياناً يأخذني معه، فأركب خلفه. وأتذكر كم كان ينزعج حين تخترق شوكة إطار الدرّاجة، فيتحتَّم عليه تغييره، فيتأخر عن موعد العِظة. وكان علينا أن نُخصّص وقتاً احتياطياً لذلك الأمر.

«القرية كانت بدائية جدّاً»

بعد عودتنا من القدس، التحقتُ بالمدرسة، حيث كان المعلِّم هو ابن عمتي، أبو فكتور، وكان هو المعلِّم الوحيد في ذلك الوقت. كانت المدرسة عبارة عن غرفة من الغرف التي أنشئت أسفل الكنيسة، غرفة واحدة فقط. لم يكن بإمكانه الوصول بنا إلى مستوى دراسيٍّ عالٍ، كان يعلمنا الحساب والقراءة وقليلاً من اللغة الإنكليزية، ولا شيء من اللغة الفرنسية، المواد الأساسية، فقد كانت مدرسة تابعة للكنيسة. وأظن أنه تمَّ إنشاء مدرسة بعد ذلك من قبل الأرثوذكس. لم تكن هناك أية مدرسة حكوميّة على الإطلاق.

كانت القرية بدائيّة جدّاً . فبالنسبة للماء، على سبيل المثال، كان هناك بئران، واحدة تشربُ منها الحيوانات، ويُجلبُ منها الماء بغرض الاغتسال، والثانية كانت محفورة عميقاً في الصخر، وكنا نسميها البِرْكة، ويأتي الماء إليها من عرى، وهي القرية التي كان يسكنها زعيم عائلة الأطرش، حسن الأطرش. كان الماء يجري إلى البركة مكشوفاً، دون أنبوب، مرة أو مرتين كل أسبوع.

كنت أحبُّ مراقبة المياه الآتية حين تقترب من القرية، بعضها تمتصّهُ التربة، والباقي يواصل طريقه إلى البركة التي يُستخدم ماؤها للحيوانات والاغتسال، ويسمَّى «المضخ». كانت المياه تذهب إلى هناك لأنها تكون طينيّة عكِرة في البداية، وحين تصفو قليلاً، يُحولونها نحو «العين» التي نشرب منها. كانت النساء يذهبن لملء الجِرار، ثم يحملنها طوال الطريق إلى بيوتهن. كانت البركة تقع على الطرف الشمالي الشرقي من القرية. في وقت لاحق، انتقلت عمَّتي المتزوجة من طبيب القرية إلى هناك، حيث شيَّدوا منزلهم الخاص بهم. كان الماء يُجلب في جِرار فخارية كجرار الزيت التي تراها في القرى اللبنانية. وهي جِرار يصنعها القرويون بأنفسهم، ولا أعرف كيف يصنعونها، فلم أشاهد أحداً وهو يقوم بذلك، لكنّني عرفت أنها تُصنع في الجِوار. لم نكن نشرب من هذه الجِرار مباشرةً؛ إذ كانت مَسامّية يرشح منها الماء، وبذلك يكون بارداً، وتتمّ تنقيته. فكنا نضع إبريقاً أسفل الجرَّة، ونعيدُ تعبئته كلما فرغ. لم تكن أمّي تريد أن نشرب الماء كما يَردُ من البركة، فقد كان مكشوفاً للفضاء ويمكن أن يسقط أيّ شيء فيه. كان القاع قذراً. وكان فيه سلاحف.

أتذكَّرُ أنه في أحد الأيام كان قرويٌّ يفلحُ حقولنا - لأن أبي كان مشغولاً لدرجة لا تسمحُ له بالعمل فيها، وكنا نسميه «المُرابع» أي الشريك في المحصول - أصَرَّ على أنني يجب أن أتعلم السباحة في المَضخ. وكنت أخشى أن تمَسّني السلاحف، وكانت هناك العَلَقات أيضاً، التي كانت أكثر إثارة للخوف. وقد اعتدت على رؤيتها لأن زوج عمّتي، طبيب القرية، كان يجلبها لمعالجة المصابين بالسخونة أو الالتهاب. كانت في الماء، ومنظرُها مُريع! وضعني على ظهره، وسبح بقوَّة من طرف البركة إلى طرفها المقابل. أمسكتُ بعنقه، وحين بلغنا حافة البركة، قلت: «أرجوك، أرجوك، نزِّلني». كان أبي يراقبنا، فقال: «خلَص يا موسى، بيكفِّي». وكانت المسافة بين جانبيها تبلغ حوالي عشرين متراً. كانوا يأتون بالحيوانات لتشربَ من البركة، خراف وماعز، وثيران الحراثة، وحمير وغيرها.

أحسستُ أنه كان يتمُّ إبعادي عن سائر الأولاد وألعابهم. ولاحظت أنني كنت مختلفاً عنهم في بعض النواحي، خصوصاً من حيث المَلبس. كان أولاد القرية حفاة، ويلبسون الجلابية، ومن النادر أن تجدَ بينهم من يلبس حذاءً. أردتُ أن أكونَ مثلهم، فكنت أخبئ حذائي وراء البوابة، وأتركهُ هناك، وأركض للانضمام إليهم. كانت طرق القرية مكسوة بالغبار، ولم يكن فيها حديقة عامة، ولا ملاه، لا شيء. لكنهم كانوا يمارسون ألعاباً مثل «الغُمّاية»، حيث يغمض أحدهم عينيه، ويختبئ الباقون ثم يقوم بالبحث عنهم. كنتُ أعود مغبَّراً ورجلاي وقدماي متسخة، فتوبِّخُني أمّي. فقلت: «طيِّب، إذا ما بدّك ألعب حافي، رح البس سُبّاط (حذاء)، لكن خلّيني ألبس قمباز مثلهم، أو ثوب - مش بنطلون

شورت». كنت أحسّ كالغريب بين الأولاد حين ألبس الشورت «البنطال القصير». فأعدَّت لي ثوباً أو اثنين حتى تجعلني أشعر بالراحة.

كان أحد المُدرسين يريد منا أن نبدأ في تعلم اللغة الإنكليزية. واقترحَ أن نجتمع بعد انتهاء الدروس، لنلعب أيّة لعبة شريطة أن نتحدث مع بعضنا باللغة الإنكليزية. وكل من يَزلَّ لسانه ويتكلم بالعربية، يُسَجّل اسمه، ليواجه لاحقاً عقوبة رمزيّة. كانت لعبة سخيفة. فلم نكن نعرف ما يكفي من اللغة الإنكليزية لنلعبها، مجرد كلمات قليلة، وربما كنت أعرف أكثر من الأولاد الآخرين. أحد الأولاد، واسمه هاني شلاويط، وقد أصبح واعظاً فيما بعد، كان يتربص بأبناء القساوسة لعلّ أحدَهم يفعل شيئاً لا يليق بالقسيس، وذلك لمجرد إزعاج أبي أما أبوهُ فكان من المسيحيين المتزمّتين الذين يؤمنون بالإنجيل من الغلاف إلى الغلاف. وأتذكر أنه فيما كنا نلعب، صاح هاني:

- يوسف، كنت تحكي بالعربي. فقلت:

- لأ، هذي كذبة.

فظلّ يُكرّر ما قال، فغضبت غضباً شديداً. تسلَّقت أحد الجدران وقلت بصوت مُنخفض، ولكن ليس إلى الحد الذي يمنعه من سماعه:

- يلعن أبوك! فقال:

- على الأقل هلأ حكيت بالعربي.

ذهبَ وأخبرَ والده الذي جاء فوراً إلى والدي وقال له:

- إبن «الأسيس» (القسيس)، «بيؤول» (يقول)، يلعن أبوك؟

يا للهول! و«أكلت قتلة مرتَّبة».

كانت تلك أول «قتلة» أتذكرها. ولكن الأسوأ حدثت فيما بعد. فقد استأجر أحد سكان القرية جرَّاراً «تراكتور» لحرث الأرض. أعجبَت الفكرة أبي فأخبر المُرابع الذي كان يعمل معنا في تلك السنة أنه يريد أن يستأجر الجرَّار. كنت متحمساً جدّاً لهذه الآلة التي تتحرك من تلقاء نفسها، ولا تُجَرّ بواسطة الخيول أو الأبقار. فخرجتُ راكضاً نحو الحقول. قالت أمّي: «لا تروح يا يوسف!». فقلت: «ما تقلقي يا ماما، رح أكون حريص، مش رح أطوّل كثير في الشمس». كنت أرتدي «الشرش» الذي أقنعت أمي بعد إلحاح أن تفصله لي. كان يقود الجرَّارَ السائق الذي جاء به، ولم يكن من سكان القرية. فمشيت بمحاذاة الجرَّار وهو يتحرَّك، فقال السائق: «بتحِبّ تطلع تقعد جنبي وتشوف كيف بشغله؟». فاجبته: «نعم!» كنت متحمِّساً. حاولت تسلُّق الجرّار، وكنت قصيراً جدّاً حين كنت صبياً، وبقيت كذلك حتى سن السادسة عشرة، كنت

أحسّ بالتعاسة حين أنظر إلى نفسي في المرآة، معتقداً أنني سأكون قزماً. بدأت أتسلق، فعلِقت العجلات بالشرش، وكان للجرَّار عجلات معدنيّة بها قضبان دائريّة بارزة إلى الخارج. وبدلاً من التسلّق والوصول إلى المقعد المجاور له، رآني السائق أنزلق بالتدريج نزولاً إلى تحت، تحت، ثم تحت. حاولت تخليص نفسي، لكنني لم أستطع، فقد كان الشرش عالقاً. ثم لاحظ ذلك فأوقف المُحَرِّك، وأنقذني. أصبتُ بخدوش بسيطة، لأن فخذي انزلقت تدريجياً نحو العجلات.

لاحظ أبي غيابي، وكان يقفُ خارج الباب. يبدو أن الخبر انتهى إليه بأن ردائي علِق بالجرَّار. رأى أحدهم ما جرى، وأخبَرَهُ به. فبدأ يصرُخ، «يوسف! يوسف!». استنتجت أنه كان غاضباً جدّاً جدّاً، فتراجعت. ولدى وصولي إلى البيت، كانت أمّي هي التي قابلتني عند الباب. فقالت:

- أبوك زعلان كثير، ورح يضربك. والحقيقة أنه بدُّو يضربك فلقة. رح اسوِّي اللي بقدر عليه عشان تكون أخفّ ما يمكن، أنا حزينة عشانك يا حبيبي.

وكادت تبكي. ولكنها لم تكن تستطيع ثنيَه حين يصمِّم على أمر ما. قال لي:

- مش قُلتلك؟!

وبدلاً من أن يتعاطف معي، وهذا ما كنت أحسُّ أنني بحاجة ماسّة إليه، قرر أن يضربني الفلقة. جعلني أستلقي على ظهري، وأرفع قدميّ. كان لديه قطعتان من حبل، لفَّهما على بعضهما. وضربني على القدمين، على باطن القدمين، نعم! كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أضرَبُ فيها على هذا النحو. بكيت لشعوري بالمهانة، لأنني أحسست أن ذلك ليس من العدل، وبدلاً من أن يظهر تعاطفه معي، ضربني الفلقة. كان ذلك أمراً استمرَّ معي تجاه أبي. كنت أحبّ أن يكون باستطاعتي أن أركض إليه وأن أضمّه، فقد كنت أحبّه كثيراً، لكنَّه حافظ على مسافة بيننا دائماً. كان أباً مهاباً، وكان يعبس. كنت أتمنى لو أنه أكثر شبهاً بأمّي.

كان في القرية شيءٌ من الحياة الاجتماعية. وقد كنا نزور الأقارب إذ كان لأبي ثلاث شقيقات في القرية. اعتدت أن أذهب مع والديّ لأنني كنت الأكبر سناً، وباقي الإخوة كانوا أصغر من أن يفعلوا ذلك. بحلول سنة ١٩٢٥، كنا قد أصبحنا أربعة: أنا، الأكبر، ثمّ فؤاد وفايز ثمّ توفيق. كانت حياتنا مُمِلّة. أتذكَّر أنني كنت أحسّ بأني محبوس على نحو فظيع. أردتُ الانعتاق من هناك. لقد رأيت المدينة الكبيرة، سافرت إلى القدس، وإلى دمشق. كان هناك ترام في دمشق وفي بيروت. هناك قطارات، هناك دكاكين. أما في خربة، فكانت هناك بقالة صغيرة أو بقالتان، وقليل من الجبنة الحلّوم، وبسكويت ماركة «ماري» وهناك حمُّص وعدَس. أظن أن سكان القرية كانوا مكتفين ذاتياً. ومن النادر

جدّاً أن نذهب إلى الدكاكين. كان أبي يجلب كمّية من قمر الدين والحلاوة كلما ذهب إلى درعا أو السويداء أو دمشق. كان يذهب مرتين أو ثلاث مراتٍ في السنة. كنا نحصل على الحمص والفول من أرضنا. أما اللحم فقد كنا نشتريه. كان يتمّ ذبح خروف بين فترة وأخرى.

لم يكن أمامنا شيء كثير نفعله في خَرَبة، فلم تكن لدينا أية دُمى، أو ألعاب تعليمية، أو موسيقى. ولم يكن هناك شيء نفعله في الخارج أيضاً، في تلك الطرق الترابية. كنت مرعوباً من فكرة الابتلاء بالقَمل، كل سكان القرية مُبتلون بالقمل، يمكنكَ أن تراهم يهرشون رؤوسهم، وحين يجدون قَملة، كانوا يقصعونها بين الإبهامين. الزوّار الراشدون الذين كانوا يأتون لزيارتنا كانوا يفعلون ذلك، كان أمراً فظيعاً. كان الناس يشربون من الكوب نفسه. في بيتنا، كنا نعرف على الأقل أننا وحدنا نشترك في الطبق الرئيسي. ولكن إذا دُعينا أو دَعونا آخرين إلى بيتنا، فإننا كنا نشترك معهم في الطبق نفسه، ونغوص فيه بأيدينا، ونشرب من الإبريق الكبي نفسه. كان ذلك يبعث القشعريرة في جلدي. اعتدتُ أن أرافقَ أبي في زياراته، وقد كانت جزءاً من واجباته في حوران، قبيل انتهاء إقامتنا هناك. بدأت أذهب مع والديّ ولكنني لم أكن أستمتع بتلك الزيارات لأنني أصاب بالغثيانٍ من الأشياء ذات الروائح الدهنية. فتلك البيوت بلا ماء، ولم تكن تُنظَّف جيداً. وغالباً ما كنت أرى القمل على شعر أطفالهم، فأحسّ بالاشمئزاز. وإن عطشت، أضطرُّ إلى الشرب من المغرفة نفسها.

اعتاد التجّار القدوم إلى القرية لبيع الأقمشة. وكانوا أحياناً يأتون بالفواكه من جبل الدروز، فهناك التين، والمشمش والرمان، وعنب أفضل من عنب خربة. لم يكن في خربة ما يكفي من الماء ليزرعَ الناس الفواكه حول بيوتهم، لم يكن هناك سوى العنب، والبطيخ والشمّام . كانت الأمطار شحيحة جدّاً جدّاً. ولم يكن هناك أي نوع من الأشجار، باستثناء شجرة واحدة داخل ساحة الكنيسة. كانت المنطقة كلها جرداء. كان بيتنا والكنيسة على قمة تلّة صغيرة، فكُنا في أعلى مكان في القرية، ومن إحدى غرف النوم، يمكنكَ أن تنظر إلى مسافة أميال حولك، وأنَّى وجَّهتَ عينيك، كنتَ ترى مناطق جرداء على مدّ النظر. ولم تكن الأشجار لتبدأ في الظهور إلا عندما تصل إلى درعا أو السويداء.

أهل خربة

الشخص الوحيد الذي أحببته فعلاً من بين أهل خربة، كان يوسف، الأخ الأصغر لابن عمتي «أبو فكتور». وهو يعمل الآن قسيساً في الأرجنتين. أحببته كثيراً، جعلني أهتم بالأدب. لم تكن لدينا أيّة كتب هناك، ولكن حين كان يوسف يعثر

على كتاب - فهو أكبر مني سناً ببضع سنوات - كنت ألتهمُه. كان أيضاً يكتب النثر والشعر. اكتسبتُ اهتمامي بالشعر من خلاله. وأحببت «أبو فكتور» قليلاً، ولكنه كان يتباهى كثيراً. وعلى سبيل المثال، كلما جاءنا زائر من درعا أو أي مكان غيرها، كان يستدير نحوي ويتحدث بالإنكليزية، لمجرّد التظاهر. كنت أكرهُ ذلك.

أحببتُ أنيس، وهو ابن عمة آخر، ابن القسيس . كان طويلاً ووسيماً وله حضور، ويمكنك أن تعرف أنه يفكر فيما يقول. لكنه كان أكبر سناً مني بكثير. وهناك عمَّة أخرى، كان زوجها مختار الكاثوليك في خربة، وهي أم فريد غُرَيِّب الذي كان يجلب لنا الغلّة من أرضنا. وهناك ابنة عمَّة أخرى، تزوجت مبكّراً، وهي أخت أنيس، ولها ولدان. كانوا جميعاً مُعلمين وقساوسة، باستثناء عفيف الذي لم يتجاوز تحصيله الدراسي مرحلة ما قبل الإعدادية. ذهب إلى الأردن فيما بعد واستقر فيها، في القرية التي كانت لأبي، لكن عمتي وزوجها اشتروها بأموال أبي حين كان طفلاً وسجَّلاها باسم زوج عمتي. واسم القرية دبِّين. قرية كاملة، نعم!.

لديَّ حكاية أريد أن أرويها وهي أنه عندما تزوّجَت هدى التي كانت تقيم معنا وتساعد أمّي في البيت، غادرَت بيتنا على صهوة حصان، وطُلبَ مني، وكان ذلك شرفاً عظيماً، أن أقود الحصان إلى بيت زوجها. كانت تضع طرحة بيضاء تشبه الناموسيّة تكاد تصل إلى الركبتين. صعدت وأزحتها عن وجهها ونظرت إليها، بدافع حب الاستطلاع، فوجدتها تبكي. سألتها:

- ليش عم تبكي؟.

فلم تُجبني. وفي وقت لاحق، بعد انتهاء كل شيء، عدت إلى البيت وقلت لأمّي:

- ليش كانت هدى تبكي؟ قلتِ إنه يوم سعيد بالنسبة إلها، رايحة تتزوج. فقالت:

- لا تهتمّ، رايحة تكون سعيدة في الوقت المناسب.

حدثَ شيء في الفترة التي سبقت ذهابنا إلى القدس. كنت بين السادسة والسابعة من عمري. كانت هناك فتاة تساعد أمّي تدعى خَرما. وكانت معجبةً بي. وكلما جاءت إلى بيتنا في الصباح، كانت تحملني، وتضمُّني بقوة، وتُقبل خدّي مراتٍ عديدة، ثم تتركني. وذات يوم، جاء ابن عمتي عفيف الذي كان أكبر مِنّي بعشر أو أحدى عشرة سنة، أخذني إلى خارج البيت وقال لي:

- انت بتنبسط لما خَرما تبُوسك؟ فقلت:

- إيه، بنبسط كثير. فقال:

- إذا بدَّك تنبسط أكثر، المرّة الجاي، لما تِحملك خرما، لفّ رجليك حواليها بقوة، واحضنها، وبوسها من تمها.

فعلت ذلك في المرّة التالية حين رفعتني. واستمتعت بذلك كثيراً. ثم فتَحت عينيها فجأة بغضب، وقالت:

- يوسف!، ليش بتسوّي هيك؟ فقلت:

- إشي حلو، بحبّه. فقالت:

- ولا يهمّك، بس مين قالّك تسوي هيك؟ فقلت لها:

- عفيف.

أنزلتني على ألأرض، ثم ذهبَت إلى أبي، وأخبرَته بالقصة. وأبي، كما عرفت فيما بعد، قامَ بتوبيخ عفيف توبيخاً شديداً. لم يظهر عفيف في بيتنا لعدة أسابيع بعد الذي جرى. وانتهت بذلك جلسات القُبل مع خرما. كانت تلك تجربتي الجنسية الأولى.

الحياة مع العائلة

كانت أمّي تُعِدّ لنا بعض اللُّعب، فتحضر الأقمشة والخرَق وقطعاً من بقايا القمصان والسراويل، وتصنع منها كرة صغيرة (طابة)، وذلك بلَفِّها على بعضها، ثم تحيكها، وتضيف المزيد، وتحيك ثانية، وهكذا إلى أن تصبح كرةً لها قابلية الارتداد عن الأرض. فإذا القيْتَ بها بكل عزيمتك فوق الأرض، فإنها ترتد عنها بمقدار خمس بوصات. وكان أبي يحاول أن يصنع لنا شيئاً من الخشب، كبيت صغير مثلاً. وأتذكر أنني طلبت منه أن يصنع سيّارة بعجلات، وحاول أن يصنع العجلات بنفسه بحيث تدور. فكانت عبارة عن «سحَّارة»، صندوق خشبي، بأربع عجلات. وكنت أجرُّها عبر المكان، وقد أحببتها كثيراً. كما كانت أمّي تعِدُّ لنا - رغم أننا جميعاً من الذكور - بعض الدُمى «العرائس». فلا بدَّ لنا من شيء نتلهّى به. لكننا كنا نقضي معظم أوقات الفراغ لدينا في الاستماع إلى الإنجيل، وكنا نحاول قراءته منذ أن تعلمنا القراءة. كنا نردِّد صَلاتنا ثلاثَ مرات قبل الوجبات يومياً. لم تكن لدينا في بيتنا أيّة كتب سوى الكتب الدينيّة.

مع تزايد عدد أفراد العائلة، كانت تزداد النشاطات الحياتيّة الداخليّة. كنا نلعب، ونتجادل أيضاً. كانت أمّي هي العنصرَ الأكثرَ تأثيراً في حياتنا، لأنها كانت بالغة الرقّة، والانتباه، وتحب أن تشرح لنا الأمور بدلاً من إصدار الأوامر. بينما كان أبي من النوع المُتسلط، فكنا منضبطين. كنت أخاف منه، وكان على أمّي أن تقوم بدور الوسيط. وحين يكون فايز هو الطرف المتلقّي للعقوبة، أو فؤاد، كنت أعبس مُمتعضاً، وكنت أشعر أنه يغضب إذا عبست. كان يعتبر ذلك نوعاً من اِلتحدي لسلطته، أو إنكاراً لعدالة العِقاب. وبشكل عام، أظن ِأنه لم يكن

رقيقاً معنا بقدر كافٍ، على الرغم من أنه - وهذا ما عرفته لاحقاً، ليس منه مباشرة، وإنما من أمّي - كان شديد التعلق بنا. ولكنه كان انضباطياً إلى حد كبير. لم يكن يَحضُنُنا أو يُجلِسنا على ركبته. ظلَّ يحافظُ على مسافة بيننا وبينه. وكان من الشائع في المجتمع الإنجيلي في القرية إبداء الخشونة والحزم مع الأبناء. لم يعرفوا شيئاً من معاني الدّين سوى أفعال الأمر الواردة في تعاليم الإنجيل. فكانوا يأخذون بالتفسير الحرفي لما وردَ في النصوص عن الجحيم. كانوا صارمين مع أبنائهم ليجعلوهم يسلكون السلوك القويم، بحيث لا يذهبون إلى الجحيم.

كان على أمّي أن تهدئ الأمور قليلاً. وكانت تقوم بذلك برقَّةٍ بالغةٍ لأنها لا تريد أن تُشعِرَهُ بأنه مخطئ. كان عليها أن تؤثر عليه ولكن بشيء من السموّ. كنت متنبهاً، وحين كبرتُ، بدأتُ ألاحظ المهارة التي تتعامل بها معه. كانت تشعر أن معدنه نقيّ أساساً، ومُحِبّ وطيب، لكن أسلوبَهُ في التعبير عن مشاعره، أسلوبَه في تجسيد مبادئه وتطبيقها، كان حرفيّاً جدّاً، وصارماً جدّاً، وملتزماً جدّاً بالنص. كان شديد الثقة بما يحمله من مبادئ وتعاليم لأنها كانت مستوحاة من الكتاب المقدس، ولأنه، بالطبع، لم يعش حياة عائلية سعيدة في طفولته.

الأطعمة البغيضة والصحة

كان اللحم هناك كثيرَ الشحم لأنه من الخراف، كنا نأكل لحم الخراف أكثر مما نأكل لحم الماعز. لم أكن أحب الزبدة أيضاً، كنت أرى كيف يُعِدُّونها باستعمال مَخَّاضة من جلد الماعز. فيَخُضُّونها وهي مملوءة بالحليب، إلى الأمام والخلف لساعاتٍ عديدة. لم أكن أحبُّ الحليب ولا الزبدة لأن لهما رائحة تُسبب لي إحساساً بعدم الراحة. غير أني كنت أحب الّلبن والّلبنة ولبن العيران. ثم أدخلَ ابن عمتي أبو فكتور القهوة بالحليب، ويتم تحضيرها من القهوة العربية مع الحليب، وهي ليست قهوة النسكافيه. وقد أحببتها. كنت أتجنب الحليب والبيض أيضاً، فلم أكن أحب بياض البيض (الزلال)، ولا اللحم. وبعد سنوات، تبيَّن أنه كان أمراً جيداً أن لا أتناول ذلك كلّه. ففي المدرسة، في صيدا، أحسَّ السيد جسب، نائب المدير أنني لست على ما يُرام. فحوَّلني لإجراء فحص طبّي عند طبيب المدرسة الدكتور نبيه الشَّبّ، الذي أصبح ابنه الآن يملك مستشفى في صيدا، فاكتشف وجودَ زُلال في البول، مما يعني أنني يجب أن لا أتناول بياض البيض أو الدهون، وأن لا أشرب الحليب بكثرة. وكأن الطبيعة كانت تُحَذِّرني. وفيما بعد، دخل الكوليسترول في الصورة، فكان عليّ أن أتجنَّب تناول تلك المأكولات.

حدثَ في وقت لاحق، في البصّة، أنّ أمّي بدأت ترشوني لكي أتناول اللحم. فقد بدأت تلاحظ حينئذ أنني نحيلٌ جدّاً. لم أكن أصاب بنزلات البرد، لكن

معدتي كانت ضعيفة. وكان عليّ دائماً أن أغطّيها عند النوم. كنت حَساساً، وكانت دمعتي قريبة. فعلى سبيل المثال، كان موتُ أيّ شخص، حتى وإن لم يكن ذا قرابة، يجعلني أبكي، وكنت أبكي عندما يضايقني الأولاد الآخرون. وبقيت كذلك حتى مرحلة صيدا. كان هذا ما يزعجني إلى حدٍّ كبير في شخصيَّتي. وقد احتجت إلى وقت للتغلّب على ذلك الأمر.

كان هناك فرق بين نوعية الطعام الذي تطهوه أمّي وذلك الذي يطهوه الحورانيُّون، والذي يحتوي على كمية كبيرة من السّمنة. كان طعامنا في غاية البساطة، وقليل التنوع. والشيء الذي كنت أستطيبُه، رغم وجود الكثير من السمنة فيه هو اللّزائيات. وهي نوع من الفطائر مثل «البانكيك»، ويجري إعدادها كالخبز، ولكن على شكل طبقات. تضعُ طبقة ثم تصبُّ عليها السمنة، والخبز لا يزال ساخناً، ثم يرشّ السكر الناعم فوقها، ثم تضع طبقة أخرى، وتكرر العملية نفسها، ثم طبقة ثالثة، وهكذا. ولم تكن اللّزائيات خاصة بالأعياد، فإذا كان عندنا ضيوف، كنا نُعِدُّها. كانت أمّي تطهو أكلات أهل البصّة، مثل «المجدَّرة» التي كانت معروفة في البصّة وحوران. كانت تطبخ الأرز و«اليَخنة» أكثرَ من أهل خربة، فهم يستعملون البرغل أكثر، والأرز كان ترفاً بالنسبة لهم. كانت أمّي تطهو الدجاج، مقليّاً أو مع الأرز. وعندما تتوفر الخضرة، كانت تطبخ الكوسى المحشي أو شيئاً من هذا القبيل. وبشكل عام، كنا في بيتنا نأكل الخضرة واللحم أكثر من سائر البيوت في القرية. فاللحمُ كان يتوفر عدة مرات في الأسبوع. وأظن أننا كنا نشرب الشاي أكثر من سوانا من أهل القرية، فقد كانوا يعتمدون على القهوة أكثر. كنا نقدم القهوة بالطبع دائماً للزوار. ومن المعالم البارزة المثيرة في طعامنا كان «المنسف» الذي يتم إعداده كلما كان هناك حفل كبير، أو إذا جاءت شخصية هامة إلى القرية، أو في مناسبات الزواج. والمنسف هناك هو المنسف العادي: تلٌّ من الأرز فوقه خروف كامل مطبوخ، ويُرَشّ عليه مَزيج ساخن من السمنة واللبَن. وقد بدأت الآن أحبّ هذا النوع من الطعام، ولكنه في ذلك الوقت كان يقلب معدتي، خصوصاً أنه كان يُؤكل باليد كما في الأردن. ففي بيتنا لم نكن نأكل بأيدينا، رغم أن أهل القرية كانوا يفعلون. لم أكن أحبّ أن أحسّ الطعام مباشرة، بسبب ما يحويه من دهون. كانت عندي عقدة إزاء السمنة والزبدة. والسمنة الوحيدة التي كنت أحبُّها، هي تلك الموجودة في اللّزائيات.

كانت أمّي تقوم بإعداد «الكيك» البسيط، وتقدم لنا الكعك، والحلويات، نعم، كان عندنا حلويّات. الحلقوم كان عنصراً أساسياً. وكان منه نوعان، تماماً كما تراهُ الآن، الزَّهري والأبيض؛ والحلاوة ودبس العنب. أما بالنسبة للحلوى التي تُقدّم للضيوف، فقد كان هناك «البون بون» الذي يُشترى من الدكان، بدون تغليف.

لم نكن نتناول الفواكه كلّ يوم. وحتى الخضرة لم تكن وفيرة. كان الخيار يُزرع هناك والكثير من البندورة «الطماطم»، ولا شيء مما يحتاج إلى الماء. كنا نأكل الحبوب، وهي غالباً العدس والحُمُّص. كان الطّهو يتم على البريموس «بابور»، وأحياناً في التنّور الذي يُعدُّ فيه الخبز. كانت أمّي تُعِدُّ لنا الخبز ولكنها كانت تحتاج إلى من يساعدها في ذلك. كان الخبز يشبه «الخبز الإيراني» في العراق. خبز مُسطح به فقاقيع، وهو أكثر سماكة من «خبز الصّاج»، ويتكون من طبقة واحدة لا طبقتين. كان لذيذاً لأنه مُكوَّن من القمح بقشره، فلا يُفقَد من خواصه شيء. ذلك هو الشيء الوحيد الذي كنت أتناوله باستمتاع حقيقي.

البيت

كان بيتنا بسيطاً بمقاييس اليوم. لم يكن لدينا أثاث. لدينا بعض الكراسي، ولكن في غرفة الجلوس، كانت هناك فرشتان فوق بعضهما، وبساط جميل. كنا نأكل على الأرض، على «طبليّة» صنعها أبي. لم تكن لدينا أسِرَّة، لذلك كان لا بدّ من نقل الفراش كل صباح وطيّه فوق بعضه في طاقة خاصة. والأغطية كانت ألحِفة، وبعض البُسُط الخفيفة التي توضع فوق الألحِفة في فصل الشتاء. كنا نعتمد كثيراً على «الطبأ»، (الطبق)، وهو طبق جميل يصنع من القش. كنا نستعمله لوضع الطعام عليه. نضعه أحياناً على الأرض أو على الطبليّة. وهو مزخرف بأشكال جميلة. كان الدروز ماهرين في صنعه، وكذلك أهل القرية، خربة. معظم الناس كانوا يصنعونه لاستعمالهم اليومي. لكن أمّي لم تكن تفعل ذلك، كنا نشتريه. وكنا نستخدمه أيضاً لتقديم الأشياء، كالحلوى على سبيل المثال.

لم يكن هناك حَمَّام. كانت إحدى الغرف العلوية تستخدم كدورة مياه. وكان فيها فتحة تُفضي إلى خارج البيت. وللبيت سور من جميع الجهات. وما يسقط من دورة المياة تتولى أمرَهُ الشمس. وللاغتسال، أعدَّ أبي، وقد كان مبدعاً جدّاً، صفيحتين أو ثلاثاً من صفائح الكيروسين الفارغة، بصنابير ملحومة في أسفلها. وكانت تُملأ بالماء، فنفتح الصنابير ونُغَسِّل في الساحة. كان ذلك لغسل أيدينا ووجوهنا. وللاستحمام، كان يتم تسخين الماء في غرفة مجاورة للمطبخ. كانت هناك غرفة يُنقل إليها أحد البريموسين. فلدينا اثنان، بريموس للمطبخ والثاني للحمّام. يُسَخّن الماء في طناجر ثقيلة جدّاً، وكان علينا أن نقوم بتبييضها كل سنة، وإلا فإنها تصبح سامّة. كانت طناجر ضخمة. بعد أن يُسخن الماء، هناك أحواض كبيرة جدّاً نجلس فيها مُتربِّعين. حين كنا صغاراً، كانت أمّي تأتي وتفرك أجسامنا، وتُغيِّر الماء مرتين. أظن أننا كنا نستحِمُّ مرة واحدة في الأسبوع. لم تكن لدينا فراشي أسنان، ليس في ذلك الوقت.

الملبَس

كان اللباس اليوميّ في القرية هو «الشروال». حتى مُلاك الأراضي كانوا يلبسونَه. ولكن عندما كان ميسورو الحال يريدون التأنّق، فإنهم يرتدون القمباز المُزنَّر بالحِزام. ويَضعون على رؤوسهم الكوفية والعقال، لا الطربوش. حتى أبي كان يَلبس الكوفية والعقال هناك، رغم أنه في فلسطين، كان يلبس الطربوش. وفوق القمباز، كانوا يلبسون «الضامر» وهي صديرية من القماش السميك، بدون أكمام. وميسورو الحال يرتدون نوعية أفضل من الضامر بشريط أسود مجدول على أطرافه، وله أزرار مغطاة بالقماش. للرجال كان قماش الضامر عادة بلون أزرق مصنوع من اللبَّاد أو الصوف، أو الجوخ، وحوله أيضاً شريط مجدول، وشريط آخر على الأكمام. فكان هناك نوعان من الضامر، أحدهما بدون أكمام يلبسونه تحت الجاكيت، والنوع الثاني له أكمام. وحين يكون الجو بارداً، كانوا يرتدون سترة أوروبيّة عاديّة فوق ذلك يشترونها من دمشق أو السويداء. كان الرجال يلبسون معاطف من جلود الخراف في الشتاء القارس. وهو بسيط يُجهزونه محلياً بأيديهم. وكانوا يغزلون الصوف لصنع جوارب سميكة جدّاً يلبسونها في البيوت. كانت النِّعال من الجلد الذي يُحاك مع الجوارب. وأتذكر أن أمّي كانت تلبس منها داخل البيت في فصل الشتاء. ولكني لا أتذكر أن أحداً منهم كان يلبس كنزة «بلوفر» على الإطلاق.

كانت أحذية الفقراء، خصوصاً المزارعين، تسمى «مَداس». وهي أشياء خشنة، مصنوعة في البيوت، واسعة وبدون رباط. يُدخلون أقدامهم فيها إلى الكعب. وجلدُها أكثر سمكاً من أي شيء يمكن أن يَخطر على بالك. وحين يَمشون، فإن أقدامَهم تخب فيها داخلة خارجة. ولم أشاهد مثلها في أي مكان آخر منذ ذلك الوقت. وغالباً ما كان الرجال يذهبون حفاة إلى الحقول لحرث الأرض. كانوا يلبسون المَداس حين تتحسّن أحوالهم قليلاً. وكانت النظرة إليه نظرة دونيّة لدرجة أن هناك مثلاً شعبياً يقول: إذا كان عندك سَمنة كتير، زيِّت مَداسك فيها.

كانت النساء يرتدين الثوب الأسود الطويل، وتحت اليَاقة عند الرقبة، يَضعن غلالة سوداء تحيط بالعنق وتدخل تحت الثوب لتلافي خطر انكشاف صدورهن عند الانحناء. المسيحيات والمسلمات كن يلبسن تلك الثياب. كان اللباس الخاص بالرأس نوعاً من الوشاح «الإيشارب»، وكله بلون أسود. وفي بعض الأوقات، مثل الأعياد ومناسبات الزواج، يكون الإيشارب من الحرير، بألوان مُتزنة كالأحمر القاني أو الأزرق الداكن. وفوق ذلك عصبة سوداء، «قمطة»، وهي قطعة قماش تُلفّ حول الرأس وتتدلى أحياناً نحو الظهر. وكان شعرهن يُجدل في ضفائر وغالباً ما ينسدل جزءٌ يَسير منه إلى الجانبين على شكل قوس، جزء نحو الأذن اليمنى والآخر نحو اليسرى. وكن يبقين الشعر طويلاً، ويلبسن أحياناً سلسلة من قطع النقد الذهبية. وإذا أرَدنَ التأنق، فإنهن يرتدينَ

الثوب الأسود نفسه، لكنّ مادة القماش تكون فاخرة، وتكون عادةً من القطن الصقيل اللامع. وللتأنق أكثر، يلبسن الثوب وعليه قليل من التطريز الملون ولكن بألوان رزينة تتخلل اللون الأسود للثوب. لا مكانَ للّون الأبيض. وفي مناسبات الزواج، كنَّ يضعن عصبة على الرأس تتصل بها قطع نقديّة من الذهب أو الفضّة. وللتباهي أكثر كانت القطع كلها من الذهب التي تحيط بالرأس مع العصبة، أو يَضعن قلادة فوق غطاء العنق ولكن تحت الثوب. وإذا كان الجوّ بارداً، كن يرتدين الضامر، «الصديرية» كالرجال. كانت النساء يرتدينه فوق الثوب في فصل الشتاء. أما أحذيتهنّ، فكانت بكعب قصير، وبسيطة المظهر.

بالنسبة لعائلتنا، كنا نلبس الثياب الغربيّة. كما كنا في معظم الأوقات نلبس الأحذية العادية التي تصل إلى الكاحل، ونلبسها صيفاً وشتاءً. كان بها خطافات يلتفّ حولها رباط الحذاء. كان أبي مولعاً باقتناء مثل هذه الأحذية، وهي من الأشياء التي تستحق بذل الأموال لشرائها، كان لديه دائماً زوجان أو ثلاثة من الأحذية. كان يأخذ قياساتنا بعناية، فكنا نقف فوق قطعة ورق، ويرسم خطاً حول أقدامنا، ثم يشتري لنا الأحذية من السويداء أو من دمشق. كان يقوم برحلتين أو ثلاث رحلات في كل سنة لشراء أشياء كثيرة. ويعود إلى البيت مُحَمّلاً بالأشياء، وذلك عندما كان لدينا حصان أو اثنان. كان يذهب إلى بُصرى على ظهر الحصان، ويأخذ حصانين حيث يرافقه «المُرابع». ثم يُسَلم حصانه إلى المُرابع الذي كان يعود راكباً حصاناً ويقودُ الثاني ممسكاً بلجامِه. ويواصل أبي رحلته. كان أحياناً يُعِدُّ ترتيباتٍ مُحدّدة لعودته في الوقت كذا وكذا، حتى تتم ملاقاته. ويغيب عدَّة أيام. ثم يعود مُحمّلاً بالأغراض، ويكون الرجل هناك في انتظاره مع الحصانين، للتحميل.

أتذكر رحلة واحدة بشكل خاص. عندما وُلدَ فايز، كان أبي في دمشق. كان يعرف أن الولادة ربما تحدث أثناء غيابه. استطاعت أمّي أن ترسل إليه برقية من بصرى تخبره فيها أنها أنجبت ولداً. فعاد ومعه ساعة ذهبية. كانت الساعة له. وأحضرَ شيئاً آخر لأمّي، لا أتذكر ما هو. ولكنني أتذكر ساعته لأنني انبهرتُ بها. كانت من الذهب ولها سلسلة ذهبية جميلة. ضحكَت أمّي، وكان هو في غاية السعادة:

- ولد ثاني كمان؟ فقالت له:

- شايفتك جايب جائزة لحالك!. فضحك وقال:

- جبت لك جائزة كمان.

أحضرَ لها قطعة قماش وفصَّلت منها ثوباً لها. كانت ماهرة في حياكة الثياب البسيطة لنفسها. لم يكن من الممكن أن تحظى هناك بما هو أكثر من الأشياء

البسيطة!

كان الشتاء شديد البرودة. اعتادت الريح أن تصفر وتئنّ، واعتدت أنا أن أجلس على عتبة البوابة الخارجية المواجهة للجهة الجنوبية الغربية، أصغي إلى صوت الريح وقت الغروب، وأشعر بحزن عميق. الشمس توشك على الغياب، كنت أحس أن ذلك أمر محزن في حد ذاته، علاوة على هذه الرياح، وكنت في أغلب الأحيان أبكي. كانت لدي أيضاً مشاعر الرغبة في الرحيل، في الذهاب إلى مكان آخر. كنت أدرك أن المدرسة لا تقدم شيئاً. كنت أطمح إلى التعلم. وكان مما يضاف إلى كل تلك المشاعر، سماعي لصوت أمّي، بين الفينة والأخرى، في الليل، عندما كانوا يحسبون أنني نائم - أو بعد الظهر أحياناً - وهي تتحدث بصوت خفيض مع أبي وتقول له:

- خلينا نبدا نفكر، يا أبو يوسف، نروح على محل تاني. فيقول لها:

- بس وين نروح يا عفيفة؟ هذي كنيستي، هذي حياتي، هذا شغلي، أبرشيتي. كيف بدي أعيش بدونهم؟ فتقول:

- بتقدر تكوِّن أبرشية تانية. لازم نفكِّر. صار عنا أربع اولاد، بدهم تعليم. ما بدّك اياهم يحصّلوا تعليم أقلّ من اللي حصّلتُه إنت على ايّامك، ولا اللي حصَّلته أنا على أيأمي.

كنتُ عادةً أحسّ بسعادة غامرة حين تقولُ ذلك. حتى وإن كان أبي يقاوم الفكرة. ولكن بعد ذلك، انتزع القدَرُ القرار من بين أيديهما عندما اضطُررنا إلى الرحيل في سنة ١٩٢٥، حين احترقت الكنيسة وبيتنا. رأيناهما يحترقان، كان علينا أن نفرّ ونذهب إلى فلسطين. وقد بدأ ذلك فصلاً جديداً في حياتنا.

الفرار من خربة

في صيف سنة ١٩٢٥، في شهر آب/أغسطس على وجه التقريب، كانت الثورة السورية على الفرنسيين تشتد وتقوى إلى حَدٍّ كبير. انطلقت الثورة من جبل الدروز، وحيث إن خربة كانت قرية مسيحية بالكامل فقد كان يُفترض فيها أن تكونَ ضد الثوار الدروز. أو على الأقل، اعتقدَ الناس أن تلك هي فكرة الدروز عنهم. كانت الأخبار الواردة تتحدّث عن اتساع الثورة بقيادة سلطان الأطرش، واستدعاء الفرنسيين للمزيد من القوات، والبدء باستخدام الطائرات في عمليات القصف. كنا نشعر بوجود القتال إذا مرت الطائرات من فوق القرى الدرزية عن بعد، فقط، كنا نسمع الضجيج. رأيت الطائرات مرّة أو مرّتين في المدى البعيد، وهي تنقَضّ إلى أسفل لتبدأ القصف.

كان أبي في دمشق، في رحلة من رحلاته المعتادة. لم تكن الثورة مشتعلة منذ وقت طويل، وذلك يِفسر لماذا شعر أنِ بإمكانه أن يغادر القرية. أثناء

وجوده في دمشق، جاء أحدهم برسالة إلى أمّي من موسى القطامي، وهو ابن عُقلة القطامي، أحد زعماء القرية. كان من وجهاء البلد وشخصية وطنية أيضاً؛ وقد أصبحَ فيما بعد عضواً في البرلمان السوري. قضى معظم سِني حياته في السويداء، بين آل الأطرش. كان هو القائد المسيحي الوحيد في ثورة الدروز. جاء ابنه إلى خربة - وكان مع أبيه - وأرسل إلينا رسالة. وحيث إن أبي لم يكن معنا، ذهبت أمّي لرؤيته ومكثَت هناك بعض الوقت. كان لديهم بيت كبير، يُعَدّ قصراً بمعايير القرية، وكان يقعُ في الضواحي. عادت أمّي وهي تبدو قلقة ولكن حازمة. قلت لها:

- شو في؟ ليش منزعجة؟

- كل ما في الموضوع، إنه يمكن لازم نرحل، ونروح على درعا. فقلت:

- نرحل؟! بس أبي مش موجود!

- معلش، بنبعت له رسالة.

ومع مزيد من الاستفسارات - وكان عمري تسع سنوات ونصف - قالت:

- الثورة بتنتشر، ويمكن يصير خطر على خربة لأنها قرية مسيحية. أتذكر أنني قلت:

- ليش؟ إحنا مش مع الفرنسيين..

- منيح، لكن الناس هون بيعتبروا انُّه هاي هيّ الفكرة عنهم.

- وشو رأيك في عُقلة القطامي؟ هوّ صاحبنا.

- نعم، صاحبنا، وعشان هيك بيحذِّرنا. لكنه ما بيقدر يحمينا، أو يوقّف أيّ شيء يمكن يصير. انتو أربعة (في ذلك الوقت كان توفيق قد ولد ولا يزال رضيعاً) وأنا ما بقدر أجازف.

في سن تسع سنوات ونصف، لم أكن أفهم الكثير مما يجري. عرفت أنهم كانوا يتقاتلون، وأن الثورة كانت تريد التخلص من الفرنسيين. لم تكن حَرْباً في الواقع، كان القتال يجري خارج القرى، في مرتفعات جبل الدروز. كان أربعون أو خمسون فارساً يأتون في الليل، من كل قرية، بين فترة وأخرى ويطلقون النار على جنود الحاميَة الفرنسية. كانت السويداء هي أقرب مكان إلينا فيه حامية فرنسية. وفي الواقع، كان هناك حاكم فرنسيّ يقيم في السويداء، ومن الطبيعي أن يكون حوله جنود. أتذكر أنني ذهبت إلى هناك مرّة، وأخذت أراقبهم وهم يُنزلون العلَم عند الغروب، ويَنفخون في بوق خاص. كانوا اثني عشر جندياً فرنسياً يصطفون معاً ويؤدون التحيّة للعلَم. أتذكّر أنني أحسَسْتُ - ربّما كان ذلك أول حسٍّ سياسيٍّ لديّ - أنّ ذلك علَم

فرنسيّ، وهُم فرنسيون، فماذا يفعلون هنا؟ لا بدَّ أن والديّ كانا يتناقشان في مثل هذه الأمور. وقد كنت، بين وقت وآخر، أسمع همساً، ولكنهما كانا يحاولان حمايتنا، ولا يدعوننا نُحِسّ بالقلق، خاصة أنني كنت من النوع القلِق. كنت فضولياً، ولأنني فضوليّ، كنت أحاول أن أعرف المزيد، والمعرفة تجعلني أشعر بالقلق.

قالت أمّي:

- لازم نجهِّز بعض الأغراض، وأنا بدّي أروح أدوِّر على واحد عنده حمير عشان يوصلنا على بُصرى. ومن هناك يمكن نروح بالقطار إذا كان يومها في قطارات، وإذا لأ، لازم نكمّل بالحمار على درعا.

لكنها وجدت شخصاً واحداً، لديه حمار واحد فقط. فقالت:

- أنا عارفة، بكرة بيقولوا: شوفوها، هاي الشماليّة، «الأجنبية». (لا أعرف لماذا يَدْعونَها كذلك) شوفوا، هاربة من أقل خطر، حتى مش مستنية جوزها، بس إنتو أمانتي ولازم أحميكم.

كان كلامها عين اليقين، فقد سمعنا فيما بعد أنه حتى عمّاتي قلنَ ذلك عنها:

- ليش لازم تطلع؟ هيّ أحسن منا؟

لكن لم تَمضِ سوى ساعات حتى بدأنَ يهربنَ أيضاً. وبالطبع، كانت أمّي قد أخبرت كلَّ الأقارب، وطلبَت منهم أن يأتوا معنا لمساعدتها.

كان هناك مستودَع تحت الأرض في ساحة البيت، يشبه بئراً مهجورة. عندما أصبح الوضع مثيراً للقلق، وضع أبي بعض الأغراض القيّمة هناك، مثل ماكنة الخياطة التي كانت لأمّي، وبعض قطع السجاد والبُسُط. عندما تمّ بناء الغرف، قبل أن يتزوّج أبي بسنوات، فكَّر أحدُهم بإنشاء ذلك المكان، لا أدري إذا كانوا ينوون إنشاء بئر أو مكان لإخفاء الأشياء، لأن القرى المسيحية كانت تشعر دائماً بعدم الأمان. كان لذلك المكان فتحة لا تستطيع أن تراها. فأرضيّة الساحة كانت مرصوفة بالحجر، لكن أبي كان يعرف أي الأحجار يمكنك رفعُه بطرَف الفأس. ومن الداخل كان هناك كلاّب أو مَمسَك، لرفع ذلك الحجر. استطاع أبي أن يخبئ الأشياء هناك. أخذت أمّي الذّهب ووضعته كحزام حولها، تحت الثياب، وأنقذته كلّه. كانت امرأة شجاعة. كم كنت أحبها.

كان لدينا ذلك الحمار الوحيد، فوضعنا حقيبتين على كل جانب، وأصرّت أمّي على أن أركب وأن أحمِلَ الرضيع. فقلت:

- لأ، إنت اركبي واحملي البيبي..

لكنها رفضَت. وفي آخر الأمر، قَبِلَت أن نتناوب، فحين لا نكون أنا وتوفيق، أو هيَ وتوفيق، يتناوب فؤاد وفايز على الركوب. وحين لا يكون أيٌّ منا راكباً، كنا نمشي بمحاذاة الحمار، للتأكد من أن فؤاد وفايز ثابتان على ظهره، وأن الرجل يُمسك جيداً برسَن الحمار.

على أيّة حال، كان قد مضى على مغادرتنا للقرية أقلّ من نصف ساعة - وكنا ننظر باستمرار إلى الخلف - بعد أن سمعنا بعض الطلقات النارية، وعلمنا لاحقاً أن شخصاً واحداً قد قُتل، لأن أهل القرية كانوا قد بدأوا يرحلون. جاء الهجوم من الشمال والشمال الشرقي للقرية، وسكان القرية بدأوا بالتحرّك باتجاه الجنوب والجنوب الغربي، نحو بُصرى أيضاً، لإخلاء المكان، للفرار. لا أستطيع أن أتذكر فيما إذا كان الرجل الذي أُطلِقَت عليه النار قد حاول أن يُطلق النار على المهاجمين. لم يكن هجوماً واسعاً، ولم تكن هناك أعداد كبيرة مشتركة في العملية، ذلك لأن القرية صغيرة. ولكن بعد ذلك بقليل - وقد ظللت أتلفَّت إلى الخلف خطوة بعد أخرى. رأينا ناراً تعلو، وحيث أن بيتنا والكنيسة كانا على قمة التل الوحيد في القرية، فقد كانت النار بادية تماماً للعيان. كان أمرا مُحزنا جدّاً. أتذكر أنني بكيت، وأمّي تُهَدهِدُنا وهي تقول:

- الله بيعوِّض، الله بيعوِّض.

ذهبنا إلى بُصرى. وللحقيقة، لا أستطيع أن أتذكر كيف انتقلنا من بصرى إلى درعا، فذلك مكان له فجوة في ذاكرتي. وصلنا إلى درعا، ولكننا لم نتمكّن من إيجاد غرفة ننام فيها عند البعثات التبشيرية. كان لديهم منزل صغير ولكن لم يكن عندهم متسعٌ لنا. قالوا لنا إن الفرنسيين في درعا يقومون بتوفير ثكنات للاجئين. وكان هناك عدد كبير من اللاجئين من سائر القرى. وهكذا ذهبنا إلى تلك الثكنات، وكان فيها مقاعد قليلة الارتفاع من الحجر أو الإسمنت، وفوقها أرفف خشبية، تشكل طبقة ثانية أعلى، كالأسِرّة العلوية المبيَّتة، أو ربما يستخدمها الجنود لوضع حقائبهم وملابسهم فوقها. أتذكر أنني نمت فوق الطبقة العليا. لم يكن نوماً طويلاً. ظللت أتلفت حولي لأرى إذا ما كانت أمّي مستيقظة - وكانت كذلك، معظم الوقت. كان إخوتي نائمين على الأرض. وربما كان هناك بساط.

تدبَّرنا أمرنا للذهاب مبكراً في الصباح التالي إلى منزل الإرسالية، لنرى إذا كانوا قد عرفوا أيّ شيء عن أبي. ويبدو أنه تدبر أمرَه فأرسل رسالة لهم - لا أدري إن كان ذلك بواسطة برقية - وكان يسألهُم فيها هل يعرفون أيّ شيء عنا. وقد تمكّنوا من الاتصال به، ليُخبروه أننا سالمون. كان ذلك بعد يوم أو يومين. أقمنا ليلة واحدة على الأقل في الثكنات ولكني أظن أننا انتقلنا من هناك. للحقيقة، لا أستطيع أن أتذكر. ما هو حيٌّ تماماً في ذهني بعد كل هذه

السنين هو النار المشتعلة في بيتنا وفي الكنيسة. ألسنة اللهب! كان في الكنيسة خشبٌ كثير.

جاء أبي إلى درعا، ومكثَ ثلاثة أو أربعة أيّام. كان اللقاء مؤثراً بعد أن وجدَ عائلته سالمة. من هناك ذهبنا بواسطة القطار إلى دمشق. في دمشق كان لي اثنان من أبناء عماتي، وهما ابنا عمّتي التي تزوجت في صلخد. قضينا عدة أيام مع كل منهما. كان ذلك باعثاً على الراحة لأنهما استقبلانا بحرارة كبيرة. غير أن أبي لم يرغب في البقاء هناك مدة أطول. فانطلقنا نحو بيروت بالقطار. كانت رحلة طويلة، طويلة، طويلة. رغبنا في الذهاب إلى البصّة، كان لأمّي بيت هناك، وكان لها أخت، وأبناء وبنات أشقاء. ولنا هناك أشجار زيتون. شيء نعتاش منه. لم يبق أحد في خربة. وقد تعرَّضَت للنهب فيما بعد. كان على أبي أن يذهب إلى فلسطين لكي يقابل المِس فورد. لم يكن هناك طريق آخر، ولم تكن هناك هواتف. لم يستطع أن يجري مجرد اتصال هاتفي معها ليقول لها: «أنا هون، شو لازم أعمل؟» كانت هي في صفَد.

من دمشق ذهبنا بواسطة القطار إلى بيروت، واتصلَ أبي برجال الكنيسة فيها، ليخبرهم بما حدث لنا وللكنيسة. ثم ذهبنا إلى صيدا. قضينا يوماً أو يومين لكي نستريح، لأن السفر في تلك الأيام لم يكن سهلاً على الإطلاق. ومن صيدا اتجهنا إلى صور، ومن صور صعدنا إلى عَلما بواسطة السيارة - سيارة متهالكة - ومن هناك نقَلَنا اثنان من أهل القرية على ظهور الحمير التي كانت لديهم، حيث هبطنا الجبل نحو البصّة. كان علينا أن نسلكَ تلك الطريق لأنه لم يكن بحوزتنا جوازات سفر. لم يفكّر أحد في الحصول على جوازات سفر في تلك الأيام. أحضرَت أمّي أوراقاً عَرَفَت أنها هامة كالبطاقات الشخصية. وللحصول على جواز سفر كان علينا أن نذهب إلى السويداء، ولكن السويداء كانت مُضطربة، فهناك كانت الثورة. أتذكّر أننا خرجنا في وقت متأخّر من النهار متعمِّدين بحيث إذا كانت هناك دورية، فإنهم لن يتمكّنوا من القبض علينا. كانت الأمور سهلة آنذاك، يمكنك أن تمر بالتعريف على نفسك، وإبراز بطاقتك الشخصية.

زيارة العودة إلى خربة، ١٩٢٩

بعد أربع سنوات جمع أبي من المال ما يكفي للعودة إلى خربة، وإعادة بناء الكنيسة. كنا نعيش في البصّة آنذاك. أخذني معه لأنه رغب في أن أتعلم اللغة الفرنسية تمهيداً لالتحاقي بمدرسة صيدا. قالت أمّي:

- ليش؟ ليش بدَّك تروح على خربة؟ فقال أبي:

- الأمور هادية من سنتين أو ثلاث. بدِّي أشوف إذا بقدر أبني الكنيسة من جديد.

أعتقِد أنه بقليل من التشجيع، كان يمكن أن يأخذنا جميعاً إلى هناك، لكن أمّي لم تقدم له ذلك التشجيع. ولو فعلَت لكنتُ تمردتُ على الأمر بالتأكيد، فقد كان العيش في البصّة أفضل كثيراً، والمِس فورد لم تمارس ضغطاً على أبي ليعود. أصبحَت مساعداتُها للأشغال في خربة قليلة جدّاً وقد سلّمَت الكنيسة والمدرسة إلى إرسالية أميركية. لا أعتقد أنها كانت ثريّة جدّاً، ومن المؤكد أنها لم تكن تتلقى أية مساعدات مؤسّساتية. كان كل ذلك من مالها الخاص.

كان عليهم أن يضغطوا عليّ لكي أعود إلى خربة، قالوا:

- الزيارة رايحة تكون لوقت قصير، وهي لمصلحتك. أتذكّر أنّني قلت لأمّي:

- لكن شوفي، بعد خربة رح أقضي معك أسبوع أو أسبوعين، قبل ما أروح عالمدرسة.

- أنا بروح معك على صيدا عشان أشجعك.

كل ما أتذكّره الآن هو الغمّ التي شعرت به عند الوصول. يا إلهي، نعم! العودة إلى الأشياء القديمة ذاتها بدون توفر حماية من أمّي وبدون طعام أمّي، أو طريقتها في ترتيب أسرَّتنا. أقمنا مع عمتي أم فريد. بدأ فريد يعطيني دروساً في اللغة الفرنسية. كان قد تعلّمَ اللغة الفرنسية بطريقة ما، ولا أعرف كيف حدث ذلك، لم تكن لغته الفرنسية عظيمة كما اكتشفتُ بسرعة. قضيتُ الصيف كلَّه معَهُ وهو يُعلّمني المبادئ الأولى.

وعندما كنت انتهي من دروس الفرنسية، كنت أراقب أبي وهو يقوم بخلط الإسمنت، شعرت بإعجاب كبير بمهارته. كنت أندفع نحوه قائلاً: «بقدر أساعد؟ في أيّ شي ممكن أسوّيه؟». كنت أناوله القُفَّة - وهي سَلّة مَصنوعة من المَطاط الصلب وتستخدم لحمل الحَصى أو الإسمنت. كان يجلب عاملاً بين الفينة والأخرى لخلط ومدّ الإسمنت، وللقيام بأعمال السّقالة، ولكن أبي كان هو معلِّم البناء والنجَّار. كان هناك عمّال آخرون أيضاً يَحمِلون الأحجار ويضعونها بعضها فوق بعض.

في نهاية فصل الصيف، أخذني أبي معه إلى السويداء، ليخلعَ إحدى أسنانه. كان يشكو من ألم في سن واحدة أو اثنتين. وكانت قد انتقلت إلى خربة أنباء عن طبيب أسنان أميركي ماهر جاء إلى السويداء لبضعة أسابيع، بهدف جمع بعض المال، وقد أدار تجارة رابحة ممتازة، حيث أقنع الناس أنه أمرٌ جذّاب أن يكون لهم أسنان من الذّهب. بعض الناس كانوا يرغبون في أن يُظهروا أنهم أكثر ثراءً من أولئك الذين لديهم مجرد تلبيسة من الذهب. أحد الرجال خلع

كل أسنانه عنده وركّب طقماً كاملاً من الأسنان الذهبية بدلاً منها. بعضهم كان يضع تلبيسة من الذهب على سنّ أو اثنتين. كان معظمهم من الرجال، ولم يكونوا لينفقوا ذلك القدر من المال على زوجاتهم.

يبدو أن طبيب الأسنان هذا كان يعرف وصفة واحدة فقط. إذا اشتكى أي شخص من ألم في إحدى أسنانه، كان يقول له:

- السن بدّو خلع.

ذلك لأن خلع السن كان يدرّ عليه مبلغاً أكبر من تثبيت حشوة في أحد تجاويف الأسنان. كان قويَّ البنية كالثور! وكانت لديه غرفة، عيادة طبية، فيها كرسيّ يشبه كرسيّ الحلاق. أتذكّر أن أبي قال لي:

- لا تدخل، خلّيك في غرفة الانتظار برَّه. فقلت:

- لا، بدّي أبقى معك.

لم تكن هناك أية آلات أمام الطبيب كتلك التي أصبحت أعرفها لاحقاً من أطبّاء الأسنان، كان لديه بعض الأدوات فقط مثل ذلك الشيء الذي تستعمله لفحص الأسنان، وفي نهايته مرآة صغيرة، وشيء يشبه الكمّاشة لخلع الأسنان. قال لأبي:

- عندك أسنان على الفكّين بدهم خلع.

وافق أبي فوراً. وقال له الطبيب:

- بدّو يكون في وجع، لكن رح أحاول أخلّيه بسيط، إيدي خفيفة.

أخذت أراقب كل ما يحصل. بدلاً من استعمال مادة التخدير، أشعل مصباحاً كان وقودُهُ من الكحول، وأحضر حقنة ثم ضغط عليها ليخرج منها الهواء. ثم وضع طرفها بالقرب من اللهب وشفطَ الهواء الساخن ثم ضغطها فوراً على السنّ التي يريدُ خلعَها. فعلَ ذلك مرّاتٍ عديدة ثم قال:

- إحنا هلأ جاهزين.

أمسكَ بالكمّاشة وبدأ يسحَب ويسحَب ويسحَب، وأبي المسكين يتصبَّب عرَقاً من شدّة الألم، وقد التوت ملامح وجهه، لكنه ظلَّ صامداً - كان أبي رجلاً قوياً - مُمسكاً بذراعيْ الكرسي وقد هرب الدم من مفاصل أصابعه. عندما خرجت السنّ كان هناك دم. ظللتُ هناك لأنني ظننتُ أنني ربما أعَبِّر بذلك عن شعوري بالتعاطف معه. شعرت برغبة في الذهاب إليه وملامسته، لكنّني لم أفعل. قال الدكتور:

- بتقدر تتحمَّل كمان مثل هالوَجع ولاّ نخليها لبعدين؟ قال أبي:

- كمِّل، لكن خلَص بسرعة.

قضينا الليل في السويداء في بيت نعمان، كما أظنّ، أو مع أخيه جبران، لكي لا نُضطرّ إلى الركوب والرجوع في تلك الليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني البصّة ١٩٢٥ - ١٩٣٠

الوصول

نزلنا إلى البصّة من عَلمَا. سمع أقاربنا بطريقة ما أننا غادرنا خربة، فشعروا بالراحة عند رؤيتهم لنا. كان هناك ابتهاج. أخلَوْا غرفتين أو ثلاثَ غرَفٍ من أجلنا، وكانت من قبل مؤجَّرة إلى شخص ما. وحيث إن ذلك جرى في فصل الصيف، فقد كانت هناك شرفتان في الطابق الثاني، واحدة أمامَ إحدى غرف النوم، وكانت تُستعمل كغرفة جلوس نهاراً وكغرفة نوم ليلاً - شرفة كبيرة بحجم غرفة. كان لها حاجزٌ من الخشب وكنّا نضع على أرضيتها مفارش من الحصير. كنا نقضي أمسياتنا ونتناول وجبات العشاء على تلك الشرفة لأن الوقت كان صيفاً. أما الغرفتان الأخريان في الطابق الأول، إضافة إلى الشرفة الأمامية لهما، فقد كانتا مؤجرتين لعائلة لبنانية من صور. لم يكن من المعتاد تأجير الغرف لكن بيتنا كان واسعاً، وقبل مجيئنا، لم يكن أحدٌ من عائلتنا يعيش فيه.

كانت هناك أربعُ غرف في الطابق الأرضي. منها غرفة واسعة ولها عقد على هيئة قوس. وكانت إحدى الغرف الصغيرة في الطابق الأرضي قد أجِّرت لبقّال، ثم إلى صانع أحذية. ولأنه لم يكن لدينا ما يكفي من الغرف، فقد استعملنا الغرفة الكبرى في الطابق الأرضي كغرفة جلوس. وفي الشتاء كنا نستعملها للنوم لأنها كانت أكثر دفئاً. إذن، لدينا غرفة واحدة في ذلك الطابق. وجعلت أمّي إحدى الغرف الصغيرة غرفةَ غسيل. والغرفة الصغيرة في الطابق الثاني، استعملناها كمطبخ، حتى يكون قريباً مِنا. بقينا برهة من الزمن نحشر أنفسنا في غرفة نوم واحدة. وهي التي نحوّلها نهاراً إلى غرفة جلوس، بعد أن نطوي الفِراش ونكوِّمُه فوق بعضه. وبعد أسابيع قليلة بدأنا نستخدم الغرفة الكائنة في الطابق الأرضي كغرفة نوم. الغرفة الكبيرة الأخرى كانت تشغلها العائلة اللبنانية التي حولت زاوية من شرفتها إلى مطبخ صغير - كانت شرفتهم أكبر من شرفتنا. وكنا نستعمل غرفة صغيرة في الطابق الأرضي كحمّام. كان حول البيت سور، وله بوّابة، وفيه بئر خاصة به. وكانت هناك غرفتان أو ثلاث غرف غيرُ مُكتملة البنيان، حيث تقف جدرانها فقط في الطابق الأرضي. كان بيتاً واسعاً بناهُ خالي أو جدِّي.

كان بيتنا أكبر بيتٍ في القرية. وكان جدّ أمّي خوري الأبرشية الكاثوليكية، ولديه أملاك وأموال. قالت أمّي إن أباها كان ميسور الحال لأنه كان يتعامل بالتحف القديمة. لم يكن من البصّة. جاء من لبنان إلى فلسطين ليبيع تماثيل فينيقية صغيرة. واعتاد أن يذهب لبيع التحف في حيفا حيث كان فيها أناس أثرياء من اليهود والعرب. حين نظر جدّي إليها أولَ مرّة، كانت جدّتي راهبة،

تعيش في بيتها. ويبدو أن جدّي في رحلته الأولى إلى البصّة استفسر عن وجود نزُل أو مكان يمكن أن يقيم فيه. فقالوا له: «لا ما في، لكن يمكن تروح لبيت الخوري». فأقام هناك ثم تواصلت رحلاته جيئة وذهاباً. فوقعَ في حب هذه الراهبة، ووقعت هي في حبه أيضاً. وهكذا تخلّت عن قسَمِها وعن زيّ الرهبنة لتقترن به. كان والداها قد تُوُفيا قبل أن تتزوّج أمّي، وربما كانت أمّي قد خُطبت قبل وفاة جدّتي. وبالفعل هناك صورة لأمّي وهي تجلس حزينة قرب جثمان أمها، لم يخبرنا والدانا الكثير عن والديهم، فأبي لم يعرف والديه إلا قليلاً، في حين أن والدتي عرفت أمها دون أدنى شك إذ كانت مُتعلّقة بها على نحو خاص، لأن أمّها وقفت إلى جانبها وأيدَت التحاقها بالمدرسة. ولا أعرف شيئاً أكثر من ذلك.

عاش ابن خالتي مبَدّى في بيت أبيه، في الجانب المقابل من الطريق، على بعد أمتار قليلة من بيتنا. عاش هناك مع الياس، أخيه، ومع أخته، ليا، أم جوزيف - ولم يكن أيٌّ منهما متزوجاً آنذاك - ومع خالتي، أخت أمّي. لم يكن هناك أحدٌ سواهم من عائلتنا. فقد كان خالي في أميركا. وكان يملك البيت كلٌّ من أمّي وأختها وخالي. ولكن في الواقع الفعلي، كان الذي يَجني المكاسب كلها - بما في ذلك قطعة أرض لا بأس بها - هو ابن خالتي مبدّى. فهو الذي يقبض الإيجار، بصفته الولد الأكبر. كان الياس أصغر منه سناً بكثير وكان مبدّى مُتسلطاً، ولا أحد يجرؤ على تحدّي سلطته. يضع المالَ في جيبه - وما يتبقى بعد نفقاته الخاصة - وقد كان يحبّ الإنفاق على الشراب والنساء. ما يتبقى، كان يعطيه لأمه وأخته. ولكن لا شيءَ لنا طوال تلك الأعوام.

عندما وصلنا إلى هناك، أدرك مبدّى أنه ينبغي أن يفعل شيئاً، فزوَّدنا بالزيتون وزيت الزيتون؛ وكان كلّما ذهبَ إلى الأرض التي يزرعُها بالخيار، والبندورة (الطماطم)، والكوسى، يُحضِر لنا بعضاً منها. كانت أمّي تخجل في بادىء الأمر ولا تقول شيئاً. ولكن عندما لم يُبدِ أيَّ مقدارٍ من الإحساس، قالت له: «شوف يا مبدَّى، هدي الأرض مِلكي زي ما هي مِلكك. والحقيقة أنا واحدة من الورثة. وأنت واحد من أولاد أختي، لازم تاخذ الثلث. أخصم المصاريف والباقي بنتقاسمه». وكان خالي قد قال من قبل إنهُ لا يريد شيئاً من المحصول أو الإيجار. وهذا يعني أن الميراث يجب أن يُقسَّم بين خالتي وأمّي، مناصفة، وأن مبدّى يَجب أن يحصل على حصته فقط بصفته ابن خالتي. بدلاً من ذلك، كان يضعُ كل شيء في جيبه.

قالت له أمّي: «لحد هون، وبس، بيكفي». وبدأت تراجع الحسابات معه. وكان دائماً يلجأ إلى الغِش، ولكن كان من المفيد أن نحصل منه على بعض المال لأن شهوراً مضت قبل أن يتمكن أبي من إجراء اتصال مع الآنسة فورد؛ فقد دفعت له مرتباً صغيراً ليبدأ بتنظيم الاجتماعات الدينية في القرية. كانت هناك

جماعة محدودة من المسيحيين البروتستانت. بدأت الأمور تتحسن عندما قررت بعثة تبشيرية ألمانية إنشاءَ مدرسة، وإقامة الطقوس الدينية أيام الأحد، وتوفير ممرضة أو اثنتين في البصّة. وطلبوا من أبي المساعدة ريثما يجدون واعظاً خاصاً بهم. كان أبي يقيم القدّاس مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، وفي الأسبوع الرابع، يأتي واعظ من حيفا. كانوا من البروتستانت مثلنا، لوثريين، كما أظن. لم يكن مبنى الكنيسة مناسباً، فهو يشكل جزءاً من طابق أرضي يضم عدة غرف. إحداها واسعة بما يكفي لتكون مدرسة، والغرفة الأخرى واسعة بما يكفي لجعلها كنيسة تتسع لعشرين أو ثلاثين شخصاً. كانت هناك غرف للممرضات - وكانوا يدعونهن «الأخوات». كانت واحدة منهن ألمانية والثانية أميركية. أتذكر هذا لأنه عندما ولدت أختي ماري - في البصّة - كانت تلك هي المرة الأولى التي تضع أمّي فيها مولوداً على يد قابلة مُدربة. وكانت سائر الولادات قد تمّت على أيدي قابلات القرية.

بدأتُ الذهابَ إلى المدرسة هناك، وكذلك فؤاد، كما أظن. كانت مدرسة كاثوليكيّة، قريبة جداً منا. أنشأ الألمان مدرسة ولكنها كانت بعيدة عنا، ولم نكن متأكّدين من أن مستواها جيد. كانت المدرسة الكاثوليكية قد عينت للتوّ مديراً مُتقدَ النشاط. جاء من لبنان، وكان يُعتقد أنه على قدر كبير من العلم لأنه حاصلٌ على درجة البكالوريا. دخلتُ المدرسة وتعلمت قليلاً من اللغة الفرنسية، وقدراً أكبر من اللغة الإنكليزية، والعربيّة والحساب. كانت المدرسة راضية عن سجلي التعليمي. وكانوا يعتقدون أنني ذكي، وكنت أبلي بلاءً حسناً، فقفزت إلى صفٍّ أعلى. ثم بدأت أشكو من أن المدرسة لا تقدِّم لي أية تحدّيات تُذكر. كنت دائماً متفوّقاً على أقراني في الصف. كنت أقرأ كثيراً. فشعر والداي أنه لا بد من عمَل شيء ما بشأن تعليمي. عندما ذهبت إلى مدرسة صيدا في سنة ١٩٢٩، وجدوا أنني كنت جيّداً بما يكفي لقبولي في الصفّ السادس الابتدائي.

البصّة: الناس والقرية

حتى قبل وصولي، كوَّنت صورة عن البصّة من خلال أحاديث أمّي عنها. المكان في حد ذاته وفّر لي ما هو أكثر من مجرّد إشباع توقعاتي. كان جذّاباً يَسرّ النظر، وفيه أشجارٌ كثيرة. لم يكن «منغلقاً»، فالناس فيه أكثر تحرّراً، ويُحبّون المرح. هناك موسيقى في المقاهي، ويمكنك سماع أجهزة الحاكي (الفونوغراف) قبل ظهور أجهزة الراديو. والناس يعزفون على الآلات الموسيقية - المِجوز - (الشبّابة المزدوجة والمنفردة). يمكنك سماع الناس على سطوح بيوتهم يعزفون ويغنون «العتابا».

كانت هناك أشجار حول القرية، وما بعدَها، وعلى الجانب الغربيّ تُوجدُ حقول الزيتون وحدائق التفاح، وأراض لزراعة الخضروات، تمتدُّ حتى البحر. وجدَ أهل البصّة أن زراعة الخضروات مُجزية أكثر من زراعة القمح والشعير، وذلك لاستهلاكهم المحلي، وللبيع، جزء من المحصول يُباع إلى عكّا وحيفا، ولكن الجزء الأكبر يُباع إلى جنوب لبنان - صور والقرى الواقعة بين صور والبصّة. وبالقرب من البحر، كانت هناك مجموعة واسعة أخرى من أشجار الفواكه - المشمش، والتين، والرُّمّان والصبّير، وكروم العنب، وكذلك الخوخ والتفاح. وفي وقت لاحق، حفر الأهالي الآبار الأرتوازية في السهول وزرعوا «البيارات». ومعظم البضائع التي كانت تُرسل إلى لبنان كانت تدخل عبر الجبال. فتلك الطريق أقلّ كلفةً ولا تستوجبُ التوقّف عند الحدود لدفع الجمارك. وذلك هو ما أوحى لأبي بفكرة قيامنا بشراء أراض أيضاً.

كان في القرية آبار. وعند الطرف الجنوبي للقرية، هناك نبع. وحوله أنشأ أهل البلد حوضاً يأتي إليه ماء النبع - وكان نظيفاً. وأقاموا مظلة بحيث يمكن للمرء أن يجلس هناك. كان في الماء دولاب كبير يحرّكة الشخص بقدمه. ويتصل بالدولاب حبل يحيط به وفي نهايته دلو. فيحرك الدولاب حتى يصل الدلو إلى مستوى الماء ويمتلئ. والدلو مُصمّم بحيث يميل نحو الماء حتى يمتلئ، ثم يستقيم، فيسحبُه الرجل بقدمه. ولدى خروجه يصب الماء في قناة، حيث تصطفّ النساء وهن يحملن الجرار، ويملأنها واحدة بعد الأخرى، لم تدخل المياه عبر الأنابيب إلا بعد سنوات، بعد أن انتقلنا إلى طبريّا.

كان سكان القرية مزارعين يعملون بكَدّ وجدّ. وهناك عدّةُ فصول زراعية في السنة. معظم الأهالي لديهم مساحات صغيرة من الأرض يزرعونها بالخضروات، وبعض أشجار الزيتون، والتين - مما يجعلهم منشغلين باستمرار. ولديهم أشجار الخرّوب، وهم يقضون وقتاً في طحن قرونه. أظن أنهم كانوا يُعدُّون الدّبس في المنازل وذلك بغلي قرون الخَرّوب لساعات وساعات. كان الدبس طعاماً أساسياً - لم نكن نتناوله مع الطحينة، بل مُستقلاًّ بذاته. كما كان أهل القرية يُعدون دبس العنب. وبالنسبة للزيتون، كانت هناك معاصر تعمل بالمحركات الآلية. يُنتج الزيت منه ثم يتم تصنيف درجات الزيت عند انسيابه من المعصرة من زيت عَكِر إلى زيت نقي. وما كان يزيد من الزيتون المعصور كان يُستخدم كجِفْت للتدفئة. والزيت العكِر جداً كان يُستخدم في صنع الصابون على أيدي الأهالي. تعلم أبي طريقة صنع الصابون، واعتاد على إعداد كمية منه تكفينا طوال العام.

أود أن أضيف إلى ذلك أن الخَرّوب شجرة هامة، وأشجار الخَرّوب في البصّة كانت هائلة الحجم. والشجرة التي عشقتها كانت شجرة خروب ضخمة مزروعة في أرض عائلة أمّي، وهي أرض تمتد باتجاه الجبل تحيط بها أشجار

التين من كل الجهات. لكن شجرة الخَرّوب كانت مركز اهتمامنا، وقد اعتدنا الذهاب إلى هناك مرتين في كل أسبوع ومعنا «العصرونة»، كنوع من النزهة. كنا نجلس تحتها، شجرة كبيرة جداً بحيث يمكنك الجلوس في ظلها في أي وقت من أوقات النهار. كانت رائعة خصوصاً في فصل الصيف، فتحس بالبرودة التي تتخللها. وكان بها غصن ضخم ساقط يستلقي على الأرض. اعتدنا الركوب على ذلك الغصن ونحن نتظاهر بأننا نركب القطار، ثم نؤرجحُ أرجلنا. وذات يوم خدشَ جزءٌ حادّ من الغصن كاحلي الأيسر، ولم يندمل الجرح لأربعين يوماً. وقد اضطروا إلى أخذي إلى طبيب في عكّا.

كانت الحرفة الرئيسة في القرية هي الزراعة. فكلّ شخص تقريباً يملك قطعة أرض، سواء كانت صغيرة أو كبيرة. ولم يكن الفرق بين كبار مُلاك الأراضي وصغارهم ملحوظاً في فلسطين كما كانت الحال عليه في سورية أو مصر. ففي فلسطين يمكنك القول إنه كانت هناك طبقة من المُلاك الموسرين الذين يملكون قطعاً واسعة من الأرض المزروعة بالأشجار، وهذا ما جعلها مُجزية أكثر. كما كان في البصّة عدد قليل من الناس الذين لا يملكون شيئاً من الأرض على الإطلاق، وكانوا متوفرين يمكن توظيفهم للعمل في مزارع الآخرين. كان للمسلمين أراضيهم الخاصة بهم أيضاً. وأظن أن المجتمع المسيحي كان أكثر ازدهاراً. ربما كان ذلك راجعاً إلى أن المسيحيين كانوا يعيشون ويستمتعون بحياتهم. كانوا يظهرون ثروتهم بتناول الشراب أكثر مما يفعل المسلمون، وبالاستمتاع بأوقاتهم أكثر. لكن انطباعي هو أن الثروة كانت أكبر في الجانب المسيحي.

كانت البصّة في مقدمة المناطق التي تزرع التبغ. وعرفت منطقة الجليل كلها كمنطقة يزرع التبغ فيها، والبصّة واحدة من القرى القائدة بالنسبة لهذا المنتج. كان المفتشون يأتون لتقدير المحصول، ويدفع الناس الضرائب بناء على تلك التقديرات. وكانت هناك شركتان أو ثلاث شركات عربية لصناعة السجائر، تأتي وتبرمُ العقود لشراء المحصول. وأتذكر أنه كانت هناك فترة أثناء موسم قطف أوراق التبغ، يقوم كل شخص خلالها بتقديم المساعدة، إذ إن الأمر يتطلب إتمام ذلك العمل على وجه السرعة. قضيت أياماً كثيرة من كل سنة في مساعدة عائلة خالتي التي كانت تزرع التبغ، ولم يكن ذلك يقتصر على قطف أوراقه فحسب، ولكن - وهذا أكثر إثارة للاهتمام - بعد قطف الأوراق، يجتمع الأقارب وشباب الحي معاً، الأولاد والبنات، ويقومون بإدخال إبر في الأوراق، وبها «خيط مَصيص» ونَشكّها ونضمّها معاً. كنا نشكُّ ما يصل إلى نحو متر من الأوراق، ونعقد طرف الخيط لمنع الأوراق من السقوط، ثم يتمّ تعليق الأوراق المحزمة كحبال الغسيل حتى تجف. كما كنا نساعد في مواسم قطف الزيتون، فنساعد في فرز الزيتون الرديء من الجيد. كما كنت أستمتع في تقديم العونِ فيما يتعلق بالخَرّوب أكنت أحب الذهاب إلى اشجار

الخَرّوب، لكنني كنت أساعدهم عندما يصنعون الدّبس وذلك بحمل السِّلال المُحمّلة بالخَرّوب الذي كان يُوضع في قدور ضخمة ليُغلى على النار الموقدة بالأخشاب، لضمان استمرار تلك العملية. وفي صنع الصابون كذلك، كنت أحبّ مراقبة ما يجري وأناولهم ما يحتاجون له.

عدد قليل من أهل القرية كان يعمل في الجهاز الحكومي، اثنان أو ثلاثة، ربّما، في جهاز الشرطة، وثلاثة أو أربعة كتبة في قسم الجمارك والرسوم. فالابن الأكبر لأحد أبناء أخوال أمّي، وهو عُمدة البصّة، عملَ سابقاً في عكّا في مكتب مسؤول اللواء، ثم أصبح كبير الكتبة فيها وغالباً ما كان يتولى مهام القائم بأعمال مسؤول اللواء. كان اسم عائلتهم «فريوات». وابنهم الأصغر كان يعمل في الحكومة أيضاً. وكانوا من البروتستانت مثلنا.

القرية مكتفية ذاتياً في معظم الحرَف. ففيها سمكري «التنّاك» واثنان أو ثلاثة من النجّارين، وبعض صانعي الأحذية وأعداد من أصحاب الدّكاكين والبقّالات - كانت البقّالات تضمّ خليطاً من البضائع مثل المصابيح التي تعمل بالبطارية، ومواد الحلاقة، والقماش أحياناً. وفيها معصرة - هناك معصرتان أو ثلاث في القرية - لكن المعصرة الكبريكانت متعدِّدة الأغراض، ففيها يُعصر الزيتون، ويُطحن الدقيق، وتنتَج مُكعّبات الثلج في الصيف. كان يملكها أحد أقارب عائلة أمّي واسمُهُ توفيق جبران. كان ثريّاً جداً جداً - ربما الأكثر ثراءً من حيث ملكية الأراضي والمحاصيل في البصّة. لم يكن الرجل قبيحَ المظهر، لكنه كان كبير الحجم وبسيطاً إلى حد ما، ولذلك استغرب الجميع عندما وجد لنفسه زوجة شابّة جميلة من حيفا. كان إخوتها معروفين في حيفا، لكنهم كانوا يمرّون بظروف مالية عسيرة - وربما يفسّر ذلك سبب سماحهم لأختهم بالزواج من مثل ذلك القرويّ الثريّ. كانت هناك معاصر أخرى صغيرة، ولكنها كانت متخصصة في عصر الزيتون أو طحن الدقيق. وأظن أنه كان هناك من يصنع الأواني الفخارية.

المواصلات إلى عكّا كانت تتم بواسطة سيارات الأجرة. ومعظم المواد التي ترسل إلى لبنان تُنقل عبر الجبال. تلك الطريق كانت أقلَّ تكلفة، إذ لم يكن عليهم التوقّف عند الحدود لدفع الجمارك. كانت هناك في الواقع اتفاقيّة للتجارة الحرة بين فلسطين ولبنان. هذا ما علِمتهُ في وقت لاحق عندما كنتُ طالباً أدرُس الاقتصاد، من خلال كتاب (سعيد) حمادة. كانت هناك أعداد قليلة من سيارات الأجرة في وقت يتم فيه تشغيل السيارة بعملية التدوير (بالمانويلا). وبين الفينة والأخرى تكون هناك رحلة إلى صور أو صيدا - وهذا هو الحدّ الذي تستطيع السيّارات بلوغه - وعادة ما تكون وِجهَة الرحلة إلى عكّا أو حيفا. كان كثير من الناس يعتاشون من قيادة سيارات الأجرة، فهناك كثير من الأهالي لديهم أعمال يقومون بها، فهم يحملون صناديقهم (السحاحير) المعبأة

بالقرع، والخيار، والبندورة - الطماطم - بهدف بيعها في السوق. وفي وقت لاحق عندما تم رصف الطرق، أصبحت هناك سيارات أكثر في القرية. وفي ذلك الوقت ظهرت الحافلات كما أظن. وكانت هناك شاحنة أو شاحنتان صغيرتان. ونظراً لكون الحافلات باهظة التكاليف ويتعذر شراؤها، كان الناس يؤلّفون جمعيات تعاونية، ويتملّكون أسهُماً فيها. كان لدى «أبو جوزيف» ومعه حوالي عشرين شخصاً حافلتان أو ثلاث. كانت هناك حركة تتّسم بالنشاط. فجميع الحافلات تغادر في الصباح، ويكون على متنها نحو مئة راكب. لم تكن الحافلات كبيرة جدّاً، إذ يتّسع كلٌّ منها لعشرين راكباً، وكانت تعود في المساء. وعندما يُنهي الناس أعمالهم، كانوا يعودون إلى موقف الحافلات في عكّا، ثم يرجعون إلى بيوتهم. ولكن إذا كان هناك سبب هام على نحو خاص، كانت الحافلات تقوم برحلة ثانية بينهما. لم تكن هناك سوق أسبوعية في البصّة، فكل دكّان لديه كشك خاص لعرض الفواكه والخضروات.

كان هناك شارع رئيس فيه محال تجارية، ينتهي عند بوّابتنا، يمتدُّ طوال المسافة من أسفل القرية من جهة الجنوب. وبعد بيتنا من جهة الشمال، تتفرع الطريق إلى عدة اتجاهات، ثم تصبح طرقاً فرعية خالية من الدكاكين. ولكن ابتداء من بوابتنا وإلى جهة الجنوب، على بعد عشرين أو ثلاثين متراً، كانت هناك ثلاثة أو أربعة محال تجارية إلى اليمين وإلى اليسار. وضمن نطاق مئة متر، كان هناك مقهيان، وملحمة وبعض محال البقالة. كان ذلك هو مركز القرية الحافل بالنشاط، وهو السّاحة. وهناك ساحتان أصغر منها في أماكن أخرى، ساحة منهما في الحيّ الأرثوذكسي، في الجهة الجنوبية الغربية من بيتنا، والساحة الثانية في الحيّ الإسلامي. وهناك طريق وعرة جداً تؤدي إلى عكّا، وهي تتصل بطريق فلسطين - لبنان. إذا أردنا الذهاب إلى عكّا كانت هناك سيارات صغيرة - بالأجرة - إذ لم تكن هناك حافلات عندما ذهبنا إلى البصّة أول مرة. وللحصول على سيارة أجرة، كان علينا أن نسلكَ المسافة إلى أسفل القرية مشياً على الأقدام لأن الطرق لم تكن مُعبّدة. ولكن أثناء إقامتنا في القرية، جمع رئيس المجلس المحلي - والد «أبو جوزيف» - أموالاً من سكان القرية كافّة، وعبّدَ الطرق الرئيسة فيها. وفي منتصف الطريق مساحة أكثر انخفاضاً مما حولها، يبلغ عرضُها نصف متر تقريباً. كانت هذه قناة لتصريف مياه الأمطار. وقد تم تعبيدها أيضاً.

جانب القرية الذي كان يقع فيه بيتنا كان أعلى من سطح البحر بنحو ستين أو سبعين متراً. فالقرية تقع على منحدر جبل، وتنتهي عند السفح. وتقع أجزاء من البصّة من جهة الشرق والشمال على المنحدرات العليا من الجبل. هناك كان بيتنا، عند قمة القرية - إلا أنه، في وقت لاحق، بنى كثيرون بعدنا وتجاوزوا بيتنا، بمن فيهم أم جوزيف وزوجها. وإلى الجنوب، هناك تلّة مستقلة بذاتها، غير متصلة بالجبل. حين ذهبنا إلى القرية لم يكن عليها أية منازل، ولكن

القرية كبُرت تدريجياً، وانتشر الناس على تلك التلّة. ومع الرخاء أراد الناس أن ينتقلوا من البيوت الأصغر إلى بيوت أكبر منها، والعائلات الكبيرة انقسمت إلى عائلات أصغر.

كان ثلثا سكان القرية من المسيحيين، وثلثهم من المسلمين. المسلمون يقيمون في الجزء الغربي منها. كان المسيحيون أساساً من الكاثوليك، ولكن كان فيها أيضاً بعض الأرثوذكس وثلة من البروتستانت. وبها كنيستان، الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية، لكن أبرشية أبي كانت تجتمع في غرف مُستأجرة. كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين جيدة جداً. وكلّما أقيم حفل زواج، أو خرجت جنازة، كانت المجموعتان تشتركان معاً في المناسبة. كان أهالي البصّة وطنيين، مُناصرين بقوة للحاج أمين (الحسيني)، كالمسلمين فيها. ولكن ما كان يُميِّز البصّة بصفة خاصة هو أنها «مُتحرّرة جداً». كان الناس يشربون كمية كبيرة من المشروبات الروحية، لا المسيحيون فقط، بل المسلمون أيضاً، وكانوا يلعبون الميسر كثيراً، ويقومون بتهريب البضائع إلى لبنان ومن لبنان. وكان هناك زنى، وكثيرٌ من الرقص الشعبي، الدَّبْكة، واحتفالات الزواج والأعياد. وفي الدَّبكة كان الشبان والصبايا يرقصون معاً، غير منفصلين. كان شيئاً رائعاً مشاهدة ذلك.

هناك عدة مقاهٍ في البصّة، معظمُها في الحيّ المسيحيّ لأن المسلمين لم يكونوا يبيعون العَرَق كما نفعل نحن، رغم توفر العَرَق عندهم أيضاً. هناك قصّابون في الجوار. وفي أيام الأحد، بعد الصلاة في الكنيسة، كان الناس يجلسون فتراتٍ طويلة في أحد المقاهي في الساحة، ويقضون بقيّة الصباح في لعب «الضّامة»، أو «طاولة النرد»، أو يشربون العرَق ويأكلون قطعاً من اللحم - خاصة الكبدة والفشة النيئة - أمرٌ يثير الاشمئزاز - بالإضافة إلى قليل من الخيار، وبذلك كله يَمسحُون أثر ذهابهم إلى الكنيسة.

كانت البصة نشطة أيضاً في المجال الثقافي. ففي كلِّ سنة، يتم عرض مسرحيتين أو ثلاث، مترجمة من الفرنسية إلى العربية. وكانت المدرسة هي التي تقود المسيرة في هذا المجال. كان كلّ شخص مُعجباً بصبيَّة في مثل سِنّي، تدعى «إيفدوكيا». كانت جميلة المظهر شقراء، إسكندنافية الملامح. لها صلة قرابة معنا على نحو ما من جهة عائلة أسعد خوري. قمت مرة بدور في إحدى المسرحيات - قلت فيه ثلاث كلمات - ولم أكن ممثلاً بالفِطرة - ولكن لمجرّد رؤية إيفدوكيا لمدة أطوَل. كانوا يقدِّمون العروض عادةً في ساحة الكنيسة، وكانت الكنيسة والمدرسة في المُجمّع نفسه، وبينهما مساحة يلعب فيها الأولاد أثناءَ النهار. كانوا يُجهِّزون منصّة العرض فيها، لتكون بمثابة مسرح. وكان لديهم مصابيح كشافة تعمل بالبطارية - إذ لا كهرباء آنذاك - ويتم عرض المسرحية لثلاث أو أربع ليال. وقد تمّ ذلك بمبادرة من مدير جديد

للمدرسة جاء من لبنان. كان يُعلَم اللغة الفرنسية والإنكليزية، بالإضافة إلى إدارة المدرسة. وكان الشبان والصبايا يقومون بالتمثيل معاً.

إنه لأمرٌ مُستغرب، لكنني لا أتذكّر أن أحداً من البصّة كان يَدرسُ في الجامعة في ذلك الوقت. أما القرى الأخرى مثل كفر ياسيف، فقد كان منها متخرجون جامعيون، ولكني أعتقد أن سكان البصّة كانوا يرغبون في استخدام أموالهم في أمور أخرى.

الأطبّاء والقساوسة

كان أوّلُ طبيب جاء إلى البصّة لبنانياً من جون، قرب صيدا، وهو كاثوليكي تدرَّب في فرنسا، واسمه الدكتور فضل الله شامي. كان رجلاً مُسلّياً جداً، حافلاً بالحكايات، واستفزازياً. كان مُلحِداً، وقد يبدأ نقاشاً في أمور الدّين مع أبي فيقول: «لماذا تعتقد أن هناك إلهاً؟ أين هوَ؟» ثم يدخلان في قضايا اللاهوت. كان مُشاكساً لكنه خفيفُ الظل، ولم يكن يُسفِّه معتقدات الطرَف الآخر. كان أبي يحب المشاكسة أيضاً، فكان يرد عليه بمشاكسته.

عندما جاء هذا الطبيب - ربّما لأنه كان يَخشى أن لا يجيءَ الناس إليه بأعدادٍ كبيرةٍ - أثارَ اهتمام القرية بإنشاء نظام صحّي تَدفع كلّ عائلة بموجبه رسماً سنوياً، كنوع من التأمين، وفي المقابل يكون الفحص الطبّي مجاناً طوال العام. ونجح هذا النظام. كان يُقدِّم لهم كلّ شيء باستثناء الدواء. يَكتب لهم الوصفة الطبّية، فيَطلبون من أحد الذاهبين إلى عكّا شراء الدواء لهم. وقد أقامَ الطبيب في البصّة عدة سنوات.

عندما غادر الدكتور شامي، جاء طبيب آخر من عَلما الشعب القريبة من البصّة. وقد تلقى تدريبهُ إما في الجامعة المصريّة أو في الجامعة الأميركيّة في بيروت. كانت زوجته نصف يونانية ونصف مصريّة. واسم هذا الطبيب الثاني الدكتور زُعرُب. من الغريب أنه وقعَ في حب صبيّة كفيفة كانت تساعد زوجته في المنزل. فاتخذَها مُوظفة استقبال في عيادته، ليكون قريباً منها. وحين يدخل أحدهم إلى العيادة، كانت تتعرف إليه إما من خلال صوته، أو يقول لها «أنا فلان الفلاني». كانت تتذكر من جاء أولاً ومن جاء بعدَه. وهي جميلة المظهر. وكانت تلك الحكاية فضيحة، غير أن أهل البصّة كانوا متساهلين إزاء الفضائح، وينسونها بضحكة. وعندما كانوا يسمعون زوجته تصرخ، كانوا يقولون «أه.. قفشته». كانت البصّة «شريرة».

قبل أن أتحدث عن «الشرّ»، دعوني أتحدث عن الخوري. جاء خوري كاثوليكي جديد وكان متزمتاً. جاء من حيفا. وكان لبنانياً أيضاً، على الرغم من أن الخوارنة لا يأتون بالضرورة من الخارج - فالخوري الأرثوذكسي كان من

القرية. وذلك الخوري كان يكره البروتستانت من صميم قلبه، على النقيض من أسقفه، الأسقف حجّار الذي كان لبنانياً أيضاً. كان مقر الأسقف في حيفا، وكلّما جاء إلى البصّة كان يزورنا، ويصلي مع عائلتنا. واعتاد أن يقول لأبي: «بتأمل إنه ما عندك مانع إنه يصلي معك أسقف كاثوليكي». فيجيبه أبي: «لا». ويدعو الله أن يهدي الأسقف إلى الطريق الصحيح. كان الأمر ينتهي دائماً نهاية سعيدة. ولدَى مغادرته، كان الأسقف يستدير نحو أمّي ويقول: «في أي وقت يقرر فيه زوجك يصير معنا، قولي له إنا بنرحب فيه، وبيقدر يكون خوري ومتزوج».

لكن الخوري الجديد كان من نوع مختلف. كان يمشى جيئة وذهاباً وقت الغروب في «أنطوشه» (مسكنه) كما كنا نسمّيه. كانت غرَفُهُ فوق الكنيسة ولها شرفة. وكان بيتنا بجوار مجمّع الكنيسة. ولذا كان الخوري على شرفته يسمع صلاة أبي في الليل، وكنا نحن نسمع صلواته وترانيمه، وكان حسن الصوت. لكنه بدأ يقول في صلاته أشياء موجَّهة إلينا، كأنْ يدعو الله أن لا يُضلّ الأبرياء نحو كفر البروتستانت. وذات ليلة ردَّد آية من الإنجيل تقول: «أيها الحيّات، يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟».

حكايات الخطيئة

لم ينجح الخوري على الإطلاق في جعل القرية قرية فاضلة. كانت هناك دائماً حكايات عن الزِّنى، وعن تسلل الرجال فجراً من بيوت نساء متزوجات عندما يكون أزواجهنّ غائبين بعيداً عنهنّ. أو حتى الذهاب إليهنّ رغم وجود الزوج، إذا كان من المعروف عنه أن نومه ثقيل. ومثل ذلك حدث لجارة لنا كانت تقيم في طابق أرضيّ، وهي أم ركاد. كانت تسكن خلف بيتنا، وكانت شديدة الجاذبية. كنت أستشعر جاذبيتها. كان زوجها أكبر سناً منها بكثير - وهو نجّار يصنع المقاعد وأقفاص الدجاج. أحبّها شاب غير متزوج يقطن في مكان بعيد في القرية، اعتاد أن يأتي إليها ليلاً، ويتسلل إلى فراشها. وفي بعض الأحيان، كان «أبو ركاد» يسمعهما. كنا نستيقظ في الليل على صوت الضجيج، وهو يصرخ في زوجته، وهي تصرخ متحدّيةً. يا إلهي! كم كان يشبعها ضرباً! ولكن دون طائل. وما كان من العاشق الا أن ينهض، وينتعل حذاءه وينصرف. استمرا على هذه الحال، وحاول الخوري أن يجادل تلك المرأة وأن يصلّي معها، ثم يوبّخها، ثم يهدّدها بعقوبة الحرمان. ولكنهما لم يتوقّفا عن ذلك.

وفي أحد الأيام، فيما كان الأسقف يزور البصّة، ذهب إليه الزوج وقال: «أرجوك يا سيدنا، هي ما بتسمع من الخوري لكن أنت الأسقف، بتسمع منك» جاء الأسقف - وأظن أنه شعرَ بالتحدّي، إذ فشلَ قبله كثيرون - حضرَ ومعه صليبه الكبير وعصاه المذهبة، وخلفه الخوري وبعض الوجهاء. كان موكبا مَهيباً.

كنا نعرف أنه قادم إذ انتشر الخبر بسرعة. أتذكّر إنني كنت راكعاً على كنبة صغيرة بالقرب من النافذة المُواجهة لبيتهم. تكلَّمَ الأسقف معها بصوت منخفض، لكنها كانت تصرخ بأعلى صوتها، «ليش بتحكي معي هيك؟ إنت جاي تقول لي إني زانية؟ كندرتي أشرف من خد عذرائك المقدسة!». رفع الأسقف رداءه عن الأرض، وكأنه يخشى أن يلمس طرفُه أرضَ ذلك البيت النجس، ومضى بسرعة مبتعداً، وسارَ المَوكب وراءَه. كان التقهقرُ تاماً. كان بإمكاننا رؤية ذلك كله لأننا كنا مشرفين على بيتهم. لم يكن بيننا سوى طريق ضيقة. وكانت تلك نهاية الجهود لإصلاح أم ركاد.

كان الابن الأصغر لعائلة فريوات غيرَ متزوج، ويُحبّ أرمَلة. كان أبوه وأمّه ضدَّ علاقته مع تلك المرأة، ولكنهما لم يستطيعا عمل أي شيء إزاءَها، لأن القرية كانت مُتحررة. ولم يكن يخفي علاقته بها. كنت أذهب إلى المُجمَّع الذي تسكن فيه - وقد أصبحَت الغرف العليا منه مدرسة أميركيّة، درَستُ فيها مدة عام قبل أن أنتقل إلى المدرسة الكاثوليكية التي كانت أقرب إلى بيتنا. كان المُجَمَّع واحداً من تلك الدور المكوّنة من عدّة غرف بُنيت حول ساحة (حوش)، وهناك غرفتان أو ثلاث في الطابق الأول. كانت المرأة تملك تلك المنطقة وتسكن في الطابق الأرضي. عندما كنت في ذلك المبنى، كنت أرى ميخائيل قادماً لرؤية شمس، ثم يغلق الباب. كنا نغادر المدرسة بعد الظهر والباب لا يزال مغلقاً. وفي إحدى المرات - وهذه القصة انتشرت في القرية - مكثَ هناك مدة ثلاثة أيام دون أن يخرج. أخيراً، نتيجة ضغط من والده جزئياً وضغط من والدي، تزوجها. وكان أبي هو الذي عقد قرانهما.

قبل أن يتزوج ابنُ خالتي مبَدّى - وحتى بعد زواجه - كان يُحبّ امرأة شابّة في الجانب الآخر من القرية. لم تكن متزوِّجة. وأظنّ أنها ظلت كذلك - رغم أنها كانت جميلة - وذلك لأنها كانت على علاقة حب مع «أبو ميشيل». كانت ترفض كل من يتقدم لطلب يدها. ولم تتزوج مبدّى لأن والدته كانت له بالمرصاد «لازم تتزوج بنت عمَّك». تزوّجَ ابنة عمّه، وكانت قد خُصِّصت له منذ ولادتها، جرياً على عادة أهل القرية. واصل مبدّى التردّد على تلك المرأة الشابّة، على الرغم من أن أخاها كان الرجل الشرس في القرية. كان قد قتل شخصاً أو اثنين وقضى عدداً من السنوات في السجن. ومع ذلك - وهذا ما لا أستطيع استيعابه - كان يميل إلى مبدّى على نحو ما، ولم يشأ أن يؤذي أخته، وسمح للعلاقة بالاستمرار. وهذه كانت علامة أخرى على تساهل أهل البصّة.

أتذكّر أنه في أحد الأيام، كان هناك اضطراب في القرية. قال الناس: «البوليس البريطاني هون»، كانوا يبحثون عن ميخائيل جبور، وهو شقيق تلك المرأة الشابة. وبالطبع ذهبوا إلى بيته أولاً. فلم يجدوه هناك. ولذلك ذهبوا إلى المقهى ليروا فيما إذا كان هناك. كنت واقفاً أراقب ثلاثة من رجال الشرطة

يدورون ومسدَّساتهم في أيديهم - كانت المسألة خطيرة إلى ذلك الحد، كانوا يخشون أن يطلق عليهم الرصاص. كان من النوع الذي يطلق النارَ أولاً، ويستوضحُ لاحقاً. على أيّة حال، لم يعثروا عليه.

«نيِّم الأسمر على زندي أنا»

لم يكن للقرية قسمٌ للشرطة خاصٌ بها. فإذا وقعت مشكلة، يأتي أحدهم ويمكث أسابيع قليلة، حيث كانوا يقيمون في قسم البوليس الكائن على الحدود. كان أحد هؤلاء شرطياً وسيماً جداً، من الناصرة. ذات يوم أقيم عرس في الحيّ الذي نقيم فيه، في البصّة، غير بعيد عن بيتنا. وكنت أحبُّ الأعراس. ذهبت إلى هناك لسماع الأغاني ومشاهدة الدبكة. كان الكلّ يهتف ويصيح: ايفدوك! ايفدوك! يريدون منها أن تغني أغانيها المفضلة. فغنّت أغنية تقول:

«يا حنيّنة يا حنيّنة ياحنيّنة،

ليْش نومِك للظهر، ريته هَنَا

نيِّم الأسمَر على زندي أنا».

وهذا الشرطي الذي كان يُحبّ إيفدوكيا كان أسمرَ اللون. وبالطبع كانت تلتفِت إليه وهو يلتفِت إليها، وكل الحاضرين يصفقون ويطلبون منها إعادة الأغنية.

وفي نهاية الأمر تزوّجته. كانت حسناء الحيّ. ولم يكن طموحها عالياً، لم تكن ترفض شرطياً عاديّاً. ربما كانت تعتقد بعدم وجود فرصة أمامها للزواج من رجل ثريّ لأنها تعيش في قرية. كان لها إخوة ولكنهم لم يروا بأساً في ذلك. فهي لم ترتكب أيّ خطأ. كانت تعبث بالكلمات، ولم تكن هناك قبَل في زوايا الشوارع. كانت ذكية وجريئة. قامت مرة بدور في إحدى المسرحيات التي أشرت إليها، وظهرت في الشرفة أثناء الاستراحة بين فصلين لتنادي على شخص تحت الشرفة وهي ترتدي تنّورة داخلية، وبدون أكمام، هكذا تماماً، وكان المصباح (اللوكس) يلقي بأشعته عليها.

الأعراس والأعياد كانت بشكل عام مفعمة بالفرح. في الأعراس، كانت الحفلات تمتدّ عدّة أيام - فهناك الزّفّة، حيثُ يجري توصيل العروس إلى الكنيسة، ويتمّ ذلك في موكب. وهناك العريس الذي يتم توصيله إلى بيت العروس. نشاطات كثيرة تجري. فإلى جانب الدّبكة، تكون هناك رقصات فرديّة. وكان على العروس أن تتجلى، يُجَلون العروس، أي أنها تتألق. فتحمِل الشموع في يديها، وتتهادى بقدر كبير من الكبرياء. وإذا حدث العرس في الموسم، يكون لها تاج من زهر الليمون (أو البرتقال) حول رأسها. وتقوم العروس بتبديل ثيابها عدة ِ مرات. ويستمرّ الاحتفال عدّة أيام. وأظن أنهم

كانوا يزفون العروس مشياً على الأقدام إلى بيت العريس. فلم تكن هناك خيول كثيرة في البصّة. وكان الناس يأتون من قرية «الزيب» القريبة، ولا تبعد سوى خمسة كيلومترات عن البصّة. كان هناك بيدر واسع، جنوب القرية. فكانوا يتسابقون ويدورون على ظهور الخيل وهم يلوّحون بالسيوف.

كان الحكواتي يحضر ومعه صندوق العجب. ونحن نجلس، اثنان فقط في كل مرة، على مقعد صغير، وننظر في الصندوق، وهو يُحرك شيئاً بيده - مثل فيلم - ويحكي الحكاية التي نشاهد صورها داخل الصندوق، ويردد بصوت غنائي: «انظر واطلّع وشوف، شوف المعركة عالمكشوف، أبو زيد الهلالي راكب عاحصانه الأسود». ثم نعطيه «تعريفة» (نصف قرش) أو بيضتين. وكان يأتي بين حين وآخر. كان ينزل فجأة من حافلة أو سيارة أجرة، حاملاً صندوقه على ظهره ويقف في أماكن مختلفة من القرية، فيأتي الناس ويتفرَّجون. وهناك عدد من الحكواتيين، وبين الحين والآخر، يأتي إلى القرية عدد من المطربين ومعهم العود. أو يقومون بتنظيم ذلك بالتعاون مع صاحب المقهى، صاحب المقهى الكبير في الساحة، فيجلسون ويُغَنّون لعدة ليالٍ، ويعزفون على العود، يُغنون الأغاني المصرية: يا ليلي يا ليلى». كنتُ مُغرماً بالذهاب إلى هناك. ولم يكن أبي ليوافقَ على ذلك، لكن أمّي تقول له: «خليه يا أبو يوسف». لم يكن يوافق لأنه عادة ما يكون هناك إفراط في تناول الشراب، ولأن الأغاني كلها تدور حول الحب والغرام. فيقول عابساً: «ماشي، شرط يرجع قبل الصلاة». وذلك يعني عند مغادرة السهارى، أو «السهِّيرة» كما قال.

الحياة العائلية: الصلوات ورحلات النزهة

الحياة العائلية في البصّة، ضمن عائلتنا، ظلت تتضمّن قدراً كبيراً جداً من الصلوات، صباحاً ومساءً. وما كان يقيّدُ قدرتي على أداء ذلك الكمّ الكبير من الصلوات هو حقيقة كون البصّة، خارج بيتنا، أكثر إثارة لاهتمامي مما كانت عليه حوران. ففي حوران، كانت الحياة خارج بيتنا مُملة، لذلك كنت أتقبل الصلوات بسماحة أكبر. لكن البصّة كانت حافلة بالأحداث والأحاديث المثيرة. كان فيها أناس أكبر مني سناً، الشباب. أتذكر شخصاً بالتحديد، كان لديه دكان قريبٌ مِنا. وكان شريراً، اعتاد أن يحدثني عن النساء، وكيفية استمالتهنّ. أتذكر أنني تعرفت على «الواقي الذكري» عن طريقِه، وكان يشجِّعُني على مضاجعة إحداهن. لذلك كان من المؤلم لي قضاء وقت كبير في الصلاة كل يوم، أكرّر الأشياء التي كان أبي يريد أن يقولها للربّ، كلمات الشكر نفسها، والدعوات نفسها، والصلوات نفسها من أجل القرية الخاطئة.

فيما يتعلق بالصلوات العائلية، هناك حكاية حدثت في وقت لاحق، ولكني سأحكيها الآن. عندما كبرنا بما يكفي لتمكيننا من قراءة الإنجيل بأنفسنا،

وعلى حفظ الآيات، قال أبي: «هلأ، يا أولاد، بكرة دورك أنت - ويشير إلى واحدٍ منا - رح تسمّع آية في صلوات العصر من قراءتك للإنجيل خلال اليوم». كنا نفعل هذا. حين نجد شيئاً يبدو لنا مُناسباً، كنا نحفظه لنتلوه من الذاكرة. ولكن ذات يوم، نسي فؤاد حفظ أي شيء، وفي المساء، حين جاء دوره، ردّدَ: «بكى يسوع» المأخوذة من قصة أليعازر. نظر أبي إليه وقال: «هذي بس؟». فقال فؤاد: «نعم، آية كاملة». فقال أبي: «نعم، ما في أقصر منها في كل الإنجيل؟، طيب حاول تلاقي آية أطول المرّة الجاي». وفي اليوم التالي، وجد فؤاد بالصدفة آية أطول يقول نصها: (من أجل هذا يترك الإنسان أباه وأمه، ويلتصق بامرأته، ويكونان جسداً واحداً). تلا فؤاد الآية ساعة الصلاة. وكان في العاشرة أو الحادية عشرة من العمر آنذاك. وأظن أن ذلك حدث قبل أن نرحل من البصّة إلى طبريا بوقت قليل. نظر أبي إليه بشيء من الانبساط، ولكنه لم يكن يريد إظهار مشاعره. وقال: «لازم يعني تنطّ من «بكى يسوع» لهون؟ ما في شي وسط بينهم؟».

شيءٌ آخر عن الصلوات - غالباً ما كنتُ أنام فيما أبي يواصل ترتيل صلواته، وإذا صدف وجودي قرب أمّي، كانت تنخزُني لكي أصحو عندما يُوشك أبي على الانتهاء من الصلاة.

كانت حياتنا العائلية في البصّة حياة سعيدة للغاية. لم تكن تنشب نزاعات كثيرة أو مجادلات بين الأطفال. وقع مثل ذلك فيما بعد، عندما كبر فؤاد وفايز، في طبريا، وذلك منذ أن أدرك فايز أنه ذكي، فأصبح مشاكساً، وراح يحاول أن يستفز فؤاد، ولكنه لم يكن يستفزني. في البصّة كنا نلعب كثيراً خارج البيت، نذهب معاً خاصة في عطلات الصيف، لنقطف ثمار التين في الصباح الباكر، حين يكون التين طازجاً وبارداً. كنا نأخذ سلّة ونذهب جميعاً، الكبار الذين يستطيعون تحمّل الطريق، وفي العادة نذهب فؤاد وفايز وأنا. كنا نذهب أيضاً في رحلات للنزهة إلى باط الجبل، وهو المكان الذي نقطف منه التّين، وإلى مكان آخر اسمه معصوب، وهو أعلى قليلا، وكان التّين فيه أفضل. وفي بعض الأحيان، كنا نذهب إلى حقول الزيتون بين القرية والبحر. ونقوم بنزهات تحت أشجار الزيتون، ونلتقط البطيخ الماثل أمامنا مباشرة على الأرض، والخيار والبندورة. لم يكن الناس يكترثون إذا ما أخذت القليل من الثمار. ولكن كان لدينا ما نملكه منها. كم كنا نقوم برحلات النزهة تلك! كانت رائعة. هناك مكان آخر كنا نذهب إليه عادة وهو قمة التلّة التي أشرت إليها سابقاً. اعتدنا الذهاب إلى هناك حيث توجد أماكن كثيرة يتوفّر فيها التّين والزيتون الذي يملكه أصدقاؤنا. ففي البصّة أماكن متنوعة حولنا يمكن الذهاب إليها.

كما كنّا نتنزه في المشيرفة قرب البحر. كنا نذهب ضمن مجموعة كبيرة دائماً. فتأتي ليا معنا، وفي وقت لاحق، كان قريب لي يسكن بجانب بيتنا ويأتي

مع عائلته برفقتنا، أبو غسان، وهو الشخص الوحيد في البصّة الحاصل على شهادة جامعية. فكان هو وزوجته وأولاده ينضمُّون إلينا. فنشكِّل مجموعة كبيرة، نذهب في حافلة صغيرة أو سيارة. أو نمشي، فالمسافة تستغرق خمساً وأربعين دقيقة سيراً على الأقدام، نأخذ حماراً نحمل عليه أمتعة الرحلة والحُصر. فنفرش الحُصر تحت أشجار الزيتون. وكان هناك مقهى بجوارنا يزودنا بالمشروبات الباردة. وتجهِّز السيِّدات الطعام - الكبّة، وأية مأكولات أخرى قمن بإعدادِها - ومستلزمات القهوة. كنا، نحن الأبناء، نمضي لنسبحَ في البحر قبل الغداء ونعود وعلينا أملاح البحر، فنسبح في مياه الحوض لإزالة الملح عنا - وكان الحوض قريباً من مكان النزهة، وهو تابع لقرية المشيرفة. كانت هناك ينابيع في تلك المنطقة، وقد أنشِىء الحوض لري الحدائق وبساتين الفاكهة.

كانت أمّي تصطحب ابنة أختها ليا معنا. عندما ذهبنا إلى البصّة سنة ١٩٢٥، كنت في التاسعة من عمري وليا في السادسة عشرة، ولم تكن قد تزوَّجت في ذلك الوقت. وبعد سنة، خطبت وتزوّجت. بعد ذلك كان زوجها «جاد» يرافقنا، وأحياناً أخواها مبدّى والياس. كان أبي حاضراً معنا دائماً. ولديه زوج من الملابس الداخلية مفصَّلان خِصِّيصاً للسّباحة. كانت النساء يسبحنَ أيضاً. وعلى بعد ثلاثمائة متر تقريباً من مكان التنزه توجد صخور، فكنّ يتوارين خلفها لتغيير الملابس. لا أظن أنه كان لديهن أزياء للسباحة، فكن يسبحن في التنانير الداخلية. كان الشاطئ رائعاً، أبيض، والرمال نظيفة بلا نفايات، كان ذلك قبل ظهور البيبسي كولا وقطع الشوكولا. يا لها من متعة! كان البحر هائجاً هناك، وكان خطِراً إلى حدٍّ ما، ولكننا لم نكن نذهب بعيداً.

تعلَّمتُ أصول السباحة عندما كنت في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، في البحر، قربَ البصّة. كنا نذهب من المدرسة. ذات مرة، ذهب معنا أحد معلّمي المدرسة، وكان رجلاً غبياً. كان يصطحب عشرة طلاب أو اثني عشر طالباً في كل مرة للسباحة. وكان هناك فرق كبير بين مستوى المد والجزر. لم يكن قاع البحر كله رملياً، كانت هناك صخور أيضاً. وفي أحد الأماكن، يكون الصخر مقعراً وفي داخله رمل. حين يكون المد منخفضاً يمكنك السير هناك، وعند المدّ، يصبحُ مغموراً وعميقاً. في ذلك اليوم كنا نلعب، لم ألحظ أننا نمضي بعيداً، وأن الماء يصبح أكثر عمقاً، وفجأة وجدت نفسي في تلك البقعة الرملية، ولكن الماء كان فوقي بنحو نصف متر. صارعت لأبلغ سطح الماء. كان المُعلم يسبح تحت الماء بالقرب مني - وكان سبّاحاً ماهراً - فأشرت إليه بيديّ ليقترب أكثر حتى أتمكّن من الإمساك به وأرتفع إلى أعلى. كان يعرف أنني لا أتقن السباحة، ولكن لأنه غبيّ، ظنّ أنني ألعب، فبدأ يقلدُني، ويغيظني تحت الماء. أخيراً لاحظ أن عينيّ تجحظان من رأسي وأنني بدأت أعبُّ الماء.

فأمسكَ بي، ورفعني، ثم أخرجني مباشرةً نحو الرمال، ومدَّدني ورأسي إلى الأسفل. رفع رجليّ لأخرج الماء من رئتيّ.

استرحتُ تحت الشمس مدّة نصف ساعة، لاستعادة هدوئي. ثم ذهبت إليه. فقال: «ما في سباحة اليوم». فقلت: «رح تعلمني كيف أسبح». فقال: «فيك حيل؟ بعد ما غرقت تقريباً؟» قلت له: «جرِّبني». فأخذني وعلَّمني في عصر ذلك اليوم نفسه كيف أسبح. تعلّمت حركات التجديف العادية فقط، وليس السباحة على الصدر. ولكن ذلك كان كافياً، حيث استطعت أن أظل طافياً على وجه الماء. وبعد أيام قليلة، ذهبت مرة أخرى مع أبناء خالتي - مبدّى كان عاشقاً للبحر، كان يذهب كل يوم إلى البحر للسباحة. فعلمني السباحة على الظهر، ممّا منحني الكثير من الثقة بالنفس. كان ردُّ فعل والديّ جيداً إزاء هذه القصة. عندما أخبرتهما كيف كدتُ أغرق، لم يقولا سوى «هذي شجاعة منك، إنك تتعلم في اليوم نفسه».

كبُرت عائلتنا بقدوم عضوين جديدين في البصّة، ماري ولدت في سنة ١٩٢٧، كما ذكرت. وكانت أوَّل شخص في العائلة تتم ولادته على يد قابلة مُتدربة، وهي إحدى المُعلمات اللواتي أنشأنَ مدرسة البصّة. منير وُلدَ في البصّة أيضاً، قبل رحيلنا إلى طبريّا بستة أشهر أو سبعة. كانت أمّي سعيدة للغاية لأن يكون لها ابنة. كل الأقارب والجيران كانوا سعداء لأجلها أيضاً، فبعد أربعة أبناء، كان الوقت مناسباً لقدوم ابنة. وقد سموها «ماري» على اسم الآنسة فورد.

كان أبي يقوم بكل ما يتعلق بالتسوق، الطعام وخلافه، لأنه كان على أمّي الاعتناء بذلك العدد الكبير من الأبناء في البيت. كنا دائماً نقدم يدَ المساعدة. في حوران، كانت تساعدنا أم شفيق، وهدى ثم جاءت فتاة من حوران للمساعدة في أعمال البيت. ولكن، مع ذلك، كان على أمّي في نهاية الأمر أن تعتني بسبعة أبناء. كانت تقوم بصنع ملابسنا، القمصان والبناطيل القصيرة، وأثواب ماري. كان لديها الكثير من الأعمال. كان أبي أبرع من أمّي في المساومة. فحين تجد أمّي شيئاً باهظ الثمن، كانت تطلب من أبي أن يقوم هو بشرائه. كانت هي تعدّ مؤونة البيت كما كان يفعل أهل القرية. في حوران، كان الباعة يركبون الحمير ويتجولون ليبيعوا الزبيب والبطاطا، لأن محلات البقالة ليس فيها شيء من ذلك. أما في البصّة، فالمحلات كانت بجوارنا حيث كان أبي يحمل السلّة، وأنا أذهب عادةً معه، إلا إذا كنت في المدرسة. كنت أذهب لمجرّد أن أكون معه، كنت أستمتع بذلك أكثر من إخوتي. كنت أندفع نحوه قائلاً: «أنا جاي معك بابا». كنت أستمتع بالخروج، وأستمتع بوجودي إلى جانب أبي.

الزيارات والشخصيات

كانت الزيارات من العناصر المكوِّنة لحياتنا العائلية أيضاً. كنا نزور أقاربنا وأصدقاءنا المقربين في القرية. وأكثر من كنت أحب زيارتهم شكري فريوات، رئيس المجلس المحلي السابق، وهو بروتستانتي وابن خالة أمّي، كان يسكن في الطرف المقابل من القرية. كنت أحب الإصغاء إليه، فهو يتحدث بوضوح بالغ ودهاء. أتذكر أنني لاحظت كيف كانت كل كلمة من كلماته مدروسة، ولها هدف. كان قصير القامة نوعاً ما، مستقيم الظهر، يلبس وفقَ الموضة دائماً، إلا عندما يكون مسترخياً في بيته.

أودُّ أن أصف حنّا بولس، الرجل الذي أصبح رئيس المجلس المحلي بعد فريوات، والد «أبو جوزيف». لم يكن داهية إطلاقاً. وعلى الرغم من بساطة شخصيته، كان مهيباً في زيه العربي. كان بنطاله الواسع مصنوعاً من «ستّك روزا» وهو قماش من الحرير بأشرطة على الجيوب من الجانبين. كان ينتعل حذاء أسودَ يلمع دائماً، ويضع وشاحاً حول خصره. وقمصانه رائعة، أنيقة دائماً، ونظيفة ومكوية. كما كان يلبس كوفية من الحرير وعقالاً يضعهما بأفخم طريقة ممكنة. وشاربه كث ومبروم. كان رجلاً شديد الوسامة. وكان رئيساً منتخباً للمجلس المحلي، مما يعني أن له شعبية. كان شديد الحيوية. عملَ على تعبيد الطرق، وأنشأ خدمة جمع القمامة. وعلى الرغم من أنه لم يكن حاذقاً مثل فريوات، فقد كان رجل أفعال. كان له خمسة أبناء، ولكن لم يتجاوز أي منهم الصفوف الابتدائية. حاول أبي إقناعه بإرسالهم إلى المدرسة في صيدا أو إلى مكان آخر في فلسطين، ولكن، بالطبع، كانت كل المدارس التي يعرفها أبي بروتستانتية، وكان حنا بولس يرفض لأنه كان من أعمدة الكنيسة الكاثوليكية في البصّة. ولم يكن ليرسل أبناءه إلى مدرسة للبروتستانت.

كان لأمّي اثنان من الأخوال، إخوة أمها، على قيد الحياة آنذاك. كنا نذهب لزيارة الأخوال، وكنت أحب ذلك. كان لأحدهم بيت جميل، من الحجر القديم، وفوق البيت غرفة مثل برج، تصل إليها بواسطة درج خارجي. وفيه حديقة رحبة تضم عدة أنواع من الفاكهة - الرّمّان، والعنب، والتين، والصبير، ولكنه كان شديد البخل. كانت أمّي ترسلني لشراء الفاكهة منه، ولنفترض أنه كيلو من العنب. كان لديه واحد من الموازين القديمة، يرفع كفَّتيه ليتأكد من أنهما مستويان ومتوازيان تماماً. وإذا رجَحت كفّة الفاكهة قليلاً، كان ينزع خمسَ حبَّاتٍ من قطف العنب. ذهب الابن الأكبر لهذا الخال إلى مدرسة صيدا، مدرسة أبي، لأن أمّه كانت من صيدا. كان له ابنتان، إحداهما تزوجت وطُلقَت وكان يُعرف عنها أنها مُنحَلّة. أتذكر أنني بعد بضع سنوات، عندما كنا نزور البصّة قادمين من طبريّا، كلّما زارتنا تلك المرأة، إذا صدف وجود أبو جوزيف، فإنه يقول «يوسف، كم مرة بتقدر تنام مع كيساني إذا سنحت لك الفرصة؟» كان يقول ذلك بحضورها!. فتقول له «لا تخرِّب الولد!»، فيردّ قائلاً: خلّيه

يخرَب، إنتِ فرصة مثالية، إنت قريبته، إنت نظيفة، ليش لأ؟ فتقول: «لا أبو يوسف، بيكفي».

أما الخال الثاني فقد كان طبيبا قروياً على قدر كبير من الدهاء، وكان محترماً في القرية حتى بعد أن جاء إلى القرية طبيبٌ مؤهل. وذلك الخال، مثل والد «أبو فكتور» لم يكن طبيباً مدرباً. يذهب الناس إليه يشكون من أذى في العين أو من الرمد الحُبيبي (تراخوما)، فيعطيهم قطرة مما عنده. أتذكر أنه أجرى جراحة لإصبعي عندما كان فيها دمّل به صديد، ففتحه وعالجه. كان يُركّب بعض الأدوية، وبعضها الآخر يشتريه. كما كان يقوم بتجبير كسور العظام، ولديه بعض الكتب.

هناك حكاية نادرة عن هذا الخال، وهي أنه جاء إليه شاب اشتهر في القرية بأنه لصّ، وتظاهرَ بأنه يشكو من توعّك في المعدة. وأدرك خالي أن الرجل إنما أراد أن يعرف أين يخبئ المال. وذات يوم كان يتوقّع قدومه، فأخرج بعض الأوراق المالية، وعندما سمع خطواته، أخذ النقود وتظاهر بأنه يلفّها بمنديل، بطريقة تجعل اللص يرى النقود من خلاله، وحين دخل الشاب، أدخل خالي المال في فتحة مصرف أسفل الجدار على مستوى الأرضية. عرف خالي أن الرجل سيأتي في تلك الليلة ليسرقها. فصعد إلى السطح ووضع فرشته هناك فوق المصرف تماماً، وفي يده حجر صغير، وانتظر. جاء الشاب وسقط الحجر على ظهره. فولّى الأدبار دون أن يأخذ النقود.

كان هناك أناس كثيرون يمكن زيارتهم في البصّة - ليس البروتستانت فحسب، فقد كنا نزور الكاثوليك أيضاً، ولم يكن أفراد أبرشية أبي كلهم من البروتستانت - فعلى سبيل المثال، أبو ميشيل وأبو جوزيف كانا من الكاثوليك رسمياً ولكنهما كانا يجيئان إلى الكنيسة، لمجرد التواصل الاجتماعي. كنت أحب الزيارات رغم أن بعضها لم يكن مثيراً للاهتمام، كزيارة أبناء خالات أمّي مثلاً. فقد كان لأمها ثلاث أو أربع أخوات، ولهذا كان لديها الكثير من أولاد الخالات. كانوا جميعاً متزوجين ولديهم أبناء، لكن أبناءهم لا يتمتعون بقدر كاف من التعليم، باستثناء واحد منهم كان في صفي الدراسي، وآخر ذهب إلى صيدا في نفس الوقت الذي ذهبت أنا فيه إلى هناك. ولكن أمه، على النقيض من والديّ، قالت له: «ليش لازم تروح عالكليّة؟» وذلك على الرغم من أن والديه كانا يملكان القدرة على إرساله للكلية بما يفوق قدرات عائلتي. وبدلاً من ذلك، قالت له: «دوِّر على شغل في فلسطين». وهكذا شغلَ وظيفة شرطي أثناء الإضراب، ولا بد أن ذلك حدث سنة ١٩٣٦، بعد عامين من تخرّجه من المدرسة. كان يعمل شرطياً في عكّا، وكان محبوباً جداً في قوة البوليس لأنه كان ذكياً، ولديه شهادة مدرسية. كان له مستقبل واعد بالتأكيد في سلك الشرطة، كان يمكن أن يصبح ميجور، مثل منير أبو فاضل. خُصصت له غرف

في عكّا، وذات يوم فيما كانت أمه تزوره، وهو واقف يتحدث معها، ويخبّرُها عما كان يفعله ذلك اليوم، وفيما هو واقف هناك، مستنداً إلى النافذة، قبالةَ أمه، أطلق أحدهم الرصاص عليه فأرداه قتيلاً على الفور.

كان هناك ثلاثة أعضاء مُخلصين في أبرشية أبي، وجميعهم من المكفوفين. منهم موسى جبران خوري، وهو ابن إحدى خالات أمّي. أصيب بالعمى حين كان عمره أقلّ من عشر سنوات.

كان الجدري قد انتشر في القرية، وكان هو وأخته نائميْن بالقرب من بعضهما، وكلاهما مصاب بالجدري. استيقظت أخته ذات ليلة لتذهب إلى دورة المياه. لم يكن هناك ضوء. فمدّت يدها لتستند اليها عند القيام، فإذا بها تدخل في عيني أخيها، مما سبب له العمى، وكان مصاباً بالجدري في عينيه. الكفيف الآخر هو خليل محسن.

الكفيف الثالث كان مصريّاً ظهر فجأة ذات يوم، ومعه من يرشده إلى بيتنا. ويبدو أنه جاء إلى القرية وسأل: «في قسيس بروتستانتي هنا؟». فقالوا له: «أيوه في قسيس إسمه عبد الله صايغ». «ممكن حدّ يقول لي بيته فين؟» فأحضروه إلينا. وقال: «أنا مصري، ولدت مسلماً، وتربيت مسلماً، وكنت شيخاً، لكني تنصَّرت». كان له صوت جميل وقد كان مؤذناً قبل تحوله إلى المسيحية. فأسكنته العائلة في غرفة صغيرة في الطابق الأرضي لم تكن مؤجّرة. قال إنه جاء لقضاء أيام قليلة، ولكن الأيام القليلة أصبحت سنوات قليلة. كان فظيعاً! حتى الآن، حين أفكر في ذلك، أحس بغثيان، لأنه كان قذراً، وطريقته حين يأكل لم تكن أنيقة كما هي حال الكفيفيْن الآخرين اللذين كانا يأكلان عندنا. كان يظل معنا طوال الوقت، عاش معنا. كانت أمّي المسكينة تنزل له الطعام وتلمّ أطباقه المزرية. ولسبب ما كان حلقه خصباً، ولديه الكثير من المخاط الذي يبصقه، ودائماً كان يبصقه بعيداً جداً.

وفي وقت ما، غادرنا لفترة قصيرة، وخلال تلك الفترة ذهبنا إلى طبريا. ولكنّه وجدَنا هناك، في طبريا. ومكثَ عاماً أو أكثر. وذات يوم، برمتُ به إذ طفحَ الكيل تماماً، فانتظرت حتى خرج والداي للقيام بزيارة، وقلت له: «إذا ما غادرتش خلال كذا يوم، رح أخليك تغادر، تسألنيش كيف، مش راح يكون شيء يسرك، أمّي خلاص، بيكفيها». كان يُسمي نفسه بطرس، كمُتنصِّر. وكان مفعماً بالحماسة للمسيحية لدرجة جعلته يحاول هدايةَ أبي!. كان يجلس هناك، ويشارك في الصلوات، وكان يصلي كثيراً - يا إلهي! هذه أفظع ذكرياتي عن القرية. كان يجلس هناك يصلي ويهزّ رأسه إلى الوراء وإلى الأمام. توفيق كان يحبّ المزاح والمرَح - رغم مروره بلحظات من الحزن غير المبرَّر - وحين كنا نصلي، كان ينظر حوله ليرى كيف يصلي كلٌّ منا؛ وكان يسمي منير المسكين «بطرس منير»، لأنه كان يغمض عينيه بقوة، كما كان يفعل بطرس.

لم يعبِّر أبي مرّة عن أي امتعاض من بطرس، وكان هو وأمّي يقولان: «يوسف، معلِش حبيبي، هادا أجر عنكن». أيْ، إحسان يحميكم من الشر. «شو هيّه الأخوّة إذا ما كانت هيك؟، هو متنصِّر، ومسكين». هذا نبل عظيم، ولكن لماذا يجب أن يكون ذلك كلّه على حسابنا؟

من الشخصيات الأخرى في القرية، كان ذلك المخنث المتشبه بالنساء. وهو حفيد القابلة التي جاءت بي إلى هذا العالم - امرأة رائعة - أتذكر أنها كانت تزورنا خلال سنوات طويلة كلما ذهبنا إلى البصّة. كان مولعاً بملابس النساء. فهو يلبس الكعب العالي ويضع المكياج، ويحلق ذقنه ويزيل الشعر عن رجليه، ويضع «البودرة» على وجهه، وكذلك أحمر الشفاه. لم أرَهُ قط إلا في ملابس النساء. وفي ساحة القرية، خاصة أيام الأحد، حيث يجلس العشرات في المقاهي، يشربون ويدخنون «الأرجيلة» ويتحدثون. كانوا جميعاً يصيحون وهم يحيّونه: «أندراوس، شو رأيك يكون دوري الليلة؟» كان يضحك. التسامح هي الكلمة التي تعبّر عن البصّة.

من الجوانب السارّة للحياة في البصّة كانت علاقتنا مع «أبو غسان»، وعائلته، وهم جيران قريبون جداً منا. كان أبو غسان رجلاً ذكياً على قدر عالٍ من التعليم، سافر وعاش في أميركا الجنوبية. كان يميل إلى والدتي كثيراً - وفي الواقع، في وقت سابق، يبدو أن عينه كانت عليها. ولكنه قرر أن لا يتزوج مبكراً، وبدلاً من ذلك، قرر أن يهاجر مع أخيه إلى أميركا لتكوين ثروة هناك. جمع بعض المال ولكن كان عليه أن يترك عمله بسبب سوء حالته الصحية، ويعود إلى البصّة. عاش عدة سنوات بدون عمل، ثم أصبح معلماً في المدرسة الكاثوليكية. وهذا ما دعاني إلى الانتقال إليها. كنت قد قضيت سنة واحدة في مدرسة الإرسالية الأميركية، ولكنه قال لي إن منهاج مدرسته أفضل، وبما أنه كان على قدر جيد من العلم، انتقلت معه إلى المدرسة الكاثوليكية. كان لديهما ثلاثة أبناء، غسان، الابن الأكبر، وهو أصغر مني بخمس سنوات تقريباً. وكانت هناك ابنة أصغر منه بسنتين تقريباً، وابنة أخرى. وثلاثتهم يتميزون بحسن الطلعة. وكانت أمهم جميلة. التقى بها في أميركا الجنوبية. كانت مهاجرة لبنانية أو سورية، ولدت هناك. ولغتها العربية هي لغة الجيل الثاني من المهاجرين، تعلمَت بعض اللغة من عائلتها ولكن لم تكن لديها طلاقة كبيرة.

ثم كانت هناك حَنِّة. بهية الطلعة - نحيلة، سمراء، بعينين متألقتين، تلوح فيهما ابتسامة عندما تريد أن تكون رقيقة. كانت متزوجة من أحد إخوة «أبو جوزيف» الأكبر منه سناً. وفي البدء، كان الأخ الأكبر مغرماً بها، كان مغرماً بزوجة أخيه. وكان قد أقام معها علاقة. وهذا الأخ الأكبر، قبل أن تصبح حنة مفضلة عنده، تأخر في الزواج، وحين فعل، تزوج من ابنة امرأة كان يقيم علاقة معها، ثم تحول إلى حنة. كانت حنة شريرة، على الأقل كما تصفها أم

جوزيف التي اتهمتها بوضع عقرب في سرير ابنها البكر جميل. وعلى نحو ما نشب بينهما شجار - ولا أدري إذا كانت أم جوزيف تشك في أن «أبو جوزيف» كان يتلصص على حنة عن قرب - ولكن كان بينهما شك متبادل. وضعت أم جوزيف بنتاً، ثم بنتاً ثانية، ثم أجهضت مرتين أو ثلاث مرات، ولذلك كانت متلهفة للحصول على ولد. وحين وضعت ولداً، أخيراً، سمّته «جميل». وبالفعل كان مولوداً جميلاً. وذات يوم، كانت أم جوزيف تقوم بعمل ما خارج البيت. وحين دخلت، وجدت الطفل يصرخ. فرفعته من السرير، وتوفي بين يديها. وفي السرير، وجدت العقرب. وكانت دائماً تتهم حنة بدس العقرب هناك لأن حنة كانت تمر بالقرب من السرير قبل وقوع الوفاة مباشرة. وكان بيتهم قد بُني على الأرض التي كانت بيدراً في السابق. لذا يمكنك أن تتخيل وجود عقارب هناك. كانت أم جوزيف مقتنعة تماماً، ولا يمكن لأحد أن يجادلها في ذلك.

أبو ميشيل فقد ابناً أيضاً. وكانت خسارة «أبو ميشيل» أكثرَ إيلاماً لأن ابنهُ كان أكبر من جميل عند وفاته. كان اسم ابنه سليم. وبينما كان أبو ميشيل يقوم بالدهان، وضع زيت التربنتين في كأس ليستخدمه إذا ما احتاج إليه لتليين الفرشاة. كان الولد يلعب في الخارج. وكان الجو حاراً، فاندفع إلى الداخل ورأى تلك الكأس التي حسب ما فيها ماءً، فكرعَ كل ما فيها بسرعة. وبدأ يصرخ من الألم على الفور. حين ذهب أبو ميشيل ليرى ما جرى، رأى الكأس فارغة. فنقلوا الولد إلى عكّا، ولكن لم يكن باستطاعتهم فعل أي شيء، ومات.

أعود ثانيةً إلى حنة. كنت آمل لسنوات عديدة أن تنتبه لوجودي، ولكنني كنت أصغر من أن تعيرني انتباهها، لم يحدث أي شيء بيننا على الإطلاق. ولكن ذات يوم، الياس وأنا ذهبنا لزيارة أم جوزيف. في ذلك الوقت، كانت أم جوزيف تقيم في بيت حميها (أبي زوجها) مع حنة وزوجها وسائر الإخوة. كان ذلك في وقت متأخر من العصر، بعد غروب الشمس، وقت حلول الظلام تقريباً، ولكن لم يكن ظلاماً يستدعي إشعال المصابيح. لم تكن أم جوزيف في البيت، فقالت حنة: «أقدم لكم حلقوم؟» فقلنا: «إي». فانحنت لتفتح درجاً لتخرج منه علبة الحلقوم. كانت ترتدي تنورة قصيرة، ولكي تجعل حركتها أسهل، رفعت التنورة، وعند انحنائها باعدت بين ساقيها. الياس وأنا كنا ننظر إلى ساقيها، ووجَّه الياس ضوء مصباحه الكاشف نحوهما. فقالت: «يحرق دينك، شو مستعجل! شوي شوي! خود نفَس!». ذلك هو كل ما جرى. ولم تكن في الواقع غاضبة.

زوجة قريب آخر، هو أبو خضر، حاولَت ذات مرة أن تغويني. كانت أمّي قد أرسلتني لإحضار زيت الزيتون من بيتهم. كانت هناك غرفة كبيرة، وبها حاجز

فاصل، وخلفه، كان أبو خضر يضع تلك «الخوادر» الضخمة حيث يحفظ فيها الزيت والزيتون. قالت: «تعَ، فوت، يا حبيبي، فوت». لا بد أنني كنت في الخامسة عشرة تقريباً آنذاك. كانت تجد صعوبة في الحمل لعدة سنوات، ثم بدأت تنتج بنتاً بعد أخرى. قلت لها: «كمَالي، أمّي بدها شوية زيت بهيدا، عبي لي ايّاه شويّة زيت». فردت: «تكرم». دخلت خلف الحاجز ووقفت هناك، ورفعت ثوبها إلى أعلى حتى ملابسها الداخلية، ثم قالت: «إجريّي حلوة بيْضا، فوت شوي، كان فيه صبيان بوجّك». «شو هالحكي هيدا، تع، تع يوسف، بتنبسط، أبو خضر مش هون». شعرت برد فعل، ولكنني لم أستسلم له. كان يمكن أن تبدأ في الصراخ «شوفوا يوسف شو عم يسوي لي!» كنت أخاف الفضائح. وكنت أدرك أن إقامة علاقة معها خطأ وأمر خطير.

اتجهت نحو الباب لكي أغادر. فقالت: «خليني أعطيك زيت» لا بد أنها فكرت أنني إذا عدت بدون الزيت، فإن أمّي سوف تستهجن الأمر. فإما أن تظن أن كمالي رفضت إعطاءنا الزيت، وهذا ليس من حقها، أو أن تظن أن شيئاً ما قد حدث وسوف تسألني ما هو. فأعطتني الزيت وأعطيته لأمّي. وأتذكر أن أمّي كانت تنظر إلي - لا بد أن وجهي كان مضطرباً، فاكتفيت بالقول: «بقدر أقول إنها ما كانت حابة تعطينا زيت». كان عليّ توصيل شيء ما لها بسرعة لإشباع فضولها.

في أواخر الثلاثينيات، قرر والداي أنهما لم يعودا يرغبان في الذهاب إلى البصّة لقضاء الصيف. وكان سبب ذلك أننا بدأنا نواجه المتاعب مع مبدّى، «أبو ميشيل». كان لصاً. فالأملاك لخالي وأمّي ولأمه، لكنه كان يستحوذ على الزيت كله وعلى حصة الأختين وعلى حصّة أخيه. فإذا كنا نريد بعض الزيت كان على أمي أن تطلبه منه، على الرغم من أن لها حقاً فيه. كنا نراه عائداً ومعه عدة كيلوغرامات من الخيار الطازج والندَى لا يزال عليه، من الحقل، ولم يكن يفكر إطلاقاً أنه كان مزروعاً في أرضنا المشتركة. كان يأتي إلى أمّي ويقول لها: «الزراعة تكلف كذا وعليك حصة من الكلفة بمقدار كذا وكذا». ولكن حين يتعلق الأمر بالغلة، كان علينا أن نطلبها منه. ثم كان يتشاجر دائماً مع زوجته ويضربها، وكانت أمّي هي التي تتولى أمر التوفيق بينهما، كانت زوجته تأتي إلى أمّي طالبةً مساندتها. وكانت زوجته تتشاجر مع ليا، وكان على أمّي أن تقوم بالتحكيم بينهما، وخصوصاً عندما أصيبت بنوبة قلبية، شعر والدي بأن ذلك حرام، فلماذا يُفرض عليها ذلك؟ يجب عليها أن تسترخي بدلاً من أن تعاني مثل هذا التوتر المتواصل.

النموّ

عشت في البصّة من سن التاسعة والنصف إلى الثالثة عشرة، قبل أن التحق بالمدرسة في صيدا. كانت تلك سنواتٍ هامة بالنسبة لي. لا أعتقد أنني تطورت فكريّاً - لو كنا في مدينة فيها مكتبة، ربما كنت تطوّرت أكثر. ولكني أعتقد أنني تطوّرت من داخلي، لأنني تُركت لقدراتي الذاتية. كنت أتأمل الأمور. أحاول الكتابة - قطع نثرية، أفكار، انطباعات. واحتفظت بتلك الكتابات. وفي وقت لاحق، حين جاء ابن عمّتي يوسف عزام - وهو أخو «أبو فكتور» - وأقام معنا، أثناء استعداداته للذهاب إلى القدس لدراسة اللاهوت، عرضت عليه كتاباتي، لأنه كان مهتماً بالأدب، وكان يكتب الشعر. كان يُصحِّح ما كتبت، وكنا نجلس ونناقش المواضيع. كان لديه بعض الكتب، فبدأت أقرأ الأدب العربي، وبدأت أهتم بأن أكون كاتباً، وذلك بسبب وجودي تلك الفترة معه. لكنها كانت رغبة قصيرة الأمد.

وهناك تطور من نوع آخر، فقد توقفت عن الشعور بالخجل في البصّة، لأن الناس كانوا منفتحين، وأخذوني إلى عالمهم المنفتح. وأحد الأساليب التي حاول الشباب تطويري بها كان الحديث عن النساء وحثي على المحاولة. أتذكر أن أحدهم قال لي: «إنت صرت ثلاث عشر سنة، شو مستني؟ ليش ما تحاول تنام مع حدا؟». لكن التطور في ذلك الاتجاه جاء في وقت لاحق عندما كنا نعود إلى البصّة بعد زياراتنا لطبريا. وهذا النمط استمر طوال سنوات دراستي في الكلية، كنا نعود إلى البصّة في الصيف، باستثناء السنة الأولى من إقامتنا في طبريا. في ذلك الصيف ذهبنا إلى صفد. ومنها إلى كفر برعم. وحتى بعد أن أصبحت طبريا مقر إقامتنا، كانت البصّة موطناً له نكهة خاصة، بسبب وجود الأقارب هناك، وبسبب تفتح وعيي إزاء الجنس. كانت البصّة قرية أمّي، ولنا فيها الكثير من الأقارب، وبعضهم كان أثيراً لديّ. وبالنسبة للمشاوير، اقتصرت في طبريا على الذهاب إلى البحيرة أمام بيتنا. أما في البصّة، فهناك كل أماكن النزهة، على شاطئ البحر وعند التلال.

إن بدايات وعيي الجنسي في البصّة كانت مع سليمة. كانت سليمة ابنة عمّ من الدرجة الثانية ليوسف عزام. وكانت عينها على يوسف بهدف الزواج، ولكن كان أملها ضئيلاً، لأنه كان مُتعلّماً أكثر منها بكثير. ولذلك قرّرَت أن تلتحق بالمدرسة. ورتّبَت لها أمها لتأتي إلينا في البصّة، ونحن رتَّبنا لها أمرَ الالتحاق بالمدرسة. أقامت عندنا في البصّة، ومنها رافقتنا إلى طبريّا. جاءت وقت تغير الطقس، فقد انقضى الصيف، وكنا ننام في غرفة الطابق الأرضي، الغرفة الكبيرة ذات العقد المقوّس. كنا ننام جميعاً في تلك الغرفة، ولكنني كنت بمحض الصدفة أنام في الطرف البعيد قبل قدومها، ووالداي في الطرف البعيد المقابل. من الجائز أنهما اختارا أن يكونا أقرب ما يكون من الطفل الرضيع، وكنت أنا أكثر بعداً، ربّما لكي لا أسمع شيئاً.

حين جاءت تلك الفتاة، وضعوا لها فرشة على الأرض، على الزاوية اليمنى من فرشتي. لاحظتها، ولاحظت نهديها، لاحظتها مرّتين أو ثلاث مرّات خلال النهار وهي تنظر إليّ نظرةً لها معنى. فهمت أن شيئاً ما يجذبني إليها. وهكذا أويت ذات ليلة، إلى فراشي ولكنني لم أنم على الفور. بقيت مستيقظاً إلى أن تأكدت من أن كل شخص قد غفا، ثم زحفت نحو متر لأكون قريباً منها. مدَدتُ يدي ولمست خدَّها. لم تقل شيئاً ولكنها تحسست يدي لتخبرني أنها مستيقظة. فاقتربت منها أكثر. وضعت يدي على عنقها، ثم قادت يدي نحو نهديها، فتحسستهما لمدة نصف ساعة. وبعد ذلك كان علي أن أعود إلى فراشي لأنام. لم أكن أجرؤ على النوم معها، لأن في ذلك مجازفة خطرة جداً. حدث ذلك عدة مرات.

لم يحدث شيء آخر من هذا القبيل في البصّة حتى الوقت الذي عاد فيه أبو غسان. كانت زوجته جميلة الشكل، جداً جداً. وفي البداية لاحظت أنها كانت جميلة الشكل وحسب. كانت هناك شائعة بأن مدير المدرسة أقام علاقة معها. كان يقيم في منزل بعيد جداً عن المدرسة، من البيوت النائية في القرية. ولم يكن متزوجاً آنذاك. كان بين الفينة والأخرى يذهب ويتناول الغداء مع «أبو غسان»، وكان على «أبو غسان» حصة مدرسية بعد الغداء مباشرة - وتقول الشائعة إن الحصة كانت معيَّنة له خِصيصاً. لم تكن صحته على ما يُرام، كان يعاني من مرض غامض في أميركا الجنوبية أثرَ على قوته الجنسية. ولم يكن يُرضي أم غسان التي كانت امرأة شديدة الشبق. كان مدير المدرسة غالباً ما يأتي إلى منزل «أبو غسان» للغداء، ويبقى بعد الغداء. كنت أستطيع رؤيته من بيتنا وهو في قيلولته في غرفة النوم، مضطجعاً هناك بقميصه ولباسه الداخلي. كانت أم غسان على سرير وهو على سرير آخر. وبينما كنت ألاحظ جاذبية أم غسان، لم يكن لذلك أي مغزى عمليّ بالنسبة لي في تلك المرحلة.

كنتُ في السادسة عشرة أو السابعة عشرة آنذاك، وكان لأحد أصدقائي بندقية هوائية اقترح أن أستعيرها منه حين لا يكون بحاجة إليها. كنت آخذها معي من حين إلى آخر كلما ذهبت إلى معصوب أو باط الجبل، حيث توجد أشجار التين، ذلك لأن العصافير تحب أشجار التين. وكلما ذهبت كان غسان يقول: «خلّيني أروح معاك»، فكنت أسمح بذلك، وذات يوم، لاحظت أن لديه اهتماماً جنسياً تجاهي. كان أصغر مني بخمس سنوات. وقد فعل وقال أشياء كانت توحي صراحة بإقامة علاقة جنسية مثلية. وللأمانة أقول إن ذلك أثارني قليلاً، ولكن لم أتماد في هذا الأمر. كنت أذهب أحياناً للسباحة بمفردي لأن إخوتي لم يكونوا مولعين مثلي بالبحر. كنت أستعير حصاناً من قريب آخر - وهو حصان مروَّض جدّاً - وأذهب إلى البحر على ظهر الحصان. وكان غسان

يأتي معي. كنا نذهب إلى الشاطئ، ونكون وحدنا، نسبح عاريين، وبالطبع كان ذلك يعني قليلاً من اللهو.

بعد ذلك بقليل، بدأت ألاحظ أن أم غسان نفسها أصبحت صريحة تماماً من خلال نظراتها المُغرية التي توجِّهها لي. وأوَّل مرّة لاحظت فيها هذا الأمر كانت خلال إحدى رحلات النزهة لعائلتينا. كانت هيَ وأمّي تجلسان إلى جانب بعضهما على حجارة البناء التي كانت مصفوفة على شكل دائرة حول جذع شجرة خَرّوب. وكنا نلعب حولها، وتصادف أنني كنت أمرّ من أمام أم غسان وأمّي. لاحظتُ أن أم غسان كانت تنظر إليّ بطريقة مركزة، وكانت تفتح ساقيها بحيث أراهما حتى الفخذين. وفيما كنت حريصاً على أن لا ترى أمّي أين كنت أوجه نظري، كنت أدُورُ مرة أخرى، وفي كل مرة، يتكرّر الأمر نفسه، وأم غسان تفتح وتغلق ساقيها.

وفي أحد الأيام كنت على الشرفة العلوية لبيتنا، أنظر إلى الطابق الأرضي، حيث تصادف وجود أمّي وأم غسان وهما تغسلان الملابس معاً. كانت أم غسان تجلس بطريقة تجعلها تراني إذا نظرَت إلى أعلى، بينما كان ظهر أمّي مستنداً إلى الحائط فلا تستطيع ذلك. عندما رأتني أم غسان، بدأت ترفع تنورتها ببطء إلى أن كشفت عن ساقيها حتى ملابسها الداخلية. كانت تنظر إلى أعلى وتبتسم، متظاهرة بأنها تنظر وتبتسم وهي تتحدث مع أمّي. وكلما نظرتُ، كانت تغلق وتفتح ساقيها.

وذات يوم، كنت أحس بأنني متوعّك قليلاً، ووصلَ إليها الخبر حين كانت تزورنا. فقالت: «لازم تستريح بعد الغدا مثلي، ليش ما تيجي وترتاح في بيتنا؟ إخواتك مش راح يزعجوك هناك». قالت ذلك أمام أمّي! فرَدّت أمّي: «والله فكرة ممتازة! شكراً يا أم غسان». لم تدرك أمّي أنها كانت تحاول أن تغويني. ذهبتُ إلى هناك واستلقيتُ على السرير حيث اعتاد مدير المدرسة أن يستلقي، وتمدَّدت هي على السرير الآخر، وأدارت رأسها لتنظر إليّ نظرة مركَّزة. وقالت: «أووف! الدنيا حرّ، لازم أغطي معدتي بمنشفة! ولكن فيما كانت تسحب المنشفة على جسمها، كانت ترفع ثوبها عن الركبة وتكشف عن ساقيها. ثم بدأت تفتحهما وتغلقهما وتبتسم. ماذا يمكن أن تفعل أكثر من ذلك؟ لا يمكن أن ترسل لي دعوة مكتوبة. لكني لم أجرؤ، كنت خائفاً.

وقعت الحادثة الأخيرة ذات يوم حين كان أولادها يلعبون في مكان ما. وكان والداي قد ذهبا في زيارة برفقة زوجها، ولم يكن أحد من إخوتي في البيت. كنا وحدنا. كان الوقت يقترب من لحظات الغروب. كنا نقف في رواق صغير بين بيتهم وبيتنا، ونتحدث. شعرت بالعطش، فانحنيت وتناولت الإبريق من حافة الرواق لكي أشرب. وكان فارغاً تقريباً، فقلت: «رايح أعبّيه». قالت: «لا ، لا، أنا بعبّيه». بدأنا نتعارك على أخذ الإبريق ولكنها سحبت يدي نحو صدرها

وبدأت تفرك يدي عليه. أخيراً كانت لديّ الشجاعة، فقلت «خلّينا ندخُل جوّه». فقالت: لا، لا، وكانت تلهث، وتشعر بالإثارة ولكنها خائفة. فقلت: ليش لأ؟. قالت: «يمكن ييجوا في أيّة لحظة». قلت لها: «بنسمع أصواتهم على الدرج». «لأ، لأ، ما بقدر». كانت تلك آخر مرة يحدث فيها أيّ تقارب مثل هذا. كانت تلك هي الفرصة الأخيرة.

مغادرة البيت إلى المدرسة في صيدا

في سنة ١٩٢٨، قرر والداي أنني يجب أن أذهب لكي أتعلم في الخارج. فلم يعد هناك المزيد مما يمكن أن أتعلمه في البصّة. كانت المدارس الداخلية في فلسطين بعيدة جداً، في القدس ويافا. ولم نكن على اتصال بها، وكانت تكلف الكثير. كان والداي قد درَسا في صيدا، فقرَّرا إرسالي إلى هناك. كان أبي يعرف المدير، وكانت أمّي تعرف معلمة هناك وكانت ما زالت تعلِّم في ذلك الوقت، فقال: «رح تعاملك مثل حفيد من أحفادها». فكتبوا إلى صيدا، واكتشفوا أنني يجب أن أحسِّن لغتي الفرنسية. كانا يساعدانني في البيت فيما يتعلق باللغة الإنكليزية، أمّي بشكل أساسي. كان مستواي من حيث المفردات جيِّداً، وكنت أتمتّع بحسٍّ لغويّ لتكوين الجُمَل. قال أبي: «الطريقة الوحيدة اللي بقدر أساعدَك فيها عشان تتعلم فرنسي إني آخذك معي على خربة في الصيف». كان من الصعب عليّ أن أفارقَ أمّي وإخوتي وأختي. أتذكر أنني بكيت والتصقت بأمّي. «رح أقضي أسبوع أو اتنين بس، معك، قبل ما تروح على صيدا» وقالت: «رَح أروح معك على صيدا عشان أشجعك».

بعد إقامتنا في خربة، قربَ نهاية الصيف، عُدنا، أبي وأنا، إلى البصّة. كان أمام أمّي من الوقت ما يكفي لتعِدّ لي بعض القمصان والبناطيل القصيرة والملابس الداخلية - حاكتها بنفسها - وفي تلك الأيام كانت معظم الأمهات يقمن بحياكة ملابس أبنائهن. وبعد أن أعدَّت كلّ شيء، وحان وقتُ الرحيل، قالت لأبي: «عبد الله، إنت نفسَك عزيزة ومش رح تطلب من المدير يعطي يوسف منحة دراسية. إذا هو اقترح، رَح تقول له شكراً، وإذا ما اقترح، مش رح تطلب. أنا بقدر أتصرَّف أفضل منك من هالناحية». كان من المؤلم وداع إخوتي وأختي - وكانوا قد ولدوا جميعاً باستثناء أنيس - لا بد أن منير كان قد بلغ ستة أشهر. ولا بد أن أمّي قد فطمته - ربما قامت أم جوزيف برعايته. وكانت أمّي ستغيب لمدة أسبوع فقط. كان ذلك محزناً، بكَينا جميعاً - باستثناء أبي، الذي صلّى من أجلي.

استأجرنا حماراً، وصعدنا الجبل ثانية إلى علما، ومن علما إلى علما الشعب في لبنان، وقضينا الليل هناك بصحبة بعض الأصدقاء المقربين. وجاء صاحب الحمار معنا ليأخذ حماره - كان رجلاً من البصّة نعرفه منذ سنين. في الصباح

التالي، في وقت مبكِّر منه، ذهبنا إلى الناقورة بواسطة السيارة - قرية الناقورة، وليس مركز الشرطة. ورغم ذلك قابلنا دَركي وطلب رؤية أوراقنا. قالت أمّي: «إحنا جايين من علما» فقال: «لكن من وين قبل علما؟». فقالت له: «من البصّة»، وسألته «من إيمتى الناس الطالعين من البصّة لعلما بدهم باسبورتات؟ أنا ماخذه ابني عالمدرسة في صيدا. وراجعة بعد كم يوم». فقال: «مُرّوا».

ملاحظة: احتُلَّت البصّة في ١٤ أيار/مايو ١٩٤٨، بعد سقوط عكّا بوقت قليل، خلال عملية بن - عامي (Ben-Ami). هرب معظم السكان قبل الهجوم على القرية، بعد أن سمعوا بمجزرة دير ياسين؛ وذهب معظمهم مباشرة إلى لبنان، حيث انتهى بهم المطاف في مخيم اللاجئين في ضبية، شمالي بيروت. ويقول أهل البصّة الذين لم يغادروا إنه بعد سقوط القرية بيوم واحد، وقعت هناك مجزرة خارج الكنيسة: انظر نافذ نزال، النزوح الفلسطيني من الجليل، ١٩٤٨، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٧٨، ص ٥٧ ٥٨. انظر أيضاً حداد، ذكر سابقاً. وانظر أيضاً أنيس صايغ بلدانية فلسطين المحتلة (بيروت، ١٩٦٨) ص ٥١.

ويضم موقع PalestineRemembered صوراً للبصّة التُقطت بعد سنة ١٩٤٨ بقليل، عندما احتلّ القرية شبه المُدمَّرة اليهود المهاجرون من رومانيا ويوغوسلافيا. واليوم تقوم مدينة شيلومي مكان البصّة، وقد بقي مبنيان أو ثلاثة فقط من المباني الأصلية.

www.palestineremembered.com

٢٠ March ٢٠٠٨

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثالث المدرسة الدَّاخليّة، صيدا، ١٩٢٩ - ١٩٣٤

ذهَبْنا من الناقورة إلى صيدا بالسيّارة، ثم صَعدنا إلى الميّة وميّة بالحافلة (الباص) الخاصة بالمدرسة. قامت أمّي بزيارة مدير المدرسة. وعرّفَتهُ بنفسِها، وذكرت له كيفَ أنّها كانت تَدرُسُ في مدرسة البنات في عين الحِلوة. أعربَ السيّد نسيم الحلو عن ترحيبه الشّديد بها - وسألها: «كيف حال القسيس؟». كان الرجل قصيرَ القامَة، متين البنية، يلبس الطربوش طوال الوقت حتى أثناء حُضوره القدّاس في أيّام الأحد. وهو من شمال سوريّة، وكان يلفُظ حرف «الرّاء» «ياء». ومن العوامل المشجّعة لي أنّ اثنين من الأقارب كانا مُعلّمين هناك - وفي الواقع كانا ابنيْ عمّة أمّي، من البصّة، تزوجا وانتقلا للعيش في لبنان، ابراهيم مرقص وأخوه سامي. قالا لأمّي: «لا تقلقي، رايحين ندير بالنا عليه، بنختبره وبنشوف الصفّ المناسب لقدراته». كانت أمّي قلقة من أن يقبلوني في الصف الثاني أو الثالث الابتدائي إذ كنتُ قد بلغتُ الثالثة عشرة من عمري في ذلك الوقت. وقد أحضرنا معنا درجاتي الدراسيَّة من المدرسة. كان ترتيبي «الأوَّل» في السنوات الثلاث التي قضيتُها في الدّراسة في البصّة، ولكن ذلك لم يكن يَعني الكثير بالنسبة لهم. قالوا: «مع شويّة اجتهاد بيمشي حاله في الصف السادس الابتدائي».

قالت أمّي: «هلأ جينا لمَسألة الأقساط». كنّا في زيارة للمدير في بيته. فقال: «بدِّي أشوف كيف الأقساط وشو مُمكن نقدِّم له كمِنحة دراسيّة. علاماته منيحة. وأبوه كان طالب عنّا، وكمان قسيس». ذهبنا إلى مكتبِه. لا أستطيع أن أتذكّر كم كان مقدار الأقساط ولكن أمّي قالت: «شو؟ هالأدَّ؟» - هالقَدّ، أي: هذا القدْر. عندما قالت «هالأد؟» قال المُدير: «خلّينا نشوف شو ممكن نعطيه». بدأ يفكّر في الأرقام بصوتٍ مسموع. فقالت أمّي: «لسَّه هادَا كتير علينا» - فجعلته يخفض المبلغ أكثر. لو لم يقدِّموا لي ما يكفي كمنحة تساعدني على الدراسة، لكان علينا أن نقترض. غيرَ أن أمّي كانت قد أخذت معها كيساً من قطع النقد الذهبيّة كان مخبَّأً تحت ثوبها. قالت: «رَح بيع منها قد ما بيلزم». فأصبتُ بالذّهول. أخيراً تمَّ الاتفاق. ثم اختبروني، وقرروا قبولي في الصف السادس الابتدائي.

أقامَت أمّي معي ثلاثة أو أربعة أيام، قبل بداية الفصل الدّراسي مباشرةً. ثم قالت لي: «مش رح ودّعَك هون. بنروح على صيدا، بّوسَك، وبعدين بطلع بالسيّارة». البكاء! - بكيتُ كثيراً. جاء المُعلم، قريبي، معنا، وقال إنه سيتولّى أمرَ عودتي. ولكنّه أخذني أولاً إلى المدينة، وقدّم لي شيئاً من «الكيك» وعصير الليمون في أحد المحلات. حين أويتُ إلى فراشي في تلك الليلة، مرَّت ساعات قبل أن أستطيع النّوم. وحتى في السنتين الثانية والثالثة، كنت

أبكي قليلاً في بداية كلّ فصل، ولكن ليسَ كما بكيتُ في ذلك اليوم. ففي تلك الأثناء كنت طالباً سعيداً - لديَّ أصدقاء، وكنا نلهو ونمارس شتى الألعاب.

أحرزتُ الترتيب الأوّل في اختبارات منتصف الفصل على مستوى الصف. كان هناك اجتماع عام للمدرسة كلِّها، ووقفَ مدير المدرسة وقال: «سأبدأ بأدنى الصّفوف. خمِّنوا من الذي حصل على أعلى الدرجات! يوسف صايغ! كنا نظنّ أنه لا يستطيع اجتيازَ الصفّ السادس الابتدائي، ولكن المُعدَّل الذي أحرزه هو ٨٧ (من ١٠٠)، وقد قررنا ترفيعَهُ إلى الصفّ الأوّل الإعدادي منذ الآن». وهكذا انتقلت إلى الصفّ الأوّل الإعدادي الذي كان فيه طلاب أعرفهم منذ بداية الفصل وهم - رشدي المَعلوف، وبشارة الطرابلسي، وعزّت الزين.

عندما دخلتُ معهد جيرارد أوّل مرّة، استغربت حين اكتشفت مدى تأثّر الطلاب ممَّن هُم في مثل سنّي، بإعدام فؤاد حجازي ورفيقيه على يد البريطانيين. أتذكر كيف أنّ رشدي المعلوف الذي جمعتني به الصّداقة في غضون الأسابيع القليلة الأولى من الدراسة، بدأ يتحدَّث في السياسة لأوّل مرة، وتحدّث منذ البداية عن هؤلاء الثلاثة، وكيف كانوا أبطالاً. وقد رسَّخ ذلك رابطة إضافية لعلاقتنا كأصدقاء. كان أولاد صيدا وطنيين جداً، ومناصرين بقوة للفلسطينيين.

كان رشدي المعلوف الأوّل في المَرحلة الإعداديّة، ولكني تفوّقتُ عليه. كان جيّداً دائماً في الأدب العربي والقواعد، وقد أصبح شاعراً فيما بعد. كان لديه ولع باللغة. كنت أتقن الكتابة ولكنه كان أكثر تألقاً.

الخدمة مقابل المنحة الدراسية

بعد بدءِ الفصل الدراسيّ بفترة قليلة، وبعد أن تسلّمتُ المنحة الدراسيّة، استدعاني المدير وقال لي: «يوسف، بدنا يّاك تشتغل. ما تفكّر إنه إحنا قاسيين، الشغل بيخلّيك رِجّال». أتذكّر أنني قلت له: «ما قلت هيك لما كانت أمّي هون!». حتى في تلك السنّ، كنت جريئاً في الكلام. فقال: «كلهم بيشتغلوا هون، ما لاحظت هالشّي؟». في السنة الأولى كان عليّ أن أملأ أباريقَ الماء للمُعلمين الذين يقيمون في الطابقين الثاني والثالث من المدرسة، فلم تكن لديهم مياه جارية. كنت أتفقدها يوميّاً بعد الظهر أو في المساء. وفي السنة الثانية، زادوا مقدار المنحة الدراسيّة، وأبلغوني أنهم يريدون مني أن أقوم بعمل أكبر. كان ذلك هو خدمة الموائد في القسم الداخلي. في ذلك الوقت ترسَّخت سمعتي كطالب لامع. كنت الأوّل في كلّ المواد باستثناء الهندسة. خارج قاعة الطعام كنتُ أساعد زملائي، فأشرح لهم الجَبر، وفي قاعة الطعام كنت أخدمُهم بتقديم وجبات الطعام لهم، ووجدتُ الخدمة مؤلمة. كان هناك نحو ٢٠٠ طالب من ذوي العضوية الكاملة في

القسم الدّاخلي، والمُعلّمون لهم مائدة خاصة بهم. وذلك يعني أنّ هناك عشرَ موائد، وعدد الذين يقومون بالخدمة مِنا خمسة أو ستة طلاب. نقوم بالخدمة ثم نتناول وجباتنا في وقت لاحق، بعد أن يفرغ الجميع تماماً من تناول طعامهم. كانت تلك تجربتي الأولى في الخدمة؛ كانت الفكرة بحدِّ ذاتها هي المؤلِمَة.

طِوالَ السنوات الثلاث المتبقية من دراستي، عيّنوني أمينَ مكتبة، وكان ذلك مصدر سرور عظيم لي. قرأتُ كلّ الروايات في المكتبة. ولحسن الحظ، لم يكن الأولاد من القرّاء النجباء، لذلك لم أتعرّض لأيّ إزعاج - إذ لم يكونوا يأتون إلى المكتبة حتى من أجل القيام بواجباتهم المدرسيّة. أحببتُ القصص والرّوايات. وأوّل رواية قرأتُها كانت «قصة مدينتين». انتشيتُ بها، فبدأتُ أتناول روايةً بعد أخرى. كانت المكتبة منظمة، لذلك كنت أعرف أين أجد الروايات، وهكذا قرأتها جميعاً. كان يضافُ إلى المكتبة عددٌ من الكتب الجديدة كلّ سنة، والبقية كانت من الكتب القديمة.

نظام المدرسة

كان يتم إيقاظنا في الخامسة والنصف صباحاً، ولدينا نصف ساعة للاغتسال والاستعداد للإفطار. من السادسة إلى السابعة إلا رُبعاً، نستعدّ للجلسة الصباحية. في السابعة إلا ربعاً نذهب للّعب لمدة رُبع ساعة، ثم نتناول طعام الإفطار. تبدأ الدّروس في الساعة الثامنة. في المساء، بعد العشاء والفسحة، هناك ساعة أخرى للدّراسة. كانت ساعات الدّراسة الصباحية والمسائية شاقّة بالنسبة لي - كنتُ عاشقاً للنّوم! كنت أحتاج إلى من يهزّني هزّاً لأصحو في الصباح، ولأغادر الفراش. قد أستيقظ، وأكونُ واعياً بالتحركات من حولي، ولكنّي لا أستطيع مغادرة الفراش، خصوصاً في الشتاء. فالبرد كان قارساً جدّاً. وفي فترة الدراسة المَسائية، دائماً، بعد انقضاء ربع ساعة، كنت أسندُ رأسي إلى يدي وأنام. فيأتي المشرف ويهزّني ويقول: «لازم تحضِّر دروسك». وفي النهاية قلت لأحد المُعلمين: «شوف، إنت بتدرسني، عمري كنت مش محضر دروسي؟». فهزّ رأسَهُ. حين بلغت الصفّ العلمي الأوّل، كان مُعدّل درجاتي مرتفعاً إلى حدٍّ جعلَ السيد حِلو، يقول في أحد بياناته العلنية: «لقد اكتشفنا ما هي المكافأة التي يُفضِّلها يوسف صايغ أكثر من أيّ شيء آخر، وسنقدِّمُها له. من الآن فصاعداً ليس مطلوباً منهُ أن يحضرَ جلسات الدراسة الصباحية». صفّقَ الجميع لأنهم كانوا يعرفون أنني أكرَهُ القيامَ مبكّراً في الصباح.

مكثتُ في معهد جيرارد مدّة خمس سنوات طالباً في القسم الدّاخلي قبل أن أحصل على الشهادة. سنتان في المرحلة الإعدادية وثلاثُ سنوات في

المرحلة الثانوية. وكما كانت الحال في أيّام أبي، لم تكن الدراسة أكاديميّة فقط. كان لزاماً علينا تعلّم حرفة من الحرف. في السنوات الأولى اخترتُ التّجارة. وفي السنة الرابعة، اخترت تربية الدّواجن. كان ذلك يتمّ من خلال الآلات، إذ نُشعِلُ الغاز لتدفئة البيض والدّجاج، وكانت أعدادُها بالمئات. وفي السنة الخامسة، اخترت الميكانيك. كانت في المدرسة سيّارة قديمة من طراز فورد، يملكُها المُعلم الأميركي الذي يعلّمُنا الميكانيك. فكنّا نقوم بتفكيك السيّارة حتى آخر برغي فيها، ثم نعيدُ تركيبَها تحت إشراف المُعلم. أحببت ذلك الفصل. وأنا الوحيد في العائلة الذي أتيحَت له مثل تلك الفرصة. فقد التحق أخي أنيس بالمدرسة ذاتها، في آخر سنتين من مرحلة الدراسة الثانوية، ولكن في تلك الفترة، كانوا قد أوقفوا تقديم هذا المُقرّر.

المعلّمون

كان هناك خليطٌ من المُعلّمين. إثنان أميركيان، أحدُهما السيد ويكس الذي أصبح قسيساً فيما بعد، وربَّما كان يدرِسُنا الكتاب المقدس. ومعلمٌ فرنسي يدرِّسنا اللغة الفرنسية، وكان مُسَلّياً جدّاً، واسمه المسيو بوست. هناك المُعلّمون مُرقص وشحادة والمسيو سرور، وهم لبنانيّون. ومعلمٌ أميركي يدرِّسنا مادة الجَبر، كان قد تخرَّج في الجامعة الأميركية في بيروت وكان يدرِّسنا التاريخ الأوروبي أيضاً. أما المدير، نسيم الحلو، فكان يدرّسنا قواعد اللغة العربية. السيد جسوب درّسنا اللغة الإنكليزية وآدابها، وزوجته كانت تدرّسنا بعض الفروع، ولكنه كان يدرِّس المبادئ الأولية. وأنا مَدين له بأربعة أخماس ما كنت أعرفهُ من اللغة الإنكليزية عندما دخلتُ الجامعة. هناك معلمٌ لبنانيٌّ آخر كان يدرِّسنا مَسكَ الدفاتر المُحاسبيّة لأنهم كانوا يعتقدون أن بعضنا قد يدخل عالمَ التّجارة والأعمال، والشيء الوحيد الذي كان ينقص البرنامج الدراسي هو الفن والموسيقى. لا شيءَ من هذا القبيل. لم تكن تتاحُ لنا أيّة فرصة لتعلم العزف على أيّة آلة موسيقيّة. كنا نؤدّي الترانيم، ولكن بدون أن نتلقى أيّة دروس في الموسيقى. دَرَسنا العلوم، ولكن كان لدينا مختبرٌ تعيسٌ جدّاً.

درَّسَنا اللغة الفرنسيّة أيضاً مُعلمٌ لبنانيٌّ من قرية قريبة من جبيل. كان من النوع المُتبجِّح. ويبدو أنه كان في بلجيكا إبّان الحرب العالمية الأولى، وعلق أثناءَ الحرب هناك. فكان يتفاخر أمامنا بشجاعته، وكيف أن جنديّاً ألمانيَّاً رمَ قنبلة عليه ذاتَ يوم، وكيف أمسكها قبل أن تنفجر، وردّها عليه، فقتَلت نحو «درِّزينة» من الجنود الألمان - ذلك النوع من الحكايات! وقد اعتدنا على مشاكسته كثيراً: «مسيو سرور، خبّرنا عن معركة تانية، رميت قذائف مدفعية من بندقية؟». وكان يتقبّل ذلك بطيب خاطر.

كان ذلك المُعلم يعتقد أنهُ يعرفُ اللغة الفرنسيّة أفضلَ مما يعرفها الفرنسيّون. وكان يُخَصِّص للمُهتمّين باللغة الفرنسيّة مِنا، ساعة إضافية لكتابة مواضيع الإنشاء. وذات يوم طلب منا أن نكتب في موضوع (وصف للعاصفة). وكان علينا أن نعِدَّ الموضوع ونسلِّمَهُ في المرّة القادمة للتصحيح. أعدَدتُ موضوعاً وقدّمتهُ له. وفي الحصّة الدراسية التالية، عندما وصل إلى ورَقتي، قال: «يوسف، هيدي الفقرة بتصير أحسن لو قلت كذا». استمرَّ في اقتراح التحسينات. وبعد شهرين، نسي أنه كان قد طلب منا هذا الموضوع، فطلب ثانيةً أن نكتب (وصف للعاصفة). ومن عادتي أن أحتفظ بأوراقي القديمة، فنقَّبت فيها وأخرجت الموضوع القديم، ثم قدمتُ له نسخة من ورقتي التي صحَّحها في المرّة السابقة. بعد يومين أو ثلاثة، عاد إلى الحصّة، وقال: «يوسف، ققشتك، إنت عملت شي فظيع، بيسمُّوه سرقة أدبية» - كانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الكلمة - «إنت سرقت جُمل غيرك. شوف، هاي الجُملة، وهاي شبه الجملة، مش مِنّك». كان في يدِهِ كتاب تمارين مدرسية، وفيه موضوع «وصف العاصفة». فتحَهُ وقال: «هيّ الجُملة من هون» ، كانت الأجزاء التي صحّحها لي مأخوذة من ذلك الكتاب. احتفظت بهدوئي إلى أن أكملَ حديثه. ثم سحبتُ الورقة الأصليّة التي صحَّحها قبل شهرين وقلت: «مسيو سرور، هاي الجُمل اللي اخترتها موجودة هون بخط إيدك على الورقة».

المُعلّم الذي كان يُعلّمنا الرياضيات، والجبر، والهندسة المستوية، كان من عائلة شحادة. وهو غريب الأطوار إلى حدٍّ ما. ولكنّهُ بعد أن تخرجت من المدرسة، يبدو أنه أصيب بالجنون، واتخذ جنونُه شكلاً من أشكال الشّطَط الدّيني. حين ذهبت للتدريس في العراق، بعد سنوات، تلقيتُ رسالة منه يخبرني فيها أنهُ انتقل إلى العراق أيضاً للتدريس هناك. على أيّة حال، لم يكتب لي لمجرّد نقل الخبر ولكن ليقولَ لي إن الوقت قد حان لحشد جيش الرّب، كان يأمل أنني سأكون من أوائل المنضمين إلى هذا الجيش لأصبح جندياً في جيش الرب لخدمة مَشيئة يسوع المسيح. كان بروتستنتيّاً. فكتبتُ له ردّاً قلت فيه إنني مُسالم ولا أريد الانضمام إلى أيّ جيش. لكن تلك كانت قفزة استباقية.

كان أحد مواضيع الثرثرة يدورُ حول زوجة أحد المُعلمين، وهي مُعلمة أيضاً، وكانت تميل إلى الشبان الرياضيين الوسيمين. إما أن هؤلاء الأبطال تحدَّثوا أو أن الناس لاحظوا أن بعض الطلاب يذهبون إلى بيت هذه السيِّدة، والذي تفصلهُ عن المدرسة طريقٌ مُعبَّدةٌ طويلة تحُفّها أشجار السَّرْو. ومن المفترَض أنهم كانوا يذهبون بهدف تناول الشاي وتحسين لغتهم الإنكليزية، ولكن بعضَ الناس كانوا أعقل من أن يميلوا إلى ذلك الظن. فأنا أيضاً تناولت الشاي هناك، ولم يكن ذلك بهدف تحسين لغتي الإنكِليزيةِ.

مسابقة الخطابة باللغة الإنكليزية كانت جزءاً هاماً من الحياة المدرسيّة. وكان أحدُ المُعلمين الأميركيين يرغبُ في تدريب المشاركين. أرادَ مني أن أتدرَّب لدَيه. والمُعلمة كانت أيضاً مهتمَّة بتدريب الطلاب. وكانت مُعادية للمُعلم الأميركي لأنه ذكيّ ووَسيم، وكانت تأمَل في أن يتزوَّج من ابنتها، لكنه بعد إحدى العطلات الصيفية، عاد ومعه زوجة أميركية. على أيّة حال، هذه المُعلمة كانت ترغب في أن تدرِّبني، إذ كان من المُرجَّح أن أفوز في تلك المسابقة. كانت المعلمة في الخامسة والأربعين أو ربما في الخمسين من عمرها.

دَبَّ التنافس بينهما، كلٌّ منهما يصطحِبُني في مشوار، ويحاولُ أن يقنعَني باختيار نَصٍّ بدَلاً من نَصٍّ آخر للخطبة التي سألقيها. لم نكن نكتبُ الخطبة بأنفسنا، إنّما كنا نختار خطبة مشهورة. وذات مرّة، رأتني وقالت: «أريدُ أن أتحدَّث معك. تفضّل إلى بيتي لنتناول الشاي، وسأُريكَ نصاً جميلاً وجدتُه. ربّما تُقرّرُ أن تتدرَّبَ معي». أن تقوم بتدريبي معناه أن أذهب إلى بيتها كلَّ يوم ولعدّة أسابيع. ذهبتُ إلى بيتها لتناول الشاي. كانت ترتدي ثوباً أسود مفتوح الياقة. وأنا أعرف أن زوجَها يُدرِّس في ذلك الوقت. كانت تلك سنتي الدراسية الأخيرة. وكنت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر. قالت لي: «أمهلني دقيقة فقط لأعدّ الشاي فأنا اليوم وحدي، وقد مَنحت الشغّالة إجازة هذا المساء». سَجَّلتُ ذلك، على الرغم من أنني لم أستخدم هذه المعلومة استخداماً جيّداً. جاءَت وجَلسَت على الأريكة إلى جانبي، بالقُرب مني تماماً، وضَعَت الشاي على الطاولة وقالت: «يمكننا تناول الشاي والبسكويت من هذه الطاولة». حينَ جلسَت، مالت بجانبيها، فانزلق الثوب قليلاً، وكانت كتِفها القريبة مني عارية. لم يكن هناك حمالة للصدريّة، لا شيء. إنهُ أمرٌ شديد الإغراء. نَظرَت إليَّ نظرةً ذات معنى. كنتُ ممزَّقاً بين شعوري بالرغبة وشعوري بالخوف من الإقدام على خطوة خاطئة - مُفترَضاً أنني أسأتُ الفهم، وأنها لا تنوي إغرائي! إذا قمتُ بأية بادِرة الآن، فقد تستغلّها لتدمير مَسيرتي الدراسيّة. لذلك لم أفعل شيئاً. سألَتني متى سأتخذُ قراري بشأن الخطبة، فحدَّدتُ لها موعداً. وفي وقت لاحق ذهبتُ إليها واعتذرت. فأظهرَت لي وجهاً مُختلفاً بعدَ ذلك.

كانت تُلقى علينا محاضراتٌ بين الحين والآخر. ومنها محاضرة ألقاها طالبٌ سابق التحقَ بالجامعة الأميركية في بيروت، ونالَ شهادة البكالوريوس. ثم حصلَ على وظيفة في مطبعة أميركية في بيروت تطبع الكتب المقدسة، الإنجيل وكتب التراتيل. وهذا ما جعله يتصرف وكأنه حائز على جائزة نوبل. حين جاءَ إلى المدرسة، جعل المَعنيِّين يُنظّمون له مسألة قيامه بإلقاء محاضرة. كان من النوع الذي يَحلِق ذقنَهُ مرّتين في اليوم، ومع ذلك يظل وجهُهُ مُمتقِعاً بلون أزرق. وقف على المنصة يتحدَّث في أمور تافهة. رشدي وأنا كنا نجلس بجوار بعضنا، نُقَهقه «تفاهة، شو مفكّر نفسة عَم يحكي لنا؟».

كان طبيب المدرسة يقدِّم لنا أربعة أو خمسة أحاديث في السنة عن موضوعات معقولة، مثل التهاب الزائدة الدوديّة، الغذاء، الحِمية.. والمحاضرة الوحيدة التي كانت عن الجنس ألقاها أسقف، أسقف إنكليزي، جاء لزيارة المدرسة. هذا الأسقف صعد إلى المنصّة برفقة سيّدة إنكليزية قدّمته للحضور. جلسَت هناك أثناء إلقائه الحديث. كان من المفترَض أن يصلّي ثم يتحدّث. أنهى الصلاة. كانت أمامَهُ طاولة صغيرة. قال: «سأزيح هذه الطاولة، لا أريدها هنا». فاستغربنا ذلك. ثم بدأ يقول: «أنتم شباب، ومستقبلكم أمامكم، وسوف تتعرضون لإغراء اللذة، بالخروج مع النساء. ولكن اسمحوا لي أن أحذرَكم فاللذة يمكن أن تكونَ خطيرة. هناك أمراض تناسليّة». استمرّ في بحث الأمراض التناسلية، وبدا واضحاً أن سببَ إزاحته للطاولة هو أنه كان يريد أن يشير إلى قضيبه. احمَرَّ وجه السيّدة بسبب الإحراج، يا للمسكينة.

كانت النّبرة الأخلاقية للمدرسة دينيّة تماماً. هناك الكثير من الصّلوات، قدّاسٌ قبل بَدء الدروس كلّ يوم. كان علينا أن نذهب إلى كنيسة صيدا أيام الأحد، سواء كنا من المسلمين أو الدروز أو المسيحيين.

بالنسبة للرياضة البدنيّة، كانت مدرستنا من أفضل المدارس. هناك كرَة القدَم، وكرَة السّلة، وكرَة الطاولة، والكرَة الطائرة. لم أكن مُمتازاً في المباريات. اعتدتُ أن أستعير مضرباً من أحد الأصدقاء لألعبَ التنس. شاركتُ قليلاً في الكرة الطائرة. لم أكن أحبّ رياضة الجَري في المِضمَار ولا في الساحة، كانت مُتاحة ولكنّي لم أمارسها. كان لزاماً علينا أن نمارس الألعاب الرياضية ، أن نمارس رياضة ما. اخترتُ كرَة القَدَم ولكني لم أكن ضمنَ فريق المدرسة.

الطلاب

معظم طلاب المَدرسة من لبنان، والكثيرُ منهم من صيدا والجنوب. كانوا شريحة تمثّل القطاعات المختلفة من الناحية الاجتماعية، ولكنّ عدداً منهم جاؤوا من عائلات لها ثقلها. ومثالُ ذلك عبد اللطيف الزّين، النائب في البرلمان حالياً (آنذاك) وهو ابن يوسف الزّين، الذي كان في وقت من الأوقات نائباً في مجلس النّواب لمدة طويلة وكان يأتي إلى المدرسة مرّتين أثناء الفصل الدراسي لزيارة أبنائه، بسيارته الكبيرة من طراز بويك التي يقودُها سائقه الخاص. وفي الشتاء، يلبس حذاءً مبطناً بما يشبه الفِراء وهو موضة في تلك الأيام. وكان في المدرسة طلاب من عائلة أبو ظهر من صيدا، ونزيه البزري الذي كان مُتقدماً عني بسنتين دراسيّتين. ومعروف سعد كان طالباً في مدرستنا، وكان رياضيّاً ورامِياً [الكلّة]، وكان الأحرى به تركها. في صيدا، كانت النخبة تذهبُ إلى واحدة من مدرستين: إمّا إلى مدرستنا إذا أراد أفرادُها

الدّراسة باللغة الإنكليزية، أو إلى مدرسة الفرير، إذا أرادوا الدراسة باللغة بالفرنسية. ومعظمهم يأتي إلى مدرستنا، خصوصاً إذا كانوا يريدون الالتحاق بالجامعة الأميركية في بيروت - وكان لها اعتبار أكبر من جامعة القدّيس يوسف. وكان في مدرستنا طلاب جاؤوا من بيروت، ومن جبال لبنان، مثل رشدي. لكنّ معظم الطلاب كانوا من الجنوب، من مرجعيون وراشيّا، لم يكن عندنا طلاب من طرابلس بسبب وجود مدرسة أميركية فيها. كان لمدينة برمّانا مدرستها الخاصة التي اجتذبت الأولاد من المناطق المجاورة. مدرستنا ومدرسة برمّانا كانتا الأفضل بالمقاييس الأكاديمية - لم تكن الكليّة الدوليّة قائمة آنذاك - وكذلك بالمقاييس الرياضية. ولكن من الناحية الرياضية، بدأت عاليه تدخل مجال المنافسة معنا. كانت مدرسة عاليه مدرسة وطنيّة تُدار وفقاً للمعايير الأميركيّة، وفي سوق الغرب مدرسة تبشيريّة أخرى، أصبحت فيما بعد مدرسة وطنيّة. وهناك مدارس فرنسيّة عديدة ولكني لم أكن أعرف الكثير عنها في ذلك الوقت. وكان بيننا عدد من الطلاب من الدامور.

لم تكن في المدرسة مشاعر طائفية. كان معظم الطلاب من المسلمين، كما أظن، لكن، كان فيها أيضاً عدد وافر من الطلاب المسيحيين. وأكثرُ طلابنا من صيدا وهي أساساً مدينة إسلامّية. كان جوُّ المدرسة وطنيّاً جدّاً، مُعادياً لفرنسا ومُناصراً للاستقلال. ذلك فيما يتعلق بالطلاب، وليس الإدارة. كان نسيم الحلو، مدير المدرسة، يحظى باحترام القيادات الدينيّة الإسلاميّة في صيدا. وهو صديق عظيم للشيخ عارف الزّين، ناشر مجلة «العرفان». كان محبوباً ومحترماً فهو عالمٌ في اللغة العربيّة، ومعروفٌ مثل آل البستاني في أيّامهم، وهو تلميذٌ لآل البستاني واليازجي. تميز بقلب عطوف جدّاً وبمظهَر خارجيّ يتّسم بالحزم. ولدَيه حسٌّ فكاهيّ. علّمَنا اللغة العربية وقواعدها «النحو» والأدب. وذاتَ مرة طلبَ مني أن أتحدّث عن كانَ وأخواتِها. فاجأني وأنا غير مُستَعدّ، فقد كنت أتهامَسُ مع جاري في الصفّ. قال: يوسف! أعرِبْ هذه الجُملة، وفيها كلمة «كانَ»، فقلت: «كان هي كذا وكذا - بترفع إسمها وبتنصُب خبَرها» - الاسم بعد المبتدأ الرئيسي مرفوع والمفعول به منصوب» وبدلاً من أسكت وأتوقف عند هذا الحدّ، تابعتُ قائلاً «وأخواتُها يقُمنَ بالعمل نفسه». فسألني «أي إخوات لها؟» فقلت: «كان، صار وأخواتهما الأصغر». فقال: «أنا مهتمٌّ بأخواتهما الأصغر، أذكرهنّ لي». «أسقِط في يدِي، فلم أكن أعرف ماذا أقول، أجل، كان يتصيّدني في أمور مثل هذه. لم أكن دائماً الأوّل.

لا أتذكّرُ أننا كنا نتشاجَر مشاجراتٍ جماعيّة، على الإطلاق. كانت هناك مشاجرات فرديّة. تورطتُ في واحدة منها، وتورّطَ رشدي في مشاجرة قبيحة جداً كان من الممكن أن تؤدي إلى وقوع جريمة. كان هناك ولدٌ عنيف جداً حاول أن يستخدم سكّيناً. لم أكن أبداً شجاراً على الإطلاق. وقعَت حادثتان تعرضتُ فيهما للتهديد. الأولى على يَد طالبٍ اعتادَ أن يكون ودُودَاً معي ثمّ

أصبح، لسببٍ ما، شديدَ التحدي لي. كان ينمو ويزداد طولاً وجبروتاً، دفعني ذات يوم، فوقعتُ على الأرض. ثم أصبحنا أصدقاء لاحقاً، وعمِلنا مدرِّسين في المدرسة نفسها في العراق. وأخيراً انتقل للعمل في الخارجيّة اللبنانية، وأصبحَ سفيراً للبنان لدى دولة الكويت.

الحكاية الأخرى جرت مع ولد بيروتيّ كان مُلاكماً، صغيرَ السن ولكن له بنيةً مكتملة، وهو رياضيّ وعنيف جدّاً. كان من عائلة الكعكي، وهي عائلة سنّيّة. كان يُطردُ من مدرسة بعد مدرسة. جاءت عائلته ترجو مدرسة صيدا لقبولهِ فيها، فقبلوه مع بعض التردُّد لأن عائلته ثريّة ودفعَت الأقساط كاملة. كان لطيفاً في معاملتي، ويطلبُ مساعدتي في الدروس أحياناً، وأحياناً يصبحُ عدوانياً. وربما يرجع ذلك إلى كونه يتمتع بقوة كبيرة، وأنا نحيل الجسم والعضلات، مما جعله يستأسدُ عليّ. ولحسن الحظ كان بشارة الطرابلسي موجوداً، وكان بشارة أقوى منه. قال مرّة أو مرتين: «يلّلا نتلاكم»، أو «خلّينا نتصارع». فأجبتهُ قائلاً: «شوف، أنا مش مُلاكم، بعترف. لكن في أشياء أتفوق فيها عليك» - وذلك لأغاظته. فكادَ يقتلني. ولحسن الحظّ تصادفَ وجود بشارة بالقرب مني في المناسبتين. وقد استنجدتُ به مرة، عندما كاد أن يَقضي عليّ، بعد أن حوَّلني إلى كيس للتدريب على المُلاكمة. جاءَ بشارة وطرحَهُ أرضاً وقال له: «إذا بتعيدها بَخنقك».

كنا مجموعة أصدقاء، خمسة أو ستة، وثيقي الصّلة - رشدي وأنا ولبيب أبو ظهر، وبشارة الطرابلسي وعزّت الزين. هذه هي النواة، وجميعنا في الصف نفسه. كامل مروة كان في صفٍّ أعلى - كان مُسَلّياً جدّاً وسريعَ البديهة. لكنّ صداقته مع رشدي أقوى من صداقته معي. وكان لديهما شغفٌ بالصحافة. كانت المدرسة تُصدرُ جريدةً كلّ شهر أو كلّ شهرين، وتناوَبا على تحريرها. حسن الزين كان صديقاً لطيفاً أيضاً. عمل مُحامياً بعد تخرّجه، واستشهد أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢ - هو وجميع أفراد عائلته، زوجته وأبناؤه، جميعاً. كانوا ذاهبين إلى ملجأ عندما أصابتهم قذيفة، إصابة مباشرة.

بشارة كان طيّبَ القلب، بالرغم من أنه لا يتمتعُ بذكاء وافر، ولدٌ مسكين. كان يتلقّى هدايا كثيرة من عائلته، ويزورونه كثيراً ويُحضِرون له البقلاوة. فكان يقدّم منها لرشدي ولعزّت، ولي، ولكنه لم يكن يقدّمها كلّها دفعةً واحدة، بل كان يقتّن ذلك، ويَقصرُها على أمسيات الأربعاء فقط. وقد كان في المدرسة ما يشبه المنتدى لعقد المناظرات في يوم الأربعاء، كل أسبوعين. نقف ونعبّر عن آرائنا حول موضوع ما، ويقومُ آخرون بالمعارضة. ثم يتقرّر من الفائز. كان بشارة مع بقلاوته يجعلنا ننتظر انتهاء المناظرة. وفي أحد أيام الأربعاء، بعد أن قدّم قطعة بقلاوة واحدة فقط لكلٍّ منا، من علبة فيها نحو ثلاثة كيلوغرامات، سألناه: «إيمتى رح ناخذ القطعة الثانية؟» فقال: «الأربعاء الجاي». «هيك

صعبة علينا، البقلاوة طيبة كتير». ثم أعددتُ خطّة، وفي اليوم التالي، ناديتُ بشارة ورشدي، واجتمعنا نحن الثلاثة. قلت: «بشارة، امبارح إنت قلت لازم نكون ديموقراطيين، ولازم نمارس قوانين روبرتس في النظام. وكنت تعارض أي شخص يحاول القيام بأي شيء دون موافقة الأغلبية. أنا أقترح إنّه بشارة يفتح خزانته ويوزع علينا البقلاوة. مين بأيِّد الاقتراح؟». قال رشدي: «أنا أؤيد الاقتراح». فقلت: اثنين ضدّ واحد». فقال: «اثنين ضدّ واحد، ديموقراطية». فتحَ الخزانة وأعطى كلاًّ مِنا حبّة بقلاوة واحدة.

اهتمامات منزلية

كانت هناك سيّدة قيِّمَة على شؤون القسم الداخلي هي والدة إميل بستاني. كان إمِيل في المدرسة نفسها، متقدّماً عنّي. كانت والدته تشرف على شؤون تنظيف الملابس واحتياجات الطلاب. وهي بمثابة أمّ لنا جميعاً. إذا لم يتمكّن أحدنا من تدبُّر أمور كيّ ملابسه، فإنها تقوم بذلك نيابةً عنه. ومن واجباتنا نحن أن نقوم بكيّ ملابسنا - كنا نضع الفحم داخل المَكوى - عملٌ بدائيٌّ جدّاً. وقد تعلمت ذلك من أم إميل. وقرّرت أن أقوم بكيّ ملابسي بنفسي لأنني شعرتُ أنه ليس من الصواب أن أدَعَها تقوم به، فهيَ أكبرُ سِنّاً من أمّي. علاوة على أن الكيّ لم يكن يحسب ضمن فاتورتها. وأعتقد أنها كانت تقوم بالكيّ نيابة عن عددٍ من الطلاب، ربّما الأغنياء منهم. ولكن لم يكن معي نقود لأدفعها مقابل ذلك.

كان معي القليل جدّاً من المال كمصروف يوميّ. كنا فقراء. وحتّى في وقت لاحق بعد دخولي الكليّة، لم يكن معي الكثير. الشيء الوحيد الذي كنت أنفق من مصروفي لأجله هو قطعة من شوكولاتة «نستلة»، صغيرة بطول بوصتين تقريباً، ورقيقة جدّاً - لقمة واحدة، مثل البسكويت الخفيف - مرّة كل أسبوعين أو نحو ذلك. كان طابع البريد من لبنان إلى فلسطين يُكلّف قرشين ونصف القرش بالعملة اللبنانية آنذاك. كنت أنتظر إلى أن يتبقّى معي آخر خمسة أو عشرة قروش قبل أن أكتبَ إلى أبي طالباً منه إرسال نقود. كان يُرسل لي ربعَ جنيه داخل مغلف كما أظن. كان الأمرُ يستغرق أسبوعين لإرسال الرسالة وتسلّم النقود، لذلك كان يجب أن تكفيني القروش العشرة حتّى ذلك الحين.

كنتُ نَحيلاً شاحباً في تلك الأيام، وكانوا قلقين بشأن صحّتي. قاموا بإجراء فحوص طبيّة لي ووجدوا أنّ لدي ألبومين، وأنّ عليَّ الامتناع عن تناول بعض المأكولات، مثل زلال البيض. وذات يوم، فيما كنت أهبط درَجَ المدرسة من المنزل الداخلي، قابلني نائب المدير، أميركيّ الجنسية، السيد جسوب، وهو يصعدُ الدّرَج. قال: «كنتُ صاعداً للتوّ لأعرف أينَ أنت، لم تكن تلعب في

الساحة» ثم تابع كلامه: «انتظر لحظة». شدّ جفني السّفلي إلى تحت قليلاً، ونظر في عينيّ. لم أعِرْ ذلك أيّ اهتمام حينَها، ولكن لاحقاً، عندما كنت في الجامعة، قيلَ لي إنه إذا كان الشخص يُمارس العادة السريّة، فذلك يظهرُ في عينيه. لا بدّ أنه كان يرتابُ فيّ إزاء هذا الأمر. في كلّ سنة، كان يتمُّ طرد ثلاثة أو أربعة أولاد بسبب الشذوذ الجنسي. وأظنّ أنهم كانوا يتحققون من ذلك كلّ ليلة، للتأكّد من أنّ الجميع نائمون في أسرَّتِهم.

الطعام في المدرسة كان مقبولاً، وصحِّياً. كنتُ أحبّ وجبة يوم الأحَد بسبب طريقتهم في إعداد الفاصوليا اليابسة (البيضاء) والأرز، والسمنة التي يضعونها كانت تجعل الوجبة غنيّة، وكانوا يقدمون لنا إلى جانبها الفِجْل والليمُون. وفي أحد الأسابيع كان الطعام متواضِعاً، وحين شكَونا من ذلك، وقفَت السيِّدة جسوب، زوجة نائب المدير - كانت تتناول الطعام في بيتها ولكنها في ذلك اليوم كانت تأكل معنا - صفَّقت بيديها وقالت: «أولاد، أنتم دائماً تشكون من الأكل، أريد أن أسألكم، أين المشكلة في هذه الوجبة؟». فنظر بعضنا إلى بعض، ولم نشأ أن نعارضَها، فبقينا صامتين. ثم جاءَ دور الفاكهة، فكانت من البطّيخ. وبعد أكل البطيخ، تغَامزنا، وقام كلٌّ مِنا بغرز سكينته وشوكتهِ في قشرة البطيخ على شاكلة مجدافي قارب. فاعتبرَت ذلك إهانة لها. كان ذلك تعبيراً عن استقلاليَّتنا، لأنها كانت تحدِّثنا عن آداب المائدة، مثل وضع السكّينة إلى اليمين والشوكة إلى اليسار. ولعدة أيام بعد ذلك، كلّما جاءت إلى المدرسة، كان وجهُها يبدو مُتَجهِّماً.

المشاوير

كانت المدرسة مُتوازنة تماماً، وجيّدة من الناحية الأكاديمية، وكذلك من ناحية الأعمال الحرفية، وتتيحُ لنا فرصاً كثيرة للترفيه عن أنفسنا. وفي مقدمة ذلك كان مشوار الأحد - في كل يوم أحد، ما لم يكن المطرُ غزيراً، كنا نخرج من المدرسة ونصعدُ التلال نحو قرية أو أخرى، حتى تعرّفنا على كل القرى حولنا - درب السيم ومَغدوشة. وفي الطريق كنا نشتري أكواز الصبر أو الحُمُّص، تبعاً للموسم.

اعتدنا على الذهاب مرّة أو مرّتين في الشهر إلى صيدا، في مجموعات صغيرة. فنغادر بعدَ الغداء ونعود وقت العشاء. كنا نروِّح عن أنفسنا، وربما نتسوق. كانت المدرسة تأخذنا في رحلات للتنزّه ثلاثَ أو أربع مرّات كلّ شهر. كأن يذهب كل من في المدرسة، مثلاً، في رحلةٍ إلى نهر الكلب بالحافلات، ونشوي اللّحم هناك تحت الأشجار.

دُعينا مرّات قليلة، كما أتذكّر، إلى بيوت الأصدقاء. دُعيَ صفّنا إلى بيت آل أبو ظهر لتناول الغداء، وعزّت الزين ووالدُه وجَّها إلينا دعوة لزيارة قريتهما، كفر

رمّان، ليس كل المدرسة، إنما الصفوف العليا فقط، نحو خمسين منا في حافلتين. قضينا ليلة هناك، وتجوّلنا بين أشجار الفاكهة، وقطفنا منها ما أردنا.

في الصيف، في أيام السبت، كنا نذهب أحياناً للسباحة، فتأخذنا المَدرسة. وكنا نذهب إلى مدارسَ أخرى للتنافس معها في ألعاب المضمار أو في كرة السّلة أو كرة القدم. وكانت مدرستنا ومدرسة برمّانا هما الأفضل في تلك الألعاب.

في العطلات القصيرة، مثل عطلة نصف السنة أو في رمضان، كان البعض يستأذن للقيام بأعمال خاصة. ذات مرة أرادَ سبعة منا الذهاب إلى بيروت بالدّراجات، ومنها صعوداً إلى برمّانا بالحافلة - كان صعوداً حادّاً - ثم النزول ضيوفاً على مدرستها، والعودة بالدّراجات. كانت تلك فكرة جُو بستاني ورشدي. حاول قريباي المُعلمان الحيلولة بيني وبين الذهاب لأنني نحيل، اعتقدا أنني لا أمتلك القدرات العضلية التي تمكنني من ذلك، ولكني قلت: «رجاءً ما تعطلوني، نفسي أروح». في نهاية المطاف نزلا عند رغبتي، ولكنّهما أخذا مني وعداً بأنني إذا وصلت إلى بيروت وكنت مُنهكاً إلى الحدِّ الذي لا يسمح لي بمواصلة الرحلة، فإنني سأنتظر هناك حتّى يعود الأولاد من برمّانا ثم أرجعُ معَهُم.

انطلقنا بعد الظهر، وكان الظلام قد بدَأ يُرخي سدولهُ عندما وصلنا إلى بيروت. أتذكّر أنه كان أمراً شاقّاً لأن السيارات كانت في مواجهتنا في الطرقات والأضواءُ تلمع في عيوننا. كنت في نهاية خط الدّرّاجات، وكان ذلك أكثر ما ضايقني. في بيروت، ذهبنا، رشدي وأنا، إلى منزل خال رشدي، وهو طبيبُ مدرسة البنات، بالقرب من كنيسة البروتستانت. تناولنا عشاءً فاخراً وقضَينا الليلة هناك. كنا نحسُّ بالإرهاق الشديد إلى الحَدِّ الذي جعلنا نغفو على مائدة العشاء. أمّا باقي راكبي الدّرّاجات فقد ذهبوا لزيارة أقاربهم. في صباح اليوم التالي، ذهبنا بالحافلات صعوداً إلى برمّانا، فوضعنا الدّرّاجات على ظهر الحافلة. قضينا ليلتين هناك، وعاملونا معاملة مُلوكية - كنا طلاباً من مدرسة شقيقة، ومعنا النجم الرياضي، جُو بستاني. ثم هبَطنا التلّ عائدين من برمّانا بالدّرّاجات، فكان الأمرُ شاقّاً، لأنك يجب أن تعتمدَ على كوابح درّاجتك. قضينا ليلة أخرى في بيروت لكي ننطلق مُبكّرين في اليوم التالي. لكننا بعد ذلك قضينا ليلة أخرى ضيوفاً على مدرسة المقاصد. استضافونا في ملعب الجُمباز، وكان به فرشات سميكة للقفز تملأ أرضية الملعب. قدَّموا لنا الأغطية والمَراتب، ونمنا جميعاً هناك. كانت متعة. قدَّموا لنا عشاء فاخراً كما قدَّموا طعام الإفطار. في الصباح التالي، عُدنا إلى صيدا ظافرين، خصوصاً أنا، لأنهم كانوا يعتقدون أنني لا أقدر على القيام بذلك.

البنات

كانت العلاقات بين الأولاد والبنات مقيَّدَة للغاية. كنا نلتقي بالبنات أربعَ مراتٍ سنويّاً في مدرسة البنات عند سفح التل. كان ذلك مثيراً لنا. كنا نُحسُّ بخفقان في القلب حين نتّجّه نزولاً إلى صيدا، ثم نوجّهُ سيرَنا دوماً بحيث نمُرُّ على جسرٍ صغيرٍ هناك أمامَ مدرسة البنات، قربَ عين الحلوة، لنشاهدَهنَّ وهنَّ يتراكَضن بتلك التنانير، فنتبادل معهنّ الابتسامات عن بُعد.

الاتصال الوحيد لي مع إحدى الصّبايا في تلك السنوات كان مع صبيّة من صيدا، تكبُرُني بعامَين أو ثلاثة أعوام، جاءَت - وأفترضُ أنها جاءت برفقة والديها - إلى معرض التّجارة الذي كان يُقامُ سنوياً. كانت لي قِطعة مَعروضة حازَت على إعجابها؛ سارَت وألقَت عليها نظرة. كانت عبارةً عن حامِل خشبيّ للرسائل والمُغلفّات، مُزخرف بنقوش شبكية أشبه بالدانتيل. قالت: «سعرها غالي كثير عليّ» فقلت: «إذا بدّك تشتريها، بنقدر نحكي عن السعر». فكّرت أنه إذا تطلب الأمر، سأتَخَلّى عن حصّتي من السعر، إذ بعد دفع التكلفة للمدرسة، يُعطى الباقي للطلاب الذين أنتجوا تلك الأعمال. سوف أضحِّي بنصيبي حتى أتمكّن من الحديث معها قليلاً، أو أو ربّما ألمس يدها. فقلت: «ادفعي لي السعر المكتوب على القطعة وبشوف كم ممكن أرجع لك منه». فمدّت يدَها وفيها النقود، ومَدَدْتّ يدي، وبيَدي الأخرى جذبتُ يدها لتستقر على راحة كفي المفتوحة، بحيث أتحسّس نعومة يدها. ابتسمت، وصَلَتها الرسالة. وبدأتُ أمدّ الحديث عن السعر لفترة أطول. ثم قلت: «قرّرت أن أعيدَ لك بعض المبلغ. ولكن أولاً روحي اعرضي القطعة على مين ما بدّك، وارجعي عشان أعطيك الباقي». عادت وفعلنا الشيءَ نفسَه. مدَّت يدها، ومدَدتُ يدي، مع باقي المبلغ، أمسكتُ يدَها وتحَسّستها قليلاً، وشعرت بإثارة بالغة، ولكن من الطبيعي أن الأمر لم يذهب إلى ما هو أبعدُ من ذلك. عرفت أنها تعيش في صيدا. جرَت بيننا محادثة، ولكنني لم أسألها عن اسمها. أتذكّر أنني سألت: «بتيجي لمّا يكون في نشاطات هون؟». فقالت: هيّ أوّل مرة أهلي بيجوا وبياخذوني معهم». كنت أتلفَّت حولي بمشاعر من الخوف والفخر، الخوف من أن يلاحظ والداها الأمر، والفخر أن يراني أيّ طالب من مجموعتي وأنا أمسك بيَد صبيّة. كنت في السادسة عشرة من العمر. أردتُ التركيز على إحساسي بيدها أكثرَ من التعرّف على اسمها. أيّ فرَص أمامي لمقابلتها في صيدا؟ إن آليّة حدوث ذلك مَعدومة.

ميزة مدى العمر: مهارة في المُساومة

عندما كنت في المدرسة الداخلية في صيدا، أحسَّ والداي أنني بحاجة إلى حقيبة جديدة. فالحقيبة القديمة بدأت تصبحُ أصغرَ ممّا يَجب. اقترح أبي أن

أعود إلى صيدا عن طريق دمشق، وفي دمشق أتوجَّه إلى سوق مُحددة هناك، سوق الحميديّة كما أظن، وإلى قسم يَبيع الحقائب. وذكر بالتّحديد نوعاً من الحقائب يقول أصحاب المحلات إنه مصنوع من جلود الإبل. وهي حقائب قويّة جدّاً ويمكن توسيعُها. قال أبي: «تجّار دمشق بيطلبوا سعر عالي ومستحيل، في البداية. لازم تفاصِلهُم. حاول تنزّل السعر للثلث».

ذهبتُ إلى دمشق، وإلى السوق، وسألت في مَحلاتٍ عديدة حتى وجدت حقيبة مناسبة تماماً من حيث الحجم واللوْن. قال صاحب المَحل: «هيّ مناسبة لطالب مثلك، حقها ١٨ ليرة». قلت: «لأ، بدفع فيها ستّ ليرات» - لأن أبي قال الثلث. فقال: «عَم تمزَح؟» قلت: «لا، عن جَدّ، ما بتسوى أكثر من ستّ ليرات». قال: «طيِّب الدّنيا صُبحيّة بكّير، وما بِعت شِي بعد، استفتاح مبارك. بيعَك اياها ب ١٦ ليرة». قلت له: «لا، ستّ ليرات». «١٥ ليرة»... «١٤ ليرة»... «١٣ ليرة»... وأنا هنا أختصر القصة، فقد استغرقَت وقتاً أطول من هذا بكثير. حاول في البداية أن يتمَلّقني بالقول: «انت ولد شاطر، عجبتني، عشان هيك بنزل السعر لغاية ١٢ ليرة». قلت: «طيّب، أنا شاطر لدرجة إني بفكر إنّه السعر غالي كثير». فقال: «حقها آخر شِي ١١ ليرة، خُدها أو اتركها». قلت: «بتركها». استدرت لأغادر المحل. فقال: «١٠ ليرات!». قلت: «لأ» وخرجت. فتبعني راكضاً «ارجع، خلّينا نحكي». فقلت: «شوف إنت بتضيّع وقتك ووقتي. أنا قلت ست ليرات يعني ست ليرات». استشاط غضباً وقال: «من شان الله، خذها! بدّي بيع». فأخذتها. وفيما بعد، عندما ذهبت في الإجازة إلى طبريّا، أخبرت أبي بالقصة. فضحك وقال: «إنت أشطر منّي في المفاصلة».

الجنس

في السنة الدراسية الأخيرة، اصطحبَ المُعلم اللبناني الذي كان يُعلمنا اللغة الفرنسية خمسة طلاب ليقدموا امتحان البكالوريا في بيروت. وكنت من بينهم، أخَذَنا إلى فندق في الجانب الشرقيّ من ساحة البرج. لم نكن نعرف ما يعنيه ذلك في تلك الأيام. بعد العشاء قال لنا: «هلأ، إما بتروحوا على غرفكم، أو بتقعدوا مع بعض وبتراجعوا مواضيع الأدب» - وهو أوّل اختبار في اليوم التالي - «ما بتحتاجولي، وإذا احتجتولي، دُقّوا عالباب، ما تدخلوا على طول». ذهبنا إلى إحدى الغرف، وما أن بدأنا في المراجعة حتى وقف واحدٌ منا - أظنه عزّت الزين - قربَ الشبّاك. كان مساءً شديدَ الحرارة في بداية الصيف. جحَظت عيناه وقال: «تعالوا شوفوا». ذهبنا جميعاً إلى الشبّاك، فقال: «طفّو الضوّ». فأطفأنا الضوء. كنا نقف قبالةَ ما اكتشفنا في وقت لاحق أنه منطقة «الضوء الأحمر». كانت هناك غرفة، ومُومس تستلقي على سرير، حيث يضاجعها شخص ما. لا أستطيع أن أتذكر من الذي قال: «بتفتكروا إنه

مسيو سرور عم يطلّع كمَان؟». قال لئيمٌ آخر: «براهن إنه بيطلّع، لشو جَابنا على هالأوتيل لكان؟ خلينا نروح ونمشي بهدوء ونفتح الباب بدون دَق». وهذا ما فعلناه. كان يقف هناك بدون ضوء في الغرفة، يراقبُ من الشباك. قال لنا: «كنت عَم شمّ شويّة هوَا، لأنّه الضوّ بيخلّي الغرفة شوب كتير».

في آخر سنتين لنا في المدرسة، اعتدنا الحديث عن كيفية التعامل مع الصبايا. كان عزّت الزين هو الأكثر اطّلاعاً على مثل هذه الأمور، فهو الذي يَخرج بالاقتراحات. كان لديه تجربة جنسيّة في القرية، لأنّ والدَهُ هو السيّد الكبير هناك، ولديهم مزارع. وقد لاحظَ أن والدَهُ، بالإضافة إلى زوجاته الأربع، يوفر لنفسهِ فرصة إقامة علاقات مع البنات. كان الأمر خطيراً ولكن لا بدّ أنه كان حذراً. عزّت نفسه كانت له تجربة. وتجربته مع البنات اللواتي يعملن في خدمتهم، في المنزل أحياناً، وأحياناً أخرى تحت الشجر. وفي أكثر الأحيان يتمّ ذلك في العرائش الموجودة في حديقتهم الواسعة لإيواء العمّال، أو لحفظ المعدّات، أو كمخازن. لا أستطيع أن أتذكّرَ التفاصيل. ولكن كلما تحدّثنا عن البنات - وكنا آنذاك في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر - كان يقول: «لمّا نصير في الجامعة، هناك بتلوح الفرَص. وبيكون معانا صبايا، وبنكون في بيروت».

وداعاً للمدرسة

سيبدو هذا نوعاً من التفاخر، لكنني في نهاية المَطاف فزتُ بالجائزة الأولى في الإنشاء بالإنكليزية، والإنشاء بالعربية، والإنشاء بالفرنسية، والخطابة بالعربية والخطابة بالإنكليزية والخطابة بالفرنسية. حين تخرّجت، صعدت إلى المنصة. لا أدري كم مرّة حدث ذلك، وفي كل مرّة كنت أصعد لتسلّم جائزة. نلتُ جائزة لحصُولي على أعلى معدّل من الدّرجات، ثم جائزة خاصّة لأنني كنت أوّلَ طالب في أية مدرسة تبشيرية أميركية في لبنان يجتاز البكالوريا الأولى. أخيراً، يُلقِي الأوّل في الفصل كلمة وداع للمدرسة. والثاني في الصفّ يلقي كلمة ترحيب بالحضور. ذلك هو رشدي المعلوف. ولكنني أنا الذي ألقيت كلمة الوداع. كانت جميعاً عشرَ مرّات، كما أظن، صعدتُ فيها إلى المنصة. أمّي وأبي كانا يجلسان في مقدّمة الحضور. جاءَا من فلسطين. وكانا في قمة الشعور بالفخر.

لم أكن أعتقدُ أنهما سيحضران الحفل، ولكن أبي كتبَ لي يقول: «بالطبع سنأتي». جاءا، يغمرُهما الفرح لرؤيتي، وكانا سعيدين جدّاً بالجوائز التي حصلت عليها، وعبَّرا عن ذلك بدفء بالغ غمراني به. قالا لي: «هيّ ليرة ذهب هدية. شو بدّك تشتري؟». أنفقت الليرة الذهب لشراء كمَنجة (كمَان). كنت قد سمعت أحدهم يقدمُ عزفاً في صيدا وأثارتني فكرة العزف على الكمان.

وهذا كان ينافس في داخلي رغبةً في العزف على الأورغن، لأنني كنت أحبّ موسيقى الأورغن في كنيسة طبريّا. لم تكن لديّ فكرة حول كيفيّة تعلّم العزف على الكمان، ولكني كنتُ متأكداً من أنني إذا ذهبت إلى بيروت، فسوف تكون هناك فرصة لتلقّي دروس في العزف. وحتى في طبريّا، إذا انتهى بي المطاف فيها، سيكون هناك عازف كمان يهودي يمكن أن يُعلّمني. فكّرت في الحصول على وظيفة لكسب الرزق. وبالنسبة للجامعة الأميركية، قال والداي «مش رايحين نسمَح لك تشتغل. بنقترض فلوس حتى تتخرج من الكليّة».

إنه لأمر غريب، ولكنْ، حتى في السنة الدراسيّة الأخيرة لم أفكّر في مِهنة عمليّة. وحتى بالنسبة للجامعة، لم أخَطّط في الحقيقة للالتحاق بها لأنني كنت أعرف مدى صعوبة ذلك. اعتقدتُ أن زملاء الدّراسة الأكثر ثراءً سوف يذهبون إلى الجامعة، حتّى وإن لم تكن درجاتهم جيّدة مثل درجاتي، وأنني لن أكون قادراً على ذلك. لم أفكر حتّى في مسألة المِنح الدراسية. في آخر شهرين من السنة الدراسيّة الأخيرة، جاءَ أحدهم من مكتب التسجيل بالجامعة الأميركية في بيروت وتحدّث إلى صفّ متخريجي المدرسة عن الجامعة الأميركية في بيروت - حديثاً عامّاً، لم يذكر مجالات التخصّص. أتذكّر أنه تحدّثَ عن الأقساط بما أوحى لي أنها تعني الكثير من المال، ثم وزّع طلبات الالتحاق، وقال: «أيّ طالب بيفكر ييجي عالجامعة، يعبّي الطلب عشان ما يكون فيه تأخير». ملأنا الطلبات وسلّمناها. قال لي كل أساتذتي: «لازم تقدّم طلب». وقال اثنان من المُعلمين تخرَّجا في الجامعة الأميركية أخيراً إنهما سيحاولان مُساعدتي. السيد جسوب كان عملياً. قال: «أحسن مساعدة يمكنني أنا والمدرسة تقديمها لك هي تقديم توصية بشأنك». أتذكّر أنني كتبت لوالديّ أخبرُهما عن زيارة مندوب مكتب التسجيل بالجامعة وقلت: «أفهم كم هو صعب وربّما مستحيل بالنسبة لكما أن ترسلاني إلى الجامعة، ولكنه أمرٌ رائع إذا استطعتما ذلك. وأعدُكما أنني سأجتهد ويكون أدائي ممتازاً». وأخبرتهما أن المدرسة ستقدِّم لي توصيةً من الدّرجة الأولى قد تساعدني على تحصيل منحة دراسيّة صغيرة.

في ذلك الوقت بدأتُ أفكّر في دراسة هندسة العمَارة. وللحقيقة، وقع اختياري على ذلك دون أن أقول شيئاً عن الموضوع. وفي الصيف الذي أعقب التخرّج، حين جاءَ والداي إلى المدرسة لحضور التدريبات الأولية لحفل التخرّج، لم يسألاني عمّا سأدرسهُ إذا ذهبتُ إلى الجامعة. كل ما قالاهُ هوَ «بنحاول نشوف كيف ندَبِّر أمورنا». قالت أمّي بوضوح «بما فيه احتمال نِدَّيّن». ولكنهما لم يسألاني عن مجال التخصّص الذي سأختاره. وجاءا فيما بعد في نهاية الصيف، بعد أن أصبح من المؤكَّد أنني سأذهب إلى الجامعة.

بعد ذلك عدت مع عائلتي إلى طبريّا. أقام والدايَ لي حفلاً دَعَوا إليه هيئة أطباء المستشفى وهيئة التمريض وأصدقاءَ العائلة مثل خليل طبَري وآل جورج، وجاراً لديه قارب بمجاديف كان ينقل فيه السيّاح عبرَ البحيرة، واعتادَ أن يأخذنا في رحلات مجانية. كان الحفل بسيطاً، شاي وليمونادَة، وأشياء أعدّتها أمّي مثل الكعك بالتمر وفطاير بالسبانخ وتبولة بالطبع. وكان هناك شيء نسمّيه معكرونة، وهو ليس مثل المعكرونة الإيطالية بل من الحلويّات. كنّا في شهر حزيران/يونيو، فأقيمَ الحفل في الهواء الطلْق أمام البيت. وللبيت ساحة واسعة حوله - سأتحدّث عن طبريّا لاحقاً - وكانت هناك أحواض من الزهور حيثُ كنا نجلس، وضعنا الكراسي، وجلسنا على الحجارة. كان ذلك قمّة البهجة والسرور.

أثناء وجودنا في طبريّا قبل الذهاب إلى لبنان لقضاء الصيف، جاء حبيب كوراني مُسجِّل الجامعة الأميركية في بيروت في رحلته السنويّة التي اعتاد القيام بها إلى فلسطين. في ذلك الوقت، كان الفلسطينيّون أفضل حالاً من السوريّين واللبنانيّين، واعتمَدَت الجامعة الأميركية اعتماداً كبيراً على الطلاب القادمين من فلسطين، لأنّ في وسعهم دفع الأقساط كلّها. جاءَ إلى طبريّا، وحرص على زيارتنا. كانَ قد تسلّمَ الطلب الذي أرسلتهُ من صيدا - وكذلك التوصية من المَدرسة. ولكونه بروتستانتياً أرادَ أن يزورَ أبي، وأن يقول لنا كم كان مُتحمِّساً لدخولي الجامعة. أكّدَ لنا أنني سأحصل على منحة دراسيّة. لم يقل مقدارَها ولكنّه قال: «بطريقة أو بأخرى، سنوفِّر لك إمكانيّة إرسال يوسف للكلية». أتذكرُ كم كان والدايَ سعيدين. عانقاني، وظهرَت على وجه أبي واحدة من ابتساماته النادِرَةِ التي تدوم طويلاً. يا للرجل المسكين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الرابع طبريّا - أيّام الصّبا، ١٩٣٠ - ١٩٣٨

انتقلَت العائلة إلى طبريّا من البصَّة أثناء إجازات عيد الميلاد، في سيّارة كبيرة تشبه سيّارة «ستيشن» التي يمكن أن تقلّنا جميعاً، مع احتياجاتنا من الملابس، وشاحِنة صغيرة خلفَها تحمِل حقائبَ إضافيّة. حدثَ ذلك في أوّل يوم من عام ١٩٣٠. كانَ أبي قد ذهبَ إلى طبريّا قبلنا ليتأكَّدَ من وجود الأسِرّة والمَقاعد. كانت تلك أولى رحلاتي إلى طبريّا. وصلنا إلى هناك في وقت مبكِّر من عصر ذلك اليوم. كان المشهد رائعاً. لم يأتِ الربيع بعد، لكن الجَوَّ كان مُشمِساً، ولدى نزولنا عن التلال، بَدَت بحيرةُ طبريّا مثل مرآة عند السفح، تُحيطُ بها جبالُ صفَد والجولان، وإلى الغرب منها تمتدُّ جبالُ الجليل. وما إن بَلغنا نهايةَ المُنحدَر حتى بدأت ألوانُ البحيرة تتغيَّر. كانت الحقول قد تلقّت بعض الأمطار، فظهرَت مُعشَوشبة وخضراء. غير أن الأزهار البريّة تتفتح فيما بعد.

بُنيَت منازل طبريّا من حجارة رماديّة داكنة جداً، تكاد تكونُ سوداءَ اللون. وهي حجارة بركانيّة شديدة الصّلابة. عندما وصلنا إلى بيتنا، أحسستُ بالسعادة لكونهِ واسعاً. كان للآنسة فورد جناحٌ خاصّ بها، وهو الجزءُ المُحاذي للدير في الجهة الجنوبية من البيت. ويضمُّ جناحُها غرفتين، وغرفة طعام، ومَطبخاً خارجياً موصولاً بمَمَرٍّ مُغَطّى. وقد اشتركنا معاً في ذلك المطبخ لسنوات عديدة. البيتُ مكوَّن من مُستوى ونصف «طابق وتسويَة أرضية» لكونهِ مبنيَّاً على مُنحدَر. كان لدينا غرفةٌ كبيرةٌ في طابق التسوية الأرضي الذي يستطيعُ المرءُ أن يدخلَ إليه إما من البوّابة الرئيسة للبيت أو من درَج داخليّ نازل من غرفة الطعام الكائنة في الطابق العلوي. بعد غرفة الطعام هناكَ غرفةٌ كنّا ننامُ فيها. ثم غرفتان أخريان، استعملنا إحداهُما غرفةَ جُلوس، والثانية غرفةٌ مستطيلة حوَّلها أبي إلى غرفةٍ للمُطالعة وأعَدَّ لنفسهِ فيها مَكتباً به طاولةٌ صغيرة قابلة للطيّ يَكتبُ عِظاتِه عليها، بالإضافة إلى عددٍ من أرفُف الكتب. هناكَ بابٌ في غرفةِ الجُلوس يُفضي إلى غرفة نوم. وفي المَمَرّ الخارجيّ مكانٌ صغيرٌ تمَّ تحويلُهُ إلى حَمّام، مُجرّد دُشّ للاستحمام. كانت دوراتُ المِياه منفصلة عن البيت، وهناك اثنتان منها، وكان على المرءِ أن يخرج من البيت للوصول إليهما. وفي وقت لاحق أُضيفت غرفة ليكونَ لنا حَمّام داخلَ البيت.

لدى الدخول من البوّابة الرئيسة، يجدُ الداخلُ حديقة. سرعانَ ما بدأت أمّي تعتني بها، فأعدَّت حوضاً طويلاً للورود على شكل حرف (U). أتذكّر أنها كانت تُحِب الامتدادات الطويلة من النباتات نفسها - متران من القرنفل ثم متران من العُطرَة. كان على المرء أن يصعدَ عشرَ درجات من الطابق الأرضي (التسوية) ليصلَ إلى الطابق العلوي حيث البيتُ الفعليّ. وعلى المرتفَع الذي يعلو عن البيت، مساحةٌ شاسعة من الأرض، تزيدُ على أربعة أو خمسة آلاف

متر مُربّع، فيها كثيرٌ من أشجار الأوكاليبتوس تتخللها مساحة غيرُ مزروعة. وفي وقت لاحق، تمَّ بناء عنابر في تلك المساحة أقامَت فيها إحدى العائلات البدوية. كانَ أفرادُها يَعتنون بالكنيسة، فالزوجة تتولّى أعمالَ التنظيف في مُستشفى الإرساليّة، والزوجُ يَتولى أمرَ العناية بالأراضي الخاصة بالكنيسة حيثُ تُوجد مزروعات وأشجار تحتاج إلى الريّ. كانت كنيسة (الإرساليّة الاسكتلندية) قائمةً على الجانب الآخر من المستشفى، ولكنها أكثرُ انخفاضاً عنه، وتقع بين الطريق والبحيرة، ولها أراض واسعة مخصصة لها.

على مستوى الغرَف الرئيسة العليا، غرَسَت أمّي وروداً تُحيطُ بالبيت من كل جانب. كانت تُحِبّ أن تسقيَها، وتقوم بالحفر هنا وهناك. فالماءُ كان وفيراً. أحسستُ بالبهجةِ لحقيقةِ كونِ البيتِ بيتاً حقيقيّاً، بِحَمّاماتٍ حقيقيّة. كان بيتنا في البصّة واسعاً ولكنّهُ بلا مَرافق. دورةُ المياه كانت غرفةً خارجَ البيت وبها حُفرة صغيرة يمكنك أن ترى امتدادَها إلى العمق، ولم يكن فيها مقعَد، فكانَ عليك أن تجلس القُرفُصاء. أمّا في طبريّا، فهُناك مَقاعد في دورات المياه. ولدينا كهرباء - كان شيئاً مُثيراً للبَهجة أن تُشعلَ الضوْء بِكبسةِ زرّ. وفي طبريّا لدينا دُشّ للاستحمام. كنت أنا الذي ضغطتُ على أبي لكي يُركّبَ أنبوباً عمودياً ويُثبتَ في طرَفهِ رشاشَ الدُّش، وصنبوراً لفتحِه. في طبريّا تكون الحرارة مُرتفعة قبلَ أن يَحل فصل الصيف، ولكن كان باستطاعتنا أن نذهب بملابس الاستحمام، ونُبرِّد أجسامنا تحتَ رشّاش الماء.

كان المطبخُ واسعاً للغاية. لهُ أرضيّة من الإسمنت، وليست من البلاط، وطاولة للعمل وحوض للجلي من الإسمنت الناعم، لكنّ الماء الساخنَ لم يكن مُتوفّراً. لم يكن لدينا فرن، فكنا نطهُو على البريموس (ببور الكاز). لم يكن عندنا منظومة لتسخين الماء، إذ يتمُّ تسخينُ ماء الحمام في الممر، باستخدام الناريت، وهناك الدُّش وإلى جواره غرفة صغيرة فيها خزّان للماء الساخن، وحوض للاستحمام له صنبور، ونادراً ما كنت أستخدمُه لأن الطقسَ في طبريّا كان دافئاً ممّا يجعلني أستخدم الدّش حتى في فصل الشتاء. لم يكن لدينا ثلاجة، بل صندوق للثلج، وعلى بعد نصف كيلو متر، باتجاه صفد، مصنعٌ للثلج، تتوقف شاحِنة - بناءً على طلب يُقدِّمهُ أبي يوميّاً - وتتركُ لنا نصفَ لوْح من الثلج، فنضعُ الطعامَ الذي يحتاج إلى تبريد بجواره، وكذلك البطيخ والماء. كان الطقسُ دافئاً في طبريّا حتى في الشتاء، فالمدينة منخفضة عن سطح البحر بأكثر من ٢٠٠ متر. وكان المطرُ شديدَ النُّدرة.

لم أمكُث طويلاً في طبريّا بعد أن انتقلنا من البصّة، لأنه كان عليّ أن أعودَ إلى المدرسة؛ إذ كنت قد التحقتُ بمدرسة صيدا في تشرين الأول/أكتوبر السابق. ولكن عندما حَلّت الإجازات - إجازة عيد الفِصح ثم إجازة الصيف - بدأت أستمتعُ بالسباحة. أحببتُ السباحة، كما أن مَهارتي في هذا المجال

تحسَّنت هناك. بدأت أمارسُ التجديف في البحيرة أيضاً. كنتُ آخذُ قارباً من عائلة تسكن بجوارنا. وبتلك الطريقة كنت أتمرّن، وبدأت عضلاتي تنمو. كان عمري أقلَّ من أربع عشرة سنة حين انتقلنا إلى طبريّا. وللعودة إلى المدرسة في صيدا، ذهبتُ عن طريق حيفا، وشعرت أنني مهمٌّ جداً لأنني سافرتُ وحدي. ذهبتُ بسيّارة أجرة لأن أبي أرادَ من السائق، وهو عربيّ، أن يدلّني على السيارات التي تغادر إلى بيروت. يمكن إتمام الرحلة بسهولة في اليوم نفسه، فالمسافة من طبريّا إلى حيفا تبلغُ خمسينَ كيلومتراً، وهي مسافة لا تُذكَر؛ ومن حيفا إلى صيدا كانت الرحلة تستغرقُ أقلَّ من ثلاثِ ساعات. وفي وقت لاحق، بدأنا ننظّم هذه العمليّة بحيث أسافرُ برفقة فتاتين، أكبر مِني سناً، وكانتا تدرُسان في مدرسة صيدا للبنات.

كان هناك مرتفعٌ حادٌّ أعلى من بيتنا يُفضي إلى طريق تمتدُّ إلى أعلى، وبعدَ تلك الطريق، كانت تقيمُ عائلتا خوري وصَبّاغ. وبعدَ ذلك المكان، تقيمُ عائلة الطبري، وهي أهم عائلة مسلمة في طبريّا. فالمُفتي كان من آل الطبري. صدقي الطبري كان شخصية قيادية، كان مديراً عاماً لبنك الأمة في طبريّا. وكان هناك جيلٌ أكثر شباباً في المدينة، وقد أصبح اثنان من هذا الجيل الشابّ من أقرَب الأصدقاءِ لي - يوسف الذي كان أكبرَ سناً مني بقليل، وخليل الذي كان أصغر مني بعدة سنوات. كانا أبناءَ عَمّ. خليل الطبَري هو ابن أخٍ لصِدقي الطبري. كان يتيماً مات والده وهو طفلٌ رضيع، وعائلته تقتصر على أمّهِ وعليهِ هوَ فقط. عاشا مع خالِه. كان صدقي شعلةَ نشاط وشديدَ العناد - إذا أرادَ أن يفعل أمراً فإنه يَمضي ليَفعله حتى وإن كان ذلك يَجلب المتاعب لهُ وللآخرين. خليل كان أكثر دبلوماسية، يحصلُ على ما يُريد باستخدام أسلوب دبلوماسي. لم يُظهر يوسف اهتماماً كبيراً بالسياسة، في حين أن خليل كان سياسيّاً حتى النّخاع. وفي وقت لاحق، عندما أصبحنا، خليل وأنا، صديقين، صرنا نجلسُ لساعات طويلة في الليدو - وهو مسبحٌ يضمُّ ملاعبَ للتنس، ومَرقصاً، ومَطعماً، ويقعُ قبالة بيتنا تماماً، على شاطئ البحيرة - ونتحدث في السيّاسة. كان خليل مؤيِّداً بقوّة للمفتي. وفي الواقع، أعتقد أنّ صداقتنا بدأت حين أوشكتُ على الانتهاء من دراستي في صيدا، أو بعد ذلك بثلاث أو أربع سنوات.

حياتي في طبريّا تنقسم إلى قسمين، القسم الأوّل يمتدُّ من عام ١٩٣٠، عندما جئنا من البصّة أوّل مرة، إلى صيف عام ١٩٣٨ عندما تخرجتُ في الجامعة الأميركية في بيروت. في هذه المرحلة عرفتُ طبريّا أثناء الإجازات فقط، وحتى هذه لا تعني الإجازاتِ كلّها. ففي كل صيف كنا نذهب لمُدّة شهرين، إلى البصّة عادةً، ولكننا في إحدى السنوات، ذهبنا إلى كفر برعم. وفي وقت لاحق، بدأنا نذهب إلى لبنان، في المرة الأولى إلى عيْن القبو، قرية آل معلوف، وفي المرّة الثانية إلى فاريّا في عام ١٩٣٩، قبيل سفري إلى العراق

للتدريس. اندلعت الحرب العالمية الثانية ونحن هناك. وهكذا فإن معرفتي بطبريّا كانت تقتصر على هذه الفترات الوجيزة المتفرّقة لأعياد الميلاد والفِصح وبدايات ونهايات إجازات الصيف.

بدأ القسمُ الثاني من حياتي في طبريّا عندما بدأتُ أعملُ هناك إثرَ عودتي من العراق في عام ١٩٤٠، أي عندما تسلّمت وظيفتي في الحِمّة. وأثناءَ وجودي في الحِمّة، قمتُ بزياراتٍ إلى طبريّا كانت تقتصرُ على إجازات نهاية الأسبوع، والزيارات بين وقت وآخر، وعلى شهر واحدٍ في الصيف. وأطولُ فترةٍ قضيتُها في طبريّا امتدّت من عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٤٤، حين أصبحتُ مديراً عاماً لفندق طبريّا. في ذلك الوقت، كنت أمارسُ لعبة التنس في الليدو. وهناك كانت لي حياة جنسيّة شديدةُ الكثافة.

طبريّا: المكان والسّكان

كانت طبريّا القديمة، أي المنطقة المُنخفضة، مُختلطة. عاش مُعظمُ العرب فيها، وعددٌ من اليهود أيضاً كانوا يقيمون فيها منذ عقود. فطبريّا من المُدن الفلسطينيّة التي أقامَ فيها اليهود تجمُّعاً لهم منذ العهد التركي، حتى قبلَ دخول البريطانيين. وعندما تصعَدُ التّل، في القسم الشمالي من المدينة، تجد حيّاً يَسكنهُ كثيرٌ من العرب، ومنازلَ أغلى ثمناً. آل الطبري كانوا يقيمون هناك، وكذلك عائلة الخرطبيل، وطبيب المدينة. وإذا واصلت الصعود نحو أعلى التل، تصبح المنطقة يهوديّةً خالصةً، منطقة يهوديّة جديدة.

بحُلول عام ١٩٤٨، بلغَ عدد سكّان طبريّا نحو ١١ أو ١٢ ألف نسمة، منهم ثمانية آلاف يهوديّ على أقل تقدير. كان العربُ أقليّة. ومن بين العرب، كان هناك بين ٥٠٠ إلى ٧٠٠ عربيّ مسيحيّ، لا أكثر. ومُعظم السكّان العرب كانوا من صيادي الأسماك. فالزراعة لم تكن نشاطاً هاماً. عمِل البعض في البناء - كانت هناك عائلتان أو ثلاثُ عائلاتٍ من البنّائين، إحداها إنجيلية «بروتستانتية»، والباقي من الكاثوليك. وأحدُ هؤلاء قامَ ببناء غُرَف إضافيّة في بيتنا، وكان أبناؤه أصدقاءَ لنا. كان لعدَدٍ كبير من سكّان طبريّا العرب مجموعة من المقاهي والدّكاكين الصغيرة على امتداد البحيرة، وبالطبع كان منهم حرفيّون وسبّاكون ونجّارون... وكان هناك صغار الصيّادين. وأفضلُ الدّكاكين من حيث مَخزون البضائع كانت لليهود.

كثيرٌ من السكان العرب كانوا يعملون متعهدي تأمين الطعام، أو مرشدين سياحيّين، أو يملكون قواربَ صغيرة بمَجاديف لنقل الناس عبر البُحيرة. كان للسياحة شأنٌ كبير في طبريّا. فتجد هناك من يبيعون مشغولات يدوية من الصّدَف (المَحار) مصنوعة في بيت لحم والقدس. وفي الطرَف الشمالي من البحيرة، يوجد مكان يسمى الطابغة، وهو المكان الذي يُفترض أن السيد

المسيح قام فيه بمعجزة إطعام جمهور من خمسة آلاف شخص بعدد محدود من الأرغفة والأسماك (خمسة أرغفة وسمكتان). وقد وجدوا فعلاً كنيسة في الطابغة، توجد على أرضيتها رسومٌ فُسيفسائيّة للأسماك والأرغفة. وتمّ تحويلُ المكان إلى استراحة سياحية يقصدها الناس لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وقد ذهبتُ إليها مرّات عديدة أثناء دراستي الجامعية، وكذلك حين كنت أعمل في نواحي طبريّا.

مياهُ بحيرة طبريّا عَذبَة، وهيَ مُلتقى نهري الأردن والحاصباني. وعند تدفق المياه من الطرَف الجنوبي للبحيرة حيث يبدأ نهرُ الأردن، ينضمُّ إليها نهر اليرموك القادم من سورية. وفي نقطة الالتقاء هذه، كان هناك جسرٌ يُسمّى جسر المُجَمّع، (الذي يَجمَع) والذي تلتقي عنده بالفعل سوريّة والأردن وفلسطين. كانت الأشغال الكهربائية المركزية لفلسطين تتركّز هناك، نظراً لوجود شلاّل. كانت تلك الأشغال تدخلُ ضمنَ امتياز يسمّى امتياز روتنبيرغ - وهو امتياز يهودي. وهناك أمر مُثير للاهتمام بشأن طبريّا يتعلقُ بينابيع المياه الساخنة. فهيَ لم تكن تتمتّع بمِثل شهرة ينابيع الحِمَّة المعدنية، ولا بتنوّعها. ففيها نبعٌ واحدٌ يتدفق ماؤُه على الأرض، وتوجد مؤسسة تمَكّن الناس من الذهاب إليه ليوم واحدٍ فقط، لاستخدام حمامات المياه الساخنة، وهي مفيدة لعلاج الروماتيزم. لم يكن الناس يبيتون في تلك المنطقة، فهناك فنادق قريبة منها يقضون فيها ليلة واحدة. أما الناس الميسورون فيذهبون إلى فندق طبريّا. ومعظم رواد الفندق من اليهود. وذلك هو مكان الصّيد بالنسبة لي. فمعظم رواد الفندق من النساء القادمات بمفردهنّ.

كانت المياهُ التي تتدفّق من ينابيع بحيرة طبريّا تعودُ إليها، لكنّها تعودُ الى طرَف المَصَبّ، وبالتالي لم تكن تؤثّر على عذوبة مياهها. وفي وقت لاحق قامت إسرائيل بتحويل المياه، فبدلاً من أن تعودَ مياه الينابيع إلى البحيرة، أصبحت تذهب إلى نهر الأردن مباشرةً، مما زادَ من نسبة مُلوحة المياه.

كانت هناك فنادقُ كثيرة في طبريّا لأنها كانت مُنتَجعاً شتويّاً. وفنادقُها العربيّة بدائيّة باستثناء فندق طبريّا. فقد كان أفضلَ الفنادق وأكثرها شهرةً عندما ذهبنا إلى طبريّا أوّل مرّة. وفي أوقات لاحقة، بُنيت فنادق يهوديّة، بعيداً على أعالي التل، وتتوفر فيها مَرافق أكثر. ورغم أن فندق طبريّا كان شهيراً مثلَ فندق بارون إلا أنه لم تكن فيه غرفة دُشّ أو حَمّامات. ففي كل طابق ثلاثة أو أربعة حَمّامات عندَ كلّ طرَف من طرَفيْه.

تركَّزت معظم المِهن والأعمال التجارية الكبيرة في أيدي اليهود. خَرطبيل كان من كبار الأثرياء ولكن مجاله اقتصر على العقارات. كانت هناك عدة صيدليات لليهود. ودور عرض الأفلام، «السينما». وفيما عدا الليدو الذي كان تابعاً لفندق طبريّا الذي يملكه رجال أعمال ألمان، كانت جميع الفنادق والمقاهي التي

تسمح بالرقص والشراب يهودية، وكذلك المطاعم، على الرغم من وجود بعض المطاعم العربية حول البحيرة، متخصصة في تقديم السمك، واللحم المشوي والحمص. وجرت العادة أن يُقلى السمك لا أن يُشوى. ويكون السمك طازجاً جداً بحيث ترى السمكة تتقافز وهي على وَشك أن تقلى.

كان في المجتمع اليهودي كثيرٌ من المحترفين، ولديهم فرقُ كرة قدم خاصة بهم. كانوا يأتون ويقيمون مُسابقات السباحة في الليدو - فيما بينهم - فيتسابق فريق مَكابي ضد فريق آخر مثلاً. كنا ببساطة نقف متفرجين. وأظنّ أن لاعباً عربياً أو اثنين دخلا في عضوية فريق مَكابي لكرة القدم، وهُما من اللاعبين الجيدين. كان في مدارس طبريّا ملاعب كرة قدم صغيرة جداً، ولم تكن فيها أيّة ملاعب لكرة السلة، بينما تتوفر لأفراد المجتمع اليهوديّ كلّ المرافق في مدارسهم، ولم يكن أبناء اليهود يلتحقون بالمدارس الحكوميّة.

جزء من المجتمع البروتستانتي

هناك مركزٌ هامٌّ في طبريّا السفلى هو مستشفى الإرسالية الاسكتلندية، بُني في أواخر القرن التاسع عشر - وبالطبع شهدَ توسعاتٍ معَ توالي السنين - وقد ارتبطت بهِ الإرسالية الاسكتلندية. وكان هناك قسّيس اسكتلندي طوال الوقت، وكنيسة كذلك. ويقعُ مَبنى الكنيسة وبيت القسيس المُقام فوقها على الجانب الآخر من الشارع قبالة المستشفى، بين الطريق المتّجهة إلى صفَد من جهة والبحيرة من جهة أخرى. كان المستشفى صغيراً - عندما ذهبنا إليه، كان فيه طبيبٌ واحدٌ فقط، هو الدكتور تورنس. وأظنّ أنّ زوجتَه كانت قيّمةً تشرفُ على شؤون المستشفى. وفي حوالي عام ١٩٣٨، جيءَ بطبيبة من بيروت، هي الدكتورة بيكامِجيان. ثم جاء طبيبٌ آخر يُدعى الدكتور زاكي أو شيء مثل ذلك الاسم، وهو يهوديّ مُتنصّرٌ ، من أواسط أوروبا. رجل شديدُ اللطف والتهذيب. وفي المستشفى عشرُ ممرضات. معظمُهنّ من طبريّا، ولكن بينهنّ مُمرضة من القدس وأخرى من الناصرة. كن جميعاً فلسطينيات، أربعُ يهوديّات والأخريات مَسيحيات.

كان المستشفى مُهماً لأنه يُقدّم خدماتهِ للمرضى من خارج طبريّا أيضاً، كانوا يأتون من قرى مثل سَمَخ، والقرى الأكثر بعداً. كان الدكتور تورنس معروفاً على نطاق واسع كجرّاح مُتمَكّن. وكأبيه من قبله، لم يكن يؤمنُ بإعطاء أدوية كثيرة للناس. فهو يؤمنُ بأن الجسد يُكيِّفُ نفسَه بنفسه، بالإضافة إلى اعتمادهِ على الأعشاب، والعلاج الطبيعي.

كانت الإرسالية الاسكتلندية موجَّهة نحو اليهود - فهي تهتمُّ أساساً بتنصير اليهود، لا المسلمين، وكان أعضاؤها يؤيّدون الصهيونيّة إلى أبعد حدّ. وهذا هو الشيء الوحيد الذي أزعجني بشأن علاقتنا بها. لم يكونوا واضحين أبداً بهذا

الخصوص، ولكنَّكَ تستطيعُ أن تشعر بأنهم يتعاطفون مع اليهود. كان جميع مرضاهم من العرب تقريباً - فلليهود مستشفى خاص بهم يقعُ على التل. ومستشفى الإرسالية الاسكتلندية مَجانيّ تقريباً. وجميعُ العاملين فيه - مثل رئيسة هيئة التمريض، والقيّمة المشرفة عليه، والصيدلانية وعدد قليل من الممرضات - اسكتلنديون. ما أحببتُهُ في مجتمع المستشفى كان القدّاس الذي يُقام عصرَ كل يوم أحَد، باللغة الإنكليزية، لأن لديهم جوقة، وفي معظم أيام الأحد، كانت المُمرّضات يُرَتّلنَ ترنيمة أو اثنتين بمصاحبة موسيقى الأرغن. وطيلة الوقت الذي عرفتُ فيه الإرسالية وكنيستها، كان القسيس هو عازف الأرغن، وكان شخصيةً لها شأنُها في المستشفى.

وضِمْنَ البعثة الاسكتلندية شخصيّتان أو ثلاثُ شخصيّات تثيرُ الاهتمام. ومن هذه الشخصيات آنسةٌ نصفُ أرمنيّة ونصفُ اسكتلندية. عرفناها دائماً باسم الآنسة فارتان، وهي قيّمة مُتقاعدة. كانت متقاعدة حين ذهبنا إلى طبريّا. وبعد سنوات، حين كنتُ في الجامعة، وكان فؤاد وفايز على وشك دخول الجامعة، ووالداي غير قادرين على الإنفاق على ثلاثتنا في نفس الوقت، انبرَت لمساعدتنا، وأقرضتنا بعض المال من مُدَّخراتِها. هناك شخصٌ آخر أقرضنا بعض المال هو الدكتور هارت. كان رئيس جمعية الشبّان المَسيحيين في القدس، وهو الذي بَنى مقرَّ جمعيّة الشبّان المَسيحيين في القدس قبالةَ فندق الملك داوود. ثم تقاعدَ وأقامَ في طبريّا. كان يقيمُ على مسافة كيلومترٍ واحدٍ خارجها، إلى الشمال من الطريق المؤدّية إلى صفد، حيث بَنى منزلاً جميلاً على أرض يمتدّ رأسُها إلى داخل البحيرة. فكان المرءُ ينزل إلى البحيرة بواسطة الدّرَج، وهناك ينبوع تتدفق مياهه الساخنة صاعدةً من مكان دخولك إلى الماء. كان يُكِنُّ لي الودّ ويُعيرني بعض الكتب. وقد أتاحَ وجودُهُ لي فرَصاً ثقافية لأنه كان مُتعلماً. وأظنّ أن شهادة الدكتوراة التي نالها كانت في الأدب أو في العلوم السياسية. كان يهودياً متنصراً أيضاً، من أتباع الكنيسة المشيخية (البرسبِيتيريَانيّة).

الآنسة فورد كانت أيضاً من أتباع الكنيسة نفسها، وكانت تعملُ مع الإرسالية الاسكتلندية بانسجام كبير. لم تكن لها إرسالية خاصة بها. وأرادت أن تؤولَ ممتلكاتها كلّها إلى الإرسالية الاسكتلندية. وفي الواقع، حين انتقل أبي إلى طبريّا، كانت تدفع له جزءاً يَسيراً من مرتّبه، والباقي تدفعُه الإرسالية الاسكتلندية. كان هو القسيس العربي. وهناك أبرشية يتفقدها أبي بزياراته. وكنّا نشترك جميعاً في الكنيسة نفسها.

كانت الآنسة فورد عجوزاً في ذلك الحين. وتتكلم اللغة العربية - فقد مضى على وجودها في فلسطين عشرات السنين - غير أن لغتها العربية لم تكن مُمتازة. كانت تنضمّ إلينا في معظم الأمسيات للصلاة، قبل أن تذهب للنوم.

وعلاوة على ابتهالات أبي الطويلة، كان لها ابتهالاتها. أحياناً كانت تبدأ ابتهالاتها باللغة الإنكليزية لتنهيها باللغة العربية، أو بالعكس. وقد يتلجلجُ لسانها في الكلام فتسكُت وتقول - إذا تذكّرَت اسم أبي —: «قسيس عبد الله، شو معنى هاي الكلمة بالعربي؟». فيخبرُها، فتعود من حيث توقّفَت، هذا إذا تذكّرَت أين توقّفَت. كانت في الثمانينيات من عمرها - وبلغت التسعين عند وفاتها - وكانت تنسى قليلاً. وأكثرُ ما يدعو إلى الضحك كان حين تصل إلى ختام دعواتها الطويلة وتقول: «إلهي، كُن مع هذي العيلة الطيبة، عيلة...» - وتنسى اسم أبي. فتقول: «عفيفة - لم تنسَ اسم أمي أبداً - «عفيفة، شو اسم جوزك؟» وتقول ذلك همساً كما لو أن أبي لا يسمعُها. فتقولُ لها أمّي: «عبد الله». فتُكمل: «آه، عبد الله وعيلته وأولادُه وبنتُه».

تقول دائماً: «أولادُه وبنتُه». إلى أن وقعَت حادثة ذاتَ يوم قبلَ تلك الابتهالات. كانت غالباً ما تُحدِّثُنا عن أميركا - فقد جاءت من ولاية تِنيسي، وكانت عنصرية جداً، فتتحدّث عن السّود بطريقة عُنصرية. كان فايز لمّاحاً ولاذعاً جداً، وكان في طور المراهقة، قال لها ذاتَ يوم: «عمري ما شفت واحد أسود، هل قلوبهم سودا مثل بشرتهم؟». كان يشاكسُها، فتقول: «قدّيش إنت غبي؟!» وتقول لأبي: «قدّيش ابنك غبي! لازم تعلمه يفهم الأشيا أحسن من هيك». وكانت قد أخبرتنا أنه في أميركا لم يكن يُسمح للسود بدخول مطاعم البيض؛ وغالباً ما تتحدّث عن الجنّة. وذاتَ مرّة قال لها فايز: «آنسة فورد، فيه جنّة للسود منفصلة عن جنّة البيض؟» في تلك الليلة حين بدأت تدعو، طلبَت من الرّب أن يحفظَ عائلة عبد الله وأضافت: «إلهي، خلّي شويّة عقل في راس هالولَد اللي بيفكّر إنه فيه جنّة للسّود وجنّة غيرها للبيض!».

كنت أحترمُ أبي كثيراً وأشعرُ تجاهه بدفءٍ بالغ، ولكن نادراً ما عبّرت له عن مشاعري لأنه كان يحول دون ذلك. كان يتجهّم أحياناً، ويبدو شديد التحفّظ والكبرياء. لكنني كنت أحبّه كثيراً من أعماقي إلى حدٍّ يجعلني أرغب في البقاء معه، وأن أقلّدَهُ. وعلى سبيل المثال، فإن نَزقي بشأن وضع الأشياء في مكان معين، حتى وإن كان هو المكان الخطأ، لكنه المَكان نفسُه - ذلك الطبع أخذته عنه. كنت أبرعَ فرد في العائلة من حيث قدرتي على إصلاح الأشياء بيديّ وعلى النّجارة، وهذا أخذته عنه أيضاً. كانت لديه ورشة في طبريّا، غرفة في الطابق الأرضي يحتفظ فيها بأدواته. فكان يصنعُ الخزائن والطاولات وأرفف الكتب. أنجز معظم الأعمال الخشبية في البيت. تعلّم النجارة في المدرسة، كما تعلّمتُ. وحين رأى اهتمامي بها، كان يُقدِّمُ لي الإرشادات - كيف أدقّ مسماراً، وكيف أجعلُ الخشب ناعماً، وكيف أصمِّم الأشياء قبل تنفيذها. لم يكن بارعاً في الأمور الكهربائية، ولكن المنشآت كانت ممتازة في فلسطين إلى درجة كبيرة بحيث لم نواجه أية مشكلة في هذا الشأن. وأقصى ما كنا نفعله هو تغيير «لمبة».

كانت لأبي أفكار عمليّة، كان ماهراً جداً في الأمور العمليّة. عندما يُواجهُ مُشكلة، فإنه يقوم بتصميم حَلّ مناسب لها، حَلّ بسيط لكنه فعّال. أنجز القليلَ من أعمال الحِدادَة أيضاً، فكان يجلب التنَك ويلحّم المَوادّ معاً لصنع الحاويات والمواعين. وإذا كان هناك هَدرٌ للماء، كما حدث في بساتين البصّة، حين حاول أحد مالكي الأراضي تغيير اتجاه مَجرى الماء لاستعماله في الري، كانت هناك غالباً مسافة بين مكان نزول الماء وقناة الرّي. أتذكّر أنّ أبي صمّمَ شيئاً من الخشب وجعلهُ مائلاً من الداخل بحيث ينسابُ فيه الماء، شيء أشبه بالمجرى. وبتلك الطريقة أوقفَ هدرَ ثلث الماء تقريباً. كان يُفكّر في مثل هذه الأشياء. كانت يداه من نوع الأيدي التي يصفونها بالماهرة والنافعة. عريضتان وقويّتان. وأظن أنّ أروع ما صمّمَ كان خزانة أرفُف للكتب في الغرفة التي كان يستعملها للمطالعة في طبريّا. كانت مؤلفة من أرفُف، ولكن في منتصفها ما يشبه الدُّرْج، وهو دُرْجٌ عريض تستطيع أن تسحبَهُ إلى الخارج فيسحَبُ معهُ دعائمَ مُثبتة في أسفله بحيث يصبح مكتباً. كان يكتب عليه عِظاتِهِ دائماً. فيَرفعُ الطبقة العليا التي غطاها بالزجاج، وتحت تلك الطبقة، حيث يوجد الدُّرج، كان يحتفظُ بأوراقه وأقلامه. وعلى مستوى ساقيه، لم يكن للخزانة أرفف، بل أدراج لحفظ الأشياء.

وهناك شيءٌ آخرُ اشتراهُ، وكان مثيراً للاهتمام، وهو القطعة الخشبيّة الوحيدة التي لم يصنعها بنفسه. كان رفاً للكتب يَستندُ إلى مِحوَر لهُ أربعة قوائم حديدية تفتح إلى الخارج، وفي الجزء العلويّ أرفف للكتب قابلة للدوران لها ستة جوانب. كان يستخدم جانبين ويلفّهما نحوَهُ إذا أراد أن يُدقّق في كتب اللاهوت. كان يُنظم الأشياء حولهُ، وكانت طريقته فعّالة. وفي النهاية بدأ فايز يستخدم ذلك الرفّ لكتبه الفلسفية الكثيرة.

اشترى أبي آلة تصوير (كاميرا) لنفسه وقد ورثتُها عنه. كان مولعاً بأشياء مثل هذه - يشتري درّاجة ويتَعلم كيف يستعملها، وآلة طابعة ويتَعلم الطباعة بواسطة اللمس. هكذا تعلمتُ الطباعة في البداية. وذاتَ يوم عادَ إلى البيت ومعه كاميرا، واحدة من آلات التصوير التي تفتحها ثم تسحبها، طرازٌ قديمٌ من نوع «كوداك». ولم يقتصر الأمر على رغبته في تعلّم التصوير وشراء الكتب حول ذلك الموضوع فحسب، بل أراد أيضاً تظهيرَ الأفلام. كانت هناك غرفة خارج غرفة القبو نستخدمُها شتاءً، ويستخدمها أبي لأعمال النّجارة لصنع خزائن الملابس وخزائن الكتب. حوَّل جانباً منها، وكانت واسعة، إلى غرفة لتظهير الأفلام. وأحاطها بحاجز من الخشب وبطَّنها من الداخل بحيثُ تكونُ غرفة تظهير بمعنى الكلمة؛ وبدأ بتظهير أفلامه فيها. لم يلتقط الكثيرَ من الصور لأنهُ وجد أن الأمر باهظ الكلفة. فأقلعَ عن ذلك، وأخذتُ أنا آلة التصوير.

الإخوة، المدارس والأصدقاء

كانت في طبريّا مدرسةٌ ابتدائية للبنين، لا تتجاوز الصفّ السادس، كلّ المعلمين فيها جاءوا من خارج طبريّا باستثناء مُعلم واحد. التحق إخوتي بمدرسة البنين، وكانت هناك مدرسة للبنات، مدرسة حكومية، كانت قريبة من بيتنا، التحقت بها ماري. لم تكن في طبريّا مدرسة ثانوية. كان البريطانيّون يَضنّون بالمدارس على العرب، وكان لليهود نظامهم الخاص بهم. ولذلك السبب عندما أكملَ فؤاد وفايز المدرسة الابتدائية في طبريّا ذهبا إلى صفَد، والتحقا بمدرسة «سمبل»، وهي مدرسة أجنبية سُمّيَت باسم مديرها السيّد سِمبل، الذي كان بارعاً جدّاً في الرياضيات، وعالِماً. حين أنهى توفيق الدراسة الابتدائية، ذهب الى الكلية العربية في القدس، وكان مديرها أحمد سامح الخالدي. أرسله والدي إليها لا إلى صفَد لأنه قُبِلَ فيها مَجاناً نظراً لحصوله على درجاتٍ عاليةٍ في المدرسة. ومَرَّ مُنير بالتجربة ذاتها، أحرز درجات عالية فذهب الى الكلية العربية. وكلاهما تخرجَ فيها بالحصول على شهادة المترك (ما يعادل البكالوريا أو الثانوية العامة أو التوجيهية في أيامنا). وحين جاء دور أنيس، قال توفيق: «ما تبعتوه على هديك المدرسة (الكلية العربية)، وإلا ما رح يتبسّم طول عمره». فأرسلناهُ إلى مدرسة الأسقف «جوبات»، وهي مدرسة إنكليزية أخرى في القدس. في ذلك الوقت، في سنة ١٩٤٧، أصبحت الأمور شديدة الخطورة. وبعد وجوده هناك لبضعة أشهر، أصبح القتال شرساً جداً لدرجة أنني بعد أن اتصلت بالعائلة هاتفياً، اصطحبته إلى صيدا، إلى المدرسة التي تعلّم فيها والدي، والتي كنت أتعلّم فيها أنا أيضاً. وتخرج فيها، ولكنْ في هذا استباقٌ للأمور.

السنواتُ التي كنت خلالها أدرُسُ في صيدا وأعود في أيام الإجازات كانت هي السنوات التي بدأتُ أثناءَها في تكوين الصّداقات - مع خليل ويوسف الطبري بشكل رئيسيّ. كانت هي السنوات التي أصبحنا فيها مُراهقين، وبدأنا نفكّر في دخول الكلية وفي الحياة العمليّة. في ذلك الوقت بدأت التوترات تتنامى بين إخوتي، خصوصاً بين فؤاد وفايز. كنتُ على علاقة جيّدة بِهما، غير أني كنتُ أنحازُ إلى جانب فؤاد لأنهُ كان يتعرّض لمُضايقاتٍ من طرَف فايز، بل كاد يكون مُضطهداً بسبب دهاء فايز. كنتُ مُعجَباً بفايز، لكنني كنتُ أتعاطفُ مع فؤاد. وتوفيق كان هو الذي يدخلُ في نوبات من الإحباط. فمنذُ أن كانَ صبيّاً صغيراً، كان يقول: «أنا رح موت وعمري ثلاثين سنة». بعد ذلك بسنوات قال: «لا، أربعين». وفي الواقع، لم يتجاوز ذلك كثيراً، فقد كان عمرة ٤٦ عاماً حين وافتهُ المنيّة. كان توفيق قريباً من ماري، وكانَ يَميلُ كثيراً إلى مُنير ثم إلى أنيس. كان عاطفيّاً، وله علاقات طيّبة مع الجميع. لكنني أظن أنّ علاقاته كانت وثيقة أكثر مع من هم أصغر منه سناً، لا الأكبر. وإلى حدٍّ ما، كانت عائلتنا منقسمة إلى نصفين، نحن، الأبناء الثلاثة الأكبر سناً، شكّلنا وحدة معاً، والإخوة الأربعة الأصغر سناً شكلوا وحدةً أخرى. وتجَلّى ذلك بعد بضع سنين حين كنا،

فؤاد وفايز وأنا، في الجامعة في الوقت نفسه، وتخرّجا بعدي بسنوات قليلة، فتخرجَ فؤاد في سنة ١٩٤٠ أو ١٩٤١ وفايز في سنة ١٩٤٢. في ذلك الوقت لم يكن توفيق قد دخل الجامعة. وحين دخل الجامعة كنتُ قد بدأت العمل، وأصبحتُ أساهم في تعليمه، وتعليم فؤاد وفايز كذلك. ولكننا سنأتي إلى ذلك فيما بعد.

على الرغم من هذه التوترات، كانت حياتنا سعيدة لأن المجال كان أكثر رحابة، فنحن نستطيعُ أن نخرج، هناك المدينة، يُمكننا الذهاب إلى السوق. ولدينا صداقات خارج البيت. تحسّن دخل أبي. أصبحنا نستمتع بمزيد من الأشياء. وفَّرت لنا الكنيسة وقدّاس الكنيسة بعض المتعة، فعلى سبيل المثال، في أيام أعياد الميلاد، والإجازات، والأعياد الدينية، كانت تقام نشاطات عديدة؛ فتحضُرُ الممرّضات فجراً ويترّنمنَ بترانيم الميلاد على درَجات بيتنا، ويقامُ القدّاس في الكنيسة إلى جانب شجرة عيد الميلاد. هذه الأشياء لم نعرفها من قبل. كانت أكثر تنوّعاً في طبريّا. كما كانت في المدرسة مكتبةٌ صغيرة ويمكنني استخدامها.

كان فايز مشاكساً منذ وقت مُبكّر جداً. يشاكس الجميع. دخلنا الغرفة ذات مرة، وكانت هناك حقيبة سفَر لي. كنت على وشك الذهاب إلى مدرستي في صيدا. أغلقها فايز بسرعة وكأنهُ أخذ منها شيئاً ما. قلتُ له: «فايز، أخذت شي من شنطتي؟، أنا رتّبتها مزبوط». فقال: «إي، أخذت شي منها». «وينُه؟ رجعُه!». فقال: «ما بقدر أرجعه». «شو يَعني ما بتقدر ترجعه؟». فقال: «ما بقدر ألاقيه، ما بقدر أحدده». «فايز خليك عاقل». قال: «أنا عاقل». لم يتزحزح. وهكذا كان عليّ أن أرفع المسألة إلى أمي ثم إلى أبي. وعندما وصل الأمر بأبي إلى القول: «رح تنضرب إذا ما بتحكي وتقول شو اللي أخذته». قال: «أنا فتحت شنطة يوسف وأخذت منها كمشة هوَا. بقدر أحددها؟ بتقدروا تحدّدوها؟». كنا نعتبره دائماً مضحكاً - مشاكساً ومضحكاً. كيف يمكن لأي شخص أن يفكر بهذه الطريقة ما لم يكن مضحكاً؟ لكنه كان منطقياً على الدوام. وفيما بعد، أصبح المنطق هو حجر الزاوية في مجادلاته دائماً. وقد استخدم المنطق في مناظراتهِ ضدّ الصهاينة، بعد ذلك بسنوات، في أميركا.

من الصّحيح أنني كنت أضربُ إخوتي الأصغر مني سناً، كنت بمثابة أبٍ ثانٍ لهم. ولم يكن أبي هو الذي كلفني بذلك الدّور. في الواقع، عندما علمَ والداي بذلك، شعرا بالانزعاج. أمّي التي كانت تقوم بدور الطرف الرحيم، قالت لي: «إنت الأخ الأكبر. بتحِسّ بالمسؤولية، بدَّك تساعدنا. بَس مش لازم تضرب إخوتك». ما فعلته كان صفعاً أكثر من كونه ضرباً. كان فؤاد وفايز هما اللذان يتشاجران معظم الوقت. استمرت مشاجراتهما حتى بعد أن دخلا الكلية. وبين وقت وآخر يحدُث سوء تفاهم بينهما. ولكن في ذلك الوقت بدأ كلاهما

يتجاوزان تلك الحالة. وكان الأمر أكثرَ خطورة عندما كانا في مدرسة صفد في القسم الداخلي. فهُما في الصفّ نفسه، وفايز كان الأول في الصف في حين كان فؤاد الثاني أو الثالث.

كانت مدرسة صفَد مدرسة جيّدة جداً، خصوصاً في العلوم والرياضيّات، وهي الأفضل في فلسطين. لكنّ فؤاد وفايز لم يدخلا امتحان المترك هناك، إذ لم يكونا يريدان المجازفة، لأن المترك - مثل البكالوريا - إذا لم تَجْتَزهُ بنجاح، فإن عليك الانتظار سنة كاملة حتى يتسنى لك دخول الامتحان مرة ثانية. لذلك ترَكَا المدرسة قبل الامتحان والتحقا بالجامعة الأميركية في بيروت، في السنة الأولى. كانت الكليّة العربية مدرسة حكوميّة، وأحمد سامح الخالدي كان مديراً لها. كان قاسياً جداً. كان توفيق ممتازاً في الأدب واللغة وميئوساً منه في الفيزياء والهندسة والجَبر. أرهبَهُ الخالدي. في ذلك الوقت كان توفيق طالباً في القسم الداخلي، ومن المؤكد أنهُ كان في الثانية عشرة من عمره حين ذهب إلى هناك أوّل مرّة - أصغر من أن يبتعد عن البيت. ولكن ذلك هو الحال نفسه بالنسبة لفؤاد وفايز ومنير، وأنيس فيما بعد. ذهبَت ماري للدراسة في لبنان في القسم الداخلي من المدرسة الأميركية للبنات. وكانت المديرة شديدة العداء لها، فانتقلت إلى المدرسة الأهلية، طالبةً في القسم الداخلي، مثلنا. حصلَ توفيق على شهادة المَترك إذ نجح من المحاولة الأولى، رغم أنه قدَّم ورقة بيضاء في امتحان العلوم. ذلك لأنه كان متفوّقاً في سائر الموادّ الدراسية. فقد حصل على أعلى درجة في عموم فلسطين في امتحان اللغة اللاتينية وكذلك في اللغتين الإنكليزية والعربية والتاريخ. في العلوم والرياضيات فقط، كان أداؤه ضعيفاً.

في مطلع الثلاثينيّات، ولا أتذكر في أيّ عام بالتحديد، كان على أمي أن تذهبَ إلى البصّة. كان هناك إضراب، والمدارس في طبريّا مغلقة، فكان عليها أن تأخذ الأولاد الأصغر معها. وفي البصّة، أصيبَ فؤاد بمرض الحَصبة، وانتقلت بالعدوَى منه إلى فايز، ثم تنقّلت في العائلة بين الأولاد، ووصلت إلى منير. كان أنيس هو الوحيد الذي لم يُصَب بالحَصبة. وبالنسبة لمنير، لم تكن الحُبوب ظاهرةً على الجلد بل كانت مُختفية تحت الجلد. وهذا يحدثُ في حالات نادرة جداً، وهي ضارّة بالجسم. عندما عادت والدتي بعد مرور أسابيع، بعد أن اضطرت إلى معالجة الأولاد واحداً بعد الآخر من الحصبة، أخبرها الدكتور تورنس أن الحصبة سوف تترك أثرها على صحة منير. كان يجب أن يستنشق هواء نقياً حتى يستعيد صحته. ولكنه كان أضعف من أن يقدر على المشي؛ ويحتاج إلى من يأخذه إلى الخارج بالسيارة. لم تكن لدينا سيارة ولا نملك أن نخرجه بسيارة أجرة كل يوم. فكنت أحمله على ظهري مسافة كيلومتر ونصف، إلى موضع عند منزل الدكتور هارت، وأنا أحدّثهُ وأمشي لكي يظل

مُستمتِعاً ويضحك، كنا نرتاح هناك لبعض الوقت ومن ثم أحملهُ عائداً إلى البيت. فعلت هذا لأسابيع عديدة.

أبو دخل الله

هناك شخصية كانت من معالم حياتنا في حوران، والبصّة وطبريّا. شخصية ثابتة. كان رجلاً مُسنّاً يَظهرُ فجأة من لا شيء، راكباً حصانَهُ الأشعث، وعلى الحصان «خُرج»، أي سَرج لهُ جانبان يُمكن أن تضع فيهما الأشياء. كان يملأ السرج بالنّشرات الدينية والأناجيل ويُوزّعها بالمجّان تقريباً. فيشتريها الناس بدافع حبّ الاستطلاع، فقد كانت رخيصة جداً. كان من المُفترض أن يقوم بالتبشير وهو يتجوّل. كان بروتستانتياً. وتوزيع النشرات كان مدخله للتبشير. يتزوّد بالنشرات من أية مدينة يذهب إليها ويكون فيها بعثة تبشيريّة. كان الجميع يعرفونه. ويُدعي أبو دَخْلَ الله؛ وقد نسيت اسم عائلته. كان شديدَ الأناقة ونظيفاً، وليس كبُطرس، ذلك المصري المُتنصِّر. كان يمكث عندنا مدة يومين أو ثلاثة، ليُجدِّدَ نشاطه بعد رحلاته الطويلة على حصانه، وليرتاحَ حصانه كذلك. ثم ذاتَ صباح، عند الفجر، نكتشف أنه قد ذهب، وبعد ستة أشهر، أو سنة، نراهُ وقد عاد ثانية. حين غادرنا حوران وجئنا إلى البصّة، ظهر أبو دخل الله وحصانه فجأة ذات يوم. كان له صوت جهوريّ. يقول: «عرفت وينكُن، وهيني جيت» فنقول له «أهلاً وسهلاً». أقامَ ثلاثة أو أربعة أيام، ثم اختفى، ثم جاء ثانية. حين انتقلنا إلى طبريّا، لم تَمْضِ سوى أشهر قليلة حتى رأينا أبو دخلَ الله يدخلُ من البوّابة ويربط حصانه إليها. كنا دائماً نرحب به، لأنه كان «خفيفَ الدم». أظن أننا كنا نستضيفه في غرفة الجلوس لأنه لم تكن لدينا غرفة للضيافة. كنا مضغوطين من حيث المكان. فكنا نتوزّع، بعضنا ينام في الغرفة بالطابق الأرضي، وأحياناً تنام الشغالة فيها، وإذا كان الجوّ حارّاً، ينام بعضنا في الخارج.

طبريّا تحت وابل المطر

في ربيع أحد الأعوام، لا أستطيع أن أتذكّر في أيّ عام بالضبط، صبَّ الغيم على طبريّا وابلاً من الأمطار في يوم واحد يعادل ما تتلقاهُ عادةً في عام كامل. كان هناك فيضان. بيوت طبريّا القديمة كلها تضم غرفاً تحت الأرض للجلوس في الصيف - لكونها أكثر برودة. غمر الفيضان الطوابق الأرضية، وجرف أربعين أو خمسين شخصا تقريباً نحو البحيرة، وقضوا غرقاً. كنت في صيدا عندما حدث ذلك، ولكن أبي كتب لي رسالة طويلة يصفُ كل ذلك بالتفصيل. غمرني ذلك بالخوف عندما بدأت أقرأ. ولكن منذ بداية الرسالة كتبَ أبي: «نحن بخير» ووصف التفاصيل. كان إخوتي في المدرسة حين انهمر وابل المطر. وبالكاد توفّر الوقت لأبي لانتعال حذائهُ وأخْذ المظلّة والانطلاق

نحو المدرسة التي كانت في الطرف المقابل من المدينة، في مكان مرتفع فوق ينابيع الماء الساخنة ويستغرق الوصول إليها عادة نحو عشرين دقيقة سيراً على الأقدام، هذا إذا لم يكن هناك مطر ينهمر فوق رأس المرء. وصل إلى هناك ووجدهم سالمين. كان أبي قبل مغادرته البيت قد أكّد لأمّي قائلاً: «لا تقلقي، بضلّ مع الأولاد حتى يوقف المطر. إذا تأخرنا ما تفكري إنه صار لنا شي». استغرق الأمر ساعات من الانتظار. وحين عادوا أخيراً، كان المطر أقلّ، لكنهم كانوا يقطرون ماء. لا أظن أن أيّاً من البيوت قد انهار، لأنها كانت مبنيّة من الحجارة، وقوية جدّاً. لكن الناس غرقوا في الشوارع وهم يركضون من مكان إلى آخر. كانت طبريّا تقع عند سفوح تلال حادّة جداً، وقد جاءت مياه الأمطار من جهة التلال في زخات عاصفة. لا بدّ أن ذلك كان مخيفاً.

الأصدقاء والمعارف

كانت طبريّا مركز القضاء، حيث يقيم مسؤول القضاء. وكان العرب فيها يضمون مجموعة من الأشخاص المتعلمين، والحرفيين، وبدأنا نتعرّف إليهم تدريجيّاً. تطوّرت علاقتي بالمجتمع خلال سنتين أو ثلاث، وليس فورَ وصولنا إلى طبريّا. كان بينهم مسؤولون حكوميّون، واثنان من مسؤولي الري. كان هناك بنك عربي، وصيدلية، واثنان أو ثلاثة من المحامين. وهناك عائلة الخوري، توفيق وشحادة الخوري، وهما شقيقان. وابن أحدهما سعيد خوري، الذي كان شريكاً لحسيب صبّاغ. عائلة الخوري عائلة صفديّة ثريّة. يقضي أفرادها الصيف في صفد، وباقي أيام السنة يقضونها في طبريّا. وسبب إقامتهم في طبريّا هو أن لديهم امتيازاً من الحكومة، امتياز احتكار الصَّيد في البحيرة. كانوا يتقاسمون رأس المال مع يهودي، على أساس الشراكة. وهناك عائلة عربية قيادية ليست من طبريّا ولكنها كانت تقيم فيها، هي عائلة عنبتاوي، كان محامياً شديد الدهاء والفطنة وله ثلاثة أبناء. والعائلة كلها تتميز بالتباهي الشديد في الملبس، ولديهم سيارة جميلة، وكان لأولادهم درّاجات جميلة عليها زخارف وزينة إلى أن كبروا وأصبحوا في سنّ تسمحُ لهم بقيادة سياراتهم. كان الطبيب الحكومي في طبريّا عربيّاً، هو الدكتور ميخائيل، وهو خال الدكتورة حنان ميخائيل (عشراوي)، ثم الدكتور برنيخ. وكانوا يقيمون في المنطقة التي تقيم فيها عائلة الطبري.

وهناك عائلة الخَرطَبيل، ولديهم ثلاثة أو أربعة أبناء، أكبرُهم طبيب هو زوج وديعة قدورة خرطبيل. والأخَوان الأصغر أصبحا طبيبين. أحدهما طبيبٌ عام والثاني طبيبٌ بيطري. وأبوهما خليل خرطبيل كان ثريّاً، لم يكن أغنى عربيٍّ فحسب، بل ربّما أغنى رجل في طبريّا. فكل ما يلمسه يتحوّلُ إلى ذهب. لم يكن يعمل في التجارة بل في العقارات - البيوت والأراضي. وهناك حكاية تُروَى عنه وهي أنه كان يمشي صاعداً من طبريّا القديمة متوجّهاً إلى المبنى

الحكومي الذي كان يُدعى تيجارت. أثناء الثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ أقامت الحكومة حصناً في كل مدينة تتجمّع فيه المكاتب الحكومية، وتقيمُ فيه قوة الشرطة لتتمكن من الصمود أمام أيّ هجوم. كان الخرطبيل يسير متوجِّهاً إلى هناك لدفع الضريبة، وأمامَهُ رجلان يتحدثان بحماسة أثناء سيرهما. وكما روَيا الحكاية لاحقاً، كانا يتحدّثان عن إبرام اتفاق لشراء بعض الممتلكات بعشرات الآلاف من الجنيهات الفلسطينية. سمع أحدهما خطواتٍ خلفه، ونظر حولهُ، فرأى خرطبيل. فقال لرفيقه: «يا إلهي، هذا الرجل رايح ياخذ الصفقة منا». وصل خرطبيلَ إليهما، فقالا له: «يا حَجّ خليل، ما في داعي نتنافس، بندفعلك شي». فقال لهما: «لازم تدفعوا شي مِحرِز». «شو بيرضيك؟». فعرفَ أن المبلغ كبير، فقال: «عشرة آلاف جنيه». فقالا: «لا، هيك كثير». وفي النهاية استقرّ الأمر على سبعة آلاف. وهناك في التوّ واللحظة قدّما له شيكاً بالمبلغ. فقرّرَ أن يذهب إلى المصرف ليودعهُ - وذلك ليتأكد من دقته، فانتظراه. دخل وأودع المبلغ وعاد وسألهما: «وهلأ شو هيّ الصفقة اللي بتحكوا عنها؟». فأصيبا بالذّهول. «بتقصد إنك أخذت السبعة آلاف جنيه بدون ما تعرف شي عن الصفقة؟». فقال لهما: «عاجلاً أو آجلاً رايح أعرف عنها».

أصدقاؤنا آل جورج لم يكونوا من طبريّا. كان الأب مهندساً، لم يكن في الواقع حاصلاً على شهادة في الهندسة، ولكن كانوا يُسمّون أمثاله كاتب أعمال؛ وهو مصطلح يطلق على من يمارسون الأعمال الهندسية ولديهم قسط من التعليم، ولكنهم لا يحملون شهادة في الهندسة. كان مثيراً للاهتمام. قضى سنواتٍ في أفريقيا - في دار السلام - وأماكن أخرى غيرها. وكان أوّل من يمتلك مذياعاً (راديو) بين العرب. كان بروتستانتياً وعضواً في الأبرشية. لم يكن متديّناً ولكن زوجته كانت ابنة القسيس. كان كلاهما من لبنان. وأبناؤهما وإخوتي كانوا أصدقاء حميمين، ومقرّبين منا جداً. أصبح ابنهما الأكبر جورج سياسيّاً حتى النخاع، وذلك في وقت لاحق، في (الحزب).

وهناك صديقٌ آخرُ للعائلة تصادفَ أنه بروتستانتي وهو رئيسَ دائرة الضرائب في طبريّا، أنطون خبّاز، من القدس، وهو أصلاً من حِمص. كانت زوجته من عائلة صلاح المقدسيّة. اغتيل مدير الضرائب هذا عام ١٩٣٩. كان ذاهباً إلى بيته بعد زيارة لأحد الأشخاص، ومعه ابنه، ولَدٌ في العاشرة أو الثانية عشرة من عمره، وفجأة، قبل أن يصل إلى منزله كان شخص ما متربِّصاً له، أطلق الرصاص عليه. قُتل الصبيُّ على الفور، وحين جاء الناس ووجدوا «خبّاز»، استطاع أن يلفظ فقط «خ - طبري». وماتَ دون أن يقول شيئاً آخر. كان رئيس الشرطة البريطانية معادياً لخليل طبري، فقبضَ عليه. اعتُقلَ مدةَ أسبوع للتحقيق معه، لكنه استطاع أن يدبّر تبريراً مقبولاً. وكان الآخرون يظنّون أن القاتل هو خير الطبري، ابن المفتي، الذي كان متهوراً وعنيداً،

ويحمل دائماً مسدَّساً. كان خير عدوّاً لخبّاز لأنه كان يُصرّ على جمع الضرائب من آل الطبري ولم يرتدع بالترهيب.

وفي وقت لاحق، في عام ١٩٤٨، بعد أن غادر والدهُ طبريّا ليصبح مفتي الناصرة، وحين مرّ الإسرائيليون تحت شرفته وهم يستولون على الناصرة، أفرغَ خير الطبري رصاصَ رشاشه فيهم، تاركاً رصاصات قليلة ليفرغها في رأسهِ.

الفصل الخامس في الجامعة الأميركية في بيروت، ١٩٣٤ - ١٩٣٨

عندما جاءَ مديرُ التسجيل بالجامعة الأميركية في بيروت إلى طبريّا، طلب من والديَّ أن يَدَعا القلق جانباً، فهُم سيتَولّون بطريقة ما أمر دخولي إلى الجامعة. لم يسألني أبي عمّا كنت أخطِّطُ لدراستهِ إلا في اليوم الذي كنت سأغادر فيه، حين همّ بالصلاة من أجلي. قلتُ له إنني أرغبُ في دراسة الهندسة المعماريّة. قال: «منيح، موفّق، مبروك». تأثّرتُ بموقفهِ العصريّ الذي يمنحُني استقلاليّة الاختيار. فأيُّ أبٍ سواهُ كان سيقول: «لشو هالمَوضوع، اختر لك موضوع غيره!» ربّما لم يحاول التأثير عليّ لأنه لم يدخل جامعة علمانيّة، ولم يكن يعرف المجالات المفتوحة أمامي. دعا الله أن يحميني، ثم أعطاني ربعَ جنيه فلسطيني مصروف جيب وقال: «لما يخلص، ابعت واطلب كمان، إنت عارف إنّه الأمر مش سهل علينا». فهمتُ أن هذا سوف يَستمِرُّ إلى ما بعدَ تلك الرّحلة.

اشترى لي والداي بذلة جديدة، في طبريّا. وما زلت أتذكّرُها، لا يمكنني أن ألبسَها الآن. لا أدري كيف انتقيت ذلك اللون، شيء يشبه السّالمون الدّاكن. ودَّعتهم بقلب مثقل. سافرتُ إلى حيفا، ومن حيفا ركبتُ سيارةَ أجرة إلى بيروت.

بعد استقراري في سكن داخليّ في الجامعة الأميركية في بيروت، بدأت عملية التسجيل. كان النظام المتَّبع آنذاك يتضمّن وضع ثلاثمائة أو أربعمائة كرسيّ تمتد في صفوف من باب مكتب مدير التسجيل إلى الخارج نحو حرم الجامعة. فكان على المرء أن يقضي ساعاتٍ هناك. ما عليك إلا أن تلتزم بدورك، تبقى جالساً، وما إن يغادر أحدهم مكتب التسجيل حتى يتقدم الجميع بمقدار مقعدٍ واحد. في تلك الأيام، كان هناك شخص واحد فقط يتولى عملية التسجيل، ذلك هو مدير التسجيل نفسُه، وعليك أن تقابلَه. ويجب على المستجدّين، بصفة خاصّة، أن يقابلوه ليتخذوا قراراً بشأن موضوع دراستهم. بعد انتظار دامَ نحوَ ساعتين، جاءَ دوري. عرَفني مدير التسجيل، وقال: «يوسف، شو بتحبّ تدرس؟». فأجبت: «هندسة معمارية» فقال: «ما في عنّا هندسة معمارية، اختر شي تاني». قلت: «حقوق». كنت قد قرّرت من قبل أن

الحقوق ستكون خياري الثاني. قال: «ما في عنّا حقوق، استعجل، انت معطّل الدور». فقلت: «شو أختار؟». قال: «ليش ما تاخذ إدارة أعمال؟ اطّلع فيّ أنا، أخذت بكالوريوس إدارة أعمال، وصرت هون». نظرت إليه وقلت: «منيح». هكذا تمّ اختيار مستقبلي العملي بهذه البساطة، دون أي إعدادٍ جيّد أو تفكير.

كلّ ما فعلَهُ هو أنه وقَّع بالأحرف الأولى على بطاقة. وذهبتُ لكي أختار المساقات الدراسيّة، فقد كان التخصّص آنذاك يبدأ في السنة الأولى نفسِها لا في السنة الثانية. لم يكن الأمر صعباً، قابلتُ أحدَ المشرفين وأخبرني ماذا أفعل. وبالنسبة لدفع الرسوم، اكتشفت أن مديرَ التسجيل كان قد اتخذ الترتيبات بالتنسيق مع مدير الإدارة المالية، وهو أميركي يدعى آرشي كروفورد، وخصّصا المساعدة، كمنحة مالية تعينني على الوفاء بالرسوم. وقالا: «بنفكّر نعدّلها بعد الفصل الأول، لما نشوف كيف درجاتك». كانت درجاتي في الفصل الأول جيّدة جداً. فذهبت وقابلت كروفورد، وسألته: «مستر كروفورد، في إمكانية لزيادة المنحة؟». كنت قد سمعت أن طالباً أرمنياً أقل مني بستين مرّة من حيث العلامات ويحصل على مساعدة مالية أكبر من تلك التي أحصل عليها. قال: «أخشى أننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً بهذا الخصوص». فقلت: «لكن فلان الفلاني بيحصِّل ضعف قيمة المنحة مع إنه علاماته أقل من علاماتي بكثير». رفع نظارتهُ إلى جبهته، وحدّق في عينيّ، وقال: «إنت عن جد بتفكر تاخذ قد واحد أرمني؟». فقلت: «نعم، في بلدي» - كنت قوميّاً إلى حد بعيد - «بتوقّع إنه هو ياخذ نصّ اللي أنا باخذه، مش العكس».

ذلك يعني أنني لم أحصل على أيّة زيادة في تلك السنة، ولكننا تدبّرنا أمرنا - كانت الرسوم قليلة، كما أنني عشت حياة تقشف. في الفصل الثاني حصلت على وظيفة متواضعة في المقصف (الكانتين). كنت أجلس إلى طاولة، وكان مع طلاب القسم الداخلي قسائم لكل وجبة. فنتسلّم منهم القسائم ونتأكّد من أنها تخُصّهم. كانت مجرّد وظيفة مكتبية بسيطة ساعدتني على تحصيل القليل من المال.

في كلِّ عام، كنت أنتقي المساقات الدراسية، وأحاول تنويع اختياراتي. وخلال السنوات الأربع اللازمة للحصول على الإجازة الجامعية، درجة البكالوريوس في إدارة الأعمال، استكملت كل متطلبات درجة البكالوريوس في الاقتصاد أيضاً، من خلال مساقات إضافية، وكأنني حصلت على درجتَي بكالوريوس. تخرجتُ في سنة ١٩٣٨ مع مرتبة الشرف. ومن بين جميع الخريجين الذين بلغ عددُهم أربعمائة طالب حصلوا على درجة البكالوريوس، نال أربعة منا فقط مرتبة الشرف: رشدي معلوف وأنا، وكنّا نسكن في البيت نفسه. وكان تخصصهُ في الأدب العربي. والثالث هو منير بعلبكي. وهو الآن (آنذاك) صاحب

دار للنشر هي «دار العلم للملايين»؛ ومن منشوراته قاموس إنكليزي - عربي. والرابع هو بدر الفاهوم - رئيس شركة التأمين العربية - الذي تخصصَ في العلوم السياسية.

ما كان أكثرَ أهميةً من صفوف الدراسة هو مجرّد وجودي في الجامعة الأميركية في بيروت. كان ذلك أمراً عظيماً بالنسبة لي، فأنا قادم من مدرسة صغيرة، من مدينة صغيرة، بل من قرية. وهنا ثلاثة أو أربعة آلاف طالب من مختلف أرجاء العالم العربي، وكذلك من إثيوبيا، وأميركا ومناطق أخرى. جاء الطلاب العرب من كل حدب وصوب. لم يكن هناك طلاب من المغرب، ولكن هناك عدة طلاب من السودان، ثلاثة أو أربعة طلاب من مصر، كثير من العراقيّين، والسوريّين، والكثير الكثير من الفلسطينيّين، والكثير بالطبع من اللبنانيّين. جاء كثيرون من شرق الأردن، ولا أتذكّر أن أحداً كان من الخليج. كان الحِراك الفكري قويّاً جداً، في الجانب السياسي منه. ولكن هناك قضايا أخرى - كان شارل مالك في الجامعة آنذاك، يُدَرّس الفلسفة، وكان في الجامعة قدر كبير من الحديث عن المسائل الفلسفية. لكن العلوم السياسية والسياسة هي الموضوعات الرئيسة في المناقشات ماذا يجب علينا أن نفعل في العالم العربي؟

في ذلك الوقت، كان أربعة أساتذة في الجامعة، وشخصية واحدة من خارج ملاك الجامعة ولكنها قريبة منها، هم الذين تركوا أكبر الأثر في حياتي كلها فيما بعد، من الناحية الفكرية والسياسية. ومنهم شارل مالك في مجال الفلسفة، لكنه كان أيضاً يُمَثل النظرة اللبنانية القومية والإنسانية - وقد حضرت كمستمع مساقين اثنين للدكتور مالك. لم تكن إثارة شارل مالك للاهتمام تبلغ ذروتها بالنسبة لي في قاعة الدراسة، وإنما في بيت عائلة المعلوف. كان صديقاً لفخري، الأخ الأكبر في عائلة المعلوف، الذي كان تخصصه في الفيزياء، لكن لديه اهتمام بالفلسفة أيضاً، وفي وقت لاحق درَسَ اللاهوت وأصبح كاثوليكيّاً. كان شارل مالك مُهتمّاً بالشباب النابغ من الطلاب ليجتذبهم إلى الكاثوليكية - جاء ألبرت حوراني إلى الجامعة فيما بعد، وتأثّر بشارل مالك بناءً على تلك الاعتبارات، جاء مُدرّساً بعد أن تخرجَ من قسم التاريخ. والأستاذان الآخران اللذان أثّرا فيّ كانا من القوميين العرب، قسطنطين زريق وأستاذ مساعد هو فؤاد مفرِّج الذي كان يمتاز بذكاء استثنائيّ. وقد نال درجة الماجستير فقط آنذاك، ولكنه كان يُدَرِّس في الجامعة. وهذان الرجلان حملا أفكار القومية العربية والوحدة العربية. جورج حكيم الذي كان قد حصل للتوّ على درجة الماجستير ويُدَرِّس بعض المساقات في قسمنا كان الماركسيّ الوحيد في المجموعة. درَّس مساقاً حول ماركس، وانتظمت فيه، ومساقاً حول تاريخ العقائد. اهتم بي وأعطاني كتباً كثيرة لأقرأها ومنها بعض أعمال لاسكي، وجون رِوبنسون. قرأتُ «رأسِ المال»

لماركس في ذلك الوقت لأوّل مرة رغم أنني لم أفهم منه شيئاَ. وهكذا يصبحون أربعة. الشخص الخامس من خارج الجامعة هو أنطون سعادة. كان يدَرِّس اللغة الألمانية - وبعض الطلاب درَس الألمانية عنده، وبعضهم درَس الإسبانية، وطالب أو اثنان درَسا اللغة الروسيّة. كان مدهشاً في اللغات.

الانضمام إلى الحزب

بدأت معرفتي بأنطون سعادة مع قرب انتهاء سنتي الجامعية الأولى. كان صديقاً لعائلة المعلوف ولشارل مالك أيضاً. تخيّل جلساتٍ يجتمع فيها هؤلاء الخمسة ويتناقشون مُدّة خمس أو ست ساعات! كان أمراً رائعاً. كنت أميلُ إلى سعادة لأنهُ من بين هؤلاء الخمسة، كان هو الوحيد الذي يتصرَّف ولا يكتفي بالأقوال فقط. كان يَبني تنظيماً، يبني الحزب. كان الحزب سريّاً آنذاك. انضممت إليه في بداية عام ١٩٣٦ حين كان سرّياً، رشدي وأنا انضممنا إليه معاً، وكان سعادة نفسُه هو الذي أقامَ لنا حفلَ أداء القسَم.

تلقينا التثقيف العقائدي من سعادة نفسِه. يبدو أنه أحسّ أننا نحن الاثنين نحمل وعداً للحزب. كان مهتما بآل المعلوف وكنت أسكن معهم. رغبَ في أن نكون تلاميذَهُ مباشرةً وأن لا نتثقف من خلال شخصٍ آخر غيرِهِ. استغرق ذلك شهوراً. كان يقضي خمسة أو ستة أشهر وهو يتحدَّث إلى الناس، ويختبرُهم فكرياً ويختبرُ معدنهم قبل أن يقول في النهاية: «أنت الآن جاهز للانضمام». كانت المحافظة على سرِّية الحزب تتمُّ من خلال نظام الخليّة. لا أحد يعرف عن الآخرين. في الجامعة، كانت الوحدة تُسمَّى «المُديريّة»، وهي أكبر من خليّة؛ وفي أي وقت، يكون هناك عشرون أو ثلاثون عضواً في الاجتماع. ثم أصبحنا في وقت لاحق أكثر من ذلك بكثير فكان عليهم توزيع الأعضاء بين الكليات. وقد أقلقتني هذه السريّة قليلاً - أكسبتني الثقة لأنها كانت تعني أن هناك حماية، ولكن، من جهة أخرى، إذا انكشفنا - والحزب غير قانوني وليس لديه ترخيص - فمصيرنا السجن. كان الفرنسيّون شديدي العداء، لأن الحزب كان ضدّ قيام كيان لبناني ضيّق. لكن عداءَهم للحزب كان أشدّ لأنه وقفَ ضدّ الاحتلال الفرنسي. لم يكن الحزب يقوم بدور المقاومة النشطة، ليس في ذلك الوقت، لكنه شارك في كل تحرّك بعد أن تمّ الإعلان عن تأسيسه.

بعد أن أصبح الحزب قانونياً، كانت لنا مناقشات كثيرة مع الطلاب القوميين العرب. والشخص الذي كنت أناقشهُ معظمَ الوقت، وكان زميلي في الصف، هو محمد شقير الذي قُتلَ فيما كان مستشاراً لأمين الجميّل. كان من كبار مؤيّدي فكرة القومية العربية آنذاك، ومساعداً لرياض الصلح. في الواقع، عندما اغتيل رياض الصلح وهو في طريقه إلى مطار عمَّان مغادراً، بعد زيارة قام بها للملك عبدالله (الأول)، كان يرافقهُ محمد شقير. كان محمد يجلس

في السيارة إلى جانب رياض الصلح عندما لاحقتهم سيارة عسكريّة، ومدّ أحدهم يدَهُ التي تحمل مسدساً إلى داخل نافذة السيّارة - كانت النافذة مفتوحة - وقال: «هذه من سعادة». كان رياض الصلح رئيساً للوزراء عندما أُعدم أنطون سعادة. قُتل رياض الصلح على الفور، وسقط بين ذراعي محمد شقير. بعد سنوات، أصبح شقير صديقاً للحزب وناقداً للقوميّين العرَب.

في ذلك الوقت، كانت الاتجاهات الرئيسة السائدة بين الطلاب هي القومية العربية والقومية السورية، لا القومية اللبنانية - ففي تلك الأيام، في الجامعة الأميركية في بيروت، لم يأخذ أحدٌ القومية اللبنانية على مأخذ الجدّ. كان يُنظَر للكتائب على أنها مُجرّد حركة كشفيّة لها زيٌّ موحَّد. كان القوميّون العرب ضد القوميّين السوريّين. والمناقشات بينهم شديدة السخونة، ليست سخونة مادّية، فلم يكن هناك قتال في تلك الأيام. نحن، القوميين السوريين، أبلينا بلاءً حسناً لأننا كنا أكثرَ عدوانيّةً منهم. زريق، مُعلمُهم، كان شخصاً لطيفاً. فؤاد مفرِّج كان يأخذ كلَّ شيء على سبيل المزاح. كان قومياً عربياً، لكنه لم يرفع مناقشاته إلى مستوى جدّيّ يؤدّي إلى احتكاك. غادر إلى الولايات المتحدة الأميركيّة للدراسة بهدف نيل درجة الدكتوراه، وتُوفّي في حادث سيّارة بعد وصوله بقليل - وتلك خسارة كبيرة. ألبرت حوراني كان مهتماً بالقضيّة الفلسطينيّة. عرف سعادة وكان يحترمُهُ. كان وثيق الصلة بشارل مالك طبعاً، وبزُريق. فلم يكن من النوع الذي ينحاز إلى أيّ طرَف.

في الحرم الجامعي، كان النشاط فكريّاً وسياسيّاً، وفيه جدال ونقاش، قدرٌ كبير من ذلك. كنا نحن في الحزب مُنهمِكين في استمالة الطلاب، وكنّا نتقدم وننمو بسرعة كبيرة. ونتمتع بالحماية بسبب وجودنا داخل حرم الجامعة. ولكن كان هناك نشاطٌ كبير لتجنيد أعضاء جدد، من خارج الجامعة، في الوقت نفسه. وطالما كان ذلك يتم دون الخروج على القانون، فإن الأمر عاديّ، فالجامعة لم تكن تحظرُ هذا النشاط. لم يكن هناك ما يحول دون انضمام الطلاب، ولكن لم يكن من المفترَض أن نعقدَ الاجتماعات في الداخل. كنا نعقدُها سِرّاً. أتذكر أننا ذات مرة، عندما كنت مديراً لفرع الجامعة، كنا نعقد اجتماعاً داخل الجامعة في غرفة ضمن قاعة وست هول. جاء حسن قائدبيه يسعى إلى الغرفة، في الطابق الثاني، وظهره إلى الحائط يتمسّح بهِ مثل لِص، ثم انسلّ داخلاً من الباب. ودخلَ بالطريقة نفسِها عضوٌ آخر هو منير تقي الدين، أخو سعيد. فقلت لهما: «أمّا جوز (اثنين) إنت ويّاه، جايين خايفين هالقد؟».

- لا أعتقد أننا سنُطرد من الجامعة لو قبضوا علينا، سنُعطى إنذاراً خطيّاً فقط.

«لم يكن في اليوم ما يكفي من الساعات...»

في الجامعة الأميركية في بيروت، بذلتُ جهداً كبيراً جداً جداً جداً. لم تكن لديّ أيّة حياةٍ اجتماعيّة. في كلّ شهر أو نحو ذلك، كنا، رشدي وأنا، أو بشارة وأنا، نذهب إلى السينما. في بداية الأمر كنتُ معسوراً، أنتظر حتى تتبقى ليرة لبنانية في جيبي، أو نصف ليرة، ثم أكتب رسالة إلى أبي، فيرسل لي ربعَ جنيه فلسطيني. تحسّنت الأوضاع في سنتي الجامعية الثانية لأنني بدأت أعمل في الجامعة. أولاً، أقمت في قاعة «وست هول» كطالب قسم داخلي. لم يكن فيها سكن داخلي، لكن سمح لنا، رشدي وأنا، واثنين آخرين من الطلاب بالإقامة هناك مقابل قيامنا بنقل الكراسي من الطابق العلويّ إلى قاعة «وست هول» استعداداً لتقديم عروض الأفلام. كان في الطابق العلوي أربعمائة كرسي، وعلينا حملها قبل بداية العرض، ثم إعادتها في الليلة نفسِها. في السنة الأولى كنت أنام في السكن الداخلي، في السنة الثانية انتقلنا إلى قاعة «وست هول». في السنتين الثالثة والرابعة أقمتُ مع عائلة آل معلوف. حصلت في السنتين الثالثة والرابعة على وظيفة في الجامعة - وظيفتين في الواقع، الأولى هي المساعدة في أعمال المكتبة، بإحضار الكتب للطلاب والأساتذة وإعادة الكتب إلى الأرفف. والثانية وظيفة في إدارة الأراضي والمباني، مع عزيز نحّاس، حيث كنت أقوم بأعمال محاسبية للإدارة. جنيتُ من النقود ما يكفي لتمويل رحلة إلى سويسرا، ولكن لم أقم بها أبداً لأنني شعرت أن عليّ أن أعطي المال لإخوتي.

بعد السنة الثانية في الكلية، حان وقت حضور فؤاد وفايز. لم يُقبل فايز في الجامعة لأنه كان أصغر من السنّ المسموح بها، وكان من المفروض أن يحضر فؤاد وأنا في السنة الثالثة. أحسستُ أنه قد يكون من الأفضل أن أترك الجامعة وأن أعمل لمدة عام أو عامين، لمساعدة أبي. وفي ذلك الحين بالضبط، علمتُ أن مكتب التسجيل سيفقد أحد المساعدين. فتقدمت بطلب لشغل تلك الوظيفة، فقُبلت، وبدأت أعمل في الصيف. غضبَ والداي عندما سمعا بذلك، وقالا: «ما بنقبل نسمَحلك تقطع دروسك. عم نعمل ترتيبات تأمِّن لك الفلوس». فعملت مدة شهرين ثم قدمت استقالتي وسافرت إلى طبريّا، اكتشفت أنهم اقترضوا مالاً من الدكتور هارت وفارتان. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هناك حقيقة هي أنني لم أكن أحمّلهم أعباء مادية تُذكر بفضل الوظائف التي كنت أشغلها. وهكذا عدتُ إلى الدراسة. كنت في السنة الثالثة، وكان فؤاد في السنة الأولى.

في الجامعة، كان علينا أن نكون في قاعة المحاضرات في تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً، وذلك لمعظم الصفوف. لم تكن لديّ المشكلة نفسها في الاستيقاظ من النوم والتي عانيت منها في أيام المدرسة، ذلك لأنني كنت أكثر تعلّقاً بصفوفي الدراسية. كان الجوّ كلّه مثيراً للحيويّة. فبالنسبة للطلاب القادمين مثلي من مدارس تقليدية، كانت الجامعة جديدة

ومثيرة. وللجامعة الأميركية في بيروت سحرٌ خاصّ - كنا نُغنِّي «نِحنا ولاد الكليّة» ونحن في طريقنا إلى دور عرض الأفلام، ونحن نملأ عربات الترام. كنا نحسّ أننا من نسلٍ خاصّ. اعتدتُ على الاستيقاظ مبكراً، وممارسة التمارين الرياضيّة السّويديّة في غرفتي أو التوجّه إلى مركز اللياقة البدنية في الجامعة، والقيام ببعض التمارين أو التسلق على الحِبال - كان لدينا مركز لليّاقة البدنيّة في «بليس هول» وقد هُدِمَ لاحقاً لأنهم احتاجوا إلى المكان لأغراض أخرى. كنت أتمرّن مدةَ عشرين دقيقة، وأركض من حرم الجامعة إلى بيت عائلة المعلوف في شارع جان دارك، بالقرب من دكان طَقّوش للزهور، ثم أُغَسِّلُ أو أغتَسل سريعاً تحت رشّاش الماء، حسب الفصل، ثم ألبس، وأحلق، وآكل، وأكون في حرم الجامعة مستعداً في تمام الساعة السابعة والنصف. لم يكن ذلك الاستعداد في الصباح الباكر يأخذ منّي وقتاً كما الحالُ الآن.

في السنة الثانية أو الثالثة، بدأت أتلقى دروساً في العزف على الكمان. لم أكن أقدر على ذلك من قبل بسبب عملي في الحزب، ومساقاتي الدراسية، ووظيفتي في الجامعة. عندما بدأت أجني مالاً أكثر، باشرت في تلقي تلك الدروس. كانت دورة نظاميّة، ولكن على أساس طالب واحد في الحصة الواحدة. كان المعلم لبنانيّاً فرنسيّاً يهوديّاً. أظن أنني واصلت الدراسة مدة سنتين، لكنني لم أمارس العزف كثيراً. في تلك الأثناء، كنت قد انتقلتُ للإقامة مع عائلة المعلوف، فكنت أحسّ بالحرَج من إثارة الضجيج. وفي النهاية توقفتُ عن متابعة ذلك.

مارستُ نوعين من الرياضة. اشتركت في مسابقة كمال الأجسام وأحرزت الميدالية الفضية. وفي السنة الأولى كان علينا ممارسة التمارين الرياضية فاخترت اللياقة البدنية. ولكن أكثر ما كنت أمارسه هو السباحة. أحببت السباحة، فتلقّيت تدريباً على عملية الإنقاذ. وفي السنة الثانية، أحرزتُ شارة منقذ حياة مبتدئ، وفي السنة الثالثة أحرزتُ شارةَ كبير المنقذين. وحيث إنني لم أكن ذا سُمعة غير حميدة، طلبَ مني مُدير التربية البدنية أن أذهب مُبكراً مرّةً أو مرّتين كلّ أسبوع، في وقت وصول طالبات كلية البنات إلى شاطئنا للسباحة، لأكون منقذاً هناك. أتذكر أن طالبةً من حيفا، بنتاً يهودية، شديدةَ الجاذبية، جاءت إليّ وقالت: «أنا مهتمة بالإنقاذ، بتقدر تعلّمني؟» فأخبرتها ما تنطوي عليه عملية الإنقاذ من الناحية النظرية. فقالت: «افرض إنه واحد عم يغرق وتعلق برقبتك هيك» - وأمسكَت برقبتي وضغطت عليّ - «شو عم بتسوِّي؟» عندما كرّرَت ذلك مرتين أو ثلاث مرات أحسست أنها تعبث بي. فقلت لها: «إذا كانت بنت مثلك بفضِّل أغرق معها» فقالت: «خلّينا نسبح سوَا، بشعر بالأمان أكثر إذا كنت معي». فطلبتُ من منقذٍ مبتدئ أن يراقب كل شيء بعناية، وذهبتُ للسباحة معها. كانت سبّاحة قويّة جداً لدرجة أنها

تجاوزتني خلال وقت لا يُذكَر. استطاعت أن تعبث بي مرتين. وانتهت هذه المهمة اللذيذة بإصابتي بنزلة برد حادّة. فقد كنت أذهب في الساعة الخامسة والنصف من صباح كل يوم إلى الشاطئ، دون أن أرتدي أيّ قميص. وأقلعت عن الذهاب بعد ذلك.

لم يكن في اليوم ما يكفي من الساعات لأفعل كلّ ما أريد. حضرتُ كل محاضرة تبدو مثيرة للاهتمام. ذهبت إلى كلّ الحفلات الموسيقية وأمسيات العزف على الأرغن. واستطعت تدبير أمور الفعاليات التي تتطلب الدفع وذلك بالعمل فيها كمرشد استقبال - مما يمنحُني تذكرة مجانية لي وتذكرة أضافية لصديق. كانت هذه الفترة في الجامعة حافلة بالنشاط. كنت أدرُسُ مساقاتٍ تزيد عن المقدار المقرر. وكان لديّ العمل الذي أجني منه بعض المال. وهناك نشاطي في الحزب. كانت لي صداقاتي - فكنت أكسب المزيد من الأصدقاء الجدُد في الجامعة الأميركية في بيروت علاوة على الأصدقاء الذين كانوا معي في مدرسة صيدا، مثل بشارة، وعزّت زين، وعادل كرم، ولبيب أبوظهر. والآن هناك الأصدقاء - الخصوم، وهم الأشخاص الذين كنت أتجادل معهم، مثل محمد شقير، ورامز شحادة. كنا أصدقاء حقيقيين ولكنّنا كنا نتجادل حول القومية العربيّة مقابل القومية السوريّة. لم تكن الأمور مُمِلةً على الإطلاق. وكلما جفّت حناجرنا من النقاش، كنا ننطلق لتناول القهوة في مطعم فيصل، كان «فيصل» مؤسسة قائمة بذاتها، وصاحبه كان ذا شخصية فريدة، ومَحلّه كان بمثابة صالون سياسيّ. كان فؤاد مفرّج يذهب إلى هناك، ومحمد شقير، ومحمود صائب؛ وكان مُنح الصُّلح يذهب إليه ولكن في وقتٍ لاحق. كان محل فيصل أساساً مُلتقى القوميين العرب، ولكن نحن أيضاً كنا نذهب إليه لنجادلهم. ولنا أيضاً مقهى خاص بنا، غرفة صغيرة يديرها عَجاج المهتار الذي كان عضواً صلباً في الحزب، وزجّالاً لبنانياً مشهوراً. كنا نذهب إلى هناك ببساطة كنوعٍ من الولاء لهُ. وكان هناك مطعم آخر بجوار مطعم فيصل مُوالٍ للحزب أيضاً. ونحن نذهب إليهما لرخص أسعارهما، ولتقديم الدعم لهما. فإذا أردنا تناول وجبات خفيفة، كنا نذهب إلى مخابز المناقيش. لكن ما أحببته أكثر كان دبس الخرّوب بالطّحينة مدهوناً مع الزبدة على رغيف. وهذه وجبة رخيصة ومُغذّية لمن ليس معه نقود. كانت متوفرة في كافيتيريا الجامعة الأميركية في بيروت. وكطالب في القسم الداخلي، كان عليك أن تأكلها هناك. وإلا فإنك ستخسَر.

حين كنت في الجامعة، اضطروا إلى نقلي إلى المستشفى لإجراء كشف طبّي كامل من قبل متخصص في الطب الباطني. وكان الرجل شخصية رائدة في هذا المجال وهو الدكتور خيّاط. أجرى التصوير بالأشعة السينية وقال لي: «ما عندك قرحة، لكن انت من النوع المُعرض للإصابة بالقرحة. انت بتتهيّج

بسرعة وبالتالي تنساب العصارات المعدية» وقال: «إذا ما بترتاح وتسترخي، بالتأكيد بتصيبك قرحة». وقد عانيت طيلة حياتي من معدتي.

كانت الصداقات مفعمة بالحيويّة. أتذكر أنني في إحدى السنوات نمت في القاعة قرب ال (آي سي). ذلك هو المكان الذي كنا نُطِلُّ منه، عزّت زين وأنا، على زوجة الباشا. وهذا الباشا أرسلان كان عجوزاً متزوجاً من امرأة شابّة. كانا يقيمان حيث يوجد مطعم سقراط الآن، في الدور الأرضي. هناك ستارة خفيفة جداً، شبكة من الحرير الشفاف، تظهر ما كنا نراه أكثر مما تحجبه. وخلفها ضوء. كانت المرأة تخلع ثيابها بتمهُّل ما بعده تمهّل. ويتكرّر الأمر نفسُه في كل ليلة. استطاع عزّت زين أن يوجّه إليها إشارات. ولم تتمكن من الالتقاء معه، لكن أختها الصغرى التي كانت تقيم معها خرجت معه مرات عديدة. كانا يتبادلان الغزَل والقُبَل، ولا شيء أكثر من ذلك. لم يتمادَ عزّت. في تلك الأيام لم يكُن من السّهل إقامة علاقة حقيقيّة.

أتذكَّر أنه بالقرب من بيت عائلة المعلوف، في عمارة مقابلة لمكان إقامتنا، كانت هناك امرأة تربو على الخمسين من العمر، تدعو الشبان إلى منزلها، ومعظمهم من الطلاب. قالت إنها ترغب في إنجاب طفل، وإن زوجها غير قادر على ذلك. لكنها تجاوزت فترة الإنجاب في ذلك الوقت. وذات يوم من صيف عام ١٩٣٨، كان أحد أصدقائي، وهو يقيم في الجوار، نائماً على الشرفة، وفي الفجر سمع أصواتاً. فتح عينيه ورأى تلك المرأة تُلقي أشياء على شرفته من شباكها في الجانب المقابل من الزقاق. التقط الأشياء فوجد فيها حلوى الحلقوم وقطع البسكويت المحشي الملفوفة بالورق. اتفقا على موعد للّقاء. فذهب إليها في الصباح لأنه كان يخشى أن يأتي زوجها - وهو مغربي، قاسي المظهر، ويعمل في الجيش.

كنت أذهب إلى الكنيسة في كل يوم أحد، لم أتخلَّف عن ذلك أبداً. أتذكر أنه كان هناك قدّاس العشاء الرباني في الكنيسة، وكنت هناك مع فايز. وبعد مغادرة الكنيسة، وصلنا إلى موضع في رأس بيروت حيث قلت له: «بروح عنك من هون». فسألني إلى أين سأذهب، فقلت: «رايح لعند رفيقتي»، لم تكن رفيقة بالمعنى المعروف للكلمة، كانت امرأة آمل في أن أحظى بحظوة عندها. كان فايز مغتاظاً. فقال: «لسّه هلأ طالع من القداس!»،، فقلت له: «هيدا شي وهيدا شي. يمكن القداس يعطيني الغفران سلفاً». كنت أحاول أن أتذاكى ولكنه غضبَ مني فعلاً. كان فايز شديد التديّن.

تقدّمَ فايز بسرعة فائقة في الحزب. انضم بعدي بعامين ربّما. وفي وقت لا يُذكر أصبح مساعداً لعميد شؤون الثقافة والإعلام. كان يقيم في بيروت في الصيف، ولا يذهب إلى طبريّا، لأنه أراد أن يقوم بأعمال الحزب طيلة الوقت - الخطابات والتعبِئة والكِتابة. وهذا أزعج والديّ كثيراً. كان محرّر جريدة

الحزب، وطالباً مُتفرّغاً للحصول على درجة الماجستير، ويضطلع بالعمل الحزبي، وكان غارقاً في العشق بجنون.

كان هناك شخصان يتجادل معهما فايز أكثر من غيرهما: برهان الدّجاني، وهو قوميٌّ عربيّ، ووصفي التلّ الذي أصبح فيما بعد رئيساً لوزراء الأردن. وبلغ العداء بينه وبين وصفي التلّ مبلغهُ، ففي أحد الأيام، ذهب وصفي التلّ إلى الجامعة بجرح في رقبته، واشتكى من أن فايز حاول قتله. استجوبوا فايز بالطبع، فنفى ذلك نفياً قاطعاً. وعيَّنت الجامعة ألبرت بدر للتحقيق في الاتهام. ووجدَ أنه لم يكن صحيحاً، لكنه، رغم ذلك، قال لفايز: «أعرف أن ذلك غير صحيح، وأنا سأطلب من الجامعة طرد وصفي التل. لكني لن أدعَكَ بدون عقوبة». فقال فايز: «ولكن إذا لم تكن لي أية علاقة بالجرح الذي ألحقه بنفسه أثناء الحلاقة، لماذا أعاقبُ أنا؟» فقال ألبرت بدر: «سيكون مجرد عقاب خفيف». طردوا وصفي التل، وطلبوا من فايز مغادرة الجامعة مدة سنة واحدة. خلال تلك السنة، ذهب فايز وعمل في الناصرة أولاً، ثم في طبريّا، مديراً لدائرة التموين. قرأ كمّاً هائلاً من الكتب في تلك السنة. كان يأتي إلى البيت من عمله كل يوم، ويتناول غداءه ويستريح قليلاً ثم يذهب إلى الليدو ومعه كتاب في الفلسفة، ويقرأ حتى حلول الظلام، ثم يعود إلى البيت.

الأساتذة

في الجامعة، أحببت سعيد حمادة كثيراً، رغم أنه كان أستاذاً صعباً، يصعب إرضاؤه بإجاباتك عن أسئلته. أحببت شخصيته، كان نزيهاً، وكان مُعلماً بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، رجل حاول أن يوجّه الطلاب عبر خطوط معينة من المبادئ والطرق الأخلاقية في العمل. كان هو نفسُه باحثاً مجتهداً، وزرع هذا الاهتمام بالبحث فينا، أو على الأقل فيّ أنا، درّسنا مساقات حول التنظيم الاقتصادي للعالم العربي. بحلول عام ١٩٣٦ أو ١٩٣٧، كان قد غطى هذا الموضوع من خلال الكتب. حرّر تلك الكتب وأضاف إليها فصولاً بنفسه - عن سورية، ولبنان، والعراق وفلسطين.كان رائداً في ذلك الميدان. وقد تلقى تدريباً جيّداً في جامعة كولومبيا في سنة ١٩٣٤.

ثم أحببت حسني الصوّاف، وهو أستاذ سوريّ حاصل على درجة الماجستير فقط. لم تكن له طلبات كثيرة. كنت أحبّ موقفَه الذي يتميّز بالبساطة واليُسر. جورج حكيم كان حادّ الذهن. وأظن أنه صاحبُ الذهن الأكثر توقّداً في الكليّة. درَّسنا فصلاً كنت أمقتهُ، وهو في القانون التجاري، وتاريخ العقائد الاقتصادية أيضاً. أثار لديّ الاهتمام بالقراءة. لا أظن أنني قرأت أيّ شيء في الاقتصاد إضافة إلى الكتب المقررة في المساقات الدراسية، إلا مع حكيم. فتح عينيّ على عدد من الكتب حول الاشتراكية. كنت مُتأثراً بالحزب في ميلي

نحو الاشتراكية الوطنية أكثر من الاشتراكية العلمية، وشعرت أن عليّ أن أفهم كلتيهما أكثر. أنطون سعادة اقترح عليّ قراءة كتبٍ أخرى حول الاشتراكية الوطنية وسياسات القوّة، «لعبة الأمم» وكيف تُصنع السياسات، وطلب مني أيضاً أن أترجم كتابين. حكيم كان يعطيني كتباً عن الاشتراكية الدولية.

خارج كليتنا نفسها، في السنة الأولى، أخذنا مساقاتٍ تُعطَى لكل طالب، مثل برنامج الدراسات الثقافية في هذه الأيام (آنذاك). كان هناك مساق عن «التاريخ»، وكان يقدِّمه عدد من الأشخاص، منهم أسد رستم الذي كان شديد الذكاء. وأخذت مساقاً في علم الاجتماع للشرق الأوسط مع عفيف طنوس الذي كان تلميذاً لستيورات ضود - وفي الواقع كان ضود يقدِّم جزءاً من هذا المساق. إن التاريخ كما درَسته في الجامعة الأميركية في بيروت كان أفضل من التاريخ الذي درسته في المدرسة الثانوية. وضعَ الكتابَ المُقرَّر في هذا المجال عددٌ من الأساتذة برئاسة رستم، الذي كان قد حصل للتوّ على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة برينستون.

خارج الكلية، وخارج المساقات النظامية التي أخذتها، كان هناك أستاذان يتمتعان بشعبية في الحرم الجامعي، زريق، الذي كان قد حصل حديثاً على درجة الدكتوراه من برينستون، وشارل مالك من هارفارد. كان زريق يقدّم أيضاً محاضرات ضمن مساق التاريخ، وكان يقول أشياء معقولة لكن الحماسة كانت تنقصه، في حين كان لشارل مالك حضور ملموس، صوته وهيئته كانا مؤثريْن. نحن العرب نتأثر بالفلسفة. قرأت محاورات أفلاطون جميعها أكثر من أي شيء آخر قرأته في الصف، رغم أني كنت مستمعاً في هذا المساق.

نشاطات ثقافية داخل حرم الجامعة وخارجه

كنت أحضرُ محاضراتٍ في المدينة أيضاً. عندما ظهرَت الندوة اللبنانية إلى حيز الوجود كنت أذهب إلى محاضراتهم. وبعد سنوات عديدة كنت أُدْعى لإلقاء محاضرات هناك. وكان مقر الندوة في مركز الجمعية في مركز المدينة في مكان ما من ساحة البرج، قرب سينما روكسي.

ومن خلال رشدي، وكشاعر شاب، تعرفتُ على عددٍ من الشعراء خارج الجامعة، مثل صلاح لبكي وسعيد عقل. سعيد كان صديقاً لعائلة المعلوف، وغالباً ما كان يأتي لزيارتهم، ويتجادل مع سعادة جدالاً ساخناً! ولكن سعيد عقل هو الذي كتب النشيد الرسمي للحزب. كان متأثراً جداً بسعادة لشخصه، ولأفكاره. ولكن بالنسبة لسعيد عقل، سورية كانت هي لبنان. وبكلمات أخرى، لم يكن لبنان هو قطعة الأرض الصغيرة الكائنة على الساحل، بل هو سورية كلّها. وهذا نقيض فكرة سعادة. عرفت كتّاباً عديدين أيضاً: فؤاد سليمان الذي

كان له قلم لاذع، وتوفيق عوّاد، وكان أكبر مني بسنوات عدّة. كنت أذهب إلى الصالونات الأدبية لمناقشة الشعر والأدب - إلى بيت صلاح لبكي حيث كان الناس يذهبون ويتناولون القهوة ويدخنون. وبينهم كنا عادةً - رشدي وأنا - من الجامعة. أصبح صلاح لبكي نائباً لزعيم الحزب، وبالتالي كان فؤاد سليمان والكتّاب الشباب يذهبون أيضاً إلى هناك. وفيما يتعلق بالصحافة الأدبية، كانت هناك «المكشوف»، وهي مجلة رائدة تصدر أسبوعياً، أو كل أسبوعين، وتنشر قصصاً قصيرة ومقالات حول النقد الأدبي، ويرأس تحريرها فؤاد حبيش. وهي مجلة ليبرالية. وعرفت كذلك أحد الناشرين، ولكنني لم أكن أستلطفه، وهو ناشر جريدة شعبية عن الجنس، إباحية تقريباً، هي ألف ليلة وليلة. وكل هدفها إثارة الشباب لترويج مبيعاتها. قرأت بعض قصصهِ ووجدتها تافهة. فلم أواصل قراءتها.

أنا نفسي كتبتُ موضوعاتٍ عديدة، ونشرتُها في مجلة الجامعة التي كانت تظهر في الحرم الجامعي، «العروة الوثقى». وذات يوم كتبت قصة وسلّمتها لهم، وأحبّوها. ونشرتُ قصتين أو ثلاث قصص قصيرة فيها. وفي السنة الأخيرة كتبت قصيدة لفتاة فرنسية كنت مغرماً بها. لم أكمل القصيدة أبداً. كانت تتألف من سبعة أبيات فقط، وتوقفتُ هناك. سعيد عقل أحبّ تلك الأبيات، ولكن رشدي انتقدها بشدة. قرأت الكثير في الأدب - (تشارلز) ديكنز، دافن دو مورييه، الإخوة كرامازوف، الجريمة والعقاب - أعمال كلاسيكية من ذلك النوع. كنت دائماً أحب الروايات ولا أزال. كانت هناك فترة قصيرة ظهر فيها نادٍ أدبيّ، إنضممتُ إليه، ولكن الاجتماعات فيه أخذت تقل بالتدريج إلى أن انتهى.

كنت أذهب لحضور الأمسيات الشعرية كذلك. وكانت شعبيّة جداً. نُظِّمَ كثير منها في «وست هول» - قراءات لشعراء تقليديين مثل الدكتور نقولا فياض الذي كان مشهوراً كخطيب أيضاً. أتذكّر الجلسة المشتركة التي جمعته مع مَيّ زيادة. كان ذلك أوّلَ حضور لها بعد إطلاق سراحها من مصحة للأمراض العقلية. ألقَت كلمة في وست هول، كانت كلمة شخصية في جانب منها، وفي جانب آخر تضمّنت أفكاراً حول تجربتها. قدّمها الشاعر نقولا فياض. وكتب قصيدة بهذه المناسبة. أتذكّر منها البيت الأوّل:

يا ميُّ! هذه ساعة ميعادي

فاسألي فؤادكِ عن خفوق فؤادي!

كان حضور مثل هذه الفعاليات يشبه عيداً بالنسبة لي.

وقصة مَيّ زيادة تثير الاهتمام. أعلنَت عائلتها أنها مجنونة، لأنهم كانوا يطمَعون في أموالها. لم تكن متزوّجة. أحضروا طبيباً متخصصاً في الأمراض العقليّة

لزيارتها، وسخِرت من الأسئلة التي طرحَها عليها. فخرج يقول: «طبعاً مجنونة. سألتها كذا وكذا وجاوبت بطريقة كذا وكذا». ولكنها كانت مهزلة. وقد قالت هي لاحقاً: «أثبَتَت الجلسة أنّهُ هو المَجنون لا أنا». استطاعت العائلة أن تضعها في مستشفى للأمراض العقلية لفترة بالقوّة، عن طريق المحكمة. ولكن كان هناك ضغط هائل في المنطقة، من الكُتاب والناس كافّة، وتم إطلاقها.

وهناك مناسبة أخرى هامّة جداً، عندما جاء الحبيب بورقيبة، ألقى محاضرة، وهو يلبس طربوشه العالي. نُظِّمت محاضرات وفعاليات أدبية كثيرة. وحفلات موسيقية أيضاً. وكان ذلك الموسيقار من روسيا البيضاء الذي كانت زوجته عازفة بيانو، شكَّل فرقة أوركسترا سيمفونية ودرَّبها، وحين دخلتُ الجامعة كان يقدّم العروض الموسيقية. كانت الفرقة مؤلفةً من عشرين عازفاً تقريباً. في وقت لاحق أنشئ نادٍ للتصوير، ولكنه لم يكن يشهد نشاطاً كبيراً. لم يكن هناك قسم للفنون في تلك الأيام. وبالنسبة لحياتي الاجتماعية، والفكرية واهتماماتي الفنية، كانت لي قدَمٌ في الجامعة، والثانية خارجها.

لم أكن أذهب كثيراً إلى السينما - لم يكن معي ما يكفي من النقود. ولكني كنت أحب السينما، لذلك عندما بدأت أجني بعض النقود، أصبحت أذهب أكثر. كنت أحضر الأفلام التي يمثل فيها أورسون ويلز، أو جيمس ماسون، أفلام مثل «عصيان على متن السفينة باونتي» ، و«جيلدا» - أفلام ريتا هوارث وتشارلز بوير. لم يعجبني روبرت تايلور، كنت أجدُهُ مُخنثا. كنت مغرماً بالنجوم من الممثلات مثل جريتا جاربو وريتا هيوارث.. أتحمَّس لنجمة شهوراً عديدة ثم أتحول إلى سواها. لكن كل هذا حدث بعد أن بدأت العمل في وظائف إضافيّة. وقلة السيولة النقدية بين أيدينا - رشدي وأنا - تصورها القصة التالية: ذهبنا ذات يوم إلى دكان الجامعة في الطابق الأرضي من وست هول. رأى رشدي محفظة صغيرة للنقود. كانت جذابة، فقال لصاحب الدكان «مستر ناصيف، شو بتِسوَى هيدي المحفظة؟». قال ناصيف: «خمس ليرات بس». فكّر رشدي وأطال التفكير. فقال ناصيف: «شو المشكلة فيها؟». فأجاب رشدي: «عندي مشكلة، مش لاقيلها حلّ، معي خمس ليرات بس، إذا اشتريت المحفظة مش رايح يكون معي شي أحفظه فيها، وإذا ما شريتها، ما بعرف وين أحفظ الخمس ليرات».

عندما كنت في السنة الأخيرة في الكلية، رشدي وأنا، ذهبنا إلى السينما. كان البرد قارساً جداً، والمطر غزيراً، وكانت دار العرض تحت الأرض تقريباً. تغلغل المطر إلى الداخل، فكانت أقدامنا في الماء طيلة فترة العرض. وفي اليوم التالي، أصبنا معاً بارتفاع في درجة الحرارة. وحسبنا أنها نزلة برد، ولكن السخونة العالية استمرت، جاء خال رشدي، وهو طبيب، وفحصَنا ثم قال:

«كل الأعراض بتقول إنه عندكم حصبة». ذهبت إلى جورج صليبي الذي كنت أعرفه عن طريق الحزب، وكان عضواً ناشطاً فيه. فقال سأدخلك إلى المستشفى. فقلت: «ما بقدر ادفع للمستشفى». فقال «لا، لا، إنت طالب، ومأمّن من هالناحية». ذهبت إلى المستشفى وبقيت في قسم الحجر الصحّي في الطابق الأعلى من المبنى القديم. عالجوني بالطريقة الحديثة (آنذاك)، بالبوظة والمثلجات. لكن رشدي ظلّ في البيت مع والدته التي أجبرته، بمساعدة أخيها الطبيب، على ارتداء كنزة من الصوف تلامس جسمه مباشرة. وقالا له إنه يجب أن يظلّ كذلك مدة شهر. وفي نهاية الشهر، اعتاد على ذلك، فكان طوال حياته إذا نزع كنزة الصوف، يصاب بنزلة برد.

ظلّ رشدي مواظباً على الصحافة. عملَ في صحيفة «الجريدة» التي كان ينشرها جورج نقّاش، ثم عمل على ما أعتقد في صحيفة «النهار». ولكنه نشر صحيفته أيضاً «الصفاء» التي فشلت، وأعلنت المحكمة عن إفلاسه. قال فؤاد سليمان في إحدى ملاحظاته اللاذعة: «رشدي معلوف بيجهز مئة كلمة - أيّ كلام - وعنده حفنة من علامات النجوم، بيخلطهم مع بعض، وهذا هوّ العمود اللي بيكتبه! وبعدين بيوقِّع: رشدي معلوف». لكنّه كان مُسلّياً ولمّاحاً، أحبّ الناس قراءة ما يكتب، وكان هناك كثيرون يقرأون الجريدة من أجل مقالته المنشورة فيها.

وكان لفؤاد سليمان عمود في جريدة «النهار» أيضاً، وشعاره «الدّيك»، لأنه ينقر. كتبتُ كثيراً في «النهار» وفي جريدة الحزب. ولم أحصل على فلس واحد من وراء تلك الكتابات. لكنني، في وقت لاحق، بدأت أحصل على مرتّب في فلسطين.

الأيام الأخيرة في الجامعة

تنتابني الهواجس أحياناً بشأن اختيار موضوع الدراسة - لماذا لم أختر دراسة الأدب؟ ثم تبرُز الاعتبارات العملية فوراً أمامي - فقد كنت الابن الأكبر. ولكني لا أشعر حقيقة بالندم إزاء ما فعلت. أعتقد أنني حققت في مجال الاقتصاد، الاقتصاد العربي، أكثر مما كنتُ سأحقّقه كشخصية أدبيّة.

في ذلك الوقت، لم أفكر كثيراً في مسيرتي المهنية، لم أكن أتخيّل أن أصبح رجل اقتصاد. لم أكن أعرف إلى أين ستقودني دراسة إدارة الأعمال، وعندما كنت أفكر في هذا الأمر - من وقت إلى آخر - كنت أرى أنها ستوفِّر لي وظيفة أفضل في إحدى الشركات. إن فكرة الاقتصاد كاقتصاد أو الاقتصاد السياسي لم تخطر على بالي على الإطلاق، بالرغم من أنني عندما رأيت عبارة «الاقتصاد السياسي» بالفرنسية (economie politique) أوّل مرة، لفتت انتباهي. ظلت هذه الفكرة في داخلي مثل بذرة حتى وقت لاحق، ووجدت أنها

مجال يجب أن أتخصص فيه، حين ذهبت إلى أميركا لإنجاز مشروع التخرج. انجذبت إلى الاقتصاد السياسي، ولكني أدركت أنه لا يطعم خبزاً. ولم تتح لي فرصة دراسة الحقوق، رغم أنني كنت أودّ ذلك. كانت الكتب التي أثرت فيّ هي الكتب التي قرأتها عن الاقتصاد السياسي، والاشتراكية والأنظمة الاجتماعية. كنت مهتماً باقتصاد المنطقة العربية، لأن (سعيد) حمادة كان من أنصار «النظريّة البنيوية في الاقتصاد والسياسة» في وقت مبكر. كان هناك كلام كثير حول المؤسسات في كتاباته، والطريقة التي تعمل بها المؤسسات. وأدخل السياسة في هذا الجانب، وهو يذكّرنا دائماً أن هذه اقتصادات تعمل تحت وصاية الانتداب، وأن هناك معوّقات. بدأت ألحظ هذه الحقائق من خلال التسييس في الحزب، ومن خلال اتصالاتي المتكررة مع (أنطون) سعادة، والتي تركت في نفسي أبعد الأثر.

كنت أقرأ في الليل، لكن الواجبات الدراسية كانت سهلة. فما عليّ إلا أن أقرأ النصّ مرّة واحدة، فأتذكره، رغم أني كنت أدوِّن الملاحظات. علّمني السيد جسوب في مدرسة صيدا العليا كيف أحدِّد الخطوط الرئيسة، ظلّت تلك المعلومة دوماً في ذهني بعد ذلك. والآن، حين أفكر في كتابة موضوع ما، أضع فوراً الخطوط الرئيسة، وأحدِّد النقاط ذات الأهمية القصوى، وذات الأهمية الثانوية، والنقاط التي تأتي في المقام الثالث، وأحدّد خيار تنظيم الخطوط الرئيسة. كل هذا يعتبر من أساسيات الحياة الأكاديمية، ولكنه بالنسبة لي في ذلك الوقت كان اكتشافاً له أهمية كبرى. ساعدني لأنني عندما يحين وقت الامتحان، لم أكن أرجع إلى الكتب نفسها، كنت أكتفي بقراءة ملاحظاتي فقط، وكان لديّ ما يكفي من الوقت. أتذكر أن أحدَ الأساتذة قال: «فترة الامتحان فترة لازم ترتاح فيها وتلعب تنس أو كرة سلة، مش تروح تحشي ذهنك معلومات». وهكذا في سنتي الأخيرة، اتبعت نصيحته؛ ذهبت وسبحت كثيراً لدرجة أنني أصبت بضربة شمس. ونتيجةً لذلك، جاء ثلاثة أساتذة وأجروا الامتحان في غرفة نومي - جورج حكيم وحسني صواف ومعلم ثالث كان يُدَرِّسنا مَسكَ الدفاتر المُحاسبيّة. كانت تلك هي الامتحانات النهائية.

تتألّف الامتحانات النهائية من الامتحانات الكتابية والشاملة - ويكون الامتحان الشامل كتابةً، ثم يتبعه امتحان شامل شفوي. وهنا ذروة الصعوبة، هنا العُقدة. يستغرق الامتحان الكتابي ثلاث ساعات. كان أدائي فيه جيداً. وذهبت إلى الامتحان الشفوي. كان رئيس هيئة الامتحان سعيد حمادة. وقد أعدَّ مجموعة من الأسئلة، كتبها على عدد من الأوراق المتفرّقة، وطواها ثم وضعها داخل طربوشه الذي قلبه رأساً على عقب فوق الطاولة. وطلب من كلّ أستاذ من الأساتذة أن يسألَ سؤالاً. كنت جيداً في الإجابة عن أسئلتهم جميعاً. ولكن معه، كنت دائماً - ولا أزال - أجدُ سدّاً بيني وبين نظرية ريكاردو في الإيجار. كنت أقول لنفسي طوال الوقت: «يا ربّ، يا ريت ما يطلع لي هالسؤال» -

لأنهُ في كل سنة، وفي كل امتحان، كان يضع السؤال نفسه. أدخلتُ يدي في الطربوش وظهر السؤال: ما هي نظرية ريكاردو في الإيجار؟. قرّرت أن أقول شيئاً طريفاً لتخفيف وطأة الموقف على نفسي، فقلت: «بروفيسور حمادة، يمكن كل الأسئلة اللي في الطربوش نفس الشّي، ما هي نظرية ريكاردو في الإيجار؟ عشان ما حدا يقدر يهرب منه». ضحك وقال: «لا، لا». حاولت أن أجيب، فعصرَني، وواصل وواصل. كانت إجابتي تمكّنني من اجتياز الامتحان بنجاح، ولكنهُ أراد أن أقدم إجابة أفضل. خرجت والعرق يتصبّب مني.

كنتُ أنتظر في الخارج، بدأت أشعر بالقلق من أنهم كانوا يتداولون فيما إذا كنت ناجحاً أم راسباً. وعلى الرغم من أن معدّلي العام كان مرتفعاً، إلا أن الامتحان الشامل قد يخلّ بالمجموع. ربّما يُطلبُ مني أن أعود وأن أتقدّم للامتحان مرة ثانية في نهاية الصيف؟ ثم فُتحَ الباب وأطلّ حمادة، يتبعُهُ باقي الأساتذه والابتسامات على وجوههم. فعرفت أنني نجحت. قال: «يوسف، لسّه بتتلبّك في ريكاردو» فقلت: «لكن نجحت؟». حدَّق في وجهي وقد فتح عينيه على اتساعهما وقال: «نعم نجحت.. مع مرتبة الشرَف». كان يضعُ يدَهُ في جيبه. فقلت مُتعجّباً: «مع مرتبة الشرف! وبتاخذ وقتك عشان تخبرني!؟» سحبتُ يدَهُ من جيبه وصافحتها - هذا ما حدث. ضحك الجميع بسبب تأثري. كانت تلك نهاية أيامي طالباً في الجامعة الأميركية في بيروت.

في أواخر السنة، ١٩٣٨، سنة تخرّجي، كان لدى الجامعة منحة دراسيّة تريد تقديمها لطالب تُمكّنه من الذهاب إلى أميركا والدراسة لنيل درجة الدكتوراه. منحة تغطي كل شيء. عرضَت الجامعة المنحة عليّ. فاعتذرتُ لأنني كنت أريد أن أعمل لأساعد إخوتي. فعرضوها على إيفا بدر التي أصبحت إيفا مالك فيما بعد. قالت عائلتها: «لأ، بنت تروح لحالها على أميركا!». كانت في كلية العلوم السياسية والفلسفة، وتخرجَت مع مرتبة الشرف في السنة التالية بعد تخرّجي.

جاء والدايَ لحضور تدريبات حفل التخرج. أقمنا معاً في «فندق أميركا»، في ساحة البرج - ليس الجزء الشرقي منها! كان مدير الفندق بروتستانتياً، فمَنحَ والديّ تسعيرةً خاصة لأن أبي قسيس، وهكذا كنا قادرين على الإقامة مدة أسبوع. كان أبي قد شذّب شاربه بشكلٍ لطيف، وقصّ شعره. وكان لدى أمي ثوبٌ جديد. فرحتُ لسعادتهما، خصوصاً بعد أن بلغهما خبر نجاحي مع مرتبة الشرف. كانا يشعران بالفخر، طبعاً، لأنّ أربعة فقط من بين أربعمائة طالب حصلوا على مرتبة الشرف. وقوبلنا بتصفيق طويل.

في ذلك الوقت، عُرضَت عليّ وظيفة من خلال إيليا إبراهيم الذي درَسَ مساقاً قصيراً في التجارة، وترك الجامعة قبلي بعامين. كان يعمل محاسباً مبتدئاً مع شركة سوكوني. قال له مدير المحاسبة ذات يوم: «العالم عم

يتخرجوا من «الأي يو بي» بشهادات في إدارة الأعمال. في حدا منهم بيخطر على بالك؟». أجابه: «نعم، يوسف صايغ، تخرج بدرجة شرف». قال المدير: «فليحضر إذاً». اصطحبني إيليا إلى هناك، وقابلني ذلك الرجل، وقدَّم لي عرضاً جادّاً، على الفور، وقبلتهُ. كان المرتّب خمسين ليرة، إضافة إلى عشرين ليرة من العلاوات وبدل تكلفة المعيشة، والمجموع هو ٧٠ ليرة، وهو مبلغ محترم في تلك الأيام في لبنان، فقد كانت الأشياء رخيصة آنذاك. قلتُ له إنني لن أباشرَ العمل فوراً، لأنني بحاجة إلى إجازة في الصيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السادس عين القبو، الوظيفة الأولى، العمل الحزبي: ١٩٣٨ - ١٩٣٩

دَعَتني عائلة المعلوف - رشدي ووالدتُهُ - لقضاء فترة من الصيف معهما في الجبال عِندَ عين القبُو، بالقرب من بَسكِنتا. كان والداي يفكران في إحضار العائلة كلِّها لقضاء الصيف في لبنان، فقالت عائلة المعلوف: «إذا بتيجُوا كلكم، بنلاقيلكُم بيت قريب من بيتنا، بسعر معقول. الأشيا رخيصة كتير».

استأجرنا سيارة، بستِّ مقاعد، لتُقلَّ العائلة كلَّها، إلى بيروت. في ذلك الوقت كان لدينا جميعاً جوازات سفَر. كان أنيس في الثامنة من عُمرهِ، جلس في حِجر أحَدِ أفراد العائلة، جلس في المقعد الأمامي مع أبي. وكنت أنا قد سافرتُ قبلهم لقضاء أسبوع أو نحوَ ذلك مع عائلة المعلوف. كنت أعرف في أي يوم يَصِلون، فقابلتهم مع رشدي في بيروت. ذهبنا جميعاً بالحافلة صعوداً باتجاه عين القبو. كانوا قد وجدوا لنا بيتاً جميلاً. لكننا لم نتخيل أبداً - في هذا البيت الجميل بسطحه القرميدي الأحمر، ونوافذهِ العديدة، والحديقة المحيطة به، وفي اللحظة التي نضع فيها رؤوسنا على المراتب - أن حشداً من البَقّ سيخرجُ علينا من شقوق الأثاث الخشبيّ. لم ننَم في تلك الليلة.

في الصباح التالي، ذهبنا وقابلنا مالك البيت الذي لم يكن منزلهُ بعيداً عنّا. قلنا له: «شو هيدا؟ شوف بشرتنا». فقال: «بسيطة. الليلة ما رح تحسّوا إنه في بقّة واحدة». جاء بسلّة مملوءة بأوراق العنب، ووضعَها حول كل سرير. فأوراق العنب مُغطاة بشعيرات دقيقة، وعليك أن تضعها بطريقة تجعل الشعيرات باتجاه معاكس للسرير، وحين تتقدّم جحافل البقّ فإنها تسقط في براثِنها. قال لنا: «ما تناموا فوراً، جهزوا قطعتين أو ثلاث قطع من العجين. وبعد ما تروحوا تناموا بساعة واحدة، قوموا، بتلاقوا البق عالق في الورق. حُطوا العجينة عليه ولقطوهن واحدة واحدة». كان من المزعج جداً لنا أن نفعل ذلك في كل ليلة. فأخبرَتنا أم فخري، والدة رشدي، عن مادة يمكننا أن نَرشّها. وهناك طريقة أخرى للتخلّص من البقّ، وهي أن نغلي الماء وأن نضع الفلفل الحار داخل «الطنجرة»، ثم نصبّ ذلك في شقوق الخشب، وعلى الأبواب، وهياكل الأسرّة بعد رفع الفراش عنها. قضينا على المئات من البقّ، واستطعنا الإقامة هناك. كان صيفا رائعاً.

ما لم يكن متوفراً في البيت، كان يزوِّدُنا به خالٌ طيّبٌ جداً لرشدي، هو الدكتور شكري المعلوف - وعائلته تملك بيتاً جميلاً اشتراهُ رشدي بعد سنوات. وعرض علينا أيضاً الانتفاع بحديقته، بما فيها من تين وعنَب ورُمّان. فأصرّ أبي على أن «نضمن» بعضها، (ننتفع بها ونتعهدها بالرعاية مقابل مبلغ معين). فاستأجَرْنا ثلاثاً أو أربعاً من أشجار التين، ومن الدوالي، لنشعر بالراحة إزاء

هذا الأمر. وقد نشبَت معركة قبل أن يوافق الدكتور شكري على أخذ ليرات معدودة مقابلَ ذلك. قضينا صيفاً سعيداً جداً هناك بين الجبال. الدكتور شحادة الغصين الذي أصبح أول قنصل عام للبنان في فلسطين كان هناك مع عائلته. وكان هناك أيضاً عدد من بيوتات آل المعلوف.

ذلك هو الصيف الذي صعدتُ فيه إلى قمّة جبل صِنِّين. كان هناك أنطون سعادة، وشارل مالك ورشدي وأنا، إضافة إلى شخص أو شخصين آخرين. التقينا على الغداء عند عائلة المعلوف، وقرّرنا أن نتسلّق جبل صِنِّين. كان الطقسُ مناسباً. ذهبنا إلى بَسكِنتا في الليل، ونمنا في نزُل عند سفح الجبل، تناولنا عشاءنا - لبنة، وبيض مقلي وخبز جبَليّ وكثير من الفاكهة. لم يأتِ شارل مالك معنا، لكن سعادة أتى، وكذلك فخري أخو رشدي. في اليوم التالي عند الفجر، تسلقنا الجبل وبلغنا القمّة، ورأينا البحر. قالوا إنك تستطيع في المساء أن ترى ظلال جبال قبرص على مياه البحر.

كان النزول عن الجبل مثيراً للاهتمام لأن الناس يتنافسون لمعرفة من الأسرع. كنا نتَزحلَق. قال لي رشدي: «بدّي أغلِب الزعيم». سعادةِ كان مُنافساً أيضاً. أكملت النزول بعد الآخرين لأنني كنت حذراً، لم أكن معتاداً على الجبال. عند كل خطوة كنت اظن أنني سأنزلق، لم أجرُؤ على التزحلق كما فعل الآخرون. كانت كل خطوة من خطواتهم تنقلهم مترين.

أثناء تلك الأوقات في الصيف، عندما أقضي أسابيع مع عائلة المعلوف، عادة ما يكون سعادة موجوداً أيضاً. كنا ننام في عرزال «عريشة في ظل شجرة» - وكانت هناك عريشتان أو ثلاث. لم يكن رشدي لينام في عرزال لأنه يخشى على معدتِه.

في عام ١٩٤٨، عندما غادرَ والداي طبريّا، اتجها إلى عين عار. أقاما شهوراً هناك ثم نزَلا إلى بيروت، إلى بيت يقع عند نهاية خط الترام في (شارع بلس)، ويطلّ على البحر، وهو بيت صغير، كان كافياً لأنّ توفيق وماري ومنير فقط كانوا يقيمون مع والديّ فيه. كان أنيس في السنة الأخيرة من دراسته في مدرسة صيدا الثانوية. عندما عدتُ من معسكر أسرى الحرب، وكانوا عندئذ يتوقعون أن يتزوج فؤاد ويعود، انتقلا إلى بيت في عين المَرّيسة حيث يقيمون الآن.

هذه كلُّها مقدمة لوصف علاقتي مع أبي، وكيف تغيّرت أثناء فصول الصيف التي قضيناها في لبنان. بدا وكأنّ خروجَهُ من أبرشيّتهِ، المكان الذي يقوم فيه بواجباته، قد خلّصَهُ من شيءٍ ما. أصبحَ مرتاحاً، يُلقي النكَت، يَضحك. قضى وقتاً طيِّباً مع خال رشدي، الدكتور شكري المعلوف. كانا يلتقيان كلّ يوم مرّة على الأقل، وحدَهما. لم يكن يسعى إلى تحويل أحد إلى البروتستانتية، إذ إن

الدكتور المعلوف كان بروتستانتياً أصلاً. هناك شيء مُمَيّز في لبنان، فالناس هناك لديهم مدى واسع من الاهتمامات. أصبح الوصول إلى أبي أكثر سهولة. وكان تخرّجي من مدرسة صيدا علامة فارقة في علاقتنا، وتخرّجي من الجامعة الأميركية في بيروت كان علامة فارقة أخرى. كما أن سلسلة رحلاتنا إلى لبنان تمَثِّل مرحلة شهدت تحولاً آخرَ كبيراً. بدأتُ أمتلك القدرة على التأثير على أبي قليلاً. فعلى سبيل المثال، إذا رأيته غاضباً إزاء بعض الأمور، أو جادّاً إلى حد كبير، أو حين تصبح عِظاته ناراً ملتهبةً، كنت أقول له: «بابا، خفِّفها، ولاّ بعدين بيفتكروها نكتة». فكان يضحك ويقول: «بتفتكر ما في عليهم خطايا بتستاهل موعظتي؟» فأقول: «حتى لو كانت خطاياهم بتستاهل الموعظة، مش رح يعتبروها جدّ، إذا بتعطيهم جرعة كبيرة هالقدّ». هكذا كنت أكلِّمُهُ، فيردّ بابتسامة فيها الكثير من التسامح.

الوظيفة الأولى

عدتُ مع العائلة في نهاية الصيف لقضاء أسبوعين إضافيين للسباحة في بحيرة طبريا، ثم جئت إلى بيروت لأباشر العمل مع شركة سوكوني. عملت هناك حتى الصيف التالي تقريباً. ثم استقلتُ لأنني ضقتُ ذرعاً بالمحاسبة. كنت مسؤولاً عن حسابات زيوت التشحيم، وكل المحطّات في لبنان ترسل بياناتها المحاسبية، وعليّ أن أجمع تلك البيانات معاً، وأن أضع الميزانية وميزانيةً للمراجعة. وذلك يعني أن هناك مصدرين للحسابات، وبالتالي، يتم تدقيق أحدهما بالرجوع إلى الآخر. فإذا أخطأت في ليرة واحدة من ملايين الليرات، فلا يمكن تجاهل ذلك الخطأ. إذ يمكن أن تكون الليرة هي الفارق بين مليونين، وبين مليون وتسعمائة وتسع وتسعين ألف ليرة. ولا بد أن أقوم بمراجعة العملية كلها مرة ثانية. وفي معظم الأشهر، كنت أنجزُ ذلك على الوجه الصحيح من المرّة الأولى. ولكني كرهتُ الوظيفة.

وفي إحدى الليالي، رأيت في المنام حلماً غريباً. اعتدتُ القيام بعملية جمع الحسابات الطويلة باستخدام جهاز يدويّ - لم تكن هناك حاسبات إلكترونية في تلك الأيام. أنت الآن تجري الحسابات ثم تنقر على الآلة فتطبع. حلمتُ أن هناك لفّة ضخمة من الورق، قطعة واحدة، بطول أمتار وأمتار. كنت أجري عمليات الجمع على الجهاز اليدوي، وبدأ الورق ينساب إلى أسفل، من الجهاز الموجود على الطاولة إلى الأرض، ومن الأرض إلى الجدار، ثم يعلو صاعداً نحو النافذة، ويواصل الصعود إلى عتبة النافذة نزولاً إلى الشارع، ومنه إلى خط الترام. ثم سمعت صوت جرس الترام. فبدأت أسحب الورق إلى الوراء، إلى الوراء، إلى الوراء وإلى أعلى. وصحوت مفزوعاً. اعتقدتُ أن هذه إشارة من السماء، يجب أن أترك الوظيفة. في اليوم التالي، دخلت إلى مكتب السيد خوري، كبير المحاسبين، وأخبرته أنني أرغب في تقديم استقالتي.

فقال: «شو! مش مبسوط من المعاش؟ بقدر أزيده». فقلت: «لا، المسألة مش مسألة مَعاش». «في حدا بيزعجك؟ كنت بتأمل إنك في يوم من الأيام تحل محلي لما أتقاعد». فقلت: «هيدا اللي خايف منه بالضبط، إمكانية إني أختم حياتي كبير محاسبين!». احمرّ وجهه فصار بلون الشمندَر - وبشرته شقراء للغاية - كان يمكن أن يدلقَ مَحبرة على وجهي. قال لي: «بيكفي هيك، الدّنيا آخر الشهر تقريباً، خليك حتى تعمل آخر ميزانية، وبعدين اترك».

بعد سنوات، قابلته ونحن نسبح في فندق سان جورج. بهجت الخولي، وسامي قربان وأنا كنا ثلاثة أو أربعة - ذهبنا وسبحنا من شاطئ الجامعة الأميركية إلى شاطئ فندق سان جورج، ومعنا كرة قدم في أيدينا. لم نلمس الأرض على الإطلاق. أظن أن ذلك جرى حين بدأت العمل مع وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين «الأنروا»، وكنت أدرُسُ في الجامعة الأميركية في بيروت للحصول على درجة الماجستير. التقينا على الشاطئ، وسألني ماذا كنت أفعل. أخبرته أنني أدرُسُ للحصول على درجة الماجستير في الاقتصاد. وبعد سنوات قليلة التقينا مرة أخرى، وكنت حينئذ أستاذاً (بروفيسور) في الجامعة الأميركية في بيروت. وسألته: «غلطت؟». ضحكَ وقال: «لأ».

الحياة الاجتماعية والعاطفية

كنا نسكن بالإيجار - في أحد الأوقات، فؤاد وفايز وأنا، نحن الثلاثة نسكن بالإيجار في منزل عائلة المعلوف. وكان لديهم منزل واسع يضم خمسَ أو ستّ غرف، عرضوا علينا غرفة بمعدل إيجار معقول، إذ كانوا بحاجة إلى المال، ونحن أيضاً كنا بحاجة إلى التوفير. وحتى بعد أن باشرتُ العمل، واصلتُ الإقامة هناك - وأصبحنا ثلاثة، بوجود فؤاد وفايز عندما كانا طالبين. واستمرا في الإقامة بعد أن سافرتُ إلى العراق. كانت عائلة المعلوف تضمُّ أربعة أولاد وابنتين. الأم وحدها في غرفة، مع الخادمة كما أظن، وهناك غرفتان للأولاد، كل اثنين في غرفة، وغرفة للبنتين. واستأجرنا نحن الغرفة الخامسة. كانت الخادمة متفرغة، وتقوم بغسل ملابسنا وكيّها. والطعام طيّب. فقد كان لدى السيدة معلوف، رحمها الله، فكرة عن الغذاء المتوازن. والطعام الجبَليّ الذي كانت تقدِّمه لنا يحتوي على الكثير من المُكوّنات الصحيّة.

كانت الحياة مع عائلة المعلوف مثيرةً للاهتمام. فخري، الأخ الأكبر لرشدي، كان شعلة من النشاط، أراد أن يفعل الكثير من الأمور. تخرّج من قسم الفيزياء بدرجات جيّدة جداً. وبعد أن أصبح شارل مالك ذا تأثير كبير، عاد فخري إلى الجامعة ودرَسَ الفلسفة تحت إشراف مالك لمدة سنة أو سنتين.

ثم وضع في رأسِهِ فكرة تعلم العزف على الكمان - كنت أتدرَّب على العزف وأنا في منزلهم - فاشترى كماناً وبدأ يعزف، علاوة على ذلك، انضمَّ إلى الحزب، وأصبح عضواً شديدَ التعصّب. ثمّ سافر إلى أميركا، إلى بوسطن - حصل على بعثة دراسية لنيل درجة الدكتوراه - وقابل فتاة كاثوليكية، ووقعَ في حبها. كان قد تحوّل نصف تحوّل إلى الكاثوليكية على يدي مالك، واكتمل تحوله بواسطة تلك المرأة. وأصبح كاهناً متزوجاً. وذات يوم، تلقينا، فايز وأنا رسائل منه على ورق بنفسجيّ اللون. كتب يقول: «أكتب لك على ورق بنفسجيّ لأنه لون قلب العذراء. عندما تستلم هذه الرسالة اركع وادعُ الرب أن يغفر لك لأنك لا تزال بروتستانتياً. إذا فعلتَ ذلك، اكتب وأخبرني، حتى نستطيع الاستمرار في المراسلة فيما بيننا. وإذا لم أسمع منك خلال مدة شهر، سأعرف أن رحمة الرب لم تنزل عليك بعد». لم تنزل. كان هو الفرد الوحيد في عائلته الذي يصبح كاثوليكياً، مع أن رشدي أصبح مارونياً في وقت لاحق آملاً في أن يصبح عضواً في البرلمان. والأشخاص الذين لم يقعوا تحت تأثير مالك، ولم يصبحوا من الكاثوليك كانا غسان تويني وفايز.

في الطابق الذي يقع تحت طابقنا مباشرة في بناية المعلوف، كانت تعيش عائلة فرنسية، وهم آل رُديرير، لويس رُديرير وأخته الجذابة نويل التي وقعتُ في حبّها. كان أخوها يحبّ السباحة ولعب التنس. جاء ذات يوم - ولم أكن قد قلت له ولا لأخته مرحبا من قبل - كنت خجولاً جداً - قال لي بالفرنسية: «إحنا جيران. بتحكي فرنسي؟». قلت: «إي، شويّ» فقال: «ليش ما تنزل عنا وتشرب فنجان قهوة؟». كان طالباً في القسم الفرنسي، في الكلية الدولية I.C.، ثم التحق بجامعة القديس يوسف. وكانت تعيش معه أمّهُ وخالته فقط، ووالداه مطلّقان - كان أبوه قنصلاً. أمه أرمنية. طاب لهم المُقام هنا، وكان معهم النزر اليسير من المال. استطاع لويس أن يدخل جامعة القديس يوسف ويدرس الحقوق. وكان لديه صديقان حميمان، دعاني إلى حفلة صغيرة، حفلة رقص. فنزلت وكان هناك أصدقاؤه: بول ومارسيل كارتون - وهو مارسيل كارتون الذي أصبح سفيرَ فرنسا لدى الكويت، واختُطف هناك. وكانا يعيشان في لبنان أيضاً لأن أمهما لبنانية وأبوهما فرنسيّ، ولم يكن معهم الكثير من المال. وكلاهما يتحدث العربية. بدأت أتحرّك ضمن هذه الدائرة، مجموعة ناطقة بالفرنسية - وغالباً ما كنت أذهب للرقص في بيت رُديرير، وفي بيوت أخرى أحياناً.

كانت هناك صبية شقراء شديدة الجاذبية هي نادية صوراتي. لبنانية. أحسست دوماً بمشاعر متضاربة حول ما إذا كان ينبغي أن أحبّها هيَ أم نويل. بول كارتون كان لديه أسلوب أفضل مني للتقارب مع نويل بسبب اللغة، وكانت تعرفه منذ مدة أطول. لم تكن تشعر بالراحة معي أبداً، ولا أدري لماذا. في أحد الأيام سألتني: «بتسمع راديو دو ليبان؟» قلت: «لا، نادر جداً». فقالت:

«اسمع أغنية في يوم كذا، ولاحظ مين طلبَها» - كان البرنامج على غرار «ما يطلبه المستمعون». والأغنية هي «يا حبّ من غير أمَل». طلبتها إيفيت عون، وهي صديقة لنويل. أرادت نويل أن تلفت نظري إلى أن تلك الصبية تحبّني، لكي أوجه انتباهي نحوها.

اعتادت السيدة معلوف أن تشعرَني أنها لا توافق على افتِتاني بنويل. قالت لي ذات يوم، ولم يكن هناك أحد في البيت سوانا. «يوسف، بحب أحكي معك في موضوع شخصي. لاحظت إنك ميال لنويل. هي بنت ممتازة وحلوة، بس أجنبية، وبالنهاية ثقافتك وثقافتها مختلفتان. إنت قوْميّ، وكمان اللغة حاجز..». فقلت لها: «أنا مش مفكِّر في الزواج، أنا بس مهتم فيها». قالت: «كنت بتأمل تحبّ بنتي، كمال». كانت كمال حسنة التربية، جميلة الشكل، متعلمة وشابّة، لكنني لم أكن أميل إليها. وكان علي أن أنسحب من ذلك الموقف بسرعة. فقلت: «لا، أنا ما بحلم بهالشي، ما بصلح لها، هي جوهرة، بدها عن جَد واحد مستقر وعارف شو بدّو، أنا لسه عم بفكر شو أعمل». فقالت: «طيّب، لازم تغتنم الفرصة لأنه فيه واحد تاني مهتمّ» فقلت: أنا عارف، هو ممتاز، بيناسبها تمام، لو دوّرتي في كل الشرق الأوسط مش رح تلاقي واحد مناسب مثل شارل أبو شعر». وقد تزوجا في وقت لاحق.

كانت هناك ابنة ثانية، فايزة، وترتيبها في العائلة بين فخري ورشدي. كانت معلمة فيزياء في الجامعة. وقع في حبها فاضل أنتيبّا، وتزوّجها. كان لدى فاضل دراجة ناريّة قوية جداً. أتذكر أنه عندما زرتُ عائلة المعلوف في الجبل، كان يصعد من بيروت على دراجته النارية وفايزة تجلس خلفه.

كنا نذهب للسباحة كمجموعة في مكان يدعى مسبح الجمل في نهاية عين المريّسة، الخليج الصغير الذي تتجه منه يساراً إلى السفارة الأميركية. كان رخيصاً جداً. قال أحدُهم: «في أرض ملك للفرنسيين وراء الكلية البروتستانتية. لازم نعمل ملعب تنس فيها». هناك مكان خلاء يشبه موقفاً واسعاً للسيارات، وفيه أشجار أوكاليبتوس وصبّير. قالوا لنا «اطلبوا إذناً من القنصل» - لأن الأرض ملكية فرنسية. قال القنصل: «إذا سوّيته الأرض تسوية بالمدحلة، واشتريتوا الشبكة على حسابكم وعملتوا شبَك من الأسلاك، بتقدروا تستعملوها طالما إنكم عارفين إنها مش ملك لإلكُم». فعلنا ذلك وصرنا نلعب التنس هناك. وكنا نسبح في الرملة البيضاء - وهي مكان خطر، ولكنّا كنّا شباباً ولدينا الجرأة والقوّة. أحياناً كنت أذهب وأسبح مع سعادة. كان عاشقاً للرياضة، مكتنز العضلات، ووسيماً، ومؤثراً. اعتدنا أن نمضي نحو الصخور الكائنة أسفل مطعم الغلاييني، ونقفز في الماء من فوق صخرة هناك. لم أكن غطّاساً ماهراً، ولكن عندما قفز سعادة، كان عليّ أن أقفز من بعده. فلم أكن أحبّ أن أظهر بمظهر الجبان.

نجاة فايز من الموت

أثناء تلك الفترة، كان فايز مختفياً لمدة سنة تقريباً، فالفرنسيون يطلبونه بسبب خطاباته الناريّة. أطلق لحيته وارتدى ثياب الرهبان. وذلك يفسر لماذا استغرق حصوله على درجة الماجستير وقتاً أطول مما يجب. عاش في الجبال، في بيوت أعضاء الحزب. وفي عام ١٩٣٩، حين كنا في فاريّا، قرَّرت مجموعة من الأصدقاء بمن فيهم فايز، وفوزي المعلوف وموسى بشوتي - الذي أصبح لاحقاً المذيع الأول في القسم الرياضي، البرنامج العربي بإذاعة لندن، «بي بي سي»، أن يسلكوا الطريق نحو الأرز في أعالي الجبل، سيراً على الأقدام. صعدوا من طريق ونزلوا من طريق غيرها. كانوا قد فقدوا الكثير من الوزن لدى عودتهم مما جعل أمّي تصرّ على أن يمكثوا ثلاثة أيام معنا لتتولى تغذيتهم.

عندما كان فايز يدرُسُ تمهيداً للحصول على الماجستير، ويضطلع بأعمال كثيرة تخصّ الحزب، وقعَ عليه هجوم كان يمكن أن يُودي بحياته. كتبَ كثيراً ينتقدُ الشيوعيّين العرب بسبب موقفهم من فلسطين. كان راكباً على دراجة ناريّة خلف صديق له يتولى مسؤولية رفيعة في الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكانا متوجِّهيْن نحو بيت ذلك الشخص. وفي الطريق إلى جلّ الديب وأنطلياس، وقعَا في كمين نصبَهُ ثلاثة أو أربعة رجال يَحمِلون العِصِيّ. ضربوا سائق الدرّاجة النارية، فوقع على الأرض، دارَت الدّرّاجة فوقع فايز عنها. ركّزوا على ضرب فايز حتى فقدَ وعيَه. الشاب الذي كان مع فايز أصيبَ بجراح أيضاً، لكن الضربات التي تلقاها فايز كانت في معظمها على الرأس. ظنّوه، في الواقع، ميتاً، ولذلك تركوه - عرفنا ذلك لاحقاً لأنه كان هناك بعض الابتهاج في أوساطهم لموته. ولكن الشاب، مالك الدراجة النارية، تمكّن من العثور على من ينقله ووصل إلى جلّ الديب، فنشرَ الخبر حتى يذهب الناس لمساعدة فايز. فأسرع اثنان من الموالين جداً للحزب - أظنّ أنهما خليل أبو جودة وزوجته ليندا - بسيارة، ونقلا فايز. وعندما أفاق، كان في بيتهما، لم يكن يدري ماذا جرى له، كان يعاني من تأثير الصدمة. رفض الذهاب إلى المستشفى لأنه كان متخفياً عن السلطات. مكثَ هناك أسبوعين أو ثلاثة حتى تعافى. لم يترك الحادث أثراً مرئيّاً ولا أظن أنهُ أثّر على تفكيره.

مع الحزب

نظراً لأن عضوية يوسف في الحزب شكلت جزءاً هامّاً من بداية مرحلة النضج في حياته، فقد تم جمع معظم ما قاله عن الحزب في هذا الفصل، بما في ذلك الأحداث التي وقعت لاحقاً، مثل إعدام أنطون سعادة في سنة ١٩٤٩، وابتعاد يوسف تدريجياً عن الحزب في الخمسينيات.

كما ذكرتُ سابقاَ، انضممتُ إلى الحزب عندما كنت طالباَ في الجامعة الأميركية في بيروت. وتضمّن الانضمام أداءَ القسَم، والقسَم له ديباجة تقول إن الانضمام إلى الحزب يعتبر بمثابة التوقيع على عقد، والعقد يشمل فريقين متعاقدين، مؤسس الحزب، سعادة، والعضو، أو المُرشح للعضوية. وتتجمّع الصلاحيات كلها في يد الزعيم. يجوز له أن يُغيِّر رأيه حول الموضوعات، ويجوز له أن يُغيِّرَ الدستور - وفي الواقع فعل ذلك أكثر من مرة. غيَّر مبادئ الحزب، كتوسيعها في عقد الأربعينيات لتشمل العراق، وفي وقت لاحق قال إن قبرص كانت أيضاً جزءاً من سورية الطبيعية. كان ذلك عندما أصبح مُفرط الثقة بنفسه وظن أنه معصوم. قيل لنا إن الحزب ليس مجرد مبادئ وأفكار، إنه انضباط، والانضباط يقتضي التعبير عنه من خلال مظاهر مُعيّنة، مثل أداء التحيّة، وتَلقّي تدريبات شبه عسكرية - بدون السلاح، ولكن بالوقوف في طابور ومعرفة المشية العسكرية. وفي وقت لاحق كان له حرسٌ خاص به، ولكني لم أكن مشاركاً فيه.

الهاجسُ الذي كان لديّ منذ البداية، وكبرَ مع مرور الأيام، نشأ بسبب خلفيتي، فأنا قادم من فلسطين، أنظرُ دوماً إلى فلسطين كقضيّة عربيّة، لكن الحزب اعتبر خلاص فلسطين شأناً سورياً - ضمن فكرة القومية السورية. تربّينا على الثناء على كل شيء عربيّ - الخبز العربي، والموسيقى العربية... والآن علينا أن نتحوّل ونقول الخبز السوري، والموسيقى السورية، والثقافة السورية. كانت إحدى أفكاره، على سبيل المثال، تقول إن النفس السورية تضمّ كل ما تحتاج إليه الفلسفة، والفكر، والفن، والثقافة. شعرت بالحرج والضيق من هذه الفكرة. لكنني اعتبرت أن هذا مجرد جزء يَسير من كوني عضواً في الحزب. فالأمر الأكثر أهمية بالنسبة لي هو أنني في حزب مُنظَّم، فيه أعضاء كثيرون، ومع ذلك فهو حزب سرِّيّ، مما يعني أنه جيد التنظيم والانضباط. آمن سعادة أنه يجب علينا أن ننظر في الإمكانات التي نملكها كأمّة، وعلى المستوى الفردي، يجب على كل منا أن ينظر في داخله وأن يحشد إمكاناته، بدلاً من طلب المساعدة من دولة أجنبية. وهذا يناقض كلّياً ما كان الناس يتّهمون سعادة به وهو أنه يأمل في الحصول على المساعدة من الألمان. اتّهموه بأنه فاشيّ يَسير على خط النازية، فهو يؤدّي التحية باليد اليمنى المائلة، وأتباعه يُرَدِّدُون: «يَحيا الزعيم!». كما أنه كان يشير إلى نفسه بضمير الغائب فيقول: «الزعيم» على النحو الذي يفعله الفوهرر. كنت أحس بالحرج من هذه الأمور. فكلما كنا ضمن مجموعة، مثلاً، أو نستمع إلى محاضرة، ودخل الزعيم، كان يتوجب علينا القيام وأداء التحية له. أتذكر أن ذراعي لم تؤدِّ التحية أبداً كما يجب، كانت دوماً منخفضة قليلاً عمّا ينبغي. لم أكن أستمتع بمثل هذه المظاهر.

قبل أن أصبح عضواً في الحزب، قضينا شهوراً ونحن نستمع إلى المحاضرات، وطُلب منا أن نقرأ عن تاريخ سورية، ولماذا القومية السورية حق، وكيف أن «سورية الطبيعية» تشكل كياناً قائماً بذاته، وكيف أنها تستمدّ جدارتها من تاريخها - تاريخها الماضي وتاريخها الحديث - ومن جغرافيتها. أراد سعادة منا دائماً أن ندرك أن تاريخنا لم يبدأ في عام ٦٣٢ ، عندما ظهر الإسلام وجاء العرب، بل يعود إلى أيام العهد القديم وما قبلها. كان واسع الاطلاع على التاريخ، ويعرف عن أعمال الحفر والتنقيب التي كشفت عن الثقافة السورية والقوانين السورية وأعمال الريّ، والأمور التي تُظهر أن هناك شيئاً نفتخر به ونعتز، وأن سورية يمكن أن تشكلَ كياناً قائماً بذاته. ويجب أن تتعاون مع الكيانات العربية الأخرى مثل مصر، ولكن بصفتها قومية منفصلة. وبالنسبة لسعادة، لا توجد قومية عربية. أتذكر أن زريق قال له ذات يوم إن القومية العربية هي شيء في طور التكوين، فرَدَّ عليه سعادة ساخراً: «أليس الشيء الموجود والذي كان موجوداً منذ قرون عديدة، أكثر صدقيّة من شيء في طور التكوين، قد يتحقق وقد لا يتحقق؟».

من الناحية الفكريّة كان سعادة مقتدراً جداً، قويَّ الحجة، وفصيحاً؛ أفكاره مُنظّمة تماماً، فتأتي وجهات نظره واضحة نقيّة نقاء الكريستال، والعلاقة فيما بينها، وعِلاّتُها، واضحة بالغة الوضوح. وعلى الرغم من أنه علّمَ نفسَه بنفسه، فإنه كان مُطلعِاً بحيث يستطيع أن يجادلَ شارل مالك في الفلسفة، ويردّ على الاقتباس باقتباس آخر، من المصادر، ويفعل الشيء نفسَه مع زريق. كان يعرفُ لغاتٍ أكثر مما يَعرفون، ويَأتي باقتباساتٍ من مصادرَ مكتوبةٍ باللغتين الألمانية والروسية. كان والده طبيباً ومفكراً معروفاً في المنطقة. وكان هو أيضاً يؤكِّد على القومية السورية. وكان قد وضع مُعجَماً «من اللغة الإنجليزية إلى العربية» لا يزال يُعتبرُ واحداً من أفضل المعاجم - وهو بالتأكيد أفضل مُعجَم ينتجُهُ شخصٌ بمُفردهِ، حتى الآن. ذهب سعادة الأب إلى أميركا الجنوبية عندما كان أنطون في الخامسة عشرة من عمره. وأقام سعادة سنواتٍ عديدة خارج المنطقة، لكنه سافرَ كثيراً، وقضى الوقت بعد تخرجه من المدرسة وحتى بلغ الثلاثين ثم ظهر في لبنان، في القفر، كالمسيح، يدرُسُ ويقرأ ويفكِّر.

من أيّ الأصول والمصادر جمعَ سعادة أفكارَهُ، وشكّلَ الحزب؟ أعتقد أن الأفكار كانت أفكارَهُ هو أساساً، رغم تأثرهِ بأفكارِ والدِهِ، وبقراءاته عن سورية، ودور سورية في التاريخ وتاريخها الثقافي. أما فيما يتعلق بمسائل التنظيم، فلا بد أنه تأثر بالكتائب الإسبان وبالنازيين - فكرة الانضباط وأداء التحية ومسألة الزعيم - ذلك بالتأكيد أخذه عن النازيّين. ولكن في تلك الجلسات العديدة، قبل انضمامي للحزب وحتى سنة ١٩٣٩ عند مغادرتي بيروت، لم أشعر أن سعادة هُزم مرةً واحدة في المجادلات التي أجراها معِ

زريق أو شارل مالك أو فؤاد مفرّج أو جورج حكيم. تمسَّكَ سعادة دائماً بموقفه، ولم أشعُر قَطّ أنه هُزم من قِبَلهم. وأقصى ما يحدث هو أن يصِلوا إلى حدٍّ لا يخضع عنده فريقٌ للفريق الآخر. ولكن الجدل كان ينتهي دوماً بهدوء، ولم تكن هناك مشاعر سيّئة.

تحوّلَ جورج حكيم في تلك الأثناء وانضمّ للحزب، وكان يمثل جناحاً راديكالياً ضمن الحزب. ظنَّ جورج أنه من الممكنِ المزاوجة بين الأفكار الاشتراكية وأفكار الحزب حول القومية والتنظيم، نظراً لأن سعادة نفسه كان يُولي أهمِّية كبيرة للاقتصاد والعمل. ولكنني أظن أن سعادة لم يكن يتساهل في موقفه من الاتحادات العمالية. فلن يكون للعمال في رأيهِ مطلق الحرية، سيُسمَحُ لهم بالتنظيم، ولكن يجب أن يكون هناك ضبط، وذلك بسبب إيمانه بالدولة القوية التي ينبغي أن يكون لها وظائف اجتماعية - اقتصادية هامة. وبإصراره على أن الدولة يجب أن توفر التعليم والضمان الاجتماعي لكل فرد، شعرَ أنه يستطيع تبرير وجود الدولة القوية.

كان الحزبُ ينوي أن يظهر للعلن في لحظة مُحَدّدة. خطّط لطلبِ ترخيصٍ عندما يصل إلى حجم معين. حين تتقدم بطلب، عليك أن تقول، مثلاً، إن لدَيكَ ستة أعضاء يريدون تشكيل حزب. أرادَ سعادة أن يقولَ إن لدينا ستة آلاف عضو يريدون تشكيل حزب فيظهر بمظهر القويّ بدلاً من أن يرجو منحَهُ الترخيص. لكن الأمرَ لم ينجح على ذلك النحو، فقد تمَّ تسريب معلوماتٍ عن الحزب إلى السلطات الفرنسية قبل بلوغ تلك النقطة. وعُرفَ مصدر تسريب المعلومات في وقت لاحق. حدَثَ ذلك قبل إلقاء القبض على سعادة مباشرة. وبعد أن أصبح الحزب علنياً وعقبَ صدور أحكام السجن، وقعت مصادماتٌ عديدة. وآخرها كان الذي انتهى بإعلان سعادة عن قيام الثورة على الحكومة. لكن ذلك جرى بعد الاستقلال. استُعمِلَت الكتائب اللبنانية من قِبَل الحكومة «كعنصر استفزاز» - بِيَد الحكومة الفرنسية أولاً، ومن ثم بيد حكومة الاستقلال. وتميّزت تلك الفترة بنشاط حافل للحزب.

اعتدتُ أن أكتبَ في جريدة الحزب باسم مستعار - «يزيد جواهري». «يزيد» تعني «يضيف» في اللغة بالعربية، و«يوسف» لها نفس المعنى بالعبرية. «صايغ» تعني «الصائغ» «والجواهري» تعني «الجواهرجي». اعتقدت أنها طريقة لطيفة لصياغة الاسم الحركي، فهو قريب، ومع ذلك لن يعرفه الناس لأن قلة فقط يعرفون أن يزيد ويوسف لهما نفس المعنى. كنت أُعدّ أوراق عمل عن الموقف من فلسطين. وفي وقت لاحق بدأت أكتب عن المسائل الاقتصادية، خصوصاً بعد حصولي على درجة البكالوريوس، خلال السنة التي قضيتها في لبنان من ١٩٣٨ إلى ١٩٣٩، عالجت مسائل في الاقتصاد - وخاصة سلسلة من المقالات حول مسألة العمل، وأية خطوط إنتاج ينبغي للحركة

القومية السورية أن تُشجِّع وكيف ينبغي أن توجِّهَ الاقتصاد - ذلك هو ما كان يَعِظ به الحزب.

استقالة/ طرد فايز من الحزب

انتهت قصة فايز مع الحزب في عام ١٩٤٧، عندما سافر إلى أميركا للدراسة لنيل درجة الدكتوراه. وهناك حكاية تُحكَى تُوضِّحُ كيف استطاع الذهاب إلى أميركا. أُرسِلَ فايز من قبل الحزب ليقوم بجولة في أفريقيا، في غانا بصفة أساسيّة، كان فيها عددٌ من أعضاء الحزب، فقضى أسابيع عديدة يُحاضر من مكان إلى آخر. وجمعَ مبلغاً كبيراً من المال للحزب. عرفَ أحدُ الأعضاء، وكان واسعَ الثراء، أنّ فايز يرغبُ في السفر إلى أميركا للدراسة إذا توفّر لديه المال، فقال له: «ولا يهمّك، أنا بموِّل الرحلة» أظن أنه وضع تحت تصرفه ٥٠٠ أو ٦٠٠ جنيه إسترليني، له شخصياً، خارج مساهمتِهِ للحزب. لم يكن ما عرضهُ ذلك اللبناني الثريّ على فايز قرضاً، بل كان مِنحة. فهو مليونير، وفايز كان لامعاً، والرجل أُعجِبَ بخطاباته.

بعد زيارة أفريقيا، عاد فايز إلى بيروت. في ذلك الوقت بدأ سعادة يصبح غريب الأطوار ومُفرطَ الثقة بنفسه. فعلى سبيل المثال، أصدرَ توجيهاً، يكادُ يكونُ مَرسوماً، يقول فيه إن على الحزب أن يتبنّى فلسفة سمّاها «المَدرَحيّة». ما هذه المَدرَحيّة؟ كانت تلاعباً بالألفاظ - مادية/ روحية. خلطة أيرلندية في الفلسفة. عند ذلك شعر فايز أن الكيل قد طفَح. أمضى الزعيم فترة الحرب في أميركا الجنوبية خوفاً من القبض عليه إذا ما مكث في المنطقة. وفي غيابه، أبقى فايز الحزب حيّاً، وقاومَ أولئك الذين يريدون توجيهَهُ ليكون حزباً لبنانياً. حارب فايز ذلك التوجه، وكان سعادة سعيداً لأن فايز تمسّك بموقفه وقاوَمَهُم. لكن فايز لم يكن مرتاحاً إزاء إضافة العراق وقبرص إلى الادعاءات الإقليمية حول «سورية الطبيعية». قال سعادة إن الاثنتين، العراق وسورية، يجب أن يُطلَقَ عليهما اسم «سوراق»، وهذا تلاعب آخر بالألفاظ. لهذا دعا فايز إلى اجتماع اتخذَ فيه خطوة غير عادية على الإطلاق وهي معارضة الزعيم. كان اجتماعاً «للعمد»، القيادة، مجلس الحزب. قدّمَ فايز عرضاً مُطوّلاً للمدارس الفكرية في الفلسفة، وتساءَلَ أين يمكنُ وضعُ المَدرحية؟ لا يمكنك أن تخلق مدرسة فكرية بمرسوم. كانت نيّة الزعيم هي أننا يجب أن لا نتبنّى المادية ولا الروحية، بل نحاول أن نجمع بين الاثنتين. لكن أسلوب مقاربته للمشكلة كان سطحيّاً للغاية.

بعد ذلك، كتبَ فايز مقالة حول الموضوع، وجُنّ الزعيم غضباً. كانت هناك مقالات نشرَها بعض منتسبي الحزب تُثني كلُّها على مفهوم «المَدرَحِيّة». وكان نقد فايز يقول: «انتظروا لحظة، دعونا نحلل هذا المفهوم لنرى المحتوى

الذي ينطوي عليه». وعندما علم بأنه سيُطرد من الحزب، قرر أن يغادر قبل أن يحدثَ ذلك. كتبَ رسالة استقالة يعدّدُ فيها أسبابهِ وخلافاته - وكلها ذات طبيعة فكرية. ثم نشر الحزب بيان طرد فايز مُستخدماً مصطلحات مثل «ذلك المدّعي المغرور الذي لا يملك من القدرات الفكرية إلا ما علِق به من ذكاء الزعيم». عندما انسحب فايز من الحزب قال الزعيم: «أنت لا تنسحب من الحزب، أنت مطرود». طردَهُ، وكانت قضيّة مدويّة.

عندما نشر الحزب ذلك، شعر فايز أن من حقه أن يدافع عن نفسه. وضع كُتيّباً عن أسباب خروجه من الحزب، وتحدّى الزعيم على أسس أيديولوجية وفلسفيّة. وقال إنه لم يطرد بل استقال. بعد ذلك مباشرة، سافر إلى الولايات المتحدة مع هشام شرابي. كان هشام في ذلك الوقت عضواً في الحزب ويدين له بالولاء. حافظ هو وفايز على الصداقة بينهما خلال مدة سفرهما معاً، ولكن بعد ذلك، حدث فتورٌ في العلاقة بينهما. ولم تتحسن علاقتهما إلا في أواخر السبعينيات.

بقيت في الحزب، لم أرغب في أن يظنّ الناس أنني سأخرج من الحزب لان أخي خرج، على الطريقة «العشائرية». لكنني بدأت أنأى بنفسي عن الحزب، جزئياً بسبب الصِّدام بين فايز وسعادة، وجزئياً لأن موقف الحزب من القومية العربية كان في رأيي موقفاً متطرفاً. وشعرت أنه على الرغم من أن سورية كانت عظيمة في الماضي، فإن الوقائع الجديدة مختلفة. الآن وقد أنشئت الجامعة العربية، لماذا لا نتحرّك ونساعد في نضوج أفكار القومية العربية؟

بقيت كذلك، ولكني بدأت أكتشف أكثرَ فأكثرَ أنني لا أستطيع الانتماء إليه. أولاً وقبل كل شيء، كنت دوماً أشعر بالحرج في الاجتماعات حين كان ينبغي أن أقف مثل جندي وأؤدي التحية للحزب. عندما يدخل سعادة إلى أحد الاجتماعات، كان يتم الإعلان عن استقباله بالتحية: «حضرَ الزعيم! يَحيا الزعيم!، وعليّ أن أردِّدَ: يَحيا! يَحيا الزعيم! يَحيا! يَحيا! يَحيا! يَبني الحيَاة لسوريّة! وهو قائدُنا! يَحيا الزعيم، يَحيا، يَحيا...» كان ذلك مُريعاً. كنتُ أنكمش داخل ملابسي. كان ذلك قبل ذهابي إلى فلسطين. في وقت لاحق كنت أجيء من فلسطين إلى بيروت بصفة مستمرّة. ثم كانت ثورة الحزب (ضدّ الحكومة اللبنانية)، وألقي القبض على سعادة.

إعدام سعادة

عندما عادَ سعادة إلى لبنان في آذار/مارس من عام ١٩٤٧، بالطائرة من الأرجنتين، اجتذبَ وصولُهُ جمهوراً غفيراً. جئنا نحن من القدس - فريد عطايا وجورج سلامة وأنا - لنكونَ هناك في المطار وننتظرَ مع الآخرين. لدى وصولنا، وجَدنا عشرات الآلاف من الناس. انتشرَ الخبر بأن سعادة سيعود. تكهربَ

لبنان كلّه. حينَ بلغَ الحكومةَ أن آلاف الناس كانوا ينتظرونَهُ هناك قبل ساعات من وصول الطائرة، صعدَ وزيران وبعض مسؤولي «الأمن» في طائرة صغيرة. حلَّقوا حولَ المطار، ورأوا عشراتِ الآلاف من الناس. أصيبَتِ الحكومة بالفزَع. خافوا من وقوع انقلاب في وقتٍ لاحق إن لم يكن فوراً، بسبب شعبيّتهِ الكبيرة.

منذُ تلك اللحظة، بدأوا بالتخطيط للتخلُّص منه. اتخذوا الترتيبات مع الكتائب لمهاجمة المَطبعة التي كانت تطبع جريدة الحزب. ثم ألقت الحكومةُ القبض على رجال الحزب مُدّعيةً أن هؤلاء الرجال هم الذين بدأوا بالهجوم على الكتائب. قرّر سعادة أنّ الوقتَ قد حان. فأعلن قيامَ الثورة، ومضى إلى الجبال، إلى منطقة ضهُور الشوير في المَتن الأعلى. ولجأ المئات من أعضاء الحزب إلى السلاح. بدأت الحكومة تضيّق الخِناق عليه. كان حُسني الزعيم في سورية قد قام على التوّ بانقلابه. فأرسلَ رسالة إلى سعادة يُبلغه بأنه سيُوفّرُ له مَلجأ آمِناً. ذهب سعادة إلى هناك، وأهداهُ حسني الزعيم مُسدَّسهُ الشخصيّ رمزاً للصّداقة.

ذات يوم، قامَ حُسني الزعيم بدعوةِ سعادة إلى اجتماع. وفيما هو جالسٌ معهُ في مكتبه، بَرَزَ من خلف الستائر ثلاثة أو أربعة ضبّاط من الأمن اللبناني، مع رئيس جهاز الأمن، المير فريد شهاب. أدرك سعادة بالطبع أن تلك كانت مَصيَدة. قال له حُسني الزعيم: «بسيطة، روح معهم، دبِّر حالَك معهُم». فأخرج سعادة المسدّس الذي كان الزعيم قد أهداهُ إياه، وأعاده إليه قائلاً: «برجع لك المسدس عشان تقدر تواجه نفسك لما تطلع مرة ثانية في المرايه». ذهب مع رجال الأمن. حُوكم وأُدين. وَرُفضَ طلبُه استئناف الحُكم، وأُرسِلَت أوراقُهُ إلى رئيس الوزراء الذي وافقَ على حُكم الإعدام، وأُعدِم - كلُّ ذلك تمَّ في أربع وعشرين ساعة، رغم أن لديه فريقاً من أبرع المحامين المُوكّلين عنه. كان يرأس فريق المحامين حَميد فرنجيّة، أخو سليمان فرنجيّة، يساعدُهُ حبيب أبو شهلا وإميل لحُّود، ومعظمهم مُحامون مارونيون، يَحظوْنَ بالشهرة والاحترام. ولكن لم يكن باستطاعتِهم فعل أيّ شيء، فالقرار كان قد اتخذ للتخلص منه. لم يستطيعوا أن يحصلوا حتى على إذنٍ لزوجته وبناتِهِ الثلاث بتوديعِه. أخذوه لتنفيذ الحكم، مع اثني عشر شخصاً آخرين اعتُقِلوا أثناءَ وقوع المُصادَمات. والأمرُ المُرَوِّع فيما جرَى هو أنه بما أن كلّ شيء في لبنان يتمّ على أساس التوفيق بين الأديان، فقد انتقوا الأشخاص الذين سيُنَفّذُ فيهم الحكم على أساس تمثيلهم لكلّ الطوائف، بالرغم من أن أشخاصا أكثرَ بكثير حُكِمُوا بالإعدام. وتمّ تنفيذ الإعدام رمياً بالرّصَاص.

كنتُ في الأردن عندما حَدَثَ ذلك. ذهبتُ إلى هناك لِشراء سيّارة، لأنه يمكنني الحصول عليها بسعر مخفّض من شركة طنّوس، سيارة من طراز فوكسهُول،

بالتقسيط. وأثناء غيابي في الأردن، حُكِمَ على سعادة بالإعدام وأعدِم، ووصلني الخبر من العائلة إذ أبلغوني: «لا تستعجل في الرجعة» - لأنّهم كانوا يجوبون البلاد ويعتقلون الأشخاص. جاؤوا واعتَقلوا ابن خالتي الياس من بيتنا، واحتجزوه إلى أن وجَدوا أنه لا علاقة له بالحزب. اعتقد أهلي أنه إذا كان الياس الذي لا علاقة له بالأمر قد اعتُقل للتحقيق معهُ - وفي الواقع نامَ ليلة في الحجز - فمنَ المُؤكّد أنني سأكون في مأزق. قضيتُ شهراً ونصف الشهر في عمّان. كان ذلك في عام ١٩٤٩.

عندما عدتُ إلى لبنان، وجدتُ أن الحزب كان في مأزق. أولاً وقبل أي شيء، كثير من الناس زُجّ بهم في السجون. واستحكمَت الاضطرابات والانشقاقات، فالآن وقد غيّب الموت سعادة، ظهر التنافس حول من سيكون رئيساً للحزب - الأصوليّ المُتشدّد جورج عبد المسيح أم نعمة ثابِت الذي حصل - في غياب سعادة في البرازيل بعد الحرب، على ترخيص للحزب وغيّرَ اسمه من «الحزب السوري القومي» إلى «الحزب القومي». وحتى ضمن التيار الرئيسي الذي قادَهُ نعمة ثابت، كانت هناك مُشاحنات. كان هناك شخص من عائلة قدُّورة، وآخر من عائلة الفاخوري، جريس.. لم يكن لديهم الذكاء والقبول نفسه كنعمة ثابت الذي كان ابنَ عم زِلفى شمعون، وشخصاً شديدَ الفطنة والفصاحة. ولكني نَفَرتُ من الجوِّ العام بِرُمّتِهِ.

بعد سنوات عديدة، في عام ١٩٥٣، عقبَ إطلاق سراحي من مُعسكر أسرى الحرب وقدومي إلى لبنان للعمل، انجرَرتُ ثانيةً إلى نشاطات الحزب من خلال تكليفي برئاسة فريق من أجل إعداد خطة اقتصادية أو مسوّدَة خطة اقتصادية أوليّة تُحدد ما سيكون عليه موقف الحزب من العمل، والاستثمار، وتوزيع الدخل، والملكيّة - أي القضايا التي تدخل ضمن أيدولوجيات مثل الاشتراكية والرأسماليّة. كنت لا أزال أُعتبَر عضواً في الحزب. أتذكّر أنني قلت: «لكن أنا مش عضو عامل». كنت قد انقطعت فحسب، لم أكن قد استقلت. أجابوني: «ولا يهمّك، يمكن تصير عضو بعد انتهاء هالتمرين». وأعترف أن هذا العمل كان أقرب إلى البدائية، لأن معلوماتي في الاقتصاد لم تكن قد نضجت بعد، لم أكن قد قرأت الكثير عن الأنظمة الاقتصادية أو الاختلافات المثيرة للجدل بين الاشتراكية والرأسمالية. كنت أحاول معرفة ما إذا كان يمكن التوفيق بينهما بطريقة ما. وساعدني شخصان في ذلك، بهجت خولي وفؤاد بدر - بهجت كان زميل دراستي في إدارة الأعمال. وكان سعادة قد كتب سلسلة من ٣٠ مقالة حول ما يجب أن يكون عليه الاقتصاد. الحرس القديم مثل جورج عبد المسيح، الذي كان آنذاك رئيس المجلس الأعلى للحزب، كان يشعر بأنه لا حاجة للقيام بأيّ شيء سِوَى إضافة بعض التفاصيل إلى ما قاله سعادة. لم يكن الاقتصاد هو مجال سعادة ولكنه كان يقرأ على نطاق واسع، فقد قرأ الأدبيات الماركسيّة، وأعمالاً عن الرأسماليّة. وأتذكّر أنه

كان يستشهد بأقوال «زومبرت» و«تاوني» و«ويبر». وكان يتمتع بذاكرة مذهلة، ويُورد اقتباسات من الكتب والمصادر المختلفة. في ذلك الوقت كان رئيس الحزب هو جورج عبد المسيح، الذي كان ملتزماً بالنصّ الحَرفي، ويؤمن بكل كلمة قالها الزعيم، ووجوب عدم تغيير حتى فاصلة واحدة. وأحسّ أنني كنت كافراً تقريباً بالبرنامج الذي أعددنا مسوّدته - «وين التحكم باتحادات العمال؟ وين التوجيه الحكومي؟» كان يقول: «لا يمكن نقبل الخطة، هيئتها مثل الشيوعية». وفي وقت لاحق، عندما حصلتُ على بعثة دراسية للسفر إلى أميركا للحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، بلغني أن جورج عبد المسيح قال: «يمكن بعد ما يحصّل دكتوراه في الاقتصاد، يبدأ يوسف صايغ يفهم اقتصاد سعادة».

بدأتُ أحسّ شيئاً فشيئاً أنني لست في المكان المناسب. تركتُ الحزب ولكن بدون الدَّويّ الذي أحدثه فايز. كان تراكماً بدأ عندما شعرت أوّل مرّة أن القائد بدأ يفقد صوابَه. وبعد إعدامه، أصبح الذين جاؤوا من بعده أكثر إصراراً على حفظ الفلسفة التي اخترعها، والدعاية لها، دون أن يمتلكوا القدرة الفكرية التي كانت له، فلماذا أبقى إذن؟ كل ما فعلته هو أنني سرَّبتُ شفوياً أنني لا أريدُ حضورَ الاجتماعات بعد الآن، بلّغت الناس أن يعتبروني خارجَ الحزب. وبهذه الطريقة ظلّت علاقاتي مع أعضاء الحزب مقبولة، احترموني لأنني لم أجعل انسحابي قضية كبيرة، لم ألطخ سمعة الحزب.

بحلول عام ١٩٥٦ برَزَ جمال عبد الناصر. كان ذلك هو الخطّ الفاصل. بدأت أشعرُ أنه لا يوجد أيّ نشاط يثيرُ اهتمامي ما لم يكن منحازاً للعروبة ويتضمّن فلسطين. الاهتمام بفلسطين يجب أن يكون موجوداً لأنني أصبحت مقتنعاً أكثر فأكثر أننا لا نستطيع تحريرَ فلسطين وحدنا. خلال عقد الخمسينيّات، كانت القضية الرئيسة لدى الفلسطينيّين هي أين ستكون قيادة العالم العربي؟ في مصر أم في سورية؟ كان الناس يقرّرون عادةً على أساس مَن هو القائد في هذا البلد أو ذاك. كانت القضية مُشخصنَة. وعلى سبيل المثال، عندما برز عبد الناصر، قال الجميع إنّ مصر هي (القائد). وكان التبرير المنطقي الشعبي أن مصر أكبرُ دولة (عربية). وكانت سورية دوماً تُدعى «قلب العالم العربي»، غيرَ أن كثرة الانقلابات أظهرت أنها غير مستقرة (آنذاك). (أديب) الشيشكلي كانَ واعداً عندما جاء دوره في القيام بانقلاب، ولكنه خُلع عن السلطة. وجاء البعث، كانت علاقات البعث عدائية تجاهَ الحركة القومية العربية لأن هذه الحركة متحالفة مع عبد الناصر أكثر، وكان البعث منافساً. أما الحزب السوري القومي الاجتماعي فكان خارج ذلك كلّه، لأنه لم يكن حزباً قومياً عربياً. وبالنسبة لي، كانت تلك الحقبة كلها حقبةً تتميّز بالاضطراب السياسيّ في العالم العربيّ. كنت أحيا في سُبات إلى أن برز عبد الناصر سنة ١٩٥٦. منذ ذلك الحين بدأتُ أشارك أكثر، ولكن من الناحيةِ

الفكرية في البداية، من خلال الكتابات وإلقاء المحاضرات. ثم عشتُ بعيداً في أميركا مدةَ عام ونصف لإنجاز عملي في مشروع التخرج، وعندما عدتُ وجدتني منشغلاً بعملي في الجامعة مديراً للمؤسسة ورئيساً للقسم. وكان لديّ مشروع البحث مع روكفلر. بعد ذلك سافرت إلى أميركا مرة ثانية ومكثت هناك مدة سنتين. وهكذا كانت تلك الفترة حافلة بانشغالات أخرى. وكانت لدي عائلة، نعم، وهذا ما أبعدني عن السياسة. ثم انجررتُ ثانية نحو السياسة، بعد أن أصبحت عضواً في المجلس الوطني (الفلسطيني).

خلال تلك الفترة، دعاني كمال الشاعر إلى الغداء في منزلهِ لمقابلة ميشيل عفلق. وامتدّ ذلك المساء حتى الثالثة صباحاً. بعد أن عرفَ أنني اقتصاديّ، قال عفلق: «نحتاج إلى شخص مثلك معنا، لأنّ كلّ ما لدينا هو أفكار عامّة فضفاضة جداً، وليس لدينا نظام اقتصادي يجمع أفكارنا بشأن الاقتصاد. نحن اشتراكيون، الاسم اشتراكي ولكن ليس لدينا اشتراكية. لماذا لا تنضم إلينا وتضع تصميماً لما يجب أن تكون عليه الاشتراكية العربية في تصورك؟ وسوف تتولى تلك المسؤولية. فقلت: «أنت تطلب مني أن أضع نظاماً، وعلى أساس ذلك النظام سأكون مؤهلاً لأن أكون جزءاً من القيادة. وهذا حقيقة فيه شيء من المحاباة لنفسي، وكأنني أفضّل بذلة على مقاسي. على أية حال لا أعتقد أنني قادر على فعل ذلك، فالنظام الذي صمّمهُ في البداية كارل ماركس لا يُمكن أن يُعيد تصميمَهُ عربيّ ليُسمى الاشتراكية العربية. قلتُ ذلك على الرغم من أنني كتبتُ فعلاً مقالة بعنوان «الاشتراكية العربية» حاولت فيه أنسنة الأفكار الأساسيّة للاشتراكية لتجنّب أخطاء الأنظمة الشمُوليّة، والاتحاد السوفياتي. وقد نُشر في أواخر الخمسينيات كما أظن في الأبحاث، وهي مجلة كان يرأس تحريرها فؤاد صروف.

العراق: «مُتّسَعٌ لمئات المُعلّمين»

لم أبدأ عملاً جديداً على الفور. كان الصيف على الأبواب، فانتظرت قدومَ العائلة، وذهبت معهم إلى فاريا. كان ذلك هو صيف عام ١٩٣٩. وبينما نحن في فاريا، في أيلول/سبتمبر، اندلعت الحرب العالمية الثانية. لم يكن والداي منزعجيْن من وظيفتي، وقالا: «إذا بدّك تكون محاسب، تعال وخليك محاسب في فلسطين، المعاشات هناك أحسن بكثير». ولكن كانت لديّ وظيفة في الوقت الذي وصلت فيه العائلة. عبد الكريم الدندشي، زميل من سورية، درَسَ العلوم السياسية، وأصبح فيما بعد عضواً في البرلمان، جاء مع رشدي المعلوف وأخبرَنا أن في العراق مجالاً لمئات المعلمين، فلديهم برنامج تعليم ديناميكي جداً، ويريدون تعيين متخرجين من الجامعة الأميركية في بيروت. والرواتب التي كانوا يعرضونها جيدة جداً - ١٨ ديناراً عراقياً في الشهر لحملة شهادات البكالوريوس، ولكن بالنسبة لي ولرشدي «بما أنكما أيها الوغدان

حاصلان على مرتبة الشرف، فالمرتب هو ٢١ ديناراَ»، ذلك أفضل بكثير من بيروت، وعلى أية حال، كانت لعبة أن نجرّب شيئاً مُختلفاً.

أعطانا زميلنا عنوانَ الشخص الذي كان مديراً للمدرسة، وهو لبنانيّ من الشويفات، أحد أفراد عائلة صعب. اتصلنا به فرحَّب بنا، وحصلَ على تأكيد من رئيس البعثة بشأننا. كانت مؤسسة خاصة مثل المقاصد، تُدعى «التفيّض الأهلية». كانت لديهم مدارس عديدة في العراق. بعثوا لنا خطابَ تعيين للتدريس في تكريت. ولرشدي أيضاً، لكنّ رشدي انسحب. وهكذا كانت لديَّ وظيفة أباشرُها في الخريف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل السابع مُدَرّسَاَ.. في العراق، ١٩٣٩ - ١٩٤٠

في نهاية صيفِ عام ١٩٣٩، بدأتُ عمَلي في العراق، مُدَرّساً في مدرسة خاصة. سافرتُ بإحدى حافلات نقليّات «نيرن». وصلتُ إلى بغداد، ثم وجدتُ مَقرَّ إدارة المَدرَسةِ، وأُصِبتُ بالصّدمة الأولى. فراتبي لن يكون ٢١ ديناراً في الشهر بل ١٨ ديناراً فقط. فالدنانيرُ الثلاث التي تُشكّل الفارق، والتي وعَدوني بها في بيروت نظراً لتخرُّجي مع مرتبة الشرف، أُلغيَت هكذا، ببساطة. حاولتُ أن أكافحَ من أجلها، لكنّهم قالوا لي: «لا شيءَ يُجدي، تستطيع أن تعودَ إذا أردتَ». لكنني، بطبيعة الحال، لم أكن أريدُ العودة. ذهبت بالقطار إلى تكريت.

كان مديرُ المدرسة، وهو لبناني من الشويفات، اسمهُ معروف صعب، قد قام باتّخاذ الترتيبات كلها فيما يتعلق بإقامتي في تكريت. عثر لي على مسكن من طابقين، وعلى شخص يتولى أمر الطهو لي في حين تتولى زوجته أمور الغسل والكيّ. عندما وصلتُ إلى هناك أوّل مرة، قضيتُ ليلةً أو اثنتين في منزل المُدير، لأنّ منزلي بلا أثاث. أحدُ الرجلين اليهوديَّين الوحيدين في تكريت كان صاحب دُكّان - وأظنُّ أنّ اسمَهُ فكتور. جهّزَ لي الأغراضَ الأساسيّة للمَطبخ، وبعضَ المَقاعد، وفَرشةً واحدة. ثم أحضرَ سريراً من بغداد بعدَ أسبوع أو أسبوعين، وملاعقَ وسكاكين. وأظنّ أنهُ وجدَ شوكتين أيضاً.

كانت تكريت مكاناً صغيراً جداً. شوارعُها وطرقُها غيرُ مُعبّدة. عندما يَصطادون سمكة كبيرة من النهر، يَحمِلُها الصيّاد إلى الميدان، تحت منزلي مباشرة - وقد رأيت هذا مَرّاتٍ عديدةً إلى أن قرَّرت أن لا أواصل النظر - يَطرَحُونها أرضاً، ويُحضِرون سِكّيناً كبيرةً، ساطوراً، مثل قَطّاعة اللّحم، ثم يُقَطّعونَها. فالناسُ يشترون السّمَك بالقِطعة، لا أحدَ يَشتري سمكةً كاملةً، ربّما باستثناء مَولود باشا مُخلص، الذي كان رئيسَ البرلمان، وهو شخصيّة مشهورة في تكريت. كان يشتري سمكةً أو اثنتين لأنّ لديه ضيوفاً دائماً. لكنّ الناسَ العاديّين يشترون السمكَ بالقطعة. ومع كل قِطعةٍ يقطعُونها، يرتفعُ الذّبابُ بالمئات عن السّمَكة. قرّرتُ منذُ اليوم الأوّل تقريباً أنني لن أقضيَ عاماً آخرَ في العراق. اشتقتُ إلى بيروت، اشتقتُ إلى أهلي كثيراً، كانوا هناك في مكان بعيد بعيد. المكانُ هنا بدائيٌّ للغاية. كنتُ أجلسُ وأقارنُهُ بطبريّا، أو حتى بالبَصّة.

لاحظتُ أمراً آخر، وهو أن النساءَ بثيابهنّ السوداء الطويلة التي تُغطي أخمصَ القدمين يجلسنَ القرفصاءَ فجأةً في وسط الميدان، أو في أيّ مكان، ثم يُواصِلنَ سَيْرهنّ وقد تركنَ وراءَهنّ بُقعةً مُبتلّةً على الأرض. بولٌ فقط، لا شيءَ أكثرَ من ذلك - ولكنّ القيامَ بهذا الفعل كالحيوانات، دونَ إحساس

بالحَرَج أمرٌ لم أرَهُ في أيّ مكان آخر في العالم العربي. فبعد مغادرتهنّ البيت، لا يُوجد مكانٌ آخر يَلجأن إليه. وتتولّى الشمسُ أمرَ البقعة المُبتلّة.

كُلِّفتُ بتدريس مادّتَي التاريخ والجغرافيا. كانت مدرسةً للبنين، تَضُمُّ صفوفاً حتى نهاية المستوى المُتوسِّط، ولا تبلغُ مُستوى البكالوريا أو المَترك (الثانوية العامّة). وتُسمَّى مدرسة مُتوَسِّطة. طُلِبَ مِنّي أيضاً تدريسُ الجَبر والهندَسة، ولم أكن سعيداً بذلك لأنني لم أدرُس هذه الموضوعات في الجامعة، وإنّما في المَدرَسة الثانوية فقط. والآن عليّ أن أدَرِّسَ الجبر والهندسة لطلاب الثانوية باللغة العربية. وكان ذلك يعني أن عليّ أن أدرس بجد أكثر من الطلاب حتى أظل متقدِّماً عليهم. لم أدَرِّس اللغة الإنكليزية لأنها كانت مجالَ «معروف صعب»، مدير المدرسة. وتدَبّرتُ أمري على خير ما يُرام.

في ذلك الوقت، كان العراق مصاباً بحُمّى السياسة القوميّة وحركة التجديد. وهي المرحلة التي سبقَت انتفاضة رشيد عالي الكيلاني مباشرةً. وقد مُنِحَ المُدَرّسون رُتَباً عسكرية، وتوجَّبَ عليهم ارتداءُ البِزّات العسكرية. فكان لي ثلاث نجوم بصِفَتي برتبة نَقيب، فإذا مَرَرتُ بجنديٍّ أو شرطيٍّ، قاموا بتأدية التحيّة العسكرية لي، وعليَّ أن أؤدي التحيّة لمَن هُم أعلى مني رُتبةً. وكان علينا أن نلبس «السيِدارة» أو «السِدرة» العراقية وهي نوعٌ من القُبّعات.

كانت الحياة الاجتماعية مُقيّدة إلى حدٍّ كبير. هناكَ صاحبُ الدّكان الذي كان مُسَلّياً واجتماعياً للغاية. وعلى الرغم من أنهُ كان يهوديّاً، إلاّ أنَّ البيوتَ كُلّها كانت ترحّبُ به - ربّما لأنه يهوديّ. المدينةُ كُلّها سُنّيّة باستثناء عائلتين أو ثلاث. أحد المُدرسين كان شيعيّاً. وهناك الطبيبُ الحكوميّ الذي كان يهوديّاً أيضاً. وضمنَ دائرة المُدرسين، كان مَعنا مُدَرّسان عراقيّان، أحدُهُما يُدَرِّس التربيةَ الدينيّة واللغة العربية وقواعدَ اللغة، والثاني يُدَرِّس الحساب وهو الذي كان شيعيّاً. كنا نحن المُدرّسين نلتقي بالتناوب، في منزلي أحياناً، وأحياناً في منزل حَسيب، وفي أحيانٍ أخرى في منزل «معروف». لكننا لم نُدْعَ قط إلى منازل العراقيين. كانوا يَشعرونَ بالحَرَج من دعوتنا إلى بيوتهم دون أن تظهرَ نساؤُهم. ربّما دُعِينا مَرّةً واحدة لتناوُل وجبة في بيت صلاح، المُدرّس الشيعيّ. لم تكن هناك نساءٌ ظاهرات للعيان.

ذاتَ يوم لم يَحضُر صلاح إلى الصفّ. وفي اليوم التالي عندما حَضَر، قلتُ لهُ: «ما جيت امبارح، بتأمّل يكون كل شي تمام؟». فقال: «يعني، مُو تَمام، أجلّك الله حُرمتي كانت مريضة». «أجلّك» كلمة نستعملها بمعنى «حفظ الله كرامَتك» فإذا كنت تريدُ أن تذكرَ كلمة حِمار، فإنك تقول «أجلّك، الحمار..». كانوا يستعملون الكلمة عند ذكر زوجاتهم. وكأنهم يقولون: «آسف لذكرها».

بعدَ شهر، تلقيتُ رسالةً تقولُ إنّ أمّي كانت مَريضة، أصيبَت بنوْبة قلبيّة. انزعجت كثيراً، ولا بُدَّ أن ذلك انعكس على وَجهي. فقالوا: «شو ما لَك؟». تكلّمتُ بصراحة وقلت: «أمي مريضة». فما كان منهم إلاّ أن طأطأوا رؤوسَهم، دونَ أن يقولوا كلمةً واحدة. وفي وقتٍ لاحق أخبرتُ «معروف» بما جرَى. فقال: «زين، هذا نوع من التعاطُف، بس شعَروا بالحرَج لأنك قلت «أمي». وكأن لفظ كلمة أمي، وهي أُنثى، يَعني أنها كذا وكذا. ولهذا، كانت الحياة الاجتماعية تقتصر على أمسيات في بيوت المُدَرّسين غير العراقيّين. كنا نذهبُ إلى المَقهى أحياناً ونستمع إلى الأخبار هناك. كان في المقهى مِذياع يعملُ بالبطارية، إذ لم تكن الكهرباء متوفرة. ولم يكن في تكريت من المقاهي سوى اثنين، المقهى الكبير فيه مذياع ومصباح «لوكس»، نجلس ونشرب القهوة أو الشاي. وكنت أقضي بعض الليالي في البيت أقرأ على ضوء المصباح «اللوكس». كنت قد أحضرتُ معي بعض الكتب من بيروت - فقد نصحني أحدهم بذلك - وكنت كلما ذهبت إلى بغداد أشتري بعض الكتب العربية. ولم أجد إلاّ في وقت لاحق مكتبةً فيها كتبٌ باللغة الإنكليزية. كنا نذهبُ في النهار إلى دُكّان فكتور، نجلسُ هناكَ في أوقات ما بعد الظهيرة.

العائلة الوحيدة التي فتحَت لنا الأبواب واستقبلتنا بكرم الضيافة هي عائلة المحافظ. كان فيها عددٌ من الأولاد، اثنان منهم من تلاميذي، وكلاهما ذكيّان ولطيفان. وبعد أن غادرتُ العراق بعامين أو ثلاثة، استمرا في إرسال الهدايا لي، إلى فلسطين. وقبل سنواتٍ قليلة، في إحدى رحلاتي إلى العراق، سمعتُ من يذكر اسمَ واحد منهما، فطرحتُ بعضَ الاستفسارات، وتبيّن أنهُ أستاذ مساعد للاقتصاد في جامعة بغداد، لكنّهُ تُوفّي نتيجةَ مَرَض ما. واستفسرتُ أكثر، ووجدتُ عنوانَ عائلته. فذهبتُ وزُرتُهم. كانوا قد انتقلوا إلى بغداد. وكان والدُهُ ما زال حيّاً، رجلٌ طاعنٌ في السنّ، وهناكَ اثنان من الأبناء. قدَّموا لي وجبةً فاخِرة. كانت لذيذةً فعلاً. هذه العائلةُ كانت بمثابة «وطن خارج الوطن»، بالنسبة لنا في تكريت. فهم يدعوننا في أغلب الأحيان. لم نرَ النساء هناك، لكننا وجدنا مائدةً عامِرةً بما لذّ وطاب، كان للوالد شخصية طيّبة للغاية. تحصيله الدراسي محدود، لكنه كان حسّاساً ونزيهاً وأصيلاً. كنتَ تُحِسّ أنها ضيافةٌ أصيلة، رغبة في مساعدة هؤلاء الأغراب.

كانت تكريت هي المدينة التي جاءَ منها معظمُ قادة حزب البَعث، لكنّني لم أدَرِّس أيّاً منهم. فالفئة العُمريّة لأحمد حَسن البَكر يُمكن أن تَجعلَهُ واحداً من تلاميذي. لكنّ الآخرين كانو أصغر سناً من ذلك بكثير. فصدّام حسين كان رضيعاً آنذاك.

تكوَّنَ وعيي بوجود فوارق بين السُّنّة والشيعَةِ في تلك المرحلة التي عشتُها في العراق. كنا نقضي الأمسيات في بيوت مختلفة - باستثناء بيتي. قضيناها

في لعب القمار. لم أشتَرك في اللعب، وإنما كنتُ أراقبُ الآخرين فقط. والاثنان الأكثرُ جدّيةً في ذلك هما: حَسيب عبد الله، وهو شيعيٌّ من جنوب لبنان، وصلاح، المُدَرِّس العراقي الشيعيّ. وهناك أيضاً مُدَرِّسان آخران من المدرسة الحكومية اعتادا على الحضور واللعب. وذاتَ يوم، ثارَ جدلٌ بين حسيب وصلاح حول اللعبة، وأصبحَ الجدلُ شديدَ السّخونة. ولدى مغادرتنا البيت الذي كنا نلعب فيه إلى بيوتنا - بعد انتهاء اللعبة - أخذ حسيب ينهرُ «صلاحَ» قائلاً: «إستحِي على حالك، إنت وأنا بس الشيعة هون، وإنت بدّك تعمل فضايح؟». فأجابهُ صلاح بفظاظة: «ما يهمني بفلسين لو كل السّنّة عرفوا عن طوشتنا». ذلك هو الوقت الذي بدأتُ أكتشفُ فيه الكثيرَ عن هذا الانقسام في العراق، عن طريق طرح الأسئلة. لم يكن العداءُ ظاهراً على السطح، كان دفيناً، تياراً خفياً. ربّما كان يتمُّ التعبيرُ عنه من خلال المُحاباة في التعيينات الوظيفية، لا أدري.

كنا نشربُ العرَقَ ونلعبُ القمار - العرَق العِراقي والجعَة (البيرَة). لم أكُن خبيراً آنذاك ولكني أتذكّرُ أنّني لاحظتُ أنّ الجعة كانت جيّدة. ذهبتُ إلى السينما مَرّةً أو مَرّتين حين كنت في بغداد. لم تكن هناك أيّة دار لعرض الأفلام في تكريت بالطبع، نظراً لعدَمِ وجود كهرباء. ذهبت مرة إلى سامراء لمشاهدة الملوية (البرج الملتوي) لكنني لم أذهب قط إلى كردستان. سافرتُ بالقطار إلى السُّليمانيّة والموصِل بعد سنوات برفقة حكمت النّابلسي؛ جاءَ ليُساعدني في القيام ببعض الأبحاث.

الطعام! كان الطعامُ مُريعاً. الشيءُ الوحيد الذي كان ذلك الزوج وزوجته يعرفان كيفية طهوه هو «اليَخنِة». وفي الوقت الذي تصِلُني فيه تكونُ قد بَرَدَت، كان يحمِلُها من بيته المجاور لبيتي، في «الطناجِر». لم أرَ زوجتهُ قط. ما يزيد عن حاجتي، كان يأخذه ويلتهمُهُ هوَ، ففي الواقع كنتُ أطعِمُ عائلتين. والوجباتُ التي كنتُ أحبُّ أكلها، واللحومُ التي أطيق تناولها، لم يكن يعرف كيف يطبخُها. كانوا يُعِدُّون الكباب، ولكنه دَسِمٌ وكثير الشحم. لم أحتمل تناول السمك كلّ يوم، فكان الدجاجُ شيئاً يمكنني أن أعوّل عليه. كنت أتناولُ وجبةً واحدةً على الأقل في الأسبوع في بيت معروف صعب.

في أحدِ الأيام ارتكبتُ خطأَ التدقيق في السكّين والشوكة والمِلعقة. فوجدتُها دَبِقةً. أخبرتُ «أُهَيِّب» - وهذا اسم الطباخ - فقال «بسيطة». رفعَ ثوبَهُ وفرَكَ السكّين والشوكَة والمِلعقة ببطانة الثوب. كنت قد رأيتُ الثوبَ ذاتَهُ على جسده طيلة أسبوعين. فقلت: «المَرّات اللي فاتت لما كانت نظيفة، كيف كنت تنظّفها؟». قال: «بنفس الطريقة، بالخَلق [القماش]، الخَلَق أحسن شي للتنظيف». فقلت لهُ: «من اليوم وطالع نظّفها بالصابون، قدّامي».

كان هنالكَ ذلك الشيخ الذي زارَني أوَّل مَرّة في شهر رمَضان، الشيخ عبد الكريم. في اليوم الثاني أو الثالث من رمضان، طرقَ أحدُهم الباب. فخرجَ أهَيِّب وقال: الشيخ عبد الكريم. فقلت: «أهلاً وسهلاً تَفضّل». كنتُ أتناول غدَائي، وكانت الزيارةُ مستهجنة في هذا الوقت. لم أدعُهُ ليشارِكَني الغدَاء، لأنني ظننتُ أنّ ذلك إهانة لهُ. فهو شيخ، شيخٌ عراقيّ ومن المُؤكّد أنه صائم. فتحادثنا طويلاً، ثم انصرَف. في اليوم التالي تكرّرَ مثلُ ذلك، ولم يتغيّر موقِفي. وجاءَ في اليوم الثالث، لكنني في هذه المَرّة كنتُ مُستعِدّاً لهُ لأنني كنت قد أبلغتُ معروف صعب قبل فسحة الغداء بتلكَ الزيارات. قلتُ لهُ: «شو صار، أنا هون من شهرين أو ثلاثة، وأوّل مرَة بيزورني الشيخ عبد الكريم في مثل هذا الوقت؟ بيجي وقت الغدَا، شي مُحرج، ما بقدَر أعزمُه عالغدا لأنه أكيد صايم». فقال معروف: «أكيد مش صايم، عشان هيك بيزورَك. متى تتذكر أدبَك وتقول له: تفضّل شاركنا؟». فقلت: «وبالنسبة لأهَيِّب شو؟» فقال: «أظن إنّه أهَيِّب عارف ليش الشيخ بيزورَك. بتقدر توزّع أهَيِّب إذا ما بدّك يكون موجود». منذ ذلك اليوم كان الشيخ عبد الكريم يزورني مرّة كلّ يومين أو ثلاثة. يذهب يوماً إلى بيت «معروف»، ويوماً إلى بيت حسيب ويوماً يأتي إلى بيتي. وفي أول مرّة دعوتُهُ فيها للطّعام قال: «أخيراً! خلّصنا! متى راح تقول هالكلمِة؟».

نظراً لإحساسي بالملل الشديد، كنت أغتنمُ أية فرصةٍ للذّهاب إلى بغداد، وهذا أمرٌ مُكلِفٌ، ولكنْ، بينَ فترةٍ وأخرى كان عليَّ أن أتجاوزَ ميزانية الدنانير الأربعة التي خصَّصتُها لنفسي - أربعة دنانير من ١٨ ديناراً كلَّ شهر. والباقي كنتُ أرسِلُهُ إلى الأهل. ولكن، إذا كان هناك شهر قادمٌ وفيه إجازةٌ، كنتُ أحتفظُ بدينارين إضافيين، كاحتياطي يُمَكِّنني من الذهاب إلى بغداد. فالقِطار لا يُكَلّفُ شيئاً يُذكَر، وتَكلِفةُ الفندق والمَأكَل يَسيرةٌ جدّاً. كنت أستطيع تدبير أمور معيشتي طوالَ شهر كامل بأربعة دنانير.

أحببتُ بغداد، كانت مَدينة. ولي فيها صديقان، أحدُهُما كان معي في المدرسة الثانوية، سعيد أبو عُلوان، ذهبَ إلى هُناك أيضاً للتدريس. والثاني عبد الكريم دَندَشِي، وهو سوري، كان مُدَرّساً أيضاً. لم أكن أعرفُ أي عراقيّ في ذلك الوقت. ولا أعرف بيتاً لأقيمَ فيه. عندما ذهبت، نزلتُ في فندق بسيطٍ جداً. لم أُطِل الإقامة في بغداد على الإطلاق - أنزل ليومين أو ثلاثة فقط. ولكني كنت أذهبُ في كلِّ إجازة مثل عيدِ الفِطر وعيدِ الأضحى أو عيد المِيلاد، فلا شيءَ يمكِن أن أفعلَهُ في تكريت. كنتُ أركبُ القِطار في سامراء.

في أحدِ الأيام شعرتُ بالبؤس. كنتُ بحاجةٍ ماسّةٍ إلى التحدّثِ إلى امرأةٍ. فلم أتحدث إلى امرأة مُطلقاً، إلاّ مع زوجة مُدير المَدرَسة وزوجة حسيب عبد الله بعدَ أن تزوّجَ وحضرَت زوجتهُ للإقامةِ مَعهُ. تزوَّجَها عن طريق «توكيل» أحدِهم

بعقد القران. كانت ابنة عمِّه، شابّة فائقةُ الجَمال، تستطيعُ أن تدركَ من الوهلة الأولى أنها ستكون سهلةَ المَنال. وبتشجيع قليلٍ كانَ يُمكِن أن تُضاجعَني أنا أو سواي، إذا سنَحَت الفُرصة. لم تكن تحتجبُ كسِواها. وكانت عينُ حسيب على زوجةِ المُدير، فتاة درزية صغيرة السّن، حيويّة ومُسَلِّيَة. هاتان هُما المرأتان الوحيدتان اللتان كان يمكنُ أن أقول لهما مرحباً. في بغداد، قابلتُ صديقاً لدى مغادرتي القطار، أحد الذين كانوا معي في الجامعة. سألتهُ: «شو بعمل، بِدّي أرقص» لم أكن أملكُ المال للذهاب إلى ملهَى ليليّ، فقال: «الشي الوحيد يلّلي بقترحُه إنك تروح على مدرسة لتعليم الرّقص. بتقدر تروح وتتظاهر إنك بدّك تتعلّم. ارقُص مع زوجة صاحب المَدرسة - الاثنين أجانب».

كان بيتاً كبيراً، وفي الدّاخل هناك دَرَجٌ يؤدّي إلى الطابق الثاني حيثُ توجدُ شرفةٌ داخليّة على مدار الطابق. فكان مُدير مَدرسة الرقص غالباً ما يصعدُ إلى الشرفة ويُلقي نظرةً على الراقصين في الدور الأرضيّ. تَوجهتُ مباشرةً إلى زوجتهِ وقلت لها: «ترقصي معي؟ بعرف شويّة رقصات بس في غيرها. حابب أتحَسّن أكتر». وبدون أن أضيع أيَّ وقت، أحكمتُ قبضتي حولها. رقصتان أو ثلاث على ذلك النّحو، ثم نزلَ زوجُها فجأةً وقال: «هلأ ارقص معي أنا!». ليسَ هذا ما أردت! أدّيتُ رقصةً واحدةً معهُ وقلت: «إذا بدّك تصمّم، ما بدّي أرقص أكتر، وما بدّي إرجع، مش شاعر إني على طبيعتي». كان يعاقبُني، فقد رآني من الشرفة وأنا أمسكُ بزوجته بإحكام.

ترددنا إلى بعض المَطاعم والمقاهي. قضينا يومين أو ثلاثة أيام هناك، لا نفعلُ شيئاً على وجه التحديد وإنما لتغيير الجوّ فقط. سبحتُ في النّهر، في بغداد وفي تكريت. ظننتُ نفسي سبّاحاً قوياً، سبَحتُ مع التيار مسافةَ تبلغ مائة متر تقريباً، خلال وقتٍ لا يُذكر. وعندما قرّرتُ العودة إلى حيث توجدُ ملابسي، أدركتُ كم كان صعباً أن أسبحَ ضدّ التيّار. فعلتُها، ولكنني أصبتُ بالإرهاق.

كان الطقسُ بالغَ القسوَة - عانيتُ من وطأة البرد أكثر مما عانيتُ من الحَرّ الشديد، ربّما لأنني كنتُ مُعتاداً على حرارة طبريّا. كان البردُ فظيعاً لأن البذلة كانت خفيفة - وذلك أحد أسباب عدم رغبتي في قضاء سنةٍ أخرى هناك. لم تكُن لديّ بذلة شتويّة ثقيلة. عندما ذهبنا أولَ مرّة كان الطقسُ حارّاً جداً فكنا نرتدي بذلات صيفية قطنية بلون الخاكي. واصلت ارتداءهُا - ولم أكن الوحيد الذي يفعلُ ذلك، بل كلّ مَن حولي أيضاً. كنت أستطيعُ ارتداء معطَف بالطبع، ولحسن الحظ كان معي معطفٌ من وَبَر الجِمال، فكان لونُهُ يَنسجمُ مع البذلةّ - فقد كان من المفروض علينا أن نلبسَ ملابسَ عسكرية، ولكني لم أكن أريد أن أشتري معطَفاً عسكريّا شتويّاً. بينَ الحِصّةِ والأخرى كنتُ أنطلقُ خارجَ الصفّ للوقوف تحت الشمس مدةَ خمسِ دقائق، لمُجرّد الإحساس بالدّفء،

لأكونَ قادراً على الكلام دونَ أن تصطكّ أسناني. لم تكن هناك تدفئة، لا شيء. كنت أتدفأ في بيتي على موقد بسيط يعمل على الفحم.

في إحدى الإجازات، مَكثتُ في تكريت ودعوتُ سعيد أبو عُلوان للإقامة عندي. قضينا وقتاً لطيفاً، وتحدّثنا كثيراً. تحدّثنا عن الأمور التي كان يجبُ أن نفعلَها بدلاً من أن نكون حيث نحن. كان يفكّر في التحوّل إلى المسيحية. كان درزيّاً ثم أصبح راهباً، وعاش في باريس، وتُوفّي هناك. قرأ الكثير من الأدب الأصيل الجيّد، مثل الأدب الروسيّ، فكان لدينا الكثير مما نتحدّث فيه. قضى يومين عندي ثم عاد - وفي ذلك نوعٌ من التغيير اللطيف. كان درزيّاً مثل معروف صعب، فأحبّوه.

كانت السيّاسةُ العراقيةُ قوميّة جداً آنذاك، خَطّاً واحداً - القومية العربية. وكان هناك موقفٌ عسكريٌّ من كلّ شيء - كلُّ شخص جنديّ، وكلّ مدَرِّسٍ ضابط، وكلّ التلاميذ يلبسون زيّاً مُوَحّداً كما لو كانوا مُجنَّدين. لا أدري إذا كان ذلك بسبب تأثير «المدفعي» أو «العسكري» اللذين كانا ضابطين في الجيش. لا بُدَّ أنّ وراء ذلك شخصاً راسخَ الإيمان بالانضباط، المظهر الخارجي للانضباط. يمكنُ أن يكونَ ذلك من تأثير العهد العثماني. كلُّ الناس المُسنّين أحبّوا هذا الأمر. ولكن، كانَ ذلك هو الموقفُ الشائع في تلك الأيام، بين ١٩٣٩ و١٩٤٠، بعدَ سنةٍ من وفاةِ الملك غازي. كان يَحظى بمحبة بالغة وبالإعجاب بسبب موقفِهِ المناهض للبريطانيين.

كانت السياسة العراقية مُختلفةً عمّا اعتدتُ عليه في بيروت، أو على الأقلّ رأس بيروت، حيثُ تجد خليطاً من القومية اللبنانية والقومية السورية والقومية العربية. في بيروت، كان هناك مُتّسَعٌ للاتجاهات الفكرية المختلفة، بينما في العراق، لم يكن هناك من يَجرؤُ على الحديث عن القومية الكرديّة آنذاك، أو أيّة قومية غير القومية العربية. كان شيئاً واحداً فقط، وكذلك الصحف. ولكني لم أكن أحبُّ مَظاهرَ التعبير عن ذلك التي كنت مضطراً لمعاناتها، وبالتحديد ارتداء الزّيّ المُوَحّد. كنت أرتدي الزيّ الموحّد وحسب، لم يكن هناك تثقيفٌ عقائديّ مصاحبٌ له، ولا تدريبٌ، ولا فلسفة. كنتُ أقرأُ الصحفَ كلَّ يوم لكنها كانت متواضعة جداً. وحتى اليوم هي كذلك، متواضعة جداً. وبالطبع سمعتُ الكثيرَ عن السياسة العراقية خلال تلك الأمسيات عندما كنا نذهب إلى بيت المحافظ.

هناك شخصٌ آخر كان ذكيّاً وحاصلاً على درجة بكالوريوس من الجامعة الأميركية في بيروت هو القائمّقام. كان موجوداً طيلة العام الذي قضيته هناك، وغالباً ما كنا نلتقي في أحد البيوت أو في المقهى. نتحدّث في السياسة - ما كان يفعلُهُ البريطانيون، فنصُبُّ جامَ غضبنا على سياسيات القوى العظمى. ولأني كنتُ فلسطينيّاً، كانوا غالباً ما يسألونني عن الصهاينة. كانوا مناصرينَ

للفلسطينيّين. كنتُ الفلسطينيَّ الوحيد هناك. وتبيَّن أن القائمقام كان أخاً لشخص عرفتُهُ في الجامعة الأميركية في بيروت، سافرَ إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراسته، وتُوّفي إثرَ حادث سيارة. وقد أنشأ ذلك انسجاماً فيما بيننا على الفور، لأنني كنتُ على معرفة بأخيه.

بحلول الربيع سمعتُ عن مرَض أمي، وقررتُ أن لا أجدِّدَ عقدَ العمل. عندما تعاقدنا، بُلِّغنا أنهُ مقابلَ كلّ تسعة أشهر من العمل، سنحصلُ على إجازة صيف مدفوعة الرّاتب. ولكن، عندما قدّمتُ للمُدير الإداريّ لمدرسة «التفيّض الأهلية» إشعاراً بأنني لا أنوي العودة إلى المدرسة للعمل سنةً أخرى، رفضَ دفعَ راتب الصيف. قلتُ لهُ إن ذلك يناقضُ العقد، قال: «إحنا ما نذكُر في العقد إنه إذا ما بترجع ما تحصل على راتب الصيف لأنا نفترض إنه الناس بتعرف». قلت: «بس أنا ما كنت عارف، كان لازم تبَلغُوني. إفرض إني غيَّرت رأيي ورجعت؟»، فقال: «لا، إنت بتقولّلي هالكلام عشان تضحك عليّ. وبعدين ما بتبيّن». في بيروت ذهبت إلى القنصليّة، فلم تكن هناك سفارة آنذاك، وقدَّمتُ شكوَى. قلت: «إذا ما بتدفعولي راتبي، رايح اكتب مقالات أحذر فيها المُدرّسين الثانيين يلّلي بِدهُم يروحوا عالعراق». في النهاية حصلتُ على نصف الرّاتب الذي يدينونَ به لي. وفي وقت لاحق، تلقيتُ رسالةً من المُدير مع حوالة بريدية - كنت قد تركتُ سريري والأغطية والشراشف هناك - قاموا ببيعها وأرسلوا لي الدنانيرَ المعدودة التي كانت تمثل الثمن الذي بيعت به. باعوها لصاحب الدّكّان نفسِهِ الذي كان قد باعني إيّاهَا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثامن أيام الشباب في طبريّا، ١٩٤٠ - ١٩٤٤

امتد ارتباطي بطبريّا من اليوم الأول لوصولنا إليها، من أوّل لحظة رأيتها فيها، في الأوّل من كانون الثاني/يناير عام ١٩٣٠، وحتى عام ١٩٤٨. لكنني أثناء هذه الفترة، أقمتُ فيها أسابيع أو شهوراً أحياناً، وأحياناً لفتراتٍ قصيرة جداً. كنتُ، على سبيل المثال، خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٣٠ إلى عام ١٩٣٤، طالباً في مدرسة صيدا، أذهب وأعود، فكانت إقامتي فيها تقتصر على عطلات أعياد الميلاد، والفِصح، وفترات من فصول الصيف.

كانت الأحداث السياسية في طبريّا، على قدر ما أتذكّر، قليلة جداً. لم تكن فيها مناظرات أو نادٍ ثقافي كما كان في يافا مثلاً، حيث يلتقي المثقفون معاً ويبحثون في السياسة والمقاومة. شاركت طبريّا، طبعاً، في الإضراب والثورة من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩، حتى أن توفيق كان يلبس الطربوش (رمز دعم المقاومة)، وهو ذاهب إلى المدرسة. فالمشاركة كانت تعني عدم الذهاب إلى دكاكين اليهود، وعدم إجراء أية معاملات اقتصادية معهم، أما المعاملات الاجتماعية، فكانت شبه معدومة على أية حال. شاركت عائلتنا في المقاطعة، كما فعل الآخرون. وأتذكَّر أنني أحسستُ بالتوتر تجاهَ جماعة مستشفى الإرسالية الاسكتلندية وقد أدركَ أعضاؤها أن أبي كان لديه أبناء يلبس جميعهم الطرابيش، وهو ما يُعتبر إشارة إلى تأييد الثورة. وكان أبي يلبس الطربوش من قبل. أما كبار السن، فكانوا يلبسون الكوفيّة. لم يُرد إخوتي أن يلبسوا الكوفيّة والعقال، ولذلك، عندما جاء فؤاد وفايز إلى طبريّا من صفد، ارتديا الطربوش. تلك طريقة لتمييز العرب من اليهود. فإذا خرجتَ حاسرَ الرأس، فإنكَ تكون مثل اليهود، ولا أحدَ يستطيع أن يَعرف الفرق. فالمسألة تتعلق بالهويّة. إذا أراد أحدهم أن يطلق النار على يهوديّ، فإنه لن يطلق النار عليك إذا كنت تلبس الطربوش. لكنّ ذلك يعني أيضاً التعرّضَ للخطر، لأن اليهود سيعرفون على من سيطلقون النار.

اقتصر معظم النشاط السياسي في طبريّا على الأحاديث. ولكن في حوالي عام ١٩٣٧، عندما كنت طالباً في الجامعة، ظهر أنطون سعادة فجأةً في طبريّا. جاء وأقام معنا بضعة أيام. كنتُ منتسباً للحزب، ولذلك جاء. شعرنا بالابتهاج لقدومه. كان والداي قد سمعا عنه الكثير - وقد استضفناهُ مرة ثانية حين قضينا الصيف في عين القبو حيث جاء وأقام معنا هناك. وأثناء وجوده في طبريّا، دعوتُ بضعة أصدقاء، بمن فيهم خليل الطبري، لمقابلته. جاء إلى طبريّا لأنه اصطدم مرة أخرى مع السلطات الفرنسية. ألقى الفرنسيّون القبض عليه للمرّة الأولى في عام ١٩٣٦، ولا بدَّ أنه جاء بعد أن أُطلق سراحه من السجن بقليل. سافر عدَّة أشهر إلى لبنان وفلسطين، وإلى شرق الأردن، كما أعتقد، لاستمالة الناس إلى قضيته، أو للابتعاد عن السلطات الفرنسية.

من النشاطات السياسية الجديرة بالذكر في طبريّا، أن محامياً من عائلة الطبري وصدقي الطبري نفسه، كانا ناشطين للغاية في وقف بيع الأراضي العربية لليهود. لم يحدث بيع للأراضي على نطاق ملموس في طبريّا، وإنما في بعض مناطق القرى المحيطة بها. عرف صدقي بالمسألة من خلال البنك الذي كان مديراً له؛ واسمه في ذلك الوقت «البنك العربي الوطني». كان البنك عاملاً مساعداً في إنشاء صندوق مالي (لم يكن كبيراً) وذلك من أجل شراء الأراضي المهدَّدة بخطر البيع. فكانوا يدفعون بعض المال للناس الذين كانوا على وشك بيع أراضيهم بسبب معاناتهم من نقص السيولة المالية لديهم. وهذا هو المجال الذي نشط فيه صدقي الطبري وغيره من أفراد عائلة الطبري، فحافظوا على أراض في مْخَيبِه التي تقع على طريق الحِمّة، وحول سَمَخ.

كانت الجالية اليهودية، بطبيعة الحال، تعي وجود مثل هذا النشاط. فإذا كان هناك أمر بحجز قانوني يشكِّل خطراً على الأرض، كان يتم دفع المال لمُحام ليتولى أمر الدفاع عنها أمام المحكمة. وحيث إن صدقي رجل مصرفيّ، فقد كان اليهود يعرفون أنه يتم الحصول على الأموال بواسطته. لكنهم لم يهاجموا أيَّ فرد من عائلة الطبري، لأن ذلك يؤدي إلى إثارة مضاعفات تتعدى مدينة طبريا. فصدقي له تأثير واسعٌ جداً في الهيئة العربية العليا، وله علاقات واسعة في الناصرة، وصفد، والقدس، وذلك يعني وقوع مواجهة أكبر.

كنت بعيداً، في بيروت، بين عامي ١٩٣٦ ١٩٣٩، ولهذا، لا أعرف على وجه اليقين إذا كان هناك دعمٌ عمليّ للمجاهدين في طبريّا. من المؤكّد أنه كان هناك دعم، ولكنني أعتقد أنه لم تقع حوادث في طبريّا لأن العرب كانوا أقلية فيها. واليهود كانوا بالمعنى الجغرافي فوقَنا، وبالتالي فهم يستطيعون قتل الكثير منا بمجرد دحرجَة الصخور من أعالي التل باتجاهنا. كانت الثورة تجري في مناطق أخرى، في جبال نابلس، وفي جبال الخليل، وفي مناطق أخرى من الجليل يتركز فيها الفلسطينيون. وأعتقد أنه كان هناك بعض المجاهدين من طبريّا. وسرت شائعات تقول بأن اثنين من عائلة الطبري شاركا في الثورة، ولم يكن أحد يعرف ذلك يقيناً. من المؤكد أن الحرفيين البرجوازيين في طبريّا لم يشتركوا في الثورة. أظن أن ابن حلاق كنت أعرفه أصيب بجراح. من البديهي أنني كنت أدري بما يجري من أحداث، قرأت عنها، ولكنها كانت بعيدة. صُعِقنا بالإضراب وقسوة رد الفعل البريطاني، وذلك صدَمني أكثر مما كانت تصدمني أفعال الصهاينة. فأنا أتوقع من الصهاينة أن يفعلوا ما يفعلونه، لكنني اعتقدت، على نحو ما، أن قوة الانتداب ستكون أكثر حياداً، لا أن تقف كلياً إلى جانب الصهاينة.

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بقليل، حين زادت حدة التوتر بين العرب واليهود، وقعَت عملية نفَّذها سائق يعمل لدى القنصلية الأميركية. فقد جرت العادة أن ينقل السائق بعض الطرود (كتب، أدبيّات) من القنصلية إلى الوكالة اليهودية. استقلّ شاحنته (وكان معروفاً لدى الحراس بعد مرور أسابيع وأسابيع من قيامه بذلك العمل) وقادها إلى ساحة الوكالة اليهودية. كانت هناك أعمدة تحت الطابق الأول، فأوقف الشاحنة بين تلك الأعمدة، وغادر المكان بعد أن قال للحراس:

- أنا رايح أجيب بس ساندويتش.

وبعض بضع دقائق انفجرت السيارة. حدث هذا في القدس. اختفى السائق، لكنه ظهر مرة ثانية بعد سنة أو اثنتين على أنه السائق الخاص للدكتور هارت في طبريّا. لم يعرف بذلك الأمر أحد سواي. وقد عرفت بما فعله لأننا أصبحنا أصدقاء فيما بعد. وهناك شخص آخر لم يعد على قيد الحياة، وبالتالي أستطيع أن أحكي حكايته، وهو غابي ديب الذي قام بعمل جريء. فقد تمكّن بالحيلة من الحصول على سيارة مصفّحة من سيارات الشرطة، وقادها باتجاه شارع بن يهودا في القدس، وتركها هناك. وأنا أفترض أن الناس ظنّوا أنّ في داخلها أحد رجال الشرطة. انفجرت السيارة، مما أسفر عن سقوط بضعة قتلى. كان عملاً فردياً تماماً. ربما قدَّمَ رشوة إلى شرطيّ. قالت مصادر الشرطة إن السيارة كانت مسروقة.

أتذكّر حادثةً أخرى هي حادثة اختفاء سائق/مالك سيارة أجرة كان ينقل الناس عبر المدينة. اختفى هذا الشاب، فوزي، على نحو مفاجئ. وبعد أسبوعين وجدوا جثته في قناة للريّ، في منطقة زراعية يهودية جنوبي طبريّا، ووجدوا سيخاً من أسياخ اللحم قد اخترق رأسه من أذن إلى الأذن الأخرى. وعلمتُ فيما بعد، من خليل الذي كان مصدرا عظيماً من مصادر المعلومات، أن «فوزي» كان يعمل مخبراً لدى اليهود. واكتشفَ الفلسطينيون أنه كان عميلاً مزدوجاً، يتظاهر بأنه يقدّم لهم المعلومات ليتمكَّن من الحصول على معلومات منهم. وبسبب خيانته، أذاقوه تلك الميتة البشعة.

كانت أولى العمليات العسكرية في طبريّا عام ١٩٤٨ ضد الفلسطينيين. أتذكر أن إحداها كانت ضدَّ قرية صغيرة تدعى ناصر الدين تبعدُ مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب الغربي من طبريّا. ذهب الإرهابيون اليهود (ويُسمّون أنفسهم مقاتلين من أجل الحرية طبعاً) إلى القرية وقتلوا أشخاصاً عدة. وفي طبريّا نفسها، بالقرب من بيتنا، حيث يوجد الدرج، كان أحد مالكي مصنع الثلج سائراً باتجاه المصنع عندما أطلق عليه النار شخصٌ كان يجلس على الدرجة السفلى من ذلك الدرج الطويل، وأرداه قتيلاً. ربما كان ذلك انتقاماً لسبب ما، وكان القتيل شخصاً له اعتباره على الصعيد الاجتماعي.

العودة من العراق، ضغط عائلي لأتزوج

في صيف عام ١٩٤٠، تركت وظيفتي في العراق وعدتُ إلى طبريّا لأشغل وظيفة مساعد مدير عام شركة الحِمّة للينابيع المعدنية المحدودة. كانت الحِمّة مُنتجعاً صحّياً للمياه المعدنيّة، وتقع عند نقطة التقاء سورية والأردن وفلسطين معاً، على بعد ١٥ أو ٢٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من طبريّا. وهذا المكان أكثر شعبية من ينابيع طبريّا المعدنية، بسبب نوعية مياهه. فالمياه فيه ثلاثة أنواع، بدرجات حرارة متفاوتة؛ والتركيبة الكيماوية للماء أكثرُ غنىً وأكبرُ تأثيراً في علاج التهاب المفاصل، وهي مقوّية جداً بوجه عام. اعتدت على السباحة في البرك يومياً، بالمعنى الحرفي، كل يوم، وأعتقد أنني أفدتُ صحياً إلى حدٍّ كبير خلال السنوات الثلاث التي قضيتها هناك. كنا، أحمد عبد الخالق (الذي كان يعمل كاتباً هناك وأصبحنا أصدقاء) وأنا، نذهب في الصباح الباكر قبل أن تُفتح الحمّامات أمام الجمهور، فتكون خالصةً لنا وحدنا، وتتدفق فقاعات الماء المغلي تحت أقدامنا. كان الحمّام الأشدّ سخونة يسمّى الحمّام المِقلاة. والحمّام المتوسط كان ساخناً أكثر من أن أستطيع احتماله، لكنّ الناس كانوا يغطسون في مياهه التي تصل درجة حرارتها إلى ستٍ وخمسين درجة مئوية. والحمّام الأكثرُ برودةً كان يسمّى مسبح الريح، أو نبع الريح؛ وكان خفيفاً لطيفاً، ومياهُهُ عذبة. يشربُ منه الناس أثناء وجودهم هناك. كانت مياه الشرب أيضاً تحتوي على فاعلية إشعاعية، بنسبة محتملة، وكانت صحية جداً بشكل ملموس. وقد أرسلنا عيّنات من المياه لفحصها في الجامعة العبرية والجامعة الأميركية في بيروت، وحصلنا على تقريرين منهما يثنيان على المياه بسبب خصائصها.

كان الطبيب الموجود في الحِمّة عندما ذهبت إليها للمرّة الأولى هو الدكتور شامي، الطبيب نفسُه الذي كان في البصّة في وقت سابق. كان أمراً ممتعاً جداً أن ألتقي به للمرة الثانية. في ذلك الوقت، أصبح مُسناً، ولكنه مُفعمٌ بالحياة. كان معجباً بي، وذاتَ يوم قال لي:

- يوسف، إنت شاب. وأنا مدرك إنك بتمارس الجنس، وقت ما تريد، بتقدر بعد الظهر تستعمل عيادتي.

وكان في ذلك حلٌّ لمشكلتي.

كانت لديّ مشاعر متناقضة إزاء الجنس. فقد كان لدي نهم له، ربما كنوع من التحرُّر من ذلك القدر الهائل من الورَع الذي اكتسبته في أيام الصِّبا، ذلك القدر الكبير من الصلوات، ومن القراءة في الكتاب المقدس. وذلك يُفسِّر سبب اندفاعي نحو الجنس بجموح كبير. ولكن كان لديّ أيضاً إحساس بالذنب. في البداية، في أول مرَّة عرفت فيها امرأة، كنت، لفترة من الزمن، أعود

وأصلّي بعد كلِّ لقاء لي معها. وأطلب الغفران. وبعد ذلك، أكرِّر الخطيئة نفسها. وحين انتقلت إلى طبريّا، ووجدت الفرَص أمامي في فندق طبريّا، لم أشعر فقط بالذنب الداخلي، ولكن أيضاً بالضغط الاجتماعي، لأن الفندق يبعد مائتي متر فقط عن بيت الأهل. لم أكن أريد أن أسبِّب الحرج والضيق لوالديّ.

ألمَحَت لي أمّي إلى أنني ينبغي أن أتزوّج. وألمَحَت مرّتين إلى أنها تعرف أنني «ماضٍ في ارتكاب الحماقات» ، وبلطفٍ بالغ (مسكينة، فلم تكن تريد أن تحرجَنّي إذ كانت هي نفسُها تحسّ بالحرَج لمُجرد ذكر الموضوع) تحدَّثَت عن الزواج كوسيلة لإبعادي عما كنت أفعله. كان يحدوها أمل كبير في أن أتزوج من طبيبة شابة هي «ف. ب» التي تخرّجَت للتوّ في الجامعة الأميركية في بيروت، وجاءت لتعمل في المستشفى. ظنَّت أنه ما دمنا كلانا من خرّيجي الجامعة نفسها، فإن الأمور ستكون على خير ما يرام. واعتادت «ف» أن تزور أمي كل يوم تقريباً وتشرب الشاي معنا. وعندما شغلتُ الوظيفة في الحِمّة، اعتدت قضاء أسبوع في بيتنا، فبدأنا نخرج ونتنزه معاً، وكنت أزورُها في غرفتها في المستشفى. أصبحنا أصدقاء. كانت أمي تأمل في أن نتزوج، وفي الواقع تصلي من أجل ذلك، كما أخبرتني أكثرَ من مرّة. لكنني كنت مُصمّماً على أن لا أتزوّج في وقت قريب كهذا. وعلى الرغم من أنني كنت مولعاً بأمي، إلا أنني لم أكن أنوي الوقوع في خططها بشأن زواجي.

لم تكن كلّ أفكار أمي تناسبني. اقترحَت ذات مرّة أنني ما دمت أحمل درجة جامعية في إدارة الأعمال، فإنهم سيدبّرون رأس المال اللازم لفتح دكّان لي. ومن المُؤكَّد أنني لم أكن لأفعل مثل ذلك. في تلك الفترة، كنت مهتماً بالسياسة، بالكتابة، بالأمور الفكرية. لم يكن حبي لأمي يعني أن أوافقها على كل شيء تقترحه، على الأقل في مسألة الزواج. كنت أقولُ لها:

- ماما، الزمن تغيّر، مش زي زمانكم، اليوم في مجال للصداقات. من هون وحتى أحصل على عمل أحبّه، مش رايح أفكر في الزواج.

فكانت تقول، لأنها أصيبت، في سنة ١٩٤٠، بنوبة قلبية حادة:

- بس أنا بحبّ أشوفك متزوج قبل ما أموت.

- يللا عاد، بتقولي هيك عشان تبتزّيني. تلك هي العبارة التي استعملتها، وأضفت:

- إنت رايحة تعيشي سنين وسنين كمان.

مسكينة، عاشت عشر سنوات فقط بعد ذلك. ولم ترَني متزوجاً.

إن الأمور التي جعلتني أعزف عن الزواج في ذلك الوقت كانت هامّة بالنسبة لي. أتذكر أنني في إحدى الليالي لم أستطع النوم لأنني كنت أحاولُ التخلصَ

من الضغوط المتصارعة في داخلي. فهناك ضغط محبتي لأمي، وهو ما يجعلني أشعر أنه ليس من المقبول أن أسبِّبَ لها الألم. ومن جهة أخرى، لم أكن أريدُ أن أعاني من الألم الذي سأعانيه لو خضعتُ لضغطها. فأنا لم أكن مستعداً للزواج بالمُرتب الذي كنت أحصل عليه آنذاك، وأواجهُ تبعات إنجاب الأطفال. وقد أثرتُ هذا الموضوع مرة واحدة فقط، عندما قالت أمي:

- إذا بتتجوّز «ف»، عندها وظيفة ممتازة هون، وإنت عندك وظيفتك. فقلت:

- بس إذا اتجوزتها، بتتوقعي إني أبقى في الحِمّة؟ وإذا جيت على طبريّا، ما في شي أعمله هون.

كان ذلك حين جاءت بفكرة الدكّان. قلت:

- ماما، أنا، دكنجي!.

كانت الفكرة التي استخدمتُها في النقاش هي أنني إذا لم أتزوج، فإنني أستطيع أن أساهم في تعليم إخوتي. فقالت:

- الله بيرزق، ببيع كل شي مش ضروري عشان أساعد إخوتك. وأنا عارفة إنك دايماً رايح تساعدهم.

وهذا ما فعلتُهُ.

إن ضغط أمي عليّ لكي أتزوج كان يعكسُ مشاعر الأمّهات العربيات، لكنه يحمل أيضاً جانباً خاصاً. فأنا كنت الابنَ البِكر، وكانت تحبني حباً جماً. وربما كنتُ المفضل لديها. أرادت أن ترى لها أحفاداً، أرادت أن ترى أولادي. وأبي لا يكادُ يذكرُ الموضوع على الإطلاق، كان هناك توزيع للأدوار بينهما. تبدأ أمي النقاش، فإذا كان أبي موجوداً فإنه يلتقط طرف الحديث، مبتسماً برقة ويقول في النهاية:

- طيّب يا ابني، طبعاً الأمر راجع لك، بس إحنا بنحب نشوفك متجوّز.

لم يُمارس عليّ أيّ ضغط أكثر من ذلك. لم يقل كلمة واحدة عن الحياة التي كنت أحياها. كنت أعرف أنه يعرف أنني أذهب... إلى حفلات الرقص. وقد يمرّ أسبوعان أحياناً قبل أن أرجع لزيارة الأهل.

ينابيع الحِمّة المَعدنية

كانت وظيفتي في الحِمّة ممتعة للغاية. فهي وظيفة جديدة بالنسبة لي. كان من المثير أن أدير مثل هذه المؤسسة الكبيرة، وهي امتياز ممنوح من قبل الحكومة. كانت تغطي مساحة واسعة، تبلغ ٢٠٠ دونم أو خمسين فداناً. وتضم ٦ فيللات، أربعٌ منها كبيرة، واثنتان صغيرتان، والمياه المعدنية تصل إليها من

أكثر الحمّامات الثلاثة برودة. ويمكن للناس الجلوس في المياه المعدنية في أحواض الاستحمام الخاصة بهم، كما يمكنهم طهو طعامهم في الفيللات. بالإضافة إلى ذلك، كان هناك نحو سبعين أو ثمانين غرفة، تتراوح بين غرف مفردة وغرف تتسع لأربعة أشخاص. وهناك مطعم تستثمره جهة خارجية، ومقهى. لكن القسم الأكبر من الزوّار، أولئك الذين لا يملكون القدرة على استئجار الغرف أو الفيللات، كانوا يقيمون في خيام كنا نؤجرها، وكان عددها كبيراً بحيث يمكن أن نستقبل نحو ألفي زائر في الليلة الواحدة. كان يعمل معي عددٌ لا بأس به من الموظفين: ثلاثة مساعدين لي في المكتب، وعامل هاتف، ونحو عشرة موظفين تقريباً يتجولون لجمع قيمة تأجير الخيام من المقيمين فيها، فقد كانوا يدفعون يوماً بيوم حيث كنا نخشى أن يَنسلّوا هاربين في الصباح. ويتمُّ جمع المال باستخدام التذاكر. كان عليّ أن أضع نظاماً يمنع المُحصّلين المتجوّلين الذين يحملون التذاكر من وضع الأموال في جيوبهم الخاصة أو تقديم حسم خاص، وقد ضبطت اثنين أو ثلاثة منهم متلبّسين. والسبب في عدم تمكّني من الذهاب إلى بيتنا أكثر من مرّة كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع هو أنك لا تستطيع أن تترك مثل ذلك المكان، وعليّ أن أبقى يقظاً. كان أحمد عبد الخالق هو الكاتب الذي يمسك بالحسابات، وهناك كاتب آخر. لكنّ ما كان يتطلب الانتباه الفائق هو الموظفون المتجوّلون الذين يَجمعون الأموال. كان بإمكانهم إسكان عائلة في خيمة أو عشر عائلات في خيمة دون تسجيل. فكان عليّ أن أضع نظاماً مضموناً ضدّ الغش. وبين وقت وآخر، كنت أقوم بجولات تدقيق على المواقع.

شخص اسمه أبو اسكندر من الدامور، ضبطته متلبساً، مرة ، مرتين، ثم قلتُ له:

- في المرة الجاي، إذا ضبطتُك وإنت مُتلبّس، إما بتستقيل أو بطردك بره. فقال:

- تطردني؟ أنا المفضل عند سليمان بيك. فقلت:

- يعني بدّك سليمان بيك يعرف عن اللي صار؟.

حين جاء سليمان ناصيف، أخبرته بالقصة أمام أبو اسكندر. قلت:

- أي واحد بيغشك في غيابك، من المرجّح إنه يغشك وأنت موجود.

قلت ذلك لأن سليمان بيك كان يعطيه النقود لشراء بعض المستلزمات. وهذا ما جعله يضع مخافة الله نصبَ عينيه.

أحمد عبد الخالق، عمِلَ معي في الحِمّة، ثم في طبريّا عندما أصبحتُ مدير الفندق فيها، وكذلكِ في بيت المال العربي في القدس سنة ١٩٤٦. وأسرَنا

الإسرائيليون معاً.

سليمان ناصيف، كان شخصية مرموقة. كان عمرهُ حين قابلته للمرة الأولى سِتاً وسبعين سنة، وعلى الرغم من ذلك، كان يتفوَّق عليّ في المَشي من حيث السرعة والقدرة على التحمل. جاء من لبنان، من منطقة دير القمر. عمل مع البريطانيين في السودان، وعمل معهم مرة أخرى في مصر. وهو إنجيليّ. وزوجته خالة زِلفى، زوجة كميل شمعون؛ وهي نصف بريطانية أو نصف أيرلندية. كان سليمان ناصيف ذكيّاً جداً، وضليعاً في السياسة، وداهية. ومن الناحية السياسية كان موالياً للبريطانيين. وكان من المعتقد أنه لا بد من أن يكون قد عمل لصالح المخابرات البريطانية في مصر. كان إدارياً، وربّما عمل مع الاستخبارات، لا أدري. كان مُطلعاً على الكثير من الأمور، وممتلئاً بالحكايات. شعر نحوي بالود فكان يخبرني عن تجاربه السابقة. أصبح ثريّاً، وتمَلّك مساحات واسعة من الأراضي. كما كان يحمل أوسِمَة، ويحمل لقب «بيك» الذي منحه إيّاه الملك فؤاد، والد الملك فاروق، تقديراً لخدماته لمصر. وفي السودان، عملَ لدى الإنكليز. لديه «عزبة» وبيت ريفي في مصر، وبالطبع، لديه بيت في المدينة. وقد عاش حتى بلغَ مائةً وستّ سنوات، وربما مائةً وعشرَ سنوات.

كانت مياه الحِمّة المعدنية معروفة منذ قرون. طلب ناصيف الحصول على امتياز (لاستثمارها)، فقالوا له: «في حالة واحدة فقط، إذا أنشأتَ شركة مساهمة محدودة». فأنشأ الشركة برأسمال قليل في بادئ الأمر، وقدرُهُ ثلاثون ألف جنيه إسترليني. وآلت الأسهم في معظمها إلى أفراد عائلته، ولكن حتى يتمكّن من «حماية ظهره» كما نقول بالعربية العامية، أدخلَ صدقي الطبري، كأحد حمَلة الأسهم، وكعضو في مجلس الإدارة إلى جانبه. كما أدخلَ أحد القادة الوطنيين وهو رشيد الحاج إبراهيم، وهو من حيفا، للسبب نفسه. وحين كنتُ هناك، فكّرت في الترويج لشيء أكبر. أثرتُ اهتمام فؤاد سابا، مدير «سابا وشركاه»، مدققي الحسابات في القدس، بفكرة إدخال عدد من الأشخاص الذين يستطيعون العمل معاً بسلاسة، ويمتازون بالنزاهة والإبداع مثل فؤاد سابا نفسه، وباسِم فارس، لتوسيع رأس المال. وإذا كانت ذاكرتي صحيحة، فقد تم توسيع رأسمال شركة الحِمّة إلى مائتي ألف جنيه إسترليني.

كنا قد بدأنا للتوّ في تنفيذ ذلك المشروع، حين انتهى كل شيء، فقد حدثَ ذلك قربَ انتهاء حقبة الانتداب. كانت الخطة تتمثل في بناء فندق مُناسب ليحلّ محلّ الغرف الممتدّة كخط مستقيم، ولم تكن شبيهة حتى بالشاليهات، بل هي مُجرّد غرف مصفوفة، الواحدة منها بجانب الأخرى، وبدون حمّامات. الشيء الوحيد الذي كان مقبولاً هو الفِيللات، لكنها ستّ فيللات فقط. كانت الخطة تقضي بالتخلّص من الخيام، أو إبقائها مع توفير حمّامات ودورات مياه

مُتصلة بها لأن الناس كانوا يذهبون إلى الحقول، ويغتسلون في الصباح التالي في أحواض الحمامات. ومن حسن الحظ أن الحمّامات المعدنية كانت نظيفة لأن الينابيع كانت تتدفق بقوة بالغة، والمياه تجري كالنّهر. وإذا تجاوزتَ الحِمّة لبضع مئاتٍ من الأمتار، فإنك تستطيع أن ترى الينابيع الثلاثة عند التقائها معاً لتشكّل جدولاً غزيراً يصب في نهر اليرمُوك.

مُنحتُ علاوة نقديَّة قيِّمة، ومائة سهم مجانية، نظراً لجهودي في الترويج للفكرة، والتأثير على المُمَوّلين الآخرين وإقناعهم. وما زلت أمتلك تلك الأسهم. وحين سيطر الإسرائيليون على إدارة شركة الحِمّة، عند احتلال مرتفعات الجولان (في عام ١٩٦٧)، تلقيتُ رسالة من مكتب الحِمّة في دمشق، مُوقعة من قِبل حفيد سليمان ناصيف، يقول فيها:

«وجدنا في سجلاتنا أنك تملك مائة سهم، ولكن لا يوجد سجل يثبت أنك دفعت قيمتها». لحسن الحظ أنه كان من عادتي أن لا أفرّط في شيء. وجدتُ العقد مكتوباً بخط يد فؤاد سابا، مع المادة التي تنصّ على أنه:

«تقديراً لما قام به من أجل الترويج لتوسيع الشركة، يحصل يوسف صايغ على علاوة من الشركة القائمة، ومائة سهم مجانية في الشركة الموسعة».

فصوّرتُ نسخةً عنها وأرسلتها إليه. ولم أسمع شيئاً منه بعد ذلك. لقد تمَّ الانتهاء من الجوانب القانونية المتعلقة بالشركة الجديدة قبل انتهاء مدة الانتداب، وجرى تسجيلها لدى إدارة تسجيل الشركات. كان شيئاً كبيراً تحقيقُ مثل هذا الإنجاز.

في تلك السنوات كنتُ ناشطاً للغاية، أصحو في الساعة السادسة لأكون مستعداً للسباحة لمدة نصف ساعة، ثم أعود، فأحلق، وأتناول طعامي، وأركض إلى المكتب، ثم أقوم بجولة لأتأكد من أن نظافة المكان كله وفقَ المستوى المطلوب. وإلى جانب الحمّامات، كانت هناك الخيام، والغرف، والمطاعم، ودكّانان، والعيادة. وكان هناك بستان حمضيات يثمر البرتقال والكريب فروت، ولم أذق في حياتي مثل ثماره. وكل شخص كان يعرف (وثبتَ ذلك من خلال فحص التربة) أن السبب يعود إلى نوعية المياه، فالمياه في تلك المنطقة تحتوي على فعالية إشعاعية ضمن تركيبتها. وأنا أعزو حقيقة بقاء نظري سليماً حتى الآن إلى السنوات التي قضيتها في الحِمّة.

كنت أسعى إلى التجديد. وأحسنُ ما في الأمر هو أن سليمان ناصيف كان يثق بي. حين تسلّمت العمل من مدير عام الشركة الذي كان قبلي، قمت بالاطلاع على دفاتر الحسابات لإجراء ميزانية مراجعة للدفتر الأستاذ وإعداد الميزانية العامة وحساب الربح والخسارة. بعد ذلك كان من المفترض أن آخذ الدفاتر إلى حيفا، إلى مؤسسة تدقيق حسابات إنكليزية. وقبل أخذ الدفاتر

المحاسبية، كان لدي فضولٌ يدفعني إلى النظر في حسابات الأشهر التي سبقت انضمامي إلى الشركة، ولأنني كنت دقيقاً في المحاسبة، فقد اكتشفت وجود فروقات. فنقّبتُ بعناية أكبر، واكتشفتُ أن المدير السابق، وهو إنجيليّ آخر كان سليمان ناصيف يثق به تماماً، قد وضع في جيبه الشخصي عشرين جنيهاً من هنا، وثلاثين جنيهاً من هناك، ولم تكن مبالغَ كبيرة. كان ينبغي أن أُطلعَ سليمان ناصيف على ذلك، لأن المُدققين كانوا سيكتشفونها على أية حال. لم أكن أريد أن يظنّ أنني غبيّ أو أنني أقوم بالتستر على خطأ. أطلعتُهُ على ذلك، فكتب رسالة إلى سكرتيره السابق، وكان يُكنُّ له الودّ، وذكر في الرسالة:

«إن شعوري هو الأسى وحسب، لأن شخصاً ائتمنتُه يقوم بمثل ذلك الفعل. الله يسامحك». وتحمّل الخسارة وحدَه، من حصته في أرباح الأسهم.

في نهاية كلِّ عام، كنت أتلقى علاوة إضافية، غير العلاوة الكبرى التي أشرت إليها، وذلك لأن نظام المحاسبة والإدارة بكامله كان في غاية الدقة. وخلال السنة كلها، كان سليمان ناصيف يأتي لمدة ستة أو ثمانية أسابيع فقط. يجيءُ ويمكث أسبوعين ثم يذهب إلى مصر (كان يُحبُّ الإقامة في مصر) أو يذهب إلى فندق ألمانيّ فخم في حيفا. كان في وسعه أن يقوم بذلك لأنه يعرفُ أن الشركة في أيدٍ أمينة. وكان سائر أعضاء مجلس الإدارة يقومون بزيارة الحِمّة أيضاً. وفي معظم الأوقات تعقدُ اجتماعاتُ مجلس الإدارة في الحِمّة، وعُقدت مرة في طبريّا، وأظن أنها عقدت مرة أو مرتين في حيفا. كنت أجري معاملات مع الحكومة لأنه يُفترض في كل أمين عام لأية شركة محدودة مساهمة أن يُقدّم بنفسه الرسوم والتقارير إلى مكتب تسجيل الشركات، وللإدارة المالية. كنت أقوم بذلك كلّه، وفي كل مرة يجيء فيها سليمان ناصيف، كنت أعرضُ عليه مائتين أو ثلاثمائة وثيقة ليقوم بالتوقيع عليها. كان لدي تفويض بالتوقيع، ولكن في كل مرة يتم فيها إيداع أموال في البنك أو سحب مبالغ كبيرة من البنك لتغطية المصاريف الجارية، فإن الوصل الذي يدرج ضمن الدفاتر المحاسبيّة يجب أن يكون ممهوراً بتوقيع منه بصفته المدير العام.

كان يأتي ويجلس أياماً من أجل التوقيع على الأوراق، ثم يقضي أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لمُجرد الاستمتاع بالحمّامات المعدنية. لم يكن يذهب إلى الينابيع للسباحة، فقد كان لديه حوض في غرفته، ولديه غرفتان أو ثلاث غرف مخصصة له، ولمرافقته. كان يصطحب معه دائماً مرافقة شابة، أو ممرضات جميلات الشكل، كنَّ يأتين واحدة تلوَ الأخرى - فكان يذكِّرني بالملك داوود، الذي لم يكن يشعر في شيخوخته بالدفء بين ساقيه، فكانوا يُحضرون له فتاة في السابعة عشرة من العمر. كان العمال يزوّدونه بالماء - ومنهم ذلك

العامل القوي جداً، وهو من أصل بدويّ، يحمل صفيحتي كيروسين على عارض خشبي فوق كتفيه - وكان هناك مثله رجلان يجيئان ويذهبان، وهما يحملان صفيحتي كيروسين مملوءَتين بالماء من نبعِهِ المُفضّل إلى حوض الاستحمام الكائن في غرفته، فيستحمّ هناك. وفي الأوقات التي لا يستحم فيها بالماء، كان يُدلك نفسه بالماء وهو على السرير. كنت أذهب أحياناً لمقابلته في الصباح الباكر، في التاسعة صباحاً، فأجده لا يزال يفرك جسمه بفوطة. كان لديه وعاء فضيٌّ مزخرف يحتفظ فيه بمياه «ياردلي»، فيضع شيئاً منه في يدِهِ ويُدلك جسمه. كانت لديه نظرة في اختيار الحسناوات، وكان قد بلغ ستاً وسبعين سنة في عام ١٩٤٠، لكنني عرفته لسنوات عديدة بعد ذلك.

كان لسليمان ابنة خارقة الذكاء والجَمال، اسمها وداد، وهي متزوجة من ابن أخيه أنطوان ناصيف. عمل أنطوان لفترةٍ في الحِمّة، قبل أن أذهب إلى هناك، لكنه غادر ليعملَ في يافا. وكان هو ووداد منفصليْن. كانت وداد، وأمها التي لم تعد تنسجم مع سليمان بعد أن أصبحت متديّنة، تعيشان معاً في الحِمّة لأن ذلك يعني حصولهما على الإقامة والطعام مجاناً. واعتمدت عليّ في تأمين المصاريف النثرية لها. قال سليمان ناصيف:

- نعم، أعطهما لغاية كذا، مش أكثر.

وفي كل مرة تحضران فيها، كنت أخبرهما الحدّ الذي بلغتاهُ نسبةً إلى سقف المبلغ المسموح به. لم يكن هناك ما يمكن أن يُشترى في الحِمّة، لكن وداد كانت تذهب أحياناً إلى طبريّا أو حيفا للتسوّق.

كانت وداد سياسية إلى حدٍ بعيد، وعلى صلة وثيقة بأنطون سعادة في لبنان. تعلَّمَت في إنكلترا، في واحدة من تلك المدارس الفاخرة. وتتحدث اللغتين الإنكليزية والفرنسية بطلاقة. امرأة مذهلة. كانت هي الوحيدة التي لم تغادر القنيطرة، عندما فجَّرَ الإسرائيليون تلك المدينة في عام ١٩٧٣ عند انسحابهم منها. قيل آنذاك إنها كانت تبلغ الثالثة والسبعين من العمر وكان ذلك العام هو ١٩٧٣، فأدركت أنها أكبر مني بستةَ عشرَ عاماً، على الرغم من أنني لم أكن لأخمن ذلك. امرأة رائعة، كان لها تأثيرٌ كبيرٌ على سعادة. كان بيتها في منطقة الصنايع في بيروت بمثابة صالون للحزب. ذهبتُ إليه مرة لأنه كان ينبغي أن أقول شيئاً لسعادة. عندما أقامت في الحِمّة، كنت أقضي السهرة معها كل يومين، نتحدّث في السياسة - سياسة الحزب، والانتداب الفرنسي والبريطاني، والثورة، وحركات التمرد، وكل شيء.

قالت وداد ذات مرة:

- قريباً رح ييجي زائر لهون. مش رح أقول شي عنه، إسمع وبس. لكن لا تتدخل في الحديث لأنه خطر عليك.

لم تقل أكثر من ذلك. بعد بضعة أيام جاءَ إلى الحِمّة. كان رئيسَ قسم الشرطة الذي يبعد عنا مسافة كيلومترين، على قمة تل يشرف على الحِمّة. حضر وأرادَ أن يجرَّني للنقاش، وبين الفينة والأخرى، كان يرميني بكلمة. ولكني كنت يقظاً. تحكَّمت وداد في المحادثة، ومزقتهُ إرباً بسُخريتها. حوَّلت الحديث كله إلى طرائف لتُظهرَ له ما مؤدّاه:

- شو يعني مفكر نفسك شاطر؟ إذا بدّك شطارة خذ عيِّنة.

أظهرَت له كم كان صغيراً مثل طفل أمامها. اعتاد أن يأتي مرة كلّ أسبوع ويقضي ثلاثَ أو أربع ساعات هناك، دون أن يأخذ شيئاً منها. وبعد أن غادر قالت:

- شفت ليش قلت لك ما تحكي شي؟ بدّي يّاك تعرف لحالك شو بدّو.

كان يريد أن يعرف إذا كانت ناشطة في مجال العمل السياسي. وكان لديهم ملف عنها خلاصته أن لها نشاطاتٍ في لبنان. فهل كانت تأتي إلى فلسطين من أجل الحزب؟ هل كانت تُجنّد الناس؟ ماذا كانت تفعل هناك؟ كانت تلك هي فترة الحرب بين ١٩٤٠ إلى ١٩٤٣. وفي النهاية غادرَت، ولم تستطع البقاء في الحِمّة بعد ذلك. استأجرت شقة على نفقتِها في القدس. عندما غادرتُ طبريا في عام ١٩٤٤ وذهبتُ للعمل في القدس، كنت أزورُها هناك. كان والدُها يحضُر، ونتناول الشاي معاً.

قضية لصوصية ذوي الياقات البيضاء

ذات يوم، في الحِمّة، اكتشفت أن السيولة النقدية في المكتب تقل بمقدار خمسة وعشرين جنيهاً عمّا تظهرهُ السِّجلاّت. وفي نهاية النهار، كنت أعدّ النقود الموجودة داخل درج المكتب، ثم أنقلها إلى الخزنة. كانت السجلات صحيحة. وذلك يعني أن خمسة وعشرين جنيهاً أُخذَت من المكتب. فإما أنّ أحدَهم جاءَ واستدعاني لأقوم بعمل ما، أو أنني (لكون غرفي متصلة بالمكتب) ذهبتُ إلى غرفي لآخذَ شيئاً ما. وأحياناً يأتي بعض الناس الذين يعرفونني، ويدخلون إلى غرفتي ويطلبون من عامل الهاتف رقماً ما، ثم يجلسون في الغرفة منتظرين. لا بدَّ أن شيئاً من هذا القبيل قد حدث. شعرتُ بانزعاج شديد من جراء ذلك، لأنني لم أكن أريد أن أدفع المبلغ من مرتبي، وخشيتُ أن يتكرّر مثلُ هذا الأمر.

في ذلك الوقت، كان تصميم المطعم والغُرَف على شكل حرف يو بالإنكليزية (U)، وكانت المساحة الواسعة والغرفة القريبة من المطعم عند نهاية أحد طرفي الشكل (U) تؤجَّر أحياناً مع المطعم. في تلك السنة، جاءت عائلة من حيفا وعرَضَت أجرة أكبر من تلك التي يدفعها الرجل الذي يدير المطعم،

وحصلت على الفندق. أحضرَت تلك العائلة ثلاثة أو أربعة موظفين معها. كان أحدُهم غريبَ الشكل، وكان من الواضح أن هناك شيئاً غير مألوف يرتبط به. قال الأشخاص الذين استأجروا المكان إنه كان عرافاً، يضع بضع قطراتٍ من الزيت في كوب ماء، ويستطيع أن يعرف بعض الأشياء التي حدثت. وسألتهم إن كان يستطيع أن يعرف عن السرقات، فقالوا إنه يستطيع.

تجمَّعنا حوله، كانوا قد قدموا للتو إذ إنهم وصلوا في اليوم الذي سبق وقوع السرقة. فأخبرتُ الرجل أنه حدثت سرقة، وأن شخصاً ما أخذ نقوداً من مكتبي، وسألته:

- بتقدر تشوف شي؟. بدأ يُحدِّق في الماء. وقال:

- شايف كوم حجار كبيرة، وفي شاب لابس قمباز بلون غامق، وكوفيّة وعقال، بيمشى باتجاه الحجار. بيطّلع حواليه كأنه خايف حدَا يشوفه. أخذ عِملة ورقية من جيبتُه وحَطها تحت الحجر، وراح.

كان ذلك الوصف ينطبق تماماً على عامل الهاتف. كان من أصل بدوي ولكنه حصل على قسط من التعليم. ومن السهل عليه أن يأخذ المال. إفرض أن الدفتر الأستاذ كان مفتوحاً أمامي، وأن شخصاً ما دخل، ودفع وديعة مالية، ولم أضعها في الدّرج مباشرةً ولم أقفله كما كنت أفعل دائماً، وأضع المفتاح في جيبي. ربما ذهبتُ إلى غرفتي، فأدرك الولد أنني نسيت المبلغ. كان يستطيع أن يأخذ المبلغ ويضعه في جيبه. فأحضرنا ذلك الولد «عامل الهاتف» واستجوبناه، أنا ومعي اثنان من الحراس، وكانا بمثابة شرطيّيْن حارسيْن للشركة، ومسلحيْن، إذ كنا نعمل على التأكد من عدم تسلل أي شخص إلى الخيام ليلاً ليسرق شيئاً ما. أنكر كل شيء. ومع ذلك بدا وكأنه هو الذي فعلها. لم أرغب في أن أطرده ما لم يتوفر دليل أكبر. فتركت الأمر يَمرّ.

بعد أشهر، تذكَّرت كل شيء. جاء رجلٌ إلى الحِمّة وقال إنه صحافي. كانت معه سيدة قال إنها زوجته، سيّدة جذّابة. بدأنا نتحدث في السياسة (كان صحافياً من يافا). وكان هذا يعني الكثير في تلك الأيام. دعوتهما إلى مكتبي، وجلسنا نتحدّث. ظلّ يحضرُ كلّ يوم مرة واحدة على الأقل. وفي أحد الأيام جاء مع زوجته التي قالت:

- ممكن القي نظرة على مكتبتك؟. فقلت:

- أرجوك تفضلي، وإذا عجبك شي...

كان لديّ نحو مائتي كتاب (روايات) بدأتُ بجمعها بعد التخرّج. في تلك اللحظة دخل شخص ما ودفع بعض النقود، خمسة وعشرين جنيهاً، وكان ذلك الرجل يجلس معي. فقال لها شيئاً (ربما كانت تلك إشارة ما). بعد دقيقتين قالت:

- آه، عندك كتاب...؟

فدخلتُ، معها وتركتُ الرجل في مكتبي. كانت جميلة الشكل، وبقيتُ معها نحو عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، نلهو ونتحدّث عن الكتب. وظلّت تفتح مواضيع جديدة. عدتُ إلى مكتبي، وقد نسيت كلياً أمر الخمسة وعشرين جنيهاً. جاء هذا الرجل وزوجته لرؤيتي مراتٍ عدّة قبل مغادرتهما. وأنا واثق من أنه كان يأخذها معه كطُعم، فقد كانت ذات جاذبية، وفي كل مرّة، كانت تدخل إلى غرفتي، تلقي نظرة على الكتب وتدعوني للدخول. وأصبَحَت في آخر الأمر لَعوباً تسعى إلى إغرائي، لكنني لم أفعل شيئاً - أعني، مع وجود زوجها في الغرفة المجاورة! ربما يتحوّل ذلك إلى ابتزاز، وهذا أخطر من أخذ خمسة وعشرين جنيهاً - فكنت على جانب كبير من الحذر.

أتذكّر حادثة أخرى وهي قدوم عائلة النابلسي، وهي عائلة لا تزال ذات نفوذ في نابلس، وواسعة الثراء. كانوا يرسلون لنا برقية «نصل في الوقت... كذا، ونريد حجز ثلاث فيللات». كانوا في كل مرة يستأجرون الفيللات. وفي العادة، يصلون في أول العصر، ويقومون بعملية التسجيل ويلقون التحية علينا، ثم يتوجهون نحو الفيللات. وبعد ساعة أو نحوها (وأفترض بعد أن يكونوا قد اغتسلوا في المياه المعدنية) يأتون إلى المقهى لتدخين «الأرجيلة» (خمسة أو ستة منهم) وهم يرتدون بيجامات من الحرير، ويلبسون الطرابيش، والقباقيب في أقدامهم، كما يرتدون القمصان وربطات العنق تحت جاكيتات البيجاما. وكلها من الحرير الفاخر. ليس النساء، فقد كن يُجهّزن العشاء، وحمّامات التجميل.

كان الناس الذين يأتون إلى الحِمّة يُمثلون قطاعاً واسعاً من المجتمع الفلسطيني. ولكن لم يكونوا كلهم فلسطينيين (اللبنانيون كانوا يأتون أيضاً). ذات مرة جاءت سيدتان في سيارة خصوصية، بويك كبيرة، تشبه سيارات البويك النابلسية. قطعوا المسافة كلها من لبنان في سيارتهم الخاصة. جاءتا إلى مكتبي مباشرةً. أم وابنتها، وهما فرنسيتان. كانت الأم طبيبة، سيدة مُسنة، تشكو من الروماتيزم. قالت:

- إنت ما بتعرفني. معي رسالة لك من صديق طيّب جداً، لويس روديرير.

كنت أعرف لويس روديرير أثناء إقامتي مع عائلة المعلوف، في بيروت. وأخته كانت أول حب حقيقي لي، مع أني لا أظن أنها شعرت بذلك.

- إنتِ بتعرفي لويس روديرير؟

- مش بس بعرفه، هو خطيب بنتي الصغرى.

أما الابنة التي كانت معها فكانت متزوجة من أحد أفراد عائلة معروفة جيداً هي عائلة المَلاّط. وكان زوجها طبيباً وأديباً (مثل نقولا فياض، الذي كان طبيباً، وشاعراً ومشهوراً بالخطابة في لبنان). أقامتا هناك بضعة أسابيع. وأصبحتُ صديقاً لهما وفيما بعد، كنتُ أزور الأختين.

شخص آخر جاء من مكان أبعد. كان عراقياً جاء يمشي على عكاز، ومعه ابنته الشابة شديدة الجاذبية. وتبيّن أنه حسن زكي، الذي كان وزيراً لثلاث عشرة مرة في العراق. وأصبحَت ابنتُه فيما بعد مشهورة في العراق ككاتبة، سميحة زكي. كان الرجل يأتي ويمكث أسبوعين أو ثلاثة في طبريّا، في منطقة ينابيع طبريّا، وأسبوعين أو ثلاثة في الحِمّة. جاء في السنة التي أصبحت فيها مديراً لفندق طبريّا. أصبحتُ صديقاً لابنته، وأصبح هو صديقاً لأبي. جاءَا مراتٍ عدة لتناول الشاي معنا، وكنا (أبي وأنا) نذهب لزيارتهم، لأنه في ذلك الوقت لم تكن أمي تستطيع المشي كثيراً. كان عصريّاً جداً في مواقفه. أتذكّر أنني كنت أجلس إلى جواره في غرفته، حين كان في طبريّا، وقال:

- ليش إنتو الشباب تجلسون عندي طول الوقت؟ اخرجوا! خذ سميحة، شوفوا أفلام، إعملو شي سوا.

كانت متعلقة به كثيراً، ولم تكن لتتركه. قالت:

- بنطلع عالبلكون وبنقعد هناك.

خرجنا إلى البلكون وكانت هناك أريكة من الخيزران تتسع لاثنين. كانت غرفته واسعة وبها حمامٌ خاص، وهي واحدة من الغرف الأربع التي يوجد فيها حمّام خاص بها، ولها تلك الشرفة. جلسنا هناك نتحدّث حتى الساعة الواحدة صباحاً، لم نكن نقوم بأي مداعبة، ولكنا كنا على وشك. لم أتجاوز الحدّ معها قط.

العائلة البدوية

بالقرب من بيتنا، كانت هناك عائلة بدوية تعيش في ما يشبه الأكواخ في الحديقة، وكانت تحصل على نصف طعامها تقريباً من بيتنا. ومن وقت إلى آخر كانت أمي تكلّف الزوجة ببعض الأعمال إذ كانت لدينا خادمة صغيرة لا تستطيع القيام بكل الأعباء. في أحد الأيام (لا بد أنه كان في عام ١٩٤٢ أو ١٩٤٣، في الربيع، عندما كنت أتعافى من التيفوئيد) ثبَّتَ أبي سلكاً من الحديد على الشرفة حيث كنا ننام، وذلك لتعليق الملابس الصيفية عليه، ليس ملابسنا فحسب، وإنما أيضاً بعض الملابس التي كان يتركها ابن خالتي الياس عندنا. كان آنذاك رقيباً في «الجيش العربي» ويترك ملابسه المدنية في بيتنا؛ فكانت أمي تعلقها في الهواء الطلق قبل أن تضعها في النفتالين. في الليل سمعتُ أمي تقول:

- عبدالله! ما علقنا كل الملابس على الحبال؟ كلها راحت. فجلس أبي وقال:

- عندك حق، أكيد انسرقت. فقفزتُ فوراً. قالت أمي:

- لوين رايح؟

- بدّي أشوف إذا الحرامي لسه قريب.

كان تحت سريري عصا طويلة أحضرها إخوتي، حيث كانوا يستعدّون للانضمام إلى الكشافة. أخذت العصا ومشيت حافي القدمين، كنت مهتاجاً لدرجة أنني لم أبحث عن نعليّ. قالت أمي:

- لكن يا يوسف إنت لسه بتتعافى من التيفوئيد.

- ولا يهمّك ماما.

دُرتُ حول البيت مرة، ثم درتُ حوله باتجاه الأكواخ حيث تعيش العائلة البدوية، على بعد ثلاثين متراً من بيتنا. كان المكان مظلماً، ولكن ليس إلى الدرجة التي تجعلني لا أرى شخصاً يتحرك أمامي. تابعت المشي ورأيت الشخص يمشي، ومَرَّ من أمام العنابر، ثم صعد نحو الطريق التي كانت فوقنا. لا بدّ أنه رآني أيضاً كما رأيته، وأدرك أنني مُصمم وأحقق تقدماً. ثم رأيته يقف فجأة ويستدير، ثم كان هناك وميض، وصوت رصاصة.

حتى ذلك الحين، كانت العائلة داخل الأكواخ هادئة تماماً ولكن الآن، صاحت الزوجة فوراً:

- «يا حسرتي! قتلوا يوسف، قتلوا يوسف!» فصحت رداً عليها، لتسمع أمي وأبي:

- لأ، أنا بخير.

لكنني لم أتابعه أكثر من ذلك. كانت الرصاصة مرتفعة جداً عن رأسي، أراد فقط أن يخيفني. خرَجت العائلة البدوية وأحاطت بي لتمنعني من التقدم. لم أفكر في الأمر عندئذ، لماذا سدّوا الطريق أمامي على ذلك النحو بدلاً من أن يصرخوا طلباً للنجدة، أو أن يركضوا خلفه. عندما أطلقَ الرصاص كنتُ قد تجاوزتُ الكوخ بنحو عشرة أمتار. قلت لهم:

- إرجعوا للكوخ وما تطلعوا. مين ما يكون الحرامي، يمكن يرجع ويطلق النار.

فعلتُ ذلك لأنني أردتُ أن لا يمشي أحد على الطريق لكي تظل آثار أقدام اللص محفوظة. حرَّرت نفسي منهم وعدت إلى الأهل لأطمئنَهم. كنت متأكّداً أنني في صباح اليوم التالي سأستطيع إحضار الشرطة مع كلب يشم الرائحة وآثار الأقدام. لم أعد للنوم حتى الفجر.

جاء الشرطيان اللذان كانا يحرسان الليدو وسمعا صوت إطلاق الرصاصة قبل أن نذهب لاستدعائهما. وقالا لنا: «سمعنا رصاص، شو القصة؟». فأخبرناهما بما جرى وقلت لأحدهما:

- تأكّد من أنه ما حدا يمشي بعد الكوخ.

- ليش؟

- أنا شفت الرجل بوضوح وهو يدور ويطلق الرصاصة، لازم تركت أثر على التراب.

أحضروا الكلب وجاء موظفو إدارة التحقيقات الجنائية. كان أثر القدمين واضحاً، فتركوا الكلب يشم الأثر وتبعوه إلى أعلى التل، حتى وصلوا إلى خيام البدو وذهبوا إلى خيمة أخي المرأة التي صاحت «قتلوا يوسف». وبحثوا هناك فوجدوا بنطالين لابن خالتي ولا بدّ أن اللص قد أخفى أشياء أخرى هناك، والباقي في خيمة أخته. ضربوه بالطبع، وحجزوه بضعة أسابيع في السجن. كان سيحاكَم، ولكني أظن أنه قدَّم لهم رشوة، لأن الأمر لم يُسفِر عن شيء.

هناك قصة غريبة أخرى تتعلق برجل كان يعملُ بإدارة الجمارك في طبريّا. كانت وظيفته أن يتجوّل في البحيرة في زورق له محرك ليراقب المُهرّبين، لأننا كنا قريبين من الحدود السورية، عند مرتفعات الجولان. وعادةً ما كان يقضي ساعات هناك حتى مطلع الفجر تقريباً قبل أن يعود إلى بيته. كان مسيحياً من حيفا وكانت زوجته مسيحية كذلك، وهذه المرأة كان لها عشيقٍ مسيحيّ أيضاً من عكا يعمل في إدارة تقنين الأغذية، وهو رجل مضحك جداً وذكيٌّ جداً ووسيم الشكل. في ذلك المساء ولسوء حظ هذا الثنائي، كانت مياه البحيرة هائجة (فقد يحدث أن يعلو الموج في البحيرة) قرّر الزوج أن الأمر ينطوي على مجازفة خطيرة، فعاد إلى البيت أبكرَ بكثير من المتوقع، ودخل فوجد شخصاً (لنفترض أن اسمه جورج) في الفراش مع زوجته. فبدأ يشتمُهما:

- «إنت زوجة خاينة! انت صديق غدّار! رايح أورجيكم».

كان معه بالطبع بندقية كعادته. جلس جورج في السرير، عاريَ الصدر، وقال له:

- «انتبه شو بتحكي، الظاهر إنك مش مؤدب. يعني كان أحسن لو لقيت واحد مسلم مع مرتك؟ أنا هون مسيحي، وإنت بتقول هالكلام إلي؟».

بدأ الزوج يعتذر. وهنا نهضَ جورج من السرير وارتدى ملابسه وخرج.

فندق طبريا

في صيف عام ١٩٤٣، حصلتُ على عمل ذي مردود مالي أفضل بكثير، وهو مدير فندق طبريّا. كان المرتب ثلاثة أضعاف مرتبي في الحِمّة، إضافة إلى عشرة بالمائة من الأرباح. كان مالكو الفندق من الألمان، لذلك كان يخضع لإشراف «حارس أملاك العدو». قرّر المدير السابق، وهو لبناني، أن يعود إلى لبنان. اتصل بي، وفي نفس الوقت أبلغَ مكتب حارس أملاك العدو أنه سيغادر، وأن لديه مرشحاً يحمل درجة جامعية في إدارة الأعمال، وكان يدير منتجعاً صحياً للمياه المعدنية، يفد إليه في الموسم نحو ألفي شخص يقيمون هناك كلّ ليلة. وقد كسب أيضاً إلى جانبي محامي الفندق، وهو إنكليزي. وهكذا تلقيتُ عرضاً رسمياً من محامي الفندق، وهو المحامي الذي يمثل المالكين - ولم يكونوا يستطيعون إرسال أية رسائل من طرفهم، لأنهم «أعداء».

كان مالكو الفندق في ذلك الوقت سيدة ألمانية مُسنّة وكِنّتُها التي كانت متزوجة من الابن البكر لهذه السيدة. وقد انتحر لأن زوجته كانت مغرمة بطبيب أرمنيّ. في إحدى الليالي كان الطبيب الأرمنيّ في زيارة لطبريّا، فخرجوا جميعاً، الطبيب والزوج والزوجة، في رحلة بالقارب، وأسرفوا في الشرب. في تلك الليلة، عندما عادوا من رحلة التجديف، دخل الزوج الألماني إلى الحمّام وأطلق النار على نفسه. كنت في طبربا آنذاك. وكان الألماني يحظى بمحبة قوية من جانب العرب، لأنه كان يتكلم العربية كأنه بدوي، وهو من مواليد طبريّا. وهناك أخ آخر في العائلة الألمانية، كان أسير حرب، مسجوناً في كندا في ذلك الوقت. ولم يكن يُسمح لأصحاب الفندق باتخاذ أية قرارات إدارية، فكتب لي المحامي رسالة تتضمن عرضاً رسمياً، فقبلته، واستقَلت من عملي في الحِمّة.

في فندق طبريّا، كانت وظيفتي هي إدارة الفندق، والإشراف على الليدو الذي يضم مطعماً، وقاعات للرقص، وملهى، وملعبين للتنس، وحوضاً للسباحة طبعاً. لم أكن مهيأً من حيث التدريب أو المزاج لإدارة فندق. لم أذهب إطلاقاً إلى المطبخ لأرى ما كان يُطبخُ فيه. وأنا متأكد من أن الطباخ كان يحصل على أموال كثيرة لأنه كان أيضاً يُحضِر اللحوم والخضروات. ركّزت اهتمامي على النزلاء. كان هناك ثلاثة موظفين للاستقبال، وكانوا يقومون بعملية تسجيل النزلاء، ولكني كنت أشرف على الجانب الاجتماعي، فأتولى ضيافتهم. وإذا كانوا لطفاء، أدعوهم لتناول الشراب أو الشاي معي. وكان هناك دائماً إلى مائدتي ضيف أو اثنان لتناول الطعام معي. كنت آكل هناك، وأقيم هناك. ولديَّ غرفتان. لم أكن أذهب إلى بيتنا لتناول الوجبات. كان ينبغي أن أكون في الفندق طيلة الوقت. فهناك مكالمات هاتفية، أو أمور تحتاج إلى اتخاذ القرارات. كما أنني أحببت عملي، واستمتعت بالجو العام، كنت شاباً في ذلك الوقتِ، ومعظم النزلاء من السيّدِات اللواتي يأتين لقضاء العطلات. فكان ذلك

مغرياً. كانت الوظيفة مجزية جداً. في تلك السنة كسبت ٨٠٠ جنيه إنكليزي، بالإضافة إلى عشرة بالمائة من صافي الأرباح. وهذا مكّنني من المساعدة في تعليم إخوتي، ومن شراء سيارة. كانت من طراز موريس، صغيرة، ومستعملة لمدة شهر وهي أول سيارة أشتريها. اشتريتها في عام ١٩٤٥، فور ذهابي إلى القدس. قدّمت القسم الأكبر من النقود للأهل كمساعدة لتعليم إخوتي وأُختي، ولكن بقي معي ما يكفي، فحين ذهبت إلى القدس، انتقلت مباشرةً إلى وظيفة أخرى، لم أخسر دخل يوم واحد.

زائرة ساحرة - أسمهان

اعتادت المطربة أسمهان أن تأتي وتُمضي أسابيع في فندق طبريّا عندما كنت مديراً للفندق. عندما جاءت للمرة الأولى، كان يصحبها صديقها، وهو مصري، أول طيار في مصر، أحمد سالم. كان وسيماً، ولكنه أشعث، حين تنظر إليه تشعر أنه لم يغتسل ولم يحلق ذقنه منذ أيام عدة. أقاما فترة قصيرة. وأظن أنهما تشاجرا، حيث غادر هو، ومكثت هي وحدها هناك. كانت تغادر طبريّا في الصباح الباكر ومعها حقائب فيها ليرات ذهب، لم تكن الحقائب ضخمة ولكنها بالمئات، وتغادر لمدة يومين أو ثلاثة. وعادة ما يكون معها بعض المرافقين، مرشدين بريطانيين يفتحون لها الطريق، وكان معها ربّما بعض الأشخاص من جبل الدروز نفسه.

في مطلع الأربعينيات، عندما أراد البريطانيون دخول سورية ولبنان وطرد أتباع حكومة فيشي، كان من بين ما فعلوه هو استمالة الدروز. فقد كان الدروز مدينين للبريطانيين لأنهم دعموهم إبان ثورة آل الأطرش، التي قادها سلطان باشا الأطرش. أرسلوا لهم الأسلحة وعندما تم سحق ثورة سنة ١٩٢٥ من قبل الفرنسيين، سمح البريطانيون لمئات من المقاتلين الدروز بالذهاب إلى شرق الأردن والاستقرار هناك. أقاموا سنوات عدة قبل أن يسمح لهم بالعودة. وكنوع من رد الجميل لما فعلوه للدروز، قرر البريطانيون إيفاد شخصية درزية محترمة لشراء زعماء هناك ليقدموا المساعدة عند دخول البريطانيين، إذا كانوا سيدخلون من جهة طبريّا. والشخصية التي احضروها لذلك الغرض كانت أسمهان، المطربة، وهي درزية ومن عائلة الأطرش وكانت قد تزوجت الأمير حسن الأطرش. في ذلك الوقت كانت قد انفصلت عنه وأصبحت مطربة لها شهرة واسعة في مصر.

كان يقيم في الفندق ميجور بريطاني، وأظن أنه رئيس الاستخبارات، كان أنيقَ الملبس ومهيباً. وهو الذي يؤمّن لها من يرافقها إلى الحدود، وهناك، يقابلها أشخاص من جبل الدروز فيصطحبونها إلى ما وراء الحدود، عبر منطقة الدروز في الجولان، ومنها إلى جبل الدروز. وحين تنفق ما معها من نقود

كانت تعود. كان الأمر واضحاً ولكن لم يكن أحد يهتم بذلك. ففي نهاية الأمر، لم يكن الفرنسيون أصدقاءنا المقرّبين. كما أن البريطانيين أصدروا بياناً أعلنوا فيه أنهم يريدون اجتثاث النظام الفاشي وأن يجلبوا الحرية والاستقلال لسورية ولبنان. حين كانت تنزل في الفندق، كانت تدفع نفقات إقامتها. من أين كانت تحصل على المال؟ تلك قصة أخرى. لا بدّ أنه كان لديها أكوام من النقود مقابل الوظيفة التي تؤدّيها لهم.

كانت أسمهان جذابة فوق المعتاد، مذهلة، بعينين خضراوين، والتحديق في عينيها يشبه التحديق في بحر صاف لا يمكن بلوغ أعماقه. كانت في أواخر العشرينيات من عمرها أو مطلع الثلاثينيات. شديدة النحافة والأناقة. وبين الفينة والأخرى، كان الضابط يدعو بعض الأشخاص (بمن فيهم أنا وخليل الطبري) إلى جناحه في الفندق، وتتبعنا المشروبات، ثم تغني أسمهان لنا. لا أعرف ماذا كانا يفعلان بعد أن نغادر. كان شيئاً مثيراً أن تكون هناك. جلستُ بالقرب منها مرة واحدة، فلم أستطع أن أزيح عينيّ عن وجهها. إنها المطربة العربية التي أعشق صوتها أكثر من أي صوت آخر.

الحياة العائلية

كانت حياتنا العائلية حياة سعيدة، لولا الحزن الذي كنا نحس به لأن أمي طريحة الفراش. في تلك الأيام، لا أدري إذا كانت تلك هي الطريقة المُتّبعة في علاج اضطرابات القلب، لكن المستشفى هناك أجبرَها على أن تظلَّ طريحة الفراش بدلاً من أن يطلبَ منها أن تمشى قليلاً. أصيبت أمي بنوبة قلبية حادّة في ربيع عام ١٩٤٠، عندما كنت أدرِّس في العراق. كتبَ لي أبي رسالة طويلة حزينة عنها. يبدو أنها أحسّت أثناء الليل بتوعّك في المعدة، وأنها بحاجة إلى أن تتقيأ، فلم تستطع، لم تشعر بالراحة. بدأ قلبها يخفق بشدة، فنقلها أبي إلى المستشفى قرب البيت. أدركوا أنها أصيبت بنوبة قلبية. فبقيَت في المستشفى بضعة أسابيع. وبعد ذلك طلبوا منها البقاء في السرير والراحة. أبكتني الرسالة أياماً لأن النوبة القلبية في تلك الأيام كانت تعني الموت العاجل تقريباً. كنت مذعوراً من أن تتوفى أثناء غيابي. ولم أستطع الحصول على إجازة لأعود. كان الوقت يقترب من عطلة الصيف.

قضَت معظم أيام حياتها الباقية في السرير فعلاً. وحين أصبتُ أنا بنوبة قلبية، حثوني على المشي، والمزيد من المشي كل يوم. ولكنها لم تتلقّ نصيحة كهذه، فكانت النتيجة كما خمّنت - أنها أصبحت أكثر ضعفاً. تنهضُ قليلاً وتتمشى حول البيت، لكنها لم تقم بأية أعمال في الحديقة بعد ذلك. أصبحَت هي مركز البيت، فهي إما طريحة الفراش أو في مكان ما من البيت. وعندما كنا نأتي أثناء العطل، لم نكن لنغادر البيت كثيراً بل نبقى بجوارها. توقّفت عن

الزيارات، ولكن زوّاراً كثيرين جداً كانوا يأتون إلى بيتنا. وفي أوقات نادرة، حين كانت تشعر بأن لديها القوة الكافية، كانت تستقلّ هي وأبي سيارة أجرة ويقومان بإحدى الزيارات. كانت تذهب أحياناً إلى الكنيسة، بالرغم من أنها تقع على الطريق المنخفض، وكان عليها أن تنزل خمساً وعشرين أو ثلاثين درجة لتصل إلى هناك. وذلك يعني أن عليها صعود تلك الدرجات في طريق العودة، فكانت تقف وترتاح قليلاً، وتتحدث. الكنيسة كانت تمنحها الدافع والقوّة.

في أواخر عام ١٩٤٣، كنتُ في السابعة والعشرين من عمري، وفؤاد قد تخرّج للتوّ في الجامعة الأميركية في بيروت متخصصاً في الهندسة. ووجدَ عملاً لدى إدارة الأشغال العامة في طبريّا. وعُين في منصب كاتب أشغال، ومهمته الإشرافُ على الطرق والمباني العامة في المدينة والمنطقة المجاورة لها. لم يمكث طويلاً هناك. وخلال سنواتنا الأخيرة في طبريّا، عمل مدةً قصيرة في حيفا، ثم في القدس، وبعد ذلك ذهبَ إلى غزة.

كان فايز يدرُس الفلسفة ويحتاج إلى عام آخر لكي يتخرّج. لم يُقبل في الجامعة الأميركية في بيروت في نفس العام الذي قُبل فيه فؤاد لأنه كان في الخامسة عشرة من عمره عندما أنهى المدرسة. قضى عاماً في طبريّا، وعمل في صيدلية هناك، ثم دخل الجامعة الأميركية في بيروت في تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٣٧، وحصل على درجة البكالوريوس في حزيران/يونيو ١٩٤١ وسجّل لدراسة الماجستير. استغرق الأمر أربع سنوات لينال درجة الماجستير، وذلك بسبب عمله في الحزب، ولأنه كان مطلوباً للسلطات الفرنسية.

في سنة ١٩٤٣، كان توفيق في الجامعة، يدرُس الأدبَ العربيّ. نال شهادة المَترك في حزيران/يونيو ١٩٤٠ من الكلية العربية. وبعد المدرسة لم يذهب مباشرة إلى الجامعة لكنه درَّس في البصّة لمدة عام واحد ثم في طبريّا، ودخل الجامعة الأميركية في بيروت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤١ وحصل على درجة البكالوريوس في حزيران/يونيو ١٩٤٥. وبعد حصوله على البكالوريوس، عاد إلى فلسطين للتدريس، ثم عمل في إدارة حكومية للإعلام والأنباء والترجمة لمدة عام واحد. في الفترة من ١٩٤٦ إلى ١٩٤٧ عاد ثانية إلى بيروت.

بحلول عام ١٩٤٥، كانت ماري في السنتين النهائيتين من المدرسة الثانوية، المدرسة الأهلية في بيروت. وكان منير في الكلية العربية في القدس، وبسبب سجله المتميز قبلوه بدون دفع الأقساط. حصلَ على شهادة المَترك في القدس في حزيران/يونيو سنة ١٩٤٦ ودخل الجامعة الأميركية في بيروت في تشرين الأول/أكتوبر من ذلك العام. وحتى نهاية فترة الانتداب البريطاني،

كانت الحكومة البريطانية تدفع أقساط دراسته. بعد ذلك، اقترض منير مثلما فعلَ توفيق وفؤاد وفايز من جمعية الخريجين.

ذهبَ أنيس إلى القدس في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٦ للدراسة في مدرسة الأسقف جوبات، وأقام هناك حتى تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧. في تلك الأثناء كانت الأوضاع ملتهبة جداً، فاتصلتُ بمدرسة صيدا للبنين ورتّبت إجراءات ذهابه إلى هناك، بعد مناقشة الأمر مع أبي بواسطة الهاتف. وفي الرابع من شباط/فبراير ذهبت بالسيارة إلى طبريّا، وقضينا بضعة أيام مع الوالدين، ثم قدتُ السيّارة إلى صيدا. وتمّ قبوله في المدرسة.

وما إن حلَّ صيف عام ١٩٤٥ حتى كان فايز قد حصلَ على درجة الماجستير، وتوفيق حصل َعلى البكالوريوس، وحصلت ماري على دبلوم المدرسة الثانوية. عندما عادوا إلى طبريّا أقامت العائلة حفلة شاي كبيرة لثلاثتهم، ودَعَوا إليها أعضاء الأبرشية. وبعد بضعة أيام، أقاما حفلة ثانية لأطباء وموظفي المستشفى. وفي وقت لاحق، أقاما حفلة أخرى للأصدقاء من جيلنا مثل عائلة الطبري، وأحمد عبد الخالق، وفريد عطايا، ومنير سماحة.

الأيام الأخيرة في طبريّا

قضيتُ عشرةَ أشهر مديراً لفندق طبريّا. ثم جاء مسؤولان حكوميّان - أحدهما رئيس المختبرات الحكوميّة، وهو طبيب أرمنيّ، وصديقٌ له لبنانيّ الجنسية يعمل مهندساً في إدارة الأشغال العامة في القدس (وكانا صديقيْن حميميْن) وقدّما طلباً لحارس أملاك العدو لتولي إدارة الفندق، بدلاً من أن يُعيّن حارس أملاك العدو مديراً جديداً. استولوا على الفندق، ودفعوا مرتبي كاملاً حتى آخر فلس، وحصَّتي من الأرباح، وغادرتُ الفندق وتوجّهتُ إلى القدس.

كانت الأشهر العشرة الأخيرة في فندق طبريّا تمثل أطول مدة متصلة قضيتها في طبريّا. كنت أشعر بالسعادة فيها. أحببتُ البحيرة، وأحببتُ السباحة. بدأتُ ألعب التِّنس على نحو أكثر نشاطاً من قبل، خصوصاً مع يوسف الطبري؛ ابن عمّ خليل الذي كان لاعباً ماهراً جداً. كانت لي حياة اجتماعية حافلة في الفندق. بدأتُ أشربُ قليلاً، لم أكن في يوم من الأيام من الذين يشربون، ربما أتناول كأسين أو ثلاثة في الأسبوع، هذا كل ما هنالك. لم أشرب «الويسكي» في ذلك الوقت، بل النبيذ، و«البيرة» في الصيف، و«الشيري» بسبب تأثير البريطانيين. كنت أمارس الرقص كثيراً هناك. وكان لدينا فرقة موسيقية؛ تعاقدنا مع فرقة لفصل الشتاء. وفي العام الذي كنت فيه هناك، تعاقدت مع مطرب يرافقه أربعة عازفين. كانت موسيقى على النمط الأوروبي (التانغو والفوكس تروت، والفالس الهادئ). وكان المرقص مكتظاً كل ليلة.

بين الفينة والأخرى، كنت آخذ إخوتي ووالديّ إلى البحيرة في قارب كبير بمجاديف. كنت أحبُّ التجديف. وإذا لم يكن معي أخوتي، فإن نجل الرجل الذي أجّرنا القارب كان يساعدني، فتكون هناك أربعُ أيدٍ تجدّف معاً. كنا نقطع مسافة كبيرة من بيتنا وحتى الينابيع المعدنية في الجنوب ونعود إلى البيت. وذلك كي تتنزّه أمّي.

كانت الفترة الأخيرة في طبريّا غنية من الناحية السياسية، لأن أخويّ الاثنين، فؤاد وفايز، وأنا انتسبنا إلى الحزب في ذلك الوقت. فكنا نتحدّثُ كثيراً عن الحزب، والسياسة وفلسطين والتنظيم داخل الحزب، وأيديولوجيته وتوسّعه. خارج نطاق العائلة، تعمقت صداقتي مع خليل الطبري في ذلك الوقت. فكنا نتحدث عن الهيئة العربية العليا، ولم أكن أعلق عليها آمالاً كبيرة في أن تكون قادرة على قيادة الصراع من أجل حماية فلسطين، فضلاً عن إلحاق الهزيمة بالصهاينة. وكان هو (وهذا يمكن تفهمه) يؤمن بما يمكن للفلسطينيين القيام به في القرى، لأن له اتصالاتٍ معهم. وكان لعائلة الطبري أراض في الريف، فكان يتصل بالناس العاملين في الأرض، فعرف عن نشاطاتهم. ومن خلال أصدقائه في بيسان وأقاربه في بيت لحم، كان على اتصال مع سكان القرى، ويعرف استعدادهم للقتال. لكن خليل لم يكن يقيم دائماً في طبريّا.

كانت طبريّا خاليةً تماماً من الأحداث، باستثناء اتصالاتي تلك. أما داخلياً، ضمن العائلة، فكانت الحياة أكثر غنىً من قبل. وخارج العائلة، كان المستشفى موجوداً، وله جاذبيته، وممرضاته العشر أو نحو ذلك، كنّ على قدر كبير من الجاذبية. وكان هناك طبيب جديد، دمث جداً، وقد تحوّل من اليهودية إلى النصرانية، وهو ألماني كما أظن. تلاقيت مع منير سماحة برهة من الزمن لأنه تسلّم مني مسؤولياته في الفندق. والمهندس الذي استولى على الفندق كان خاله، وخاله هو الذي جاء به (وهو في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة آنذاك) ليتدرّب على وظيفة كاتب استقبال. بعد أن تخلّيت عن وظيفتي، مكثتُ أسبوعين أو ثلاثة في طبريّا لأكون مع العائلة قبل الانتقال إلى القدس، وكنت أذهب كل يوم إلى الفندق. بدأتُ أعرف «منير» جيداً، ونذهب معاً للسباحة. وبعد مغادرتي تم تبنِّي منير من قبل عائلة الطبري، خصوصاً يوسف الطبري، الذي تعلّق بهِ كثيراً.

كان منير يحبُّ الصيد. (في لبنان عندما كان صبياً، كان يذهب لصيد العصافير). اشترى بندقية صيد قبل قدومه إلى فلسطين. كان يوسف الطبري رامياً ماهراً ويحب الذهاب بالقارب إلى بحيرة الحولة، شمالي بحيرة طبريّا، لصيد البَطّ. وذات يوم اقترح يوسف على منير أن يذهبا معاً لصيد البط. استقلاّ قارباً صغيراً وانطلقا، وبدآ يصطادان، ويجمعان حصيلة صيدهما. فيطلقان النار على بطّة واحدة ويتركانها طافية على وجه الماء، ثم يلتقطانها لاحقاً، ولدى

انحنائهما لالتقاط إحدى البطّات، سقطت بندقية منير في الماء. كان الماء عكراً جداً وعميقاً، ولم يتمكّنا من الغوص للبحث عن البندقية. فقال يوسف الطبري:

- خلَص، ضاعت، انساها.

أعطاه بندقيته ليستعملها. عندما رجعا إلى طبريّا، نظّف منير البندقية وجفّفها وزيّتها، وأعادها إلى يوسف. ولم يقبل يوسف أن يأخذها، وقال له:

- منير، الواحد ما بيعير بندقيتُه، الواحد بيعطيها لصاحبُه. إحنا مش أوروبيين مش أميريكان، إحنا عرب.

وكان ذلك شيئاً كبيراً بالنسبة لمنير، من رجل أكبر منه. فتأثّر كثيراً بذلك.

حصلتُ على الوظيفة في القدس، حين كنت مقيماً في طبريّا. وهي وظيفة مع حملة لإنشاء صناديق توفير تعاونية يرأسها كيث روتش باشا. كان في طبريّا وعرضَ عليَّ الوظيفة هناك. قلتُ له إنني سأفكر في الأمر. ثم قرَّرتُ أنه بدلاً من الذهاب إلى القدس وإنفاق المال بحثاً عن وظيفة، سأقبل بها وأبحث عن غيرها حين أكون هناك. وذلك ما حدث، باستثناء أن الوظيفة هي التي كانت تبحثُ عني، لم أبحث عنها - كانت وظيفة مع سابا وشركاه. وفي نهاية صيف أو مطلع خريف سنة ١٩٤٤، ذهبتُ إلى القدس حيثُ بدأ فصلٌ جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل التاسع القدس، ١٩٤٤ - ١٩٤٨

كانت وظيفتي الأولى في القدس لدى هذه المُنظمة التي تُعنى بشركات وتعاونيّات الادِّخار ومُكافحة التضخُّم، وتتعامل مع غُرف التجارة. كانت تضمُّ قسماً عربيّاً وآخرَ يهوديّاً. فشغلت منصب رئيس القسم الفلسطينيّ العربي، بينما كان هناك رئيسٌ يهوديّ للقسم اليهوديّ، وهو كاتب لا يهتمُّ قيدَ أنملة بالادِّخار أو التعاونيّات. كنا في السنّ نفسها تقريباً، نتبادل الأحاديث في الشؤون العامة. كان كاتباً مُبدِعاً، ولم يكن يبدو أن السياسة تشكلُ أولويَّةً عنده. السكرتيرةُ الأولى التي خصَّصوها لمَكتبي كانت يهوديّة، وتبيّنَ لي أنّها مِمَّن عرفتُ في الحِمّة. فنقلتُها لتعملَ لدى اليهوديّ، واتخذتُ سكرتيرة عربيّة. لكنني أمضيتُ في تلك الوظيفة بضعة أشهر فقط.

اتصلَ بي فؤاد سابا، وقال:

- شو بِتسوّي عندَك؟! الادّخار! تعال اشتغل مَعي.

عَيَّنني، فوراً، مديراً لفرع القدس لدى «سابا وشركاه»، ومساعداً للمدير العام للشركة في العالم العربي (إذ كانت لديه فروع تمتدُّ من مصرَ إلى سورية). لم يكن للشركة فرعٌ في لبنان، فجئت وأنشأتُ فرعاً في لبنان نيابةً عنه، ووجدتُ من يتولّى إدارته. كانت وظيفة أفضل بكثير من سابقتها، على كل صعيد.

عملتُ لدى شركة سابا لمدّة عشرة أشهر تقريباً، إلى أن أرسلَ عِزّت طنُّوس يطلبُ مني أن أعمل في بيت المال العربي. كانت فترة الأشهر العشرة من أكثر الفترات الحافلة بالنشاط بالنسبة لي كمُمَثل للحزب السوري القومي في فلسطين. تركّز معظم عملنا في ذلك الوقت على التجنيد، استمالة الشباب ليكونوا أعضاء، وعلى نشر أفكار الحزب التي لم تكن معروفة في فلسطين. وبالفعل، لم يكن هناك استعدادٌ كبيرٌ لقَبول أفكار الحزب لأنها تؤكّدُ على فكرة «سوريّةِ فلسطين»، أي أن فلسطين هي سورية الجنوبية، في حين كان الفلسطينيون يعتبرون أنفسَهم عرباً دائماً، وينظرون إلى المشكلة الفلسطينية بصفتها مشكلة عربية. كان هناك بضعة أفراد (مثل عوني عبد الهادي) شاركوا في المؤتمرات التي عقدت في كل من دمشق وفرنسا، سنة ١٩١٩ أو ١٩٢١. ولكن، في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعتقد أن سورية الكبرى يمكنُ أن تُنقذَ فلسطين، لأنها كانت تتألف من لبنان الذي كان واقعاً تحت سيطرة فرنسا، ومُقسَّماً على أساس طائفيّ، ومن سورية التي لم تكن قويةً، مع أن قلبها كان في مكانه الصحيح، وشرق الأردن الذي كان تابعاً كلياً لبريطانيا. ما كنا نحتاج إليه هو العراق الذي كان خارج «طبق» الحزب، وكذلك مصر والمغرب وأرض الإسلام، السعودية، وباقي الأقطار. كان كفاحاً شاقاً.

هناك أيضاَ قضيةٌ أخرى وهي أن للحزب زعيماَ، وهو مسيحيّ، وليس الحاج أمين الحسيني. وجرَت محاولات من قِبل بعض الأشخاص من الجيل القديم لجرِّنا نحو الاندماج تحت مظلة المُفتي. وفي الواقع قال أحدُهم:

- المفتي ما عنده تنظيم، ليش ما يكون الحزب تنظيمُه؟ يلزمنا فقط إجراء تغييرات قليلة على عقيدة الحزب.

لكنّ سعادة كان مُتعصباً لعقيدته، ويعتبرُ أن قرارَهُ كان إلهاماً، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَحمِلهُ على تغيير رأيه في هذه الأمور. يُضاف إلى ذلك أن الاندماج كان سيعني أن المُفتي هو الزعيم وليس سعادة. ولم يَكُن ذلك مُمكِناً.

ركَّزنا اهتمامَنا على عددٍ من الشخصيّات القليلة المعروفة غيرِ المُنخرطة في السياسة إلى حدٍّ كبير (ولذلك رغبوا في الانضمام إلينا). قضينا بعضَ الوقت في التثقيف الحزبي لمُحامٍ من حيفا يدعى فؤاد عطا الله. كان ذا حيوية بالغة، لكنني عرفت منذ البداية أنه أراد أن يكون شخصية سياسية، وأن نكون نحن قاعدته السياسية. كنا بحاجة إلى شخص نقيّ، غير عقائدي، ويؤمن بكل ما يقولُ به الحزب. اتصلنا بسامي طه لكي ينضمّ إلينا. كان خليل الطبري ضيفاً مُنتظماً في اجتماعاتنا، خصوصاً في المناسبات الاجتماعية كالاحتفالات التذكارية بتأسيس الحزب. وقد أقمنا حفلاً منها في حيفا تحدَّث فيه خليل نحو ستّ ساعات، ثم قال:

- هذه مُقدّمة، وصلنا إلى سنة ١٩١٨.

ستّ ساعات! وواصلت مُماحكتي له مدة طويلة حول هذا الأمر.

كانت هناك خلايا للحزب في يافا، وفي حيفا، وفي القدس (وهذه هي الخلايا التي كنت متأكّداً منها). ولدينا خلية صغيرة جداً، لا ترقى إلى مستوى خلية، في جنين. وفي وقت لاحق تحوَّل أحد الأشخاص إلى الحزب بدافع ذاتي، من خلال قراءاته. كان شخصاً رائعاً، وهو مُحام (أظن أن اسمَهُ مصطفى أرشيد، من جنين، نواحي منطقة نابلس) وقد أصبحَ لاحقاً رئيسَ الحزب كلّه في لبنان. كان أرشيد قوياً، وفصيحاً، ومُفكّراً، ومُنضبطاً، وهو يَملك كل الصفات التي لا أملكها، وكان يَجبُ أن يكون رئيسَ الفرع في فلسطين، لكنهُ لم يكن معروفاً لدى الحزب آنذاك.

وهكذا حَصَرَ الحزب نشاطَهُ في استمالة أعضاء جدد. كان الشباب أساساً هم الذين يَنضمُّون إلى الحزب، وليس الفلاحين الذين توجَّب عليهم أن يكونوا قد نالوا قسطاً من التعليم لأن الأمور التي كنا نتحدث فيها كانت ذات صبغة فكريّة. فهناك قدرٌ كبيرٌ من الحديث عن تعريف الأمة، والفرق بين الأمة والدولة، والفصل بين الدولة والكنيسة. أمور من هذا القبيل. كان كتابنا

المُقدس هو الكتاب الذي خطّهُ سعادة في السجن، «نشوء الأمم». ولم يكن الأعضاء كلُّهم من الطلاب، بل كانوا مُسَيَّسين، وعلى اطلاع. وكان لدينا أعضاء رائعون، شديدو الصلابة.

مع اقتراب نهاية عام ١٩٤٧، قرَّرنا إدخال التدريب العسكري. ولكن، في ذلك الوقت، بدأ الأمر يصبحُ أكثرَ صعوبة، فليس لدينا ميادين مفتوحة يَسهُل الوصولُ إليها، للتدريب على الرماية، مثلاً. كان لدى الحزب برنامجُ تدريبٍ عسكري ومُدَرّبون في لبنان آنذاك، ولكن في فلسطين، لم يكن لدينا مثلُ ذلك.

بلغ نشاطي في الحزب ذروتهُ قبل التحاقي بالعمل في بيت المال العربي. واستمرَّ بعد ذلك. لكن انضمامي إلى بيت المال العربي كان نوعاً من التعويض. ففي الحزب، كان نشاطنا ذهنياً (اجتماعات، وتثقيف عقائدي وسياسي). لم أشعر أننا نقومُ بشيءٍ عمليّ. كانت هناك مجموعات من أبناء القرى، تجتمع بين وقت وآخر، خصوصاً في عام ١٩٤٧ حين كانت تقع مصادماتٌ مع الصهاينة، لكن الحزبَ كان خارج ذلك النطاق. وبالنسبة لي، فإن فرصة شغل منصب مدير بيت المال العربي وفّرت لي شكلاً أعلى من أشكال الفعل. فمن خلال ذلك، أستطيع أن أقدِّمَ خدمةً للقضية في مجال لديّ إلمامٌ به: التنظيم والاقتصاد.

الشخصيات الفلسطينية السياسية

ظلّت معرفتي بالشخصيات السياسيّة محدودة جداً إلى أن انضمَمت إلى بيت المال العربي. عرفتُ عناصرَ شابّة قليلة مثل أنور نُسيبة الذي قابلتُه خلالَ الأيام الأولى لي في بيت المال العربي. ربّما قابلته قبل ذلك بقليل في جمعية الشبّان المسيحيّين. كان يتمتع بمهارة فائقة في لعبة التنس. كنت أراقبهُ أثناء اللعب، ثم أصبحنا أصدقاء. وعرفت أنور الخطيب وهو مُحام آخر، ربّما كان مع حزب الاستقلال. وهناك ثلاثة أو أربعة أشخاص من يافا من القوميين، قابلتهم في القدس أثناء حضور الاجتماعات أو المحاضرات. ولم ألتقِ بأعضاء من القيادة السياسية إلا بعد انضمامي إلى بيت المال العربي.

إن الاجتماعات المشتركة بين مجلس أمناء بيت المال واللجنة العربية العليا جعلتني على اتصال مع جمال الحسيني، نائب رئيس الهيئة العربية العليا (وكان الحاج أمين الحسيني هو الرئيس غيابيّاً) وإميل الغوري الذي كان الأمين العام. كنت غالباً ما أرى جمال الحسيني، ثم حدثَ أن عرفتُ العلمي بعد أن كتبنا، فايز وأنا، مذكرة تقدِّم أفكاراً للحزب حول كيفية تشكيل الجامعة العربية، وكيف يكون وضعُ فلسطين فيها، وما هي أولويات الجامعة، واستراتيجيتها. وقد أعجبته المذكرة، وهكذا بدأت أزورُه.

عندما كان يجري تأسيس الجامعة العربية، أرسلَت كلّ دولة عربية مُمَثلين عنها إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة لإعداد الميثاق الذي أُنشئت بمَوجبهِ الجامعة. وفي فلسطين عُقِدَت اجتماعات وتمَّ فيها اختيار موسى العلمي من قبل القيادات الفلسطينية ممثلاً وحيداً للفلسطينيين في تلك الاجتماعات التمهيدية، لأنه لا ينتمي إلى أي فصيل. فأجرى اتصالات مع الجماعات السياسية المتنوعة، واتصل بي بصفتي ممثلاً للحزب السوري القومي. فأرسلتُ رسالة (أعتقد أنني أوفدتُ شخصاً إلى لبنان لأنني لم أكن أثق بالبرقيات ولا بالبريد) لتوصيل رسالة إلى قيادة الحزب. كان فايز آنذاك (إن لم أكن مُخطئاً) عميداً للثقافة والإذاعة. على أية حال، كان في منصب رفيع في الحزب، فجاء إلى القدس، وجلسنا معاً بضعة أيام لنُعِدّ المُذكرة التي سترسل إلى الجامعة العربية. كان عملاً مثيراً للاهتمام إلى درجة أننا بعد عام أو عامين، حين نظرنا في المذكرة، لم نستطع أن نتذكّر مَن مِنا كتبَ هذا الجزءَ أو ذاك. كانت أفكارُنا تتحرّك في الاتجاه نفسه. وكان موسى العلمي سعيداً بمُذكرتنا لأنها مُنظمة جيّداً، ومنطقيّة وواضحة. كانت مبنيّةً على أسس وطنية وقومية، غير أننا حاولنا أن نكون واقعيين بقدر الإمكان.

كنت معروفاً في ذلك الوقت، لأنني نشرتُ كتاباتٍ في القدس وفي مجلة في يافا. ويجب أن أعترف بأن معظم كتاباتي كانت طروحاتٍ تفنيدية ضدّ الحزب الشيوعي، لأنه اتخذ نهجاً يتطابق تقريباً مع النهج السوفياتي. كان ذلك قبل صدور قرار التقسيم، ولكنك تستطيع أن تدرك أنهم يستمدّون التوجيه من روسيا وليس من التاريخ الخاص بهم (كانوا مؤيّدين جداً للصهيونية). أقرَّ الحزب الشيوعي في روسيا حقَّ اليهود في إقامة دولة لهم في فلسطين. وكانت رسالتهم هي أنّ على طبقة العمال (البرُوليتاريا) الفلسطينية أن تتعاونَ مع طبقة العمال اليهود في النضال ضد مُلاّك الأرض وضدّ الطبقة البرجوازية الموجودة في الجانبين. وكان ردّي هو «جِدوا لي عشرة يهود يرغبون في النضال ضدَّ الطبقية عندهم بالتعاون معنا، وسأغيِّر رأيي». كنا، فايز وأنا، معبّأين عقائدياً من قِبَل سعادة في هذا الشأن. كانت للحزب نشرة غير منتظمة الصدور، تُكتب بخَط اليَد ثم يجري نسخُها على آلة النسخ، «ستانسيل».

كان موسى العلمي كالمغناطيس بالنسبة للشباب من أمثالي، أولاً، بسبب شخصيته كرجل في غاية النزاهة والالتزام والحرص على أن يتولّى الفلسطينيون تنظيم أنفسهم، مع أنني أعتقد أنه كان ينأى بنفسه كثيراً عن إنشاء تنظيم خاص به. علَّق آمالَهُ على جيلنا، لكنه لم يَقُل لنا كيف نعمل، لم يكن يريد أن يلوِّثَ يديه بالسياسة. كان من الأشخاص الذين يؤمنون بأن السياسة ضرورة، لكنها قذرة. والأمر الثاني الذي جذبَ جيلنا إليه هو تأسيسهُ للمكتبِ العربي الذي كان له فروع في القدس ولندن وواشنطن. استمال إليه

أفراداً من الجيل القديم من أمثال درويش المقدادي وأحمد الشقيري ثم أفراداً من جيل ألبرت وسيسيل حوراني وشباباً مثل وليد الخالدي وبرهان الدجاني. كما أنشأ أيضاً صندوقاً ماليّاً (كان يطمحُ إلى أن يكون رأسماله مليون جنيه فلسطيني) لإنقاذ الأراضي التي تتعرض لتهديد شراء الصهاينة لها. وكان العلمي يحظى بتقدير كبير لدى الدول العربية، فالعراق كان يدعمُه، لكنني لا أعتقد أنه حصل على كل المبلغ الذي كان بحاجة إليه.

بدأَت مشاركتي على نطاق أوسع (في السياسات الفلسطينية) عندما التحقتُ بعملي في بيت المال العربي. لم أنضم إلى أيٍّ من الأحزاب التي كان لها نشاط في فلسطين آنذاك لأنني أصلاً كنت عضواً في حزب، ومنضبطاً، وما كنت لأنضم إلى حزبين. ولو كان لموسى العلمي تنظيم، لكان من المُغري لي أن أنضمّ إليه. ولكن لم تكن تغريني تلك الأحزاب المزعومة (في فلسطين) لأنها لم تكن أحزاباً حقيقية. فليس لديها بُنية ولا تنظيم. كان هناك عددٌ قليل من الوجهاء الذين يجتمعون بين فترة وأخرى ويتحدّثون في العمُوميّات، ولهم تأثيرٌ على الريف، لأن الناس في الريف كانوا يتميَّزون بالحيويّة ولديهم الاستعداد لعمل شيء ما آنذاك وليس لأنهم يجدون ما يلهمُهم عند هؤلاء الوُجهاء. علاوة على ذلك، لم أكن متأثراً بأيٍّ منهم. فجمال الحسيني مثلاً كان لطيفاً، لكنه لم يفعل الكثير. كان يمكن أن يكون القائد الطبيعي من نسل موسى كاظم باشا الحسيني. لكن موسى كاظم توفي في ثلاثينيّات القرن العشرين، وابنهُ عبد القادر كان صغير السنّ في ذلك الوقت. وهناك قادة مثل روحي الخالدي الذي أحببت شخصيته، إذ كان يبدو ذكيّاً، لكنه كان يشغل منصب رئيس البلدية، فلم يكن له نشاط مباشر في السياسة. وهناك عوني عبد الهادي الذي لم نكن نراه كثيراً لأنه يقيم في نابلس، ولديه حزبُه. وهناك آل النشاشيبي الذين لم أكن أميل إليهم على الإطلاق، بسبب ارتباطاتهم بالملك عبد الله (الأول) وبالبريطانيين. وما كان لإميل الغوري، وهو مسيحي، أن يصبحَ رئيساً لحزب كبير. إلى جانب ذلك، كان موالياً للمُفتي. هؤلاء هم الأشخاص الذين أتذكرهم الآن. ولم يترك أي منهم في نفسي أثراً كبيراً.

في أوقات لاحقة، جرَت تحرّكات لتأسيس منظمات شعبية، مثل النجّادة، وهو حزب أنشأه الهوّاري في الناصرة، وهو نوع من أنواع التجمّع للشبيبة. ولكن كان يُعتقد أنه يَلقى التشجيع من البريطانيين لإبعاد الناس عن الحاج أمين. فكان لدى الحزب نوع من الزي المُوحَّد، ولا بدّ أنهم تأثروا في ذلك بالتقاليد النازيّة. هناك مجموعة أخرى تم تشجيعها على الظهور لتحقق التوازن مع النجّادة، وكانت بقيادة كامل عريقات الذي أصبح، نتيجةً لذلك، عضواً في مجلس الأعيان الأردني. وما كان لأحد مثلي أن يُفكر جدياً في الانضمام إليهم لأن دوافعَهم كانت مَشبوهة، ولم تكن لديهم أية أفكار. وبالنسبة للحزب الشيوعي، نأيت بنفسي عنه لِأسباب أيديولوجيّة، بسببِ موقفه من القضية

الفلسطينية. وقد كتبتُ عدداً من المقالات مُستخدماً وجهة نظر الحزب السوري القومي حول هذا الأمر، مُنتقداً الحزب الشيوعي. ونشرتُ تلك المقالات مرّة أو مرّتين في جريدة «الدفاع»، وفي الجرائد الأسبوعية أيضاً. كانت هناك جريدة أسبوعية ينشرها حنّا سويدا في القدس، ومن كُتّابها سليم اللوزي (الذي كان يعيش في فلسطين آنذاك). كما نشرتُ مقالةً أو مقالتين في جريدة أسبوعية في يافا.

خارجَ نطاق الحزب، كان معظمُ نشاطي السياسي يتركزُ في أوساط الشباب الذين كنت أقابلهم في جمعية الشّبّان المسيحيين، لأنني كنت أتناول معظم وجباتي هناك. كان المبنى الجديد للجمعية، المُواجه لفندق الملك داوود مباشرةً يبعدُ مسافة مائة متر عن مكاتب شركة سابا، فكنتُ أخرج من مكتبي لأتناول طعامي في الجمعية. وكان كثير من هؤلاء الشباب من طلبة الحقوق الذين يدرسون في مدرسة الحقوق في القدس. تلك مجموعتي. كنّا دائماً نتحدث في السياسة.

كتبتُ أيضاً قِصتين أو ثلاثَ قصص أثناء وجودي في فلسطين. ولا بدَّ أن ذلك جرى بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٦. أتذكر أنني قابلتُ جبرا جبرا الذي كان نشيطاً جداً في المجال الثقافي، من خلال جمعية الشّبّان المسيحيين (وكانت تشكل مكاناً للالتقاء بالنسبة لكثير من الناس). وذات مرّة سمعَ أنني كتبتُ قصة قصيرة، فعرضتُ عليه آخرَ قصة كتبتُها. والتقينا مرَّة ثانية، وأصر على أن أقرأها في اجتماعنا التالي. ونالت إعجابه، كما نالت إعجاب المجموعة. ولا أتذكر شيئاً منها، لا أستطيع أن أتذكر حتى عنوانها. وأظن أن القصص التي كتبتُها كانت عاطفية جداً، ولا تتضمن أحداثاً كثيرة، بل فيها الكثير من الفكر والمشاعر.

كوّنتُ مكتبةً أيضاً. فقد بدأت المُطالعة في المدرسة الثانوية، وواصلتُ ذلك في بيروت. أحببتُ الروايات بصفة خاصة. فكنتُ أذهب إلى «مكتبة سعيد» لشراء الكتب، وإلى مكتبة «ستاندرد ستيشنري» التي يَملكها والدا إدوارد وجورج سعيد. وفي النهاية كان عليَّ أن أخلّفَ مكتبتي ورائي. كانت تضمُّ، إلى جانب كتبٍ كثيرة، الموسوعة البريطانية لعام ١٩٣٤. قبل أن يُقبَض عليَّ كأسير حرب، تمكنتُ من تخزين مكتبتي لدى جمعية الشبّان المسيحيين. وبعد سنوات، عندما كنت أعمل في وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، استطعتُ الاتصال بلبيب ناصر، وهو مدير الجمعية المذكورة آنذاك. فكتبَ إليّ يقول إن الروايات أصبحت قديمةً وباليةً، ولكنه سيرسل الموسوعة.

لم أكن أرى عائلتي كثيراً أثناء تلك الفترة. فكنتُ أمرّ من طبريا وأنا في طريقي إلى الجليل لتشكيل لجان لبيت المال العربي. وطبريا تقع على طريق

صفد، ولا تبعد كيلومترات كثيرة عن الناصرة، فالمسافة أقل من نصف ساعة بالسيارة. كنت أذهب كلّ بضعة أسابيع لزيارتهم في عطلة نهاية الأسبوع. لكنني شعرت بالذنب طوال الوقت لأنني لم أكن أعيرُهم الاهتمامَ الكبير الذي يستحقونه. فعوّضت تقصيري إلى حدٍّ ما بالاتصال هاتفياً. وشكّل ذلك ضغطاً عليهم. وذاتَ يوم كتبَ أبي يقول إنه قد أصبحَ لديهم جهاز هاتف. فأصبح الأمر هيّناً، وبدأنا نتواصل.

تقرير حول جوع الأرض العربية

كان مبعث قلقي أساساً هو أننا نتراجع في ميدانيْن: الأرضُ تؤول إلى اليهود، والمهاجرون يأتون بأعداد أكبر بكثير مما يعترف به البريطانيون. تابعت الإحصائيات، وبفضل سامي هداوي، كنت على اطّلاع بشأن المعلومات حول انتقال ملكية الأراضي، لأنه كان أعلى مسؤول في مجال ضريبة الأراضي ومِلكيتها، وربما أعلى مسؤول عربيّ في حكومة الانتداب. ففي ظل الانتداب لم يكن هناك وزارات. كان هناك أمناء؛ كبيرُ الأمناء ويتبعُهُ الأمناء. وأظن أن سامي كان يدير أمانة مِلكيّة الأراضي والمستوطنات، ويتولى مسؤولية سجلات الضرائب والإحصائيات. وكل ما احتجتُ إليه كان يتوفر لي من خلاله. وهكذا حصلتُ على كل ما أردتُ من معلومات لورقة البحث التي كنت أعدُّها حول جوع الأرض العربية.

طلبَ المكتب العربي مني أن أعِدّ هذه الورقة بناءً على اقتراح من ألبرت حوراني، عندما طلبت الهيئة العربية العليا من المكتب العربي إعداد ملف عن القضية العربية لعرضه على اللجنة الأنكلو - أميركية لتقصي الحقائق بشأن المشكلة الفلسطينية. أدركَتْ الهيئة العربية العليا أن المهارات الفكرية اللازمة لذلك لم تكن متوفرة عند أعضائها. وبالفعل، لم تكن لدى الهيئة أية بُنية على الإطلاق. حين يغادر جمال الحسيني المكتب في المساء، فإنه يغلق الباب ويضعُ المفتاح في جيبه. لم تكن هناك سكرتارية، هناك شخص أو اثنان لإعداد القهوة (لم تكن هناك حتى سكرتيرة لتدوين الملاحظات أو القيام بأعمال الطباعة). ومن حسن الحظ أنهم أدركوا نواحي القصور لديهم، لذلك طلبوا من المكتب العربي، أيْ من موسى العلمي الذي يساعده نائباه، أحمد الشقيري ودرويش المقدادي، إعداد القضية. وفي الواقع تركّزَ العبءُ كلُّهُ على ألبرت حوراني الذي كان عليه أن يضع الأفكار الرئيسة، وأن يُقرّر ما سيضمّنهُ من معلومات. كانت هناك عِدّةُ أوراق وعِدّةُ أشخاص شاركوا في إعدادها.

وهكذا كتبتُ الورقة. حصلتُ على المعلومات الأساسية من سامي هداوي الذي زوَّدني بالمصادر، ووضعَ تحت تصرّفي جميع تقارير لجان تقصّي الحقائق

التي جاءت إلى فلسطين، منذ العشرينيات وحتى ذلك الوقت (تقرير بيل، وتقرير كينج - كروسبي، وتقرير شو، جميعها). كان مسؤولاً عن إعداد إحصائيات القرى، ذلك العمل المرجعيّ الرائع الذي يشمل تفاصيل المِلكية (العربية واليهودية، وملكية الدولة)، ليس فقط مدينةً فمدينة أو قريةً فقرية، بل مزرعة فمزرعة. وما كان على القدْر نفسه من الأهمية ليس، ببساطة، تحديد المساحة التي تملكها كل فئة، ولكن تفصيل فئات الأراضي أيضاً، فهناك ست عشرة فئة، مُوزعة حسب درجة الخصوبة. وكان على سامي أن يملك مثل هذه المعلومات، لأن تحصيل الضريبة يستند إلى مدى خصوبة الأرض.

في هذه الورقة، فعلتُ ما أعتقد أنه كان شيئاً جديداً (ويجب أن أنشرها ذات يوم). حتى ذلك الحين، كانت الفكرة السائدة هي «أن العرب لديهم ملايين لا تحصى من الدونمات، واليهود لديهم ملايين معدودة من الدونمات، لذلك فإن العرب في وضع أفضل. وبالتالي بإمكانهم التخلي عن الأرض». ما فعلتهُ هو أنني قلت «دعونا ننظر إلى جودة الأرض». الفئات السبع أو الثماني الأولى تخضع للضريبة، إذا كنت أتذكّر جيّداً، لأنه كان يُفترَض أنها تدرّ ربحاً صافياً كبيراً لكل دونم. فإذا أنفقتَ مقداراً مُعيّناً من الجنيهات سنوياً على الدونم، من أجل الإنتاج، فإنك ستحصل على مقدار كذا مقابلَ ذلك. وكان أعلى معدل ينتج عن زراعة الحمضيات، تليها زراعة الموز، ثم باقي أشجار الفاكهة، وهكذا حتى تصل إلى مستوى يكون فيه هامش الربح صفراً. والفئات التي تقل عن هذا المستوى لم تكن تخضع للضريبة. فراجعتُ قائمة الأراضي التي يملكها العرب الفلسطينيون، لواءً فلواء، وقضاء فقضاء لكي أعرف ضمن أية فئة تندرج قطعة الأرض. ثم وضعت مقياساً فجعلت الدونم الأقل في سلم الضرائب دونماً قياسياً. وهذا له درجة واحدة، والدونم الأعلى منه ضريبةً له درجتان، والثالث له ثلاث درجات وهكذا. بهذه الطريقة حوَّلت ملكية العرب واليهود للأراضي إلى دونمات قياسيّة. أظهرَت هذه الطريقة أن الفوارق بين الجانبين في قيمة الأرض أكبر بكثير مما تظهره الأرقام الصمّاء. أخذ اليهود منطقة مرج ابن عامر وأراضي حيفا التي تتلقى معظم كمية الأمطار. وبالطبع اشتروا أراضي لأغراض إستراتيجية أيضاً، ولكن الإنتاجية لها اعتبار كبير، كانت النتائج التي توصلت إليها تشكل لبَّ تقرير «جوع الأرض العربية».

لا أدري مدى التحرير الذي جرى على المخطوطة التي أعددتها. لم ينشروا «تقرير» قضية فلسطين لأن الأحداث كانت تتلاحق بسرعة فائقة آنذاك. لكنني أتذكر أن ألبرت حوراني قال لي إنهم أعدّوا تقريراً شاملاً يجمع الأوراق كلها (السياسية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية وما إلى ذلك) في ورقة واحدة هي الورقة الأم. وأرفقوا الأوراق الفرديّة كمَلاحق. ويجب أن أعترف بفضل الشخص الذي حرَّر ورقتي، وهو جون كوك. لم تكن لغتي الإنكليزية ممتازة في ذلك الوقت. حذفَ كلّ شيءٍ ينمُّ عن الغضب أو الانفعال. فقد

اكتشفت أثناء عملي الكثيرَ من الظلم مثل ترحيل مئات العائلات من مرج ابن عامر (ويضم ثلاثاً وعشرين قرية في المجموع). وقد ظهرَت مشاعري في ما كتبت. قال جون: «اهدأ، أنت تكتب للبريطانيين والأميركيين. ستفقد قوة حجّتك». استمرَّ في الحديث حتى أقنعني بتهدئة نبرة التقرير هنا وهناك. قضى عدة أيام وهو يعمل على ذلك.

كتبت تقاريرَ أُخرى، فكان عددٌ منها حول الاقتصاد السياسي (رغم أن مفهوم هذا المصطلح لم يكن مألوفاً لديّ آنذاك) من حيث علاقته بالكفاح وتمويل الكفاح، ومرَّرتُها إلى جمال الحسيني. شكّلت التقارير نتاجات موازية للعمل التنظيمي الذي كنت أقوم به لبيت المال العربي. وعلى سبيل المثال، كان ينبغي أن أبرِّرَ الضرائب التي سنفرضها، فكتبتُ مذكرة لتبرير ذلك، والمبادئ التي تنطوي عليها، وكذلك تبرير فئات الضريبة التي ستُحصِّلها. وللقيام بذلك، كان ينبغي أن أرجعَ إلى إحصائيات توزيع الدخل. ومن حسن الحظ، ظهرَ عددٌ من الدراسات الحديثة خلال العامين أو الأعوام الثلاثة الأخيرة. وواحدة من أهم تلك الدراسات في رأيي، كانت دراسة اجتماعية - اقتصادية مُفصَّلة جداً حول خمس قرى. وكان هناك أيضاً مسح لفلسطين: Survey on Palestine تمَّ إعداده من أجل اللجنة الأنكلو - أميركية لتقصّي الحقائق، وكذلك الدخل القومي في فلسطين the National Income of Palestine وكان يتولى إعداده سنوياً لوفتاس، مسؤول الإحصاء في الحكومة. وبدأتُ أطّلع عليه، وعلى الحسابات القومية خلال العامين ١٩٤٤، ١٩٤٥ وعن عام ١٩٤٦ (وأظنّ أن هذا هو آخر الإصدارات). واستناداً إلى ذلك كله، كتبت مذكرات موجزة تقع كل منها في بضع صفحات، معتقداً أن هناك من يقرأها ويستوعبها، ويستخدمها كمُدخلات في عملية صنع القرارات السياسية. وحقيقة كون أن الناس لم يُحسنوا استعمال هذه المذكرات لم توقفني أبداً عن كتابتها. كنت متحمساً ومفعماً بالطاقة.

هناك شيء آخر كتبتهُ خلال تلك الفترة، دراسة عن التجارة الخارجية لفلسطين، لأبيِّن مقدار ما كان منها مع بريطانيا ومع الدول الغربية. لم أكن أعد الدراسة لأقدمها إلى جمال الحسيني. فحين كنت أعدها، سمع عنها والد رياض خوري، ناشر مطبوعة شهرية في يافا، وكان يُعِدّ دليلاً اقتصادياً عن فلسطين، فقال: «عندما تنتهي منها، أعطني إياها وسأنشرها في الدليل». ونُشرَت في مطبوعته، كانت دراسة مُستفيضة. كان هناك حديث كثير حول المقاطعة في تلك الأيام، وأردتُ أن أرى ماذا تتضمَّن هذه المقاطعة. كم من التجارة لدينا في فلسطين، وكم منها يرد من إنكلترا وكم يرد من أميركا؟ وأردت أن تُنشر، ونُشرَت. كنت واثقاً من أنني سأجد لها منفذاً.

إدارة بيت المال العربي

كنت أعمل مع سابا وشركاه مديراً لفرعهم في القدس عندما اتصل بي الدكتور عِزّت طنّوس. عرفت د. طنّوس وكنت أكنّ له الاحترام كشخص تخلّى عن ممارسة مهنة الطب وشراكته في الأعمال التجارية التي تدرّ ربحاً وفيراً مع أخيه سليمان في وكالة سيارات كبرى في فلسطين، ليكرِّسَ وقته للقضية القوميّة. استعمل معي الصّيغة التي سمعتها منه مئات المَرّات خلال مدة السنة ونصف التالية:

- لما جيت تزورني، جيت بالسيارة؟ قلت:

- لأ، جيت بالباص.

- طيِّب، الباص بحاجة لبترول! شو بترولنا؟ إحنا بحاجة للمال من أجل الكفاح. عشان هيك طلبت منك تيجي وتزورني.

تبيَّن أن مجموعة من الوجهاء، عشرة أو خمسة عشر وجيهاً، اجتمعوا وقرّروا أننا بحاجة إلى جمع الأموال من الفلسطينيين. ويجب عمل ذلك مع أن فلسطين ليست بلداً غنياً، والفلسطينيون ليسوا أغنياء. وينبغي أن نرى المقدار الذي نستطيع جمعه. وقد رأوا أن يتمّ ذلك من خلال جهاز مُستقلّ، لا يتبعُ مباشرة للهيئة العربية العليا، لأن الهيئة لم يكن مشهوداً لها بالكفاءة، ولا يثق أحد في أن الأموال التي تُجمع سيتم استخدامها بطريقة سليمة.

قرَّرَت المجموعة أن أول خطوة يجب القيام بها هي تأسيس مجلس للأمناء. كان رئيس مجلس الأمناء، «إذا كانت ذاكرتي صحيحة»، هو الحاج طاهر قرمان، والأمين التنفيذي هو د. عِزّت طنّوس. والوظيفة التي عرضها عليّ هي أن أكون المدير العام لبيت المال العربي. قبلت العرض فوراً قبل أن نتحدث عن الشروط. كان ذلك قبل أن أكتب «تقرير جوع الأرض العربية»، وكنت حينها قد أصبحت معروفاً نظراً لأن العديد من مقالاتي كانت قد نُشرَت. كما أن جميعهم كانوا يعرفون أنني المفوَّض العام للحزب السوري القومي في فلسطين.

باللغة العربية، كان الصندوق المالي يدعى بيت المال العربي، ولم يكن الناس في تلك الأيام يستعملون كلمة الفلسطيني كثيراً. هناك أشياء كثيرة تطلق عليها صفة فلسطيني، لكن الأسماء الرسمية تتضمن كلمة العربي (مثل الهيئة العربية العليا، وليس الهيئة الفلسطينية العليا) لأن اليهود كانوا فلسطينيين أيضاً. وبيت المال تعبير مأخوذ من العهد الإسلامي للدلالة على الخزينة أو الصندوق المالي.

قبلتُ الوظيفة، لكنني أبديتُ إصراراً على أن لا يُدار بيت المال العربي على أساس «الفزعة». والفزعة تعني أن تهرع قرية مثلاً لنجدة قرية أخرى، أو أن

يشعرَ خمسة أشخاص فجأة بنوبة من الكرَم، فيتبرّع كل منهم بمائة جنيه. قلت إن بيت المال يجب أن يُدار بطريقة علمية. طلبت منهم أن يُمهلوني أياماً لكي أعِدّ مذكرة موجزة توضّحُ أفكاري حول الموضوع، وعدتُ على الفور وقدمت استقالتي من سابا وشركاه. كنت أحس بالإثارة والحماسة الشديدتين إزاء الوظيفة الجديدة. وقد أكدَ طنّوس ورئيس مجلس الأمناء لي أنني سأكون طليق اليد في الإدارة، ضمن الخطوط العامة لشروط التأسيس. ووافَقا على مذكرتي وطلبَا مني إعداد الهيكل التنظيمي.

بدأتُ بتنظيم محدودٍ جداً. وعلى الرغم من أنه تطوّرَ لاحقاً - إلا أن المكتب الرئيس في القدس لم يضمّ في أي وقت من الأوقات أكثر من اثني عشر موظفاً، لكل فلسطين. ولكن كان لدينا موظفون في معظم المدن في مختلف أنحاء فلسطين، سواء كانت على مستوى لواء مثل نابلس أو قضاء مثل جنين وطولكرم. كانت هناك ميزانية (قدموا لنا من المال ما يكفي لكي نبدأ لأنني قلت لهم إن الاستعدادات ستستغرق ستة أشهر على أقل تقدير). فقدّموا ميزانية تغطي تلك المدة وقالوا: عندما تبدأ في جمع الأموال، سوف نعيد النظر في الميزانية. كانت الرواتب قليلة جداً. أتذكر أن راتبي انتهى إلى ستين جنيهاً فلسطينياً. كنت أتقاضى في سابا وشركاه الراتبَ نفسَه، ولكن في سابا كنت أتمتع بمزايا كثيرة. فخلال سنة أو سنتين، كان يُمكن أن أصبح شريكاً وأحصل على نسبة من الأرباح.

تضمَّنت المرحلة التحضيرية أساساً أمرين اثنين: إعداد الأفكار بشأن كيفية إيجاد الشرعية التي تجعلنا نُطالب الناس بدفع المال. وفكرت في طريقتين: ضريبة يدفعها كلّ فلسطيني، سواء كان غنياً أو فقيراً، رجلاً أو امرأةً، صغيراً أو كبيراً. ومقدارُها شلِن واحد في السنة. والنوع الثاني من الضريبة يجب أن يعكس القدرة على الدفع، أي أنه نوع من ضريبة الدخل. ولكن لأننا لم نكن حكومة، وليست لدينا وسيلة لمعرفة الدخل الفعلي للناس، كان علينا أن نصنف الناس إلى فئات بناءً على المهنة: الأطباء، المحامون، المهندسون، النجارون، الكهربائيون، صانعو الأحذية، الحلاقون... وضمنَ كل مهنة هناك حدٌّ أدنى وحدٌّ أعلى، وذلك لإيجاد علاقة بين كل مهنة والمهن الأخرى. وتطلب ذلك عملاً كثيراً، وإجراءَ بعض الأبحاث. كان عليّ أن أستفيدَ من إحصائيات الحكومة حول توزيع الدخل. كان عملاً متكاملاً ما زلت فخوراً جداً به. والشيء الوحيد الذي تبقى من ذلك العمل هو المذكرة التي كتبَها سعيد حمّود عندما كان معي في مركز التخطيط. قابلَني لمدة طويلة وكتبَ دراسة تتألف من ٣٠ أو ٤٠ صفحة عن تجربة بيت المال العربي.

كان ذلك هو الجانب المُتعلق بالأفكار. والشيء الآخر الذي يجب إعداده هو الهيكل الإداري. قرّرتُ أن أفضل الأمور هو أن نُشرك أكبر عدد ممكن من

الناس في تلك الجهود. ويمكن أن يحدث ذلك فقط إذا كانت لدينا لجان في كل بلدة أو قرية كبيرة. كان لدينا العشرات من تلك اللجان، وقد تنقلتُ بينها جميعاً. أتذكر أنني في البداية كنت أغيب عن القدس مدة عشرين يوماً كلّ شهر، إن لم يكن أكثر من ذلك، متنقلاً من لواء إلى لواء، وحدي. وبالطبع كانت الرسائل ترسل مسبقاً إلى القادة في تلك المدن تقول: في وقت قريب سيقوم المدير العام أو أحد مساعديه بزيارتكم لتشكيل لجنة تتولى تحديد من تحقّ عليهم الضريبة، ولجمع الناس معاً حسب مِهَنهم، ومعرفة مقدار الضريبة التي يتوجّب على كل منهم دفعها.

وهكذا، كُلّما ذهبتُ إلى منطقة، أجد الناس على علم بقدومي. وكان يتم دائماً ترتيب اجتماع كبير يضم ما لا يقل عن خمسين شخصاً في بلدة يبلغ تعدادها ستة أو سبعة آلاف نسمة، وهؤلاء الخمسون هم اللجنة الوطنية. لكنني كنت أمكث أياماً قليلة أخرى لكي أجتمع مع الحلاقين والنجّارين والمُعلّمين وغيرهم، وكنت أقول لكل مجموعة: «الآن المعلمون يدفعون ما بين جنيهين وستة جنيهات، وأنتم تعرفون رواتب بعضكم البعض، فمن الذي يجب أن يدفع جنيهين؟» فكانوا يقولون فلان وفلان. فكنا نُعِدّ قوائم ويتمّ توقيعها من قِبل اثنين أو ثلاثة منهم وهم بمثابة رؤساء للمجموعات المهنيّة، وكنت أحضرُ معي نسخاً من هذه القوائم عند عودتي.

في الألوية نفسها، في مراكزها، مثل الناصرة في الجليل، ونابلس في لواء نابلس، أو غزة في لواء الجنوب، كان لدينا مدير لبيت المال له راتب ويتابعُ اللجان المهنية ليتأكد من أن المبالغ قد جُمعَت، كما كانوا يذهبون إلى البقاليات التي تجمع ضريبة الشلِن، لأن هذه الضريبة كانت تُجمع بشكل منفصل من خلال البقاليات التي تتولى رسمياً مسؤولية توزيع حصص الغذاء. وكان لديها قسائم قيمةُ كلٍّ منها شلن، وفي كل قسيمة ثلاثة أجزاء مخرمة. فكانوا يقطعون جزءاً منها ويعطونه لرب العائلة عندما يذهب لأخذ حصته من الطحين والسُّكّر في مطلع كلّ شهر. لا أتذكر أن أحداً قال: «لا، لا أستطيع أن أدفع»، كان الناس يدفعونها ثم ينسون الأمر. ومقابلَ كل شلن يأخذه البقال كان يصدرُ ورقة، ويربط الجزء الثاني من الورقة المخرمة (وكل منها تحمل نفس الرقم ونفس النص) مع سواها بخيط متين حيث إنها كانت تشكل رزمة كبيرة، ثم يذهب إلى البنك ويحوِّل الأموال بموجب لائحة تضم جدولاً مفصلاً بمضمون الحساب، كنا ندعوها «bordereau» وهي إشعار يقول نصُّهُ «مُحَوّلة من فلان وفلان قيمة خمسة وأربعين جنيهاً» لنقل مثلاً «لحساب بيت المال العربي، رقم حساب كذا وكذا في القدس». كانوا يفعلون ذلك مباشرةً بعد كل عملية جمع للضرائب. كانت البقاليات تجمع مرة كلّ شهر لأن توزيع المُؤَن يتمّ مرةً كل شهر، في حين أنه بالنسبة لضريبة المهنة، كانوا يرسلون الحوالة كلّ شهر أو نحو ذلك.

استغرقت المرحلة التحضيرية أكثرَ من ستة أشهر لأنه بالرغم من أن فلسطين لم تكن فيها مدن كبيرة عديدة، إلا أن فيها الكثير جداً من البلدات الصغيرة والقرى الكبيرة. لذلك استغرق التنقل لتشكيل اللجان وإيجاد المديرين لإدارة الأمور وقتاً طويلاً. كان سامي العلمي هو المدير في غزة، وفي يافا كان علي شعث، والد نبيل شعث وهو رجل لطيف جداً، وكان المدير في الناصرة هو خالد الفاهوم «الذي أصبح فيما بعد رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني»، وكانت الوظيفة في المدن تقتضي التفرّغ التام، فكان عليك أن تتنقل من منطقة إلى أخرى. وعلى مديري الألوية أن يذهبوا إلى الأقضية أيضاً (اللواء في زمن الانتداب كان يضمّ عدة أقضية). ولم يكن لديهم مساعدون لأننا قلنا لهم إنه يجب أن نكون حريصين على المال. كنت أنا المدير العام لبيت المال العربي، ولم أكن قد بلغت الثلاثين من عمري بعد. حسناً، في الثلاثين من العمر، كان نابليون إمبراطوراً.

بدأنا بجمع المال بصورة جدّية في مطلع عام ١٩٤٧. ولسوء الحظ، لم يكن لدينا وقت كثير، لأنه في ذلك الوقت، ارتفعت حدّة التوتر، وكانت بعض المناطق شديدة الخطورة، ويصعب السفر إليها. على سبيل المثال، كان الذهاب إلى الجليل عبر مرج ابن عامر تجربة مرعبة جداً على نحو دائم، بسبب وجود مستوطنات عديدة هناك. في كل مرة، كان عليَّ أن أفكر في مكان أخفي فيه الأوراق داخل سيارتي. كان المستوطنون يوقفون الناس، والذهاب إلى حيفا كان مشابهاً لذلك تماماً. لم يكن لديهم الحق في إقامة نقاط للتفتيش، كان ذلك يشبه ما جرى في بيروت إبان الحرب الأهلية. فحين لا يكون البريطانيون موجودين فعلياً، فإن المستوطنين يفعلون ما يريدون. وقد استعملتُ حيلة مفيدة، فكلما كنت أرى أشخاصاً قرب مستوطنة يتطلعون إلى من ينقلهم (شباب يهود ونساء بشكل عام)، كنت أتوقف وأقول لهم: مرحباً، لوين رايحين؟ بَوَصِّلكم. ثم كنت أتوقف لإنزال الركاب، ويلوحون لي بمواصلة المرور.

المرّة الوحيدة التي شعرتُ فيها بالخوف فعلاً كانت عندما تذكَّرت فجأة، بين جنين والناصرة أن معي مسدّساً. أين أضعُ المسدّس؟ لم يكن من المعتاد أن يقوموا بعملية التفتيش الجسدي، ولكن إذا ما فعلوا ذلك، فلا بد أن أكون مستعدّاً. توقفتُ بعدَ جنين وخطرَ لي فجأة أن سيارتي الجديدة من طراز ستودبيكر فيها آلية تضغط من خلالها على زر في الداخل فيُفتح الغطاء الذي يُصَبُّ من خلاله البنزين. لم يكن له مفتاح من الخارج. واكتشفت أن وراء الغطاء متسعاً للمسدَّس، ويمكن أن أضعه هناك وأقفل الغطاء. ورأيتُ أن أسوأ ما يمكن أن يفعلوه هو أن يأخذوا المسدّس ولا يؤذونني. لكنهم كانوا ينظرون تحت المقاعد فقط ثم يشيرون عليّ بالذهاب. وكان الذهاب من حيفا إلى القدس أيضاً عمليةِ تنطوي على الكثير من التحايل.

وذات مرة، كنت ذاهباً إلى نابلس التي كنت أظن أنها آمِنة دائماً. ولكن كانت هناك مستوطنة يهودية على الطريق دمَّرها رجالنا في وقت لاحق. وعلى حين غرة، وقع هناك انفجار وأحدثَ فتحة كبيرة في الزجاج فوق رأسي. فتوقفتُ ونظرتُ حولي فرأيت شاباً على أرض مرتفعة. ورأيت أنه هو فقط الذي أطلق النار. فأخرجتُ مسدّسي وأطلقتُ طلقتين باتجاهه. لم يكن لديّ أي تدريب عسكري. وعندما حصلت على المسدس الذي قدمه لي «بيت المال» لأحمله في تنقلاتي، ذهبت إلى أريحا لمدة أسبوع مع أحمد وكنا نصوِّب نحو أعمدة الهاتف. وهكذا، أطلقتُ الرصاصتين باتجاه ذلك الشاب، وهما الرصاصتان الوحيدتان اللتان أطلقتُهما في حياتي على إنسان. فانحنى واختفى، وقُضي الأمر. فقد عرف أنني لا بدّ أن أكون عربياً لأنه ما من يهودي يمكن أن يستخدم سيارة فاخرة كسيارتي في تنقلاته آنذاك.

كانت الوظيفة متعبة جداً، تتضمن تنقلات كثيرة للتأكّد من عدم وجود شبهة ولو ضئيلة لتصرف مشين يدل على أن المال لا يُصرف في مواضعه الصحيحة. كنا مسؤولين فقط عن جمع الأموال وليس عن صرفها، كنت أصرُّ على أن تذهب الأموال إلى أعلى سلطة يمكن الوصول إليها، وفي الوقت نفسه، قرر المفتي أنه يريد أن يحصل على الشيكات. فكنت أذهبُ كلَّ شهرين أو ثلاثة للقائه، مرّةً في عاليه ومرة أو مرتين في القاهرة، في حلمية الزيتون في طريق المطار. وبالنسبة للهيئة العربية العليا، فقد تميّزت بعدم الكفاءة، وليس عدم النزاهة. كان الناس يظنون دائماً أن المال ينتقل «إلى جيوب البعض». ولكن لم تكن هناك أموال، لم يكن الناس يدركون ذلك. بل ظنّوا أن الهيئة العربية العليا تأخذ أكداساً من المال من الجامعة العربية. كلام فارغ! كنت محبوباً عند المفتي، وكان يُقدِّر عملي كثيراً خصوصاً أننا في الأشهر القليلة التي عملنا فيها نجحنا في جمع ١٧٦ ألف جنيه إسترليني ومن بلد فقير كفلسطين! وكنا في البداية فقط.

بعد ذلك بدأ عِزّت طنوس، بعكس نصيحتي له، وبدافع من نجاحات عملنا، يصدر بياناتٍ لا نهاية لها للصحافة. وكنت أقول له دائماً:

- من شان الله خليك بعيد! البريطانيين رح يزعجونا، والصهاينة رح يهدّدونا.

في الواقع حاولوا مرّتين أن يهاجموا مكتبنا الرئيس في بناية طنّوس في القدس القريبة جداً من المدينة القديمة، بجوار وادي السلطان. كان لدينا حُرّاس وقد حرصتُ على التأكد من أنهم مدرَّبون جيداً. كنت أطلب منهم أن يأتوا بعد حلول الظلام بحيث إذا جاء ستة أو سبعة من الصهاينة زحفاً على التل إلى مكاتبنا لنسفها بالمتفجرات، فإنهم لن يعرفوا أن هناك حراساً حتى يجدوا فجأة خطاً من النار في مواجهتهم. حاولوا أن يفعلوا ذلك مرّتين، فأطلق الحراس النار فقط، لا نعرف إذا كانوا قد أصابوا أحداً أم لا. ثم بدأنا

نتلقى ترجمات للمواد الإخبارية في الصحف اليهودية تذكُرُ «أن الفلسطينيين يجمعون المال لشراء الأسلحة» (وهذا ما كنا نفعلُه). كنا نعطي الأموال للمفتي ليشتري بها السلاح. ولكن لم يكن هناك وقتٌ للذهاب بعيداً في هذا الأمر. أتذكر في أحد البيانات (للصحافة)، ربما في الأسبوع الأخير من عملياتنا، ذكر عِزّت طنّوس رقم ١٧٦ ألف جنيه متفاخراً به، وبعد يوم واحد، تبرّعت أرملة يهودية عجوز من جنوب أفريقيا، وتعيش في فلسطين، بمليون جنيه إسترليني. أحسستُ عندئذٍ بعقم عملِنا كلّه.

استمرَّ العمل إلى أن أصبحَ من المستحيل السفر بدون التعرض لخطر جدّي على حياة المرء. في تلك اللحظة، قالت لي الهيئة العربية العليا (شوف، لا تستطيع أن تجمع أية أموال الآن، فأي شخص لديه مال قليل فائض، يريدُ أن يشتري به خبزاً لعائلته في حال ارتفاع الأسعار). أرادوا مني أن أفعل شيئاً آخر، وهو أن أكون ضابط اتصال بين الهيئة العربية العليا والجيش البريطاني الذي بدأ يُخلي المعسكرات. قابلت الضابط الآمر في القدس. قال لي:

هذي سياستنا: إذا كان المعسكر واقعاً في منطقة ذات أغلبية يهودية، فإننا نُسلِّمُه إلى الهجاناه وإذا كان في منطقة ذات أغلبية عربية، سنُسَلِّمُه إليكم، ولكن إذا كان بين بين، أي في منطقة مختلطة فيها عرب ويهود، فإننا سنغادره، ومن يسبق الآخر يحصل عليه.

كان المعسكر من الفئة المختلطة، وصلنا إليه قبل اليهود، وهذا ما جعلني أصبح أسير حرب. كان المعسكر يقع إلى الشرق من البقعة، حيث قال جيش الإنقاذ إنه أرسل مئة وخمسين رجلاً. وصلوا، لكنهم انسحبوا، وانتظرتُ وانتظرتُ، ثم انتظرتُ وصول التعزيزات، لكنهم لم يصلوا أبداً. ثم أُغلقَت الطريق إلى المدينة القديمة، ووقعنا في المصيدة. في البداية لم أكن أريد أن أغادر لأنهم ظلوا يقولون إنهم أرسلوا القوّات. في آخر يومين أو ثلاثة كان يمكن أن نغادر بالسير نزولاً من طريق وادي السلطان للخروج من أحد أبواب المدينة القديمة مع أن ذلك ممكن في الليل فقط، أما في النهار، فذلك اقتراح قاتل، وهكذا كان.

المفتي

ينبغي أن أقول إنني أكنّ احتراماً كبيراً للحاج أمين الحسيني الذي تعرفت به في عام ١٩٤٦، بعد بضعة أشهر من تسلّمي إدارة بيت المال. في ذلك الوقت لم يكن لدي ما أقوله له حول الصندوق، لأننا لم نكن قد جمعنا أية أموال بعد، ولكن كان لديّ ما أقوله له استناداً إلى المعلومات التي قُدِّمت لي من قبل شخصيات خبيرة عسكرياً، حول ما يجب أن نفعله، وأيّ نوع من التدريب يجب أن يتوفر لدينا، وأي نوع من الأسلحة يجب أن نشتري. جمعت المعلومات كلّها

ونظمتها ونسقتها في نقاط. سافرت إلى القاهرة حيث كان يقيم في ذلك الوقت. كان مكان إقامته قريباً من منزل جمال عبد الناصر، في طريق المطار.

كان المفتي في العراق عندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني. وعندما انهارت، غادر إلى إيران. وحين انهارت إيران سافر إلى ألمانيا. ولست متأكداً من أنه جاء إلى لبنان أولاً أو إلى مصر، لأنني زرته في البلدين المذكورين. وفي المرّة الأولى التي قابلته فيها، كان معه جمال الحسيني، ومنيف الحسيني صهرُهُ. لم أهتم بأمر منيف. وفي وقت لاحق علمت أنه كان معادياً جداً للمسيحية.

«جمال» كان رائعاً، جعل مهمتي ممكنة التحقيق. تحدثتُ مُطولاً إلى المفتي حول مدى أهمية عملية التنظيم. وحدثتهُ عن الحزب السوري القومي أيضاً، وأشار إلى أنهُ يُرحبُ بأية مجموعة، ولن يتوقفَ عند أية خلافات أيديولوجية، كحديث الحزب السوري القومي عن القومية السورية بدلاً من القومية العربية. كان براغماتياً. لم يكن يريد أن يزعج نفسه بكل تلك الخلافات «اللاهوتية». ولم أجد مثل هذا الاستعداد للتعاون عند سعادة فيما بعد. لاحظَ المفتي مسألة التنظيم، ومسألة توفير السلاح للشباب الذين سيتم تنظيمهم. ولكن، أين المال؟ أتذكر قولَهُ:

- أملي هو أن تجد المال من خلال بيت المال العربي.

بعد ذلك بوقت قليل، بدأت أحصل على المال وأرسله إليه.

كان أيضاً يُحبِّذُ أن تتولى المدن تنظيم مجموعات من الفدائيين أو المقاتلين للدفاع عن بيوتهم وأحيائهم بدلاً من الاعتماد على أهالي القرى. يجب أن أقول إنني أحببت شخصيته. أحببت الطريقة التي أشعرَني بواسطتها أنه يثق بي، رغم أنني لم أكن معروفاً لديه. من الطبيعي أن يكون مُنظمُو رحلتي قد أرسلوا إليه معلومات عني وذلك من خلال إشاراته حول الهيئة العربية العليا في القدس، ولا أعتقد أنه كان يقدّرُهم تقديراً عالياً، ولا يُثمّن قدرتَهم على تنظيم وتعبئة الجمهور. كان حزيناً جداً، كنت تشعر أنه يُحس أن بإمكانه عمل الكثير لو كان في فلسطين، ولكنه لم يكن قادراً على أن يكون هناك. وأشعر أنه لو كان في فلسطين، فإن حضوره سيكون له تأثير تعبويّ ولكن ليسَ تأثيراً تنظيمياً. لم يكن باستطاعتهِ تشكيل فصائل مقاتلة.

من الأمور التي أعجبتني في المفتي كثيراً هو أسلوبهُ في الإصغاء. كان شديدَ الانتباه لحديثي ويُمكنكَ أن ترى أن ذهنَهُ يعمل، ويُعِدّ الأسئلة انطلاقاً من إدراكهِ لأهمية المسائل المطروحة. كان يوجِّه الكثير من الأسئلة. وأعتقد أنه طرحَ من الأسئلة أكثر مِمّا أدلى به من أقوال حول الأمور التي أخبرتهُ بها.

وبين وقت وآخر، كنت أشدّدُ على أمر ما لكي أتبيَّن إن كان سيقوم بعمل ما إزاءَهُ، خصوصاً بالنسبة للأفكار المتعلقة بنوعين من التنظيمات. الأول هو تشكيل مجموعة من الشباب للتدرّب على أعمال التخريب في حال سقوط فلسطين، لأنني كنت مقتنعاً في ذلك الوقت، بعد التحدّث مع رجال عسكريين، أنه ليس أمامنا أية فرصة للصمود. كنا بحاجة إلى شباب يقبعون في الخطوط الخلفية كمَدنيّين، نجّارين، وسبّاكين وإلى ما هنالك، ويعرفون كيفية تفجير جسر أو قطع خطّ هاتف.

والنوع الثاني من التنظيم وهو أكثرُ طموحاً، كان تشكيل قوّة مُقاتلة حتى لو سقطت فلسطين، سواء في الخارج أو داخلَ مناطق منعزلة في فلسطين، كالأسلوب الذي اتّبَعهُ اليهود في التدريب في مناطق داخل فلسطين. من الطبيعي أنه كان لديهم حماية، إذ باستطاعتهم أن يعملوا مع الشرطة ولا أحد يُفاجئُهم. ولن يكون الأمر سهلاً بالنسبة لنا كما الحال بالنسبة للصهاينة.

عندما أثرتُ مثل هذه الاقتراحات، كان يُبدي موافقة تامّة من صميم قلبه لكنه كان يقول:

- ليس لديّ مال.

كان يتحدّث بمرارة عن العرب، وكيف أنهم لا يُقدّمون أية مساعدات بالرغم من أنه لم يكن يطلب منهم الكثير. لم تكن المسألة تتعلق بتقديم الملايين بل مئات الآلاف من الجنيهات. وشعرت كذلك أنه كان عطوفاً، على الرغم من أن الناس كانوا يَرَونهُ قاسيَ القلب. فكلّما عرف بأية حالة معاناة من الشقاء، كان يحاول تقديم العون، ويسأل عن أشخاص بالتحديد، كيف أحوالهم؟ وهل يستطيعون تدبير أمورهم؟ كانت علاقتي معه غير منتظمة لكنني وجدتهُ جديراً بالمودّة. لا تستطيع أن تحكم من خلال ما يقولهُ على مدى قدرته كقائد (لا بدّ أن لديه عناصر قيادية، لكنه لم يكن يُفصحُ عنها).

أعتقد أن نقطة ضعفهِ الأساسية تتمثل في أنه كان يعتقد دائماً أن وضوح القضية التي يعمل من أجلها (إقامة دولة فلسطينية مستقلة، وإنقاذ فلسطين من سيطرة الصهاينة) أمر كافٍ في حدّ ذاته، إلى درجة أنه لم ينشئ قوة مقاتلة بالمعنى الحديث (جيّدة التنظيم والتدريب) لمواجهة الموقف، واعتمدَ على الروح المتوثّبة لسكان القرى واندفاعهم للقتال كلما دعَت الحاجة إلى ذلك.

ربّما كان ذلك راجعاً بشكل جزئي إلى خوفه من أية منظمة كبيرة، لأنه لن يكون في وسعه السيطرة عليها. كان يستطيع السيطرة على مجموعة من الأتباع، الذين يهمس في آذانهم ويهمسون في أذنيه. وبإمكانه أن يعي تفاصيل ما يجري. يستطيع أن يجسّ النبض تماماً. وفي المنظمة الكبيرة لا بدّ من

تحقيق اللامركزية إلى حدٍّ معيّن، وبذلك يفقد التواصل معهم. ربما سيعتمد هو عليهم ويقلّ اعتمادهم عليه. ربما كان يخشى أن يبرز مقاتل يتمتع بالجاذبية (كاريزما) فيأخذ من الولاء والدعم اللذين كان يحظى بهما في ذلك الوقت، الولاء للمفتي.

كان المفتي تقليدياً جداً. صحيح أنه لم يملأ بياناته بالآيات القرآنية كما يفعل كثير من السياسيين اليوم. فهمَ الصراع على أنه صراعٌ وطنيّ يضم المسيحيين والمسلمين. ولكن ذلك كان يمثل حدود الحداثة عنده. لم تكن لتشعر أن لديه أية فكرة عن المضمون الاقتصادي - الاجتماعي في الدعوة إلى حمل السلاح. كان يقتصر على الإشارة بعبارات فضفاضة إلى الدور التي يتقاسمه كل الفلسطينيين في حماية فلسطين من الصهاينة الذين يحاولون السيطرة عليها. لم يكن أكثر تحديداً، ربّما لأنه أدرك ما يدركُه أي فلاح صغير، وهو أن الخطر مزدوج بل ثلاثيّ الأبعاد ويشمل: خسارة الأرض، وخسارة الأغلبية العددية وسطوة المؤسّسات الصهيونية. ربّما لم يكن بحاجة إلى أن يقول أكثر مما قال.

كان ناجحاً كمغناطيس في اجتذاب ولاء وإخلاص الأغلبية العظمى من العرب الفلسطينيين، ويعود ذلك جزئياً إلى اسمه، وجزئياً لأنه كان المفتي الأكبر للقدس، وجزئياً أيضاً بسبب مثابرته. استمرّ في الكفاح سواء أجبرَ على الهرب أو عُزلَ أو حدثَ له أي شيء آخر. واستمرّ. وحسب ما أعلم، لم يتّهمهُ أحد اتهاماً جديّاً أو معقولاً بالانحراف عن موقفه القومي، أو بأنه يخدم مصالح الآخرين.

إذا كانت لديه ارتباطاتٌ مع ألمانيا، فقد فعلَ ذلك لخدمة القضية الفلسطينية. وإذا حاربَ البريطانيين، فقد كان ذلك للسبب نفسه. وإذا صادقَ الفرنسيين لفترة قصيرة فإنه صادقهم لمعادلة كفّة عداء البريطانيين له. وأعتقدُ أنه، إلى ذلك الحد، لديه نقاط في صالحه تُدَعِّم زعامته. ولكن هناك الكثير من النقاط التي تُعتبَر لغير صالحه. فالناس يحكمون عليه اليوم وفقاً لمعطيات حركة المقاومة الحالية. «لماذا لم يفعل ما تفعله منظمة التحرير الفلسطينية اليوم؟». لم تكن لديه الأموال التي تملكها المنظمة. واللحظة التاريخية التي عملَ أثناءها كانت تختلف عن اللحظة التاريخية الراهنة.

أمّا بالنسبة لإنهاء ثورة سنة ١٩٣٩، فأعتقدُ أن المفتي لم يكن في أية مرحلة يثق بالبريطانيين، أو يثق بأنهم سيحافظون على كلمتهم. لكن البريطانيين قدَّموا له عرضاً لم يكن يستطيعُ أن يرفضه. قالت له الحكومات العربية: إذا كنت تريد منا أن نقول أية كلمة لصالحك، يجب أن تفتح ثغرة في الطريق المسدود. أوقِف الإضراب العام، ودعنا نرى ما سيقولهُ البريطانيون. وبعد إضراب طويل، كانت البلد في كرب كبير. وقد جلب البريطانيون أعداداً كبيرة

من الجنود. ولو رفض التسوية آنذاك، عشية الحرب (العالمية الثانية) فإن ذلك يعني أن البريطانيين سيكونون أكثر وحشيةً في قمعهم.

في اللحظة التي لم يَعُد فيها المفتي موجوداً في فلسطين، استطاع البريطانيون تجميد كل شيء. قالوا إن الوقت وقتُ حرب، ولن يسمحوا لأي شيء بأن يضعف مجهودَهم الحربيّ. وفي الوقت نفسه، تحسَّن الوضع الاقتصادي في فلسطين لأنه كانت هناك نسبة توظيف وصلت إلى مائة بالمائة. فالتضخم عادة يوهم في البداية بوجود ازدهار، ويظن الناس أنه لكونهم يحصلون على أجور أعلى، فإن الأوضاع جيّدة. وقد أنشأ العرب أعمالاً تجارية ومؤسسات اقتصادية كثيرة. أصبح الناس منشغلين بالشؤون الاقتصادية أكثر من السياسية. ولم تكن الهيئة العربية العليا تملك أية قدرة على تعبئة الناس للّجوء إلى السلاح ومهاجمة المستوطنات. كان البريطانيون يقومون بتعليق الناس على المشانق لأيّ سبب، في ذلك الوقت. فقوانين الطوارئ كانت أداة قوية في أيديهم. وإذا قبض على أي شخص وهو يحمل موسى لها نصل يزيد طولهُ عن خمسة سنتيمترات، كان يُحكَم عليه بالإعدام.

الأيام الأخيرة في القدس

إن جزءاً من دواعي يأس الفلسطينيين في عامي ١٩٤٧١٩٤٨، هو حقيقة كون الصهاينة يقومون بأعمال إرهابية ناجحة ضد البريطانيين، مثل إعدام عدد من العسكريين البريطانيين برتبة رقيب بعدَ أن تمّ إعدام عضو في منظمة أرغون أو شتيرن (على يد البريطانيين). والحادث الذي شاهدته بنفسي وكان له أبلغ الأثر (لأنه أظهر للبريطانيين والفلسطينيين مدى حسن تجهيز وتنظيم اليهود) هو حادث تفجير فندق الملك داوود. كنت أقف مع فؤاد سابا على الشرفة في بناية البايبل (الكتاب المقدّس)، مقابل منطقة المسكوبيّة في القدس. كان الفندق يقع إلى الجنوب من مكاننا، وأثناء حديثي معه، قبل أن أسمع الانفجار، رأيتُ جناحاً من فندق الملك داوود يرتفع أمتاراً في الهواء ثم ينهار ويتحوّل إلى أنقاض. ثم وصلني صوت الانفجار (ومن المؤكد أنه كان يبعد عنا نحو ٢٠٠ متر). قلت:

- مستر سابا! شوف! فندق الملك داوود طار.

ظنّ أنني فقدتُ عقلي (فقد كان يدير ظهرَهُ للنافذة). قُتل خمسةٌ وتسعونَ شخصاً في تلك العملية (من بريطانيين ويهود وعرب).

تجلَّت الروح القتاليّة لدى سكان القرى مرّةً بعد أخرى في المواجهات مع عصابات الهجاناه وفي المناطق الريفية. لا أتذكّر كم قافلة يهودية جيدة التسليح والحماية دُمِّرَت في منطقة باب الواد، في طريق الوادي من القدس

إلى يافا واللد. عشرات الصهاينة قتلوا في كل مواجهة، وكانت هناك مواجهات كثيرة كهذه، خصوصاً في تلال الريف. وتم تنفيذ هذه الهجمات بشكل رئيسي بواسطة رجال القرى المجاورة لباب الواد، ولكن وقعَ أكثرُ المواجهات شراسةً في مناطق نابلس والخليل.

كان القرويّون في تلك المناطق موجودين أصلاً هناك، على التلال، مُتحرّكين، ومقاتلين متفرّغين بدرجات متفاوتة. وعلى الرغم من أن معظم قادة الفلاحين إبان ثورة عام ١٩٣٦ قتلوا، إلا أنه أثناء الفترة ١٩٤٧١٩٤٨، كان هناك قادة جُدد، من جيل جديد. كما أن كثيراً من المقاتلين الذين قاتلوا في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات، قاتلوا ثانية في ١٩٤٧١٩٤٨، من أمثال بهجت أبو غربيّة، الذي أصبح زميلاً لي في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. هؤلاء القادة المحلّيون الذين كانوا نشطين من قبل عمِلوا مع عبد القادر الحسيني والجهاد المقدَّس. وكان هناك قدرٌ من التنسيق وتبادل المعلومات بينهم (وقد أظهرت المواجهات ذلك). فلا بدّ من وجود معرفة مسبقة بوجود قافلة تستعدّ في الوقت كذا للتوجه ذهاباً أو إياباً بين تل أبيب والقدس.

أظن أنني بدأت أسمعُ في عام ١٩٤٧ كلماتٍ مثل «جيش الجهاد المقدس». عُيّن عبد القادر (الحسيني) قائداً في تلك الفترة. وكان الجيش يخضع إسميّاً لقيادة الهيئة العربية العليا، ولكن بالنسبة لإدارة القتال، كان القرار لعبد القادر الحسيني أو لمجلس القيادة. وقد كبَّدَ الجيش المقدس الإسرائيليين خسائرَ جسيمة. كان مُجنّدوه من الفلاحين لا من أبناء المدن. كان هناك بعض المُجنّدين من المدن، بلا شك، ولكن على نحو لا يذكر من حيث نسبتهم إلى العدد الإجمالي. ولم تساهم القدس الغربية، القدس الجديدة، حيث كنت أقيم مساهمةً كبيرة، مع أنه كان هناك متطوعون أكثر من القدس القديمة. وساهمت مدن أخرى مثل الخليل ونابلس وجنين وصفد مساهمةً أكبر.

كلّما كانت المدينة أو البلدة أكثر ميلاً نحو الحداثة والغرب، كلما قلَّت مُساهمتها «في المقاومة». وعلى الرغم من أن المدن الساحلية كانت جميعها حديثةً مُقارنة بمُدن الداخل، إلا أنه كانت هناك فوارق فيما بينها. كانت حيفا أكثر حداثة من يافا، وكانت مختلطة أكثر، ففيها مجتمع يهوديّ كبير، وقامت فيها روابط اقتصادية بين المجتمعين العربي واليهودي أكثر مما كان في يافا. كانت يافا مدينة عربية تقع وجهاً لوجه أمام تل أبيب، فكان عليها أن تحافظ على «النقاء العربي». كان هناك مقاتلون في يافا ولكنهم كانوا يقاتلون في حاراتهم وأحيائهم، في حين كان المقاتلون من أماكن أخرى مثل صفد والخليل ونابلس وجنين يشاركون في معارك تدور خارج مدنهم وبلداتهم. لم يكونوا مقاتلين متفرغين، لهم إجازاتٌ منتظمة تصل إلى أسبوع

بعد كل ثلاثة أسابيع، لكنهم كانوا دائمين، بمعنى أن أكثر ما كانوا يفعلونه هو القتال. حتى طبريا، كان منها عددٌ من الشباب الذين شاركوا في القتال. ولكن ذلك كله كان يفتقر إلى التماسك. فلم تكن هناك قيادة عامة. ربما كان عبد القادر الحسيني هو القائد، ولكن من المؤكد أن أوامرَه لم تكن تصل إلى أبعد من طبريا أو صفد. فلم تكن هناك وسائل اتصال، ولا كوادر، ولا هواتف ولا أجهزة لاسلكي ميدانية. لم يكن لدينا وقت. كان اليهود مستعدّين لذلك كله - فقد كانوا يستعدّون منذ وقوع هجمات ضد مستوطناتهم الأولى، حتى قبل قيام الانتداب، في غضون السنوات القليلة الأولى من دخول البريطانيين إلى فلسطين.

بعد إقصاء المفتي، حدث هبوط ملحوظ في الروح المعنوية. ساد شعور بأن القيادة العليا مفقودة. حين كان المفتي موجوداً، لم تكن العناصر الأخرى مثل عائلة النشاشيبي وجماعة الاستقلال يتحدّونهُ علناً. وعندما أصبح خارجَ البلاد، أصبحت مكانتهم (أو تحدّيهم) أكبر نسبياً. أصبحت أصواتهم أكثر نزوعاً نحو مهادنة البريطانيين. ويمكن سماعهم يقولون «خلينا نشوف البريطانيين شو بدهُم يسوّوا» أو «خلينا نشوف الملك عبد الله شو بدّو يسوّي». كان هناك قدرٌ من الحسَد لعلوِّ مَكانة المُفتي بين السياسيّين الآخرين.

الصمود في القطمون

بين أواخر عام ١٩٤٦ وربيع عام ١٩٤٨، حين قُبضَ عليّ كأسير حرب، أتيحت لي فرصة التحدث إلى كثير من الناس في منطقة القَطَمُون. بين حين وآخر كنت تسمع أن خمسة أو ستة من الشباب أمضوا ليلة أو ليلتين مع رجال إبراهيم أبو ديّة لحماية القَطَمُون. لكن ذلك لم يكن خط دفاع. وبعد بضعة أيام حين تَسأل عن هؤلاء الشباب الخمسة أو الستة تكتشف أن ثلاثة منهم قد غادروا. وفي نهاية الأمر عندما أُسِرتُ، كنا ثلاثة وعشرين شاباً في ذلك الجزء كله من القدس الغربية. لم نكن في الواقع مقاتلين. ثلاثة منا يملكون مسدّسات، ولكن دعني أكون صادقاً، كانت المسدسات للزينة. فأيّ تدريب تلقيته؟ لا شيء.

بدأت ألاحظ أن الناس يغادرون بعد إعلان مشروع التقسيم بقليل. ولكن المغادرة تسارعت إلى حدٍّ كبير بعد معركة القسطل التي (استشهد) فيها عبد القادر الحسيني. وبعد مذبحة دير ياسين التي وقعت بعد ذلك بأيام قليلة. عندئذ أصبح تدفق الناس الراحلين كالطوفان. وبنهاية نيسان/أبريل، لم تكن تجد من تقابله في القسم الذي أقيم فيه من القدس الغربية.

يمكنكَ تقسيم الشباب الذين كنتُ أتحدث إليهم إلى ثلاث فئات: فئة ترى أن الوضع السيئ وانعدام الاستعداد يجب أن يدعونا إلى القيام بعمل حتى في

اللحظة الأخيرة. وأظنني كنت ضمن هذه الفئة، ربما لم نكن واقعيين، لأنه، ماذا كنا نستطيع أن نفعل؟ لكنني شعرت بصدق (وليس في هذا نوع من التعبيرات المسرحية) أنني أفضل الموت على الفرار مع الفارّين. ولهذا أصررت على البقاء إلى أن أُخِذت أسير حرب. معظم أصدقائي شعروا أنني أحمق. لكنني ما زلت أبرِّر ذلك أمام نفسي، وما زلت أشعر أنه من الأفضل أن أكون بين الموتى على أن أكون بين الفارّين.

والفئة الثانية كانت تضمّ الشباب الذي شعر أن عليه أن يقومَ بعمل ما. فكان ينطلقُ لشراء مسدّس بثمن باهظ، ويعلِّقهُ على خاصرته للتباهي. مثل هؤلاء كانوا، بعد ذلك، يولون الأدبار.

والفئة الثالثة، شبابٌ يولول ويقول «يا حسرتي، شو بنقدر نسوّي؟». يقرأون فصولاً من «سفر إرميا» عليك، ويُعبِّرون عن إحباطهم وعجزهم، ولكنهم لا يفعلون أي شيء إيجابي. وهذه الفئة تضمّ أغلبية الناس، خصوصاً في المدن.

بحلول نيسان/أبريل، كانت الروح المعنوية منخفضة. مع ذلك، في الوقت نفسه، كانت الهيئة العربية العليا تُذيع من رام الله، بخلاف ما كانت الصهاينة تدّعيه لاحقاً، وكل رسائلها كانت: اثبتوا! وأعرف أن هذه حقيقة واقعة، لأننا كنا نُعِدُّ نصوص النداءات التي يذيعها أنور نسيبة عبر الإذاعة. لم يكن أنور مُقاتلاً، لكنه كان نشيطاً جداً من الناحية السياسية. وكان أمين سر اللجنة القومية. كان لكل مدينة لجنتها القومية التي تعنى بالمؤن والأسلحة، وتحضّ الناس على الثبات، وإذا جاء جيش الإنقاذ، كانت ترشدُهُ إلى أين يَتوجّه. كانت هذه اللجان تحت مظلة الهيئة العربية العليا، ولكن تم تشكيلها بصفة عامة من قبل أشخاص بدوافع ذاتية.

أصبحت القَطَمُون، المنطقة التي كنت أقيم فيها، خالية في نهاية المطاف. فكل شخص تقريباً ممن أعرف غادرها عندما أصبحت محفوفة بالمخاطر بسبب المُتسلّلين اليهود. صحوت ذات صباح ووجدتُ ورقة مُلصقة على سيارتي، مكتوبة بالعبرية. كانت من منظمة يهودية تقدّمت أثناء الليل ووضعت إشعارات على السيارات تقول: «إذا لم تغادروا، فلا تلوموا إلا أنفسكم.». وفي وقت لاحق، تجاوزوا بيتي إلى فندق سميراميس في القَطَمُون، وفجَّروه. قُتل عشرة أشخاص في الحادث. كان فندقاً صغيراً قرب مطحنة الدقيق ومصنع الثلج. قالوا إنه يستخدم من قبل مقاتلينا وقادتنا القادمين من القرى لعقد الاجتماعات. في تلك اللحظة، انتقلت بضع مئات من الياردات من هناك إلى منزل ويليام هداوي، مهندس معماري، وهو أخو سامي هداوي.

حين أصبحت تلك المنطقة ساخنة (كان اليهود يتحركون تدريجياً في كل مكان)، ذهبت لأقيم في منزل لطبيب أرمني في البقعة. كانت تلك البيوت

خالية. وكان الناس يرجوننا أن نقيم فيها، فيطلبون ذلك من أحمد ومني. كل شخص قال: «ليش ما تاخذوا بيتي؟». ذهبوا جميعاً إلى عَمّان. كان لمعظمهم أقارب هناك. أحمد المخلص المسكين لم يكن يريد أن يفارقني، قال لي:

- إنت عنيد، ولكن رايح أضل معك، شو ما يصير يصير.

في ذلك الوقت، ربّما كانت منطقة القَطَمُون كلها تضمّ ما لا يزيد عن مائة وخمسين نسمة. كانت معركة القَطَمُون شرسةً جداً. أتذكر أنني قرأت في مكان ما أن الصهاينة فقدوا ٨٠٠ شخص في محاولتهم الاستيلاء على القدس الغربية، وأكثر منطقة استعصت على الاقتحام كانت القَطَمُون. في بداية الأمر، كان الدفاع عنها يتم بواسطة جيش الجهاد المقدس بقيادة عبد القادر الحسيني، ولكن في وقت لاحق دافعت عنها مجموعات صغيرة يقودُها مقاتلون أشدّاء من المجموعات نفسها. وفي منطقتنا كان القائد هو إبراهيم أبو ديّة، رجلٌ ضئيلُ الحجم، شجاع جداً ومحبوبٌ جداً، ومقاتلٌ شرسٌ جداً. كان من عادتي أن أقدِّم لهُ العون بنقل المسدسات والذخيرة من المدينة القديمة في الصندوق الخلفي من سيارتي. كانت لديّ سيارة من طراز ستودبيكر ولها حيِّز كبير في صندوقها الخلفي. كنت قادراً على فعل ذلك، رغم وجود سياج من الأسلاك حول المنطقة، يحرسُهُ الجنود البريطانيون، لأنه كانت لديّ رسالة من غسان تويني، ابن صاحب جريدة النهار في بيروت، وصديق لي، وتقول الرسالة إنني مراسل لهم. وهذا مَكَّنني من وضع لافتة على السيارة من مكتب المعلومات الرسمي، كتب عليها كلمة «صحافة» باللغتين العربية والإنكليزية. لذلك لم يفتحوا صندوق السيارة أبداً. وهكذا عرفت أبو ديّة. كان هناك جوٌّ من الألفة والمودّة بيننا. وفي لحظة من اللحظات أخبرني أن الوضع ميؤوس منه ما لم نتلقّ دعماً من الخارج، وأساساً، من الجيش العربي.

محاولة اللحظة الأخيرة لإنقاذ القدس العربية

هذه القصة تعني العودة قليلاً إلى الوراء. شاركَ عدة أشخاص في هذه المحاولة، ومنهم أبو دية ودرويش المقدادي الذي كان مدير المكتب العربي في القدس آنذاك. قال لي المقدادي:

- ليش ما تروح وتشرح الوضع للملك عبد الله؟ يمكن يقدر يساعدنا.

قبلت أن أقوم بذلك بسرور، ولكن قبل الذهاب إلى عمّان، تحدثتُ مع عبد الله التل، قائد قوة الجيش العربي في القدس. كانوا هناك إسمياً لحماية القنصلية الأردنية والقنصليات العربية الأخرى، ولكن في الواقع، كان هو والعدد المحدود من الجنود الذين كانوا معه يقدّمون مساعدات أساسية

للمقاتلين الفلسطينيين. راقت له الفكرة وأخبرني عن الوضع العسكري بالتفصيل.

رتّب درويش المقدادي اجتماعاً لي مع الملك عبد الله. ذهبنا إلى عمّان معاً، ولكنه في الطريق قال لي:

- أنا مش رايح أقول أيّ شيء إلا تقديمك فقط، وإنت اللي بتحكي.

لم أتحدّث إلى ملك من قبل، وعلاوة على ذلك، لن يكون من السهل حملُهُ على إرسال رجال أكثر لدعمنا وللدفاع عن القدس الغربية. شعرنا جميعاً أنه سيَدَعُ القدس الغربية تسقط لأن حمايتها كانت تتمّ بواسطة رجال الحاج أمين الحسيني. دخلنا، وقام المقدادي بتقديمي.

قلت:

- جلالة الملك، الوضع صعب جداً. لدينا موقع جيّد تحت سيطرتنا، ولكن، هناك نقص في الرجال والعتاد. فإذا استطعنا أن نصدّ الهجوم الأخير للصهاينة، يمكن أن ننقذ القَطَمُون، وهذا أمر حاسم في إنقاذ القدس الغربية. إنها مسألة أيام.

- فقال الملك: لماذا تقول إن القدس في خطر؟ أنا لا أفهم كيف.

- قلت: هل أرسم لجلالتكم خارطة؟

تحرّكتُ من مكاني وجلستُ القرفصاء إلى جانبه (لم يكن هناك كرسيّ) ورسمتُ مخططاً تقريبياً وقلت:

- هذه القدس، وقمة التلة هذه، هي القَطَمُون. وهي تسيطر على المناطق الواقعة في أيدي اليهود. إذا هاجمونا، سيكونون مكشوفين.

كانت هناك أرض غير خاضعة لأحد بين القطمون والمناطق اليهودية. ولم أشِر إلى عبد الله التل لأنه طلب مني أن لا أفعل ذلك. قلت له إن تلك المعلومات مستقاة من مصادر عسكرية.

نظرَ الملك إلى الخارطة وقال:

دعني أرى إذا كان قنصلنا في القدس يؤكّد ما تقول بأن هناك حاجة ملحة لتقديم المساعدة.

عندما قال ذلك، شعرت بقلبي يهوي، لأن القنصل كان على علاقة مع ابنة قنصل عام من أميركا اللاتينية، وكنا نعلم أنها على اتصال مع الوكالة اليهودية. كانت شابّة ذات جاذبية طاغية، وكنت في ظروف عادية سأحسدُ القنصل.

على أية حال، طلب الملك القنصلَ الموجود في القدس هاتفياً وتحدّث إليه. واستطعت أن أسمعَ صوت القنصل وهو يقول:

- جلالة الملك! من الذي يقول لك مثل هذه القصص عن قرب سقوط القدس في أيدي الصهاينة؟ كلام فارغ!

استدار الملك نحوي وقال:

- طبعاً أنا أصدّق ما يقوله قنصُلي، فهو يعرف الوضع أفضل منك.

حاولتُ أن أجادل الملك ضمن الحدود، لكنه قال:

- لن أفعل أي شيء، لن أرسل أي رجال. فقلت:

- حتى لو خلعوا الزيّ الرسمي للجيش العربي، وارتدوا زيّ الميليشيا؟ فقال:

- لن أدعهم يذهبون، سواء كعسكريين أو كمدنيين. أي نوع من المدن هذه؟ وأي نوع من الدفاع إذا كنت لا تقدر على الانتظار عدة أيام؟ في غضون أيام سيحرّر جيشي المُظفّر القدس كلَّها.

بتلك العبارة الواثقة، كان علينا أن نتقدم إليه بشكرنا وأن نغادر، درويش المقدادي وأنا.

عدتُ إلى القدس ونقلتُ المعلومات إلى عبد الله التل واللجنة القوميّة. كانت اللجنة متمركزة في القدس الشرقية، داخلَ السور، وكانت خطوط هواتفنا مراقبة بالتأكيد. على أية حال، اتصلتُ بهم عبر الهاتف. تحدثتُ أولاً مع أنور نسيبة، فقال:

- ابق مكانك. سنرى ما يمكن أن نفعل.

عندما أصبح الوضع أكثر خطورة، تحدثتُ إلى رئيس اللجنة القومية، أحمد حلمي باشا (الذي أصبح رئيس وزراء حكومة عموم فلسطين في غزة) وقدَّم لي التأكيدات نفسها.

كانت الوظيفة التي كلّفني بها بيتُ المال في نهاية الأمر، كما ذكرتُ آنفاً، أن أتولى مسؤولية أية معسكرات يتركها البريطانيون في محيط القدس الغربية. وكان أحد تلك المعسكرات يقع بالقرب من المنطقة التي أقيم فيها. وقد سبقْنا اليهود في السيطرة عليها. تمكَّن جيش الإنقاذ، التابع لفوزي القاوقجي، من إرسال مائة وخمسين جندياً إلى هناك. لا أدري إذا كان ذلك هو العدد الحقيقي، ولكنه كان العدد الذي أخبرتني به اللجنة القومية. وكان يقودهم ميجور عراقي يُدعى فاضل بيك، وذلك هو الاسم الذي كان يُعرفُ به. وذات يوم، قبل إلقاء القبض عليّ بيومين أو ثلاثة أيام، جاء خبر مفادُه أن المائة

وخمسين رجلاً قد اختفوا، ذابوا. فعدتُ أطلبُ من جديد، ليس السلاح لحماية القَطَمُون، بل تعويض هؤلاء لحماية المُعسكر، لأنه كان موقعاً حاسماً يجبُ الحفاظ عليه. وكان يتم التأكيدُ لي نحو خمس مرّات في كل يوم، وفي كل مرّة اتصلت فيها هاتفياً، بأن الرجال في الطريق إلينا، وفي أية لحظة سيصلون. ولم يصل منهم أحد!

ملاحظة:

أقامَ والدا يوسف مع أخته ماري في طبريّا حتى ١٧نيسان/أبريل، بعد أيام قليلة من مذبحة دير ياسين. وتتذكر ماري أنهم حزموا كل شيء بما في ذلك الأثاث، وأخرجوه إلى الطريق لنقله بواسطة شاحنة. ومَرَّ أحد أفراد الإرسالية الاسكتلندية ورآهم، فقال لهم:

- ليش تنقلوا كل هالأشياء؟ راح ترجعوا بعد أسابيع. إحنا بندير بالنا عليها.

خطّطَ أبو يوسف لمرافقة أم يوسف وماري إلى لبنان على أن يعود، لكنّهم، في الطريق إلى الناصرة، سمعوا أن طبريا سقطت. فأقاموا أياماً في الناصرة، وفي تلك الأثناء، اختفى أبو يوسف عدّة ساعات. وحين انضم ثانيةً إلى أم يوسف، سألَتهُ إن كان قد ذهب إلى البيت لإحضار مجوهراتها التي خبّأوها تحتَ العتَبة بين غرفتين، قبلَ رحيلهم. فقال:

- لا.

كان في الكنيسة يُصلّي من أجل فلسطين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل العاشر أسير حرب، آيار /مايو ١٩٤٨ - ربيع ١٩٤٩

أُخذتُ أسيرَ حربٍ بعدَ أربعة أو خمسة أيام من إنشاء «دولة إسرائيل». كنتُ قد أدركتُ أنني سأقعُ في الأسر لأنني تبيَّنتُ أنَّ الصهاينة يتقدمون نحو القطَمُون، ويُغلقون الطرُق المؤدية إلى خارجها، واحدة بعد الأخرى، أحسستُ كأنني عُصفورٌ تَلتفُّ حول رأسِهِ أفعى؛ لا يستطيع أن يتحرَّك، لكنه واقعٌ في براثن الأفعى ويتمّ ابتلاعُه.

من جهةٍ ثانية، لم أكن أريدُ أن أغادرَ. في بادئ الأمر، كان بإمكاني، أنا وصديقي أحمد عبد الخالق، أن نغادر. كُنّا مَعاً برفقة عددٍ قليل من الأشخاص في البقعة، في منطقة الحي اليوناني وكان باستطاعتنا المغادرة بالنزول عن التل نحو الجانب الخلفي من المدينة (القدس القديمة). لكنني شعرت أنه إذا غادرَ شابٌّ مِثلي، فلا يُمكنني أن ألوم أحداً في الخمسين أو الستّين من العمر ولديهِ عائلة وأطفال إذا هربوا. لذلك صمَدتُ.

عندما علمنا من الناس الموجودين في المنطقة أن الصهاينة يُطبقون على المكان، قرَّرنا، أحمد وأنا ونحو عشرين شاباً آخرين من الحي، أن نذهب ونسجِّل أسماءَنا كنزلاء في المضافة الألمانية «الهوسبيس» التي كانت قد وُضعت تحت حماية الصليب الأحمر الدّولي. ويمكن للناس أن يقيموا فيها كنزلاء بالأجرة.

كانت الراهبات في غاية اللُّطف. سجَّلننا كنُزلاء مُقيمين هناك بتاريخ سابق على وقت وصولنا «نزلاء أصيلين». وأخبرنَنا أن هناك آخرين جاؤوا مع عائلاتهم. ربما بلغ العدد الإجمالي مائة وخمسين شخصاً. في تلك الأثناء، كانت القدس الغربية كلها، الواقعة غربيَّ الهوسبيس، قد سقطت في أيدي اليهود.

كان الشباب الأكثر جرأةً من بيننا يخرجون ليستطلعوا الوضع. رأوا أن الصهاينة قد احتلوا مكتب الهيئة العربية العليا، الأبعد قليلاً باتجاه الغرب. وما أدهشني هو أنهم كانوا يُلقُون برُزَم الأوراق من النوافذ بكميات كبيرة «بالكيلو»، دون أدنى اهتمام بجَمعها ودراستها. شعرتُ بالدهشة لأنني افترضتُ أنهم سيكونون مُنظّمين، وسيَجمعون كلَّ قُصاصة ورق. لم يُطلقوا النار علينا، بل كانوا يُضيِّقون الخناق علينا فحسب. كانوا يخشون من وجود كمين، فيتحرّكون بمقدار بناية واحدة في مرحلة.

وذات مساء، جاء شخص كان يقوم بالاستطلاع ليقول إنهُ لم تبق سوى ساعة واحدة على الأكثر قبل أن يصلوا إلى الهوسبيس. أسرعتُ إلى الأم الرئيسة في الدير وقلت لها:

- إحنا أكيد رح نتحاصر، وبعد وقت قليل، رايحين يوخذوا الشباب، الله يعلم لوين، يمكن عشان يقتلونا. وبما إنك تحت حماية الصليب الأحمر، أرجوك توزعي أوراق حتى كل واحد يسجِّل اسمُه فيها.

كان وقت العشاء، وكنا في غرفة طعام واحدة. توليتُ المسؤولية وكأني انتُخِبتُ قائداً للمجموعة، وقلت:

- اليهود بَرّه، وبعد وقت قصير رايحين يكونوا جوّا. (كانوا ينتظرون حلول الظلام قبل الدخول). ومن الأحسن إنا نعطي أسماءنا للأخوات الموجودات معنا عشان يكون في سِجِلّ بأسماء الأشخاص المحتمل اعتقالهم. مش رايحين ياخدوا النساء أو الأطفال أو المسنين، ولكن بالنسبة إلنا نحنا الشباب هدا ضروري.

أخذت الراهبات أسماءنا. بعد بضعة أسابيع، عندما استطاعت الأم الرئيسة الوصول إلى الصليب الأحمر، قدَّمَت لهم الأسماء. وعندئذ اعترف الإسرائيليون بوجودنا كأسرى.

فعلنا شيئاً آخر، أعني القلائل مِنا ممّن يملكون مُسدَّسات، خرجنا وقمنا بدَفنها في الحديقة. عرفَت الراهبات بذلك، ولكنهنَّ لم يقُلن شيئاً عن هذا الأمر. كنتُ قد أدخلتُ سيّارتي داخل أسوار الهوسبيس. وكانت من طراز ستودبيكر، سيارة جميلة، وجديدة تقريباً.

بعد ذلك جاءت إحدى الراهبات إلى غرفة الطعام وقالت:

- أرجوكم حافظوا على الهدوء. الضابط المسؤول بدُّو يدخل مع قوّاته، وبدّو يقول لكم شو تعملوا.

دخل عددٌ من الجنود وهم يَحملون رشاشاتهم. كانوا عصبيي المزاج، ومحتدّين؛ تجوّلوا جميعاً في المكان وظهورهم إلى الحائط ووقفوا في مواجهتنا والرشاشات في أيديهم.

بدأ أحدُهم، وقد بدا لي أنه ضابط، يتحدث بالعبرية. فقلت:

- إحنا ما بنحكي عبراني، ممكن تحكي معنا بالعربي أو بالإنكليزي؟

وقف أحد الشباب ممن كانوا معنا، وكان من النوع المتبجح، واستدار نحونا متهلّلاً وكأنه حقق إنجازاً عظيما وقال:

- خيّي، أنا بيحكي عبراني.

عرفنا فيما بعد أنه لبناني، عملَ طاهياً في مكان ما. قلت له:

- أسكت! بدنا يحكي بلغتنا أو بالإنكليزي. واستدرتُ نحو الضابط وقلت:

- أنا واثق إنك بتحكي إنكليزي. وما بنوثق بترجمة هذا الرجل.

فتحدثَ معنا بالإنكليزية.

قال الضابط:

- لازم يتمّ استدعاؤكم للاستجواب بعد أيام قليلة. وبعدين بنشوف شو نسوي معكم.

بدأوا ينادون على الأشخاص. ولكن أوّل ما فعلوه هو أنهم سمَحوا للنساء وكلِّ مَن كان عمرُهُ دون الخامسة عشرة وفوق الخمسين بالذهاب إلى غُرَفهم (ولا أعلم ماذا جرى لهم لأنني لم أرَهم بعد ذلك أبداً). وهكذا بقي عشرون أو ثلاثون شاباً، وكنا، أحمد وأنا من بينهم. بدأوا يأخذوننا للاستجواب في غرفة في طابق أعلى من الهوسبيس.

كنا جميعاً قد تخلّصنا من أوراق إثبات الشخصيّة. فأنا، مثلاً، تخلّصتُ من جواز سفري السوري لأنهم كانوا على عداء شديد مع السوريين، وكذلك مع أي شخص شارك في انتفاضة عام ١٩٣٦، أو في القتال تحت قيادة أبو دَيّة أو عبد القادر الحسيني.

الاستجواب

حين جاء دوري في وقت مُتأخّر جداً من تلك الليلة، أجلسوني على كرسي، ووقف الحارس خلفي وهو يصوِّب مسدسهُ نحو عنقي. وقبالتي، جلسَ شابٌ ضئيل الحجم بابتسامة على وجهه. وأمامي كانت هناك بطانيّة، تغطي كومتين، ولم أعرف ما تحتها. كان الضابط يحمل عصا في يده، تشبه العصا التي يشير بها المُعلمون على الخرائط. قال لي:

- خبّرني عن حالك.

- شو بدَّك أخبرك؟

- شو بتشتغل؟

- أنا محاسب، مدير المكتب الرئيسي لسابا وشركاه، مدقّقي الحسابات.

- شو الأشغال اللي بتقوم فيها في عملك؟

شرحت له عن عملي، فقال:

- خلّينا نكون صادقين أكثر شويّ. خبّرني عن نشاطك الحقيقي. يمكن كنت مع سابا وشركاه، بس شو بتشتغل حالياً؟

عند تلك النقطة، افترضتُ أنه كان يعرف أنني تركت عملي في سابا وشركاه قبل أكثر من سنة، وأنني أصبحت مدير بيت المال العربي. ولكنني لم أرد أن أنهارَ فأخبرَهُ كلّ شيء. لذلك قلت:

- شغلي مع سابا وشركاه انتهى تقريباً، وحالياً أنا مُكلف بمهمة كصحافي في جريدة النهار. وسيارتي في الخارج، في الحديقة، وعليها ملصق «صحافة».

- إذا كان كلامك صحيح، ليش عندك كل هذي المواد عن.. (حاول أن يُترجم اسم الحزب السوري القومي) في صندوق سيارتك؟

كنت قد نسيت ذلك تماماً. فقد قضيتُ أسابيع في جمع كل الوثائق التي تتعلق بالحزب في فلسطين، وكانت المواد كلها بما فيها ختم الحزب، في علبة كبيرة داخل صندوق السيارة.

رفع جانباً من البطانيّة فاستطعت أن أرى تلك المواد. وهكذا لم يكن هناك مجال لإخفاء الأمر. فسألَ إن كُنا قد قمنا بتدريب وتعبئة الناس. فقلت:

- لا، كنا مجموعة صغيرة كثير على مثل هذي الأمور. كنا نكتب مقالات فقط.

استمرّ في طرح أسئلة عن الحزب وموقفه من إنشاء «إسرائيل». فتكلمتُ بصراحة، لأنني اعتقدت طوال الوقت أنني لن أخرج حيّاً، فلا بأس من أن أكون شجاعاً، وأن أقول ما أحسّ به كشاب فلسطيني عربي. استمر التحقيق عدة ساعات. لم يذكر بيت المال العربي، وهذا جعلني أشعر بالارتياح قليلاً. وشعرت أنه إذا كانت سجلاتهم دقيقة، فلا بد أنه حصل على تقرير عني من أحد المكاتب المركزية ولكان سألني «شو بالنسبة لشغلك مع المُفتي؟» ولو فعل، لكان ذلك أخطر ما يمكن أن أواجهه. لكنه لم يسأل.

بعد ثلاث أو أربع ساعات من بدء الاستجواب، ابتسم ابتسامة عريضة ورفع البطانيّة عن الكومة الثانية. رأيت أنها تحتوي على رسائل حبّ تبادلتُها مع امرأة أحببتها لسنوات عديدة، وكانت الرسائل مربوطة معاً بخيط متين. من الواضح أنه اطّلع على رسالة أو اثنتين. فقال:

- بالنسبة لهذي الكتابات، قراءتها بتكون ممتعة جداً، لكن لازم يكون عندي وقت فراغ أطول.

كنت مرعوباً حتى الموت من أن يكون هناك شيءٌ ما في تلك الرسائل يكشف عن هوية المرأة. لم نستعمل الأسماء في مراسلاتنا، إلا على المظاريف، وكنت قد أتلفتُ المظاريف، لكنني اعتقدت أنه إذا كان لديهم استخبارات جيدة، فسوف يكتشفون من هيَ. وهذه ستكون مشكلة.

استغرقت عمليات الاستجواب يومين أو ثلاثة أيام حتى تُستكمل. في ذلك الحين، كان عدد الشباب قد ازداد لأنه تم اعتقال آخرين من أماكن أخرى مثل جمعية الشبان المسيحية، وتم إحضارهم إلى حيثُ كنا نحن.

بعد ذلك، سُرعانَ ما طلبوا مِنا أن نجمَع حاجياتنا وأن نتوجّه صفاً نحو الخارج. لم تكن لدينا عملياً أية حاجيّات، ولا حتى منامة «بيجامة» أو فرشاة أسنان، لأننا كنا نتظاهر فقط بأننا نقيم هناك. أحضروا حافلات مُصفّحة ليس لها نوافذ. حشرونا فيها مع الحراس الذين أغلقوا الباب من الداخل. بدأت الحافلات تتحرك معاً على شكل قافلة. وكان أمراً طبيعيّاً أن لا نتمكن من رؤية أي شيء في الخارج.

بعد خمس عشرة دقيقة تقريباً من بدءٍ تحركنا، توقفت الحافلات فجأة. فُتح الباب قليلاً وأطل جندي برأسه وسأل:

- مين صاحب السيارة الستودبيكر رقم.. كذا وكذا؟ قلت:

- أنا. إسمى.. فلان الفلاني..

- ما بيهمني إسمَك. كيف بتشغّل الراديو؟ الضابط بيسوق السيارة ومش عارف يشغّل الراديو. فقلت:

- خليه يكتشِف لحالُه.

كنتُ أعتقد أن الجيوش النظامية تُسَجِّل الممتلكات التي تستولي عليها ثم تعيدها إلى أصحابها بعد الهدنة. يا للحماقة!

واصلنا السَّير، وواصلنا، «أحسست أن الأمر استغرق ساعات». في وقت لاحق، أدرك من كان منا يعرف القدس جيداً أنه من المؤكد أنهم كانوا يدورون بنا ويدورون بحيث لا ندري إلى أين نحن ذاهبون. في النهار استطعنا رؤية بيت لحم عن بعد باتجاه الجنوب؛ ولكن لم نستطع رؤية الكثير من القدس. في الطريق إلى المعتقل، كانت هناك أحاديث قليلة جداً بين الأسرى. ظلّ الحراس يقولون: «أسكت! اسكت!» كلما فتحَ أحدنا فمه بكلمة - كانوا يخشون من أننا بذلك نحرِّض بعضنا على القيام بعمل ما. ولكن إذا قال الأسرى أي شيء، فإنه لم يَزد عن قول: «يا الله»، «احمنا يا رب»، أو «مسكينة عائلتي!».

المعتقل الأول

أخيراً توقفنا وفتحوا الأبواب (إنزل! إنزل!). تبيّن أن المكان مستوطنة جديدة. وُضعت أساسات المنازل فقط، ولم تكن هناك أيّة جدران على الإطلاق. كانت تسمى «النبي شعلان». هناك بعض السقالات التي جلس عليها الحراس

ورشاشاتهم مصوَّبة نحوَنا. لم يكن هناك أيّ سياج حولنا، لكنّ الحراسة حولنا كانت كثيفة. طلبوا منا أن نجلس القرفصاء، وأن نضع أيدينا حول رقابنا.

تحدث أحدهم إلينا بالإنكليزية:

- أنا قائد هذا المعتقل، وعليكم طاعة أوامري وأوامر أي رقيب أو جندي. بدنا ننظر في أمركم. إحنا بنعتبركم مخربين. حسب القانون الدولي، مسموح لنا نطلق الرصاص عليكم. لكن لأن «إسرائيل» صارت دولة اليوم، بدنا نعمل الشيء الصحيح. لازم نتأكد إنكم مخربين فعلاً، وتحت أي بند في القانون يتم رميكم بالرصاص.

- قلت: لا، إحنا أسرى حرب.

لحسن الحظ أنني، قبل سقوط فلسطين ببضعة أشهر، اطّلعتُ على المعاهدات الدولية للحروب - لا أقصد معاهدات جنيف لأنها لم توقَّع إلا في عام ١٩٤٩، ولكن كانت هناك معاهدات في حروب سابقة - فكنت أدرك ما هي حقوق أسرى الحرب. عندما قلت إننا أسرى حرب، قال:

-ههه! أسير الحرب لازم يكون جندي، بالزي الرسمي، ومعه سلاح، وعنده رقم. انتو ما عندكم أيّ شيء من هذي الأشياء. إنتم مع أي جيش؟

لم نكن نستطيع أن نتظاهر بأننا ننتمي إلى أي جيش، ولا هم كانوا جيشاً. فلديهم أزياء مختلفة؛ بعضهم يرتدي بناطيل الخاكي، وآخرون يرتدون بناطيل صوفية خفيفة ورمادية اللون؛ ومعظمهم لديهم إما سترة أو بنطال شبه عسكري من حيث اللون والشكل.

في تلك الليلة، تم توزيعنا على ثلاثة أو أربعة أماكن من أساسات الغرف. نمنا بدون طعام وبدون ماء، في العراء، بدون أي شيء ننام عليه. أراد بعضنا أن يُحضر بلاطاً أملس لوضعهِ كوسائد تحت رؤوسنا، فلم يَسمحوا لنا بذلك. كنتُ أرتدي بنطالاً من الصوف الخفيف رماديّ اللون، وسترة لها سحّاب. ولحسن الحظ كان الجو دافئاً. عانيتُ طوال عمري من معدة ضعيفة، وها أنا هنا بالقرب من القدس، في مكان يرتفع آلاف الأقدام عن سطح البحر. فتحتُ سحّاب سترتي، ثم طويتها ووضعتها فوق معدتي، ونمت على تلك الوضعية على الإسمنت، وحذائي تحت رأسي. كان لدي حذاء جيد بنعل مطاطي «كريب» ناعم وفّر لي نوعاً من الراحة. بقينا هناك نحو ستة أسابيع، إلى أن تمَّ رفعُ الحصار عن القدس. لا بطانيّة لا وسادة، لا شيء.

بدأوا يقدِّمون لنا الطعام، ولكن أيّ نوع من الطعام! كان الحراس يُعدّون الشاي لأنفسهم في غلاّية على نار وقودها من الخشب. وحين ينتهون من ذلك يُرسلون لنا الغلايات بما فيها من حثالة الشاي ويَطلبون منا أن نشعلَ ناراً بما

يتوفر من الخشب في الجوار. أعطونا علب التّونة أو المربّى المستهلكة لنستعملها كأكواب. لم يكن يتوفر منها العدد الكافي، فكان كل ستة أشخاص منا يتقاسمون العلبة نفسَها. وتعرف كم كنت «موسوساً» إزاء استعمال أكواب الآخرين!

لم يكن هناك سُكَّر (ولم يكن لديهم هم سُكَّر أيضاً)، لأن القدس كانت تحت الحصار. قالوا لنا:

- لكم ثلاثة ليترات ماء كلّ أربع وعشرين ساعة، لكلّ شيء، الشرب، والاستحمام وغَسل أواني الطعام. ويتوجّب عليكم حَفر عدّة حُفر للمجاري لاستعمالها كمراحيض، والتخلص من كل شيء بإلقائه فيها.

ولكن انتهى بنا الأمر إلى الحصول على أقل من ثلاثة ليترات من الماء، كانت أقرب إلى ثلاث زجاجات بحجم زجاجة الكوكا كولا. كان يجب علينا أن نكون حريصين جداً جداً على الماء. بالنسبة للطعام، كلُّ ما كنّا نحصل عليه، مائة غرام من الخبز للشخص في اليوم، ليس أكثر من ربع رغيف عربي. لم يكن هناك أي شيء آخر، (لا مربّى ولا زبدة ولا مَرجرين ولا زيتون - لا شيء - خبز وشاي فقط). كان علينا أن نطبخ الشاي مرّة بعدَ أخرى. ذلك هو الطعام الذي كنّا نحصل عليه طوال أيام عديدة. كان فظيعاً. ولكن الأمر المثير للاهتمام هو أنني لم أشعر بأي ألم في معدتي على الإطلاق، ولا حتى مرّة واحدة، على الرغم من أنني كنت قبل ذلك أحس بألم في معدتي لمجرد النوم بدون غطاء.

بعد غلي الشاي ثلاث أو أربع مرّات، كنتُ أجفّفهُ وأستخدمه مثل التّنباك. وأعظم ما حدث هو أننا تلقّينا الطرد الأول من الأغذية، والذي تضمن بعض التّنباك لغليوني. حدث ذلك بعد وقت طويل جداً، عندما نُقلنا إلى مُعسكر اعتقال مُناسب لأسرى الحرب، بالقرب من البحر، بعد شهرين أو ثلاثة أشهر من وقوعي في الأسر.

بعد أيام من استقرارنا على هذا الروتين، جاء الضابط، وأوقفنا صفّاً، وقال لي:

- ما دمت تقوم بدور البطل، بدي أحكي معك بصفتك قائد للمعتقل. خبّر هؤلاء الكلاب إنهم لازم يحفروا حفر للمجاري عشان تستعملوها مراحيض. (قبل ذلك، كانوا يسمحون لنا بأن نبتعد لمسافة قصيرة لنقضي حاجتنا في العراء).

تلفّتُّ حولي وقلت:

- أنا مش شايف كلاب هون.

- تحاولش تتشاطر، أنا الضابط هون، أنا بأمرك تقول لهؤلاء الكلاب إنهم يحفروا ثلاثة مراحيض. والرقيب بيخبرَك وين يحفروها. فقلت:

- إذا ما بتقول «خبّر رجالك، أو زملاءك أو أصحابك أو أسرى الحرب الآخرين... (حرصت دائماً أن أذكُر تعبير «أسرى الحرب»).

قال:

- أولاً، إحنا ما قررنا إنكم أسرى حرب. لكن، ماشي، خبّر رجالك إنهم...

كان غاضباً لدرجة أنه أطلق وقتها ثلاثَ رصاصات بين قدميّ. كنتُ واقفاً أمامه، وكان ينتفض غضباً. لم يُصوّب باتجاهي، أطلق الرصاص على الأرض ضمن مسافة قريبة جداً ما بين ساقيّ. كانت أول مرّة في حياتي تستقر فيها رصاصة بمثل هذا القرب مني. فالتزمت الصمت.

بدأنا بالحفر. أعطونا صفائح مملوءة بالكِلس «الجير»، وكان علينا، كلّ بضعة أيام، أن نرُشها داخل الحُفَر. ثم أحضروا لنا خشباً وسألوا إن كان أحدٌ منا يعرف النّجارة. لم يكن من الصعب عليّ صنع إطار من الخشب وتثبيت أكياس خيش عليه بواسطة المسامير. ولكن حين كنا ندلف إلى الداخل، كان علينا أن نترك المَدخل مفتوحاً، فكان الحراس يقفون أو يجلسون قبالتنا لمراقبتنا. لم يكن هناك ما نمسح به مؤخراتنا سوى الحجارة. لم يُسمح لنا باستعمال حجارة كبيرة لئلا نرجم بها الحراس.

الصليب الأحمر يزورنا لأوّل مرّة

ذات يوم، جاءت سيارة الصليب الأحمر. يا إلهي، كم كان ذلك مريحاً! كدت أصاب بالإغماء. خرج من السيارة رجل مدنيّ قصير القامة، يتحدث الإنكليزية بلكنة فرنسية. قال:

- أنا الدكتور فلان الفلاني، أمثل الصليب الأحمر. حضرت لأخبركم أنكم تحت حماية منظمة الصليب الأحمر.

كنا نشعر بالرعب من قبل لأنهم ظلوا يقولون لنا: «إنتو مخربين، لازم نقتلكم، لمّا تصدر الأوامر..!».

كان ذلك الرجل طيباً للغاية. ظلَّ صديقاً لي لمدّة عامين أو ثلاثة أعوام بعد إطلاق سراحي، وكنا نتبادل الرسائل فيما بيننا. كان سويسرياً، في منتهى اللطف. حصل على أسمائنا بفضل الراهبات. ذهب مندوبو الصليب الأحمر إلى أحد الوزراء أو نحو ذلك، وقالوا «نحن نعرف أن لديكم هؤلاء الأشخاص. نريد معرفة مكانهم، وعددهم، وأسمائهم ، وكل شيء عنهم». أنكرَ الإسرائيليون وجودَنا في بداية الأمر. وحين تمّ الضغط عليهم قالوا «لدينا بعض المخربين». لكن الراهبات قلن: «لا، أخذتوهم من الهوسبيس، وهي تحت حماية الصليب الأحمر». في النهاية، اضطر الإسرائيليون إلى الاعتراف بوجودنا، وبعدَدنا.

بعد ذلك بأسبوعين، وصلَت طرود من عائلات الأسرى. تلقّى خمسة أو ستة منا طروداً في المرة الأولى، ولكن بدون رسائل أول الأمر. تلقى أحمد واحداً منها، وأنا تلقيتُ طرداً من أصدقاء لي في عَمّان ممن سمعوا أننا وقعنا في الأسر. عندما اختفينا عن الأنظار، افترضوا أننا إما قُتلنا أو أسِرنا. أرسلوا لي معلبات السردين، والمُربى، وجبنة من نوع «بيكون» وشيكولاتة، وتنباك، وغليون آخر. يا إلهي، لن أنسى ذلك أبداً.

بدأ الحراس يَحسدوننا، ويبتسمون لنا لعلّنا نُقدِّم لهم شيئاً على الرغم من وجود التوتر بيننا - إذْ كانوا يخشوننا كما كنا نخشاهم تقريباً. كان يوجد دائماً حوالي عشرة حراس في أيّ وقت، وكان عددنا ١٢٣ أسيراً، لكنهم كانوا مُسلحين ونحن عُزَّل. عندما كنا نريد فتح المُعلبات، كان علينا أن نكون مهذّبين معهم، لأننا لا نملك أية سكاكين. لا بدّ من أن نقدِّم لهم القليل من أي شيء كرشوة.

لكنني أتذكّر كم يغدو المرءُ بخيلاً. عندما وصلني أحد الطرود وفتحتُ علبة مُربى - كنت بحاجة لتناول شيء حلو المذاق - ناديتُ على أحمد وعلى شاب صغير من عائلة سَكّاب، ولا بدّ أنهُ كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. كما ناديت ثلاثة أو أربعة أشخاص ممن كانوا حولي بطريقة تآمرية. لم تكن أغلبية الأسرى قد حصلت على أيّ شيء، مع ذلك لم يخطر ببالي أن أتقاسم شيئاً معهم. الجشع، حب البقاء - كنت أرغب في أن أشبع نفسي، في تناول لقم كبيرة من طعام حلو - مربى، شيكولاتة.... بعد ذلك، بدأ الذين يتلقون الطرود منا يشعرون بالخجل، فكُنّا نجتمع معاً - أحد الذين دعوناهم لمشاركتنا كان اسمه راسم الحسيني، وقد أصبح صديقاً حميماً في السنوات اللاحقة. تجمعنا وقلنا «لازم نتشارك مع بعض، الآن بما إنه صرنا نتلقى الطرود، لا بدّ إنه يوصلنا أكثر». وهكذا وزعنا القليل على كل شخص.

بدأت الطرود تصل إلى الآخرين كذلك، فأصبحَ الوضع الغذائي مُريحاً أكثر. لكن الخبز ظل شحيحاً، وكانوا يعطوننا خمسَة غرامات فقط من السّكَّر للشخص في اليوم، أي مقدار ملعقة صغيرة واحدة. وفي وقت لاحق، بدأتُ أتلقى طروداً من أهلي الذين كانوا في بيروت.

في أحد الأيام، حين كنا قريبين من القدس، وصلت سيارة مدنيّة، وخرج منها جنديّان وقسّيس، وهو والد أحد الشباب الأسرى. وحين رأى ابنه عن بُعد، راح يبكي، يا للمسكين، احتضن ابنه وهو يقول: «يا إبني، يا إبني، شو عملت فيّي؟». يبدو أنهُ اتصل بالسلطات الإسرائيلية، ولا أدري مع من اتصل، وقال لهم: «بما أنّ هؤلاء الأشخاص اعتُبِروا أسرى حرب، فلا بد أنكم تسمحوا لقسيس أن يصلي من أجلهم». ادَّعى أن معظمنا مسيحيون لأننا كنا في

الهوسبيس. تلا بعض الصلوات، لكنه في الواقع كان يريد أن يتحدث مع ابنه. وكان الحارس واقفاً في مكان قريب.

بدأنا نشعر بارتياح أكبر لأن أشخاصاً أكثر عرفوا بوجودنا. الضابط الذي أطلق الرصاص بين قدميّ نُقِل في وقت لاحق. الطبيب الطيّب ممثل الصليب الأحمر أوقفنا صفاً وقال:

- حسب القانون الدولي، مسموح إنه يكون لكم قائد للمعتقل، مين بتختاروا؟. فصاحوا جميعاً:

- «يوسف صايغ!» لأنني وقفتُ في وجه ذلك الضابط.

النقل إلى جْليل

في أواخر شهر حزيران/يونيو، أُدخلنا إلى الحافلات للمرة الثانية، وأُغلقَت علينا الأبواب كما حدثَ من قبل، بدون نوافذ، وبدأت رحلة أخرى طويلة جداً. حدثَ ذلك، كما عرفنا لاحقاً، لأن القدس كانت تحت الحصار، لكن الإسرائيليين استطاعوا أن يجدوا مساراً نحو الساحل وتجنبوا الطوق المفروض على المدينة. بعد ساعات، توقفنا في مكان يسمى جْليل، ويقع بين يافا وهرتسيليا. كان معسكر اعتقال يَتّسع لخمسة آلاف أسير، بالقرب من البحر. أُحضر كلُّ الشباب الفلسطينيين إلى هناك، وكذلك ٨٠٠ جندي مصري، وثلاثون أو أربعون جندياً سورياً، كنا مئات ومئات من أسرى الحرب. وحسبما أتذكَّر، لم يكن هناك أي أسير عراقيّ، فقد حقق العراقيون اختراقاً نحو البحر فشطروا فلسطين إلى شطرين. بعد ذلك تلقوا أوامر من بغداد بالانسحاب إلى جنين. وقد كلّفهم هذا الانسحاب خسائرَ أكثر مما كلّفهم الاختراق.

جلبَت لنا الشاحنات خياماً لنقوم بتركيبها. لم تكن لدينا خبرة في تركيب الخيام، فكانت كل خيمة تسقط مرّتين أو ثلاث مرات قبل أن نتمكّن من نصبها. في الجزء المخصص للمسؤولين، حيث كنت أنا، كانت كل خيمة تضمّ من ستة إلى ثمانية أشخاص. وهناك خيام أكبر تستعمل كمطابخ. كان الوقت صيفاً، فوفّروا لنا رشاشات الدّش، توصيلات الأنابيب برشاشاتها. كُنا «نتدوّش» أمام بعضنا البعض، ونحن عراة.

كان الطعام في المعسكر الثاني فظيعاً. كان أكثر تنوعاً من طعامنا في المعتقل الأوّل - الخضروات لا بأس بها، ويُمكنني أن أتناولها - لكنّ اللحم كان مكوناً من أجزاء البقر التي لا يأكلها اليهود، مثل الذيل. كانوا يغلون تلك الأجزاء لمدة ثلاث ساعات، ولا يبقى منها شيء سوى الغضاريف. فعشت على الخبز وحساء الخضار. كنت نحيلاً تماماً عندما أطلقَ سَراحي.

هناك شيء آخر أودَّ الحديث عنه وهو القمل. أصبح مريعاً جداً لدرجة أنهم كانوا يوقظوننا كلّ صباح قبل نصف ساعة من الوقت المعتاد، بالطابور، (البوق)، (كنا نسميه طابور القمل، وذلك لننظف أنفسنا. يبدو أن القمل بعد ليلة يقتات فيها على دمنا، يصبح من السهل التخلّص منه. كنا نجلس بجانب بعضنا البعض، أحدّقُ في شَعر أحمد وهو يُحدّقُ تحتَ إبطي، وهكذا. وفي آخر المطاف، أحضروا لنا مضخات لها خراطيم لرش مادة د.د.ت، فكنا نرش المسحوق على كل مكان من أجسامنا ينبت فيه الشَّعر. تخلّصنا من القمل في النهاية، لكن ذلك استغرق أسابيع.

كان المعتقل مُحاطاً من جميع الجهات بسلكٍ شائك، وأبراجٍ للمراقبة، وبوابة، وحُراس. وعلى قمّة التلة القريبة منه، كانت توجد المكاتب. فلا بد لمنشأة كبيرة كهذه أن تضم مكاتب للقادة. عندما ذهبنا إلى هناك، كان القائد شخصاً لا أهمية لهُ، ولكن كان يتبعهُ ضابطان - أحدهما ضابط أمن، والثاني مسؤولٌ عن فرق الأشغال. وتبين أن ضابط الأمن كان أحد رجال الإرغون واسمه ألمُوج. ولأنه كان من الإرغون كنا نخشى أن يكون متطرفاً، إلا أنه بدا لطيفاً ومُتحضّراً. أعتقد أنه بتلك الطريقة توافق معنا على نحو أفضل، وكان أكثر اطلاعاً من ضابط آخر جاءنا لاحقاً بدلاً منه، وكان أحد رجال شتيرن - أظن أن اسمه كان دكتور شنايدمان. كان هذا الرجل يأتي دائماً على ظهر حصان ومعه مسدّسهُ رغم أن ذلك مُخالف للقوانين، وكان حصانه يَخُبّ بين آلاف الأسرى.

كان مساعده برتبة رقيب، وهو يهودي مصري أقامَ صداقة مع الجميع لأنه كان يتحدث العربية، ويلقي النكت على الطريقة المصرية. وفي وقت لاحق أصبحنا أصدقاء إلى درجة تكفي لأن يأخذنا معه إلى أقرب بلدة. وأظن أنها كانت هرتسيليا. كان يأخذ كل مرة ستة ممّن هم في رتبة مسؤول منا في الوقت الواحد، ويأخذ معه الفلسطينيين بشكل رئيسي، وليس المصريين. لم يكن بإمكاننا أن نهرب لأننا كنا نرتدي زياً موحَّداً رُسِم عليه معيَّن كبير أزرق اللون على البنطال وعلى السترة، كان المعيَّن كبيراً جداً بحيث يمكن رؤيته عن بعد كيلومترات. وقد أوضح لنا أنه يجب أن ندفع له مقابل ذلك، حتى أنه كان يسمح لنا بتناول الجعة «البيرة». لا أعرف كيف استطاع أن يصطحبنا معه، لا بد أنها كانت بمبادرة شخصية منه.

كان هناك ضابط مصري قائد سريّة، نشأت بيني وبينه صداقة حميمة، وقد ألّف كتاباً في ما بعد عنوانه «كنت أسيراً». ويتحدث فيه عن اليوم الذي حضرت في مجموعة مؤلفة من ١٢٣ أسير حرب من منطقة القدس، وكان ممثِّلِ المعتقلين فلسطينياً برز شأنه في معسكر جْليل، وانتخبَ مرة ثانية ممثِّلاً للمعتقلين. وقال في كتابه أيضاً: شعرنا، نحن الضباط المصريين، بالغضب لأنه، وفقاً للقانون الدولي، يجب أن يكون أعلى الضبّاط رتبةً هو

ممثِّل المعتقلين. ولكن كان الأعلى رتبةً بين الجنود المصريين مقدَّم سوداني لطيف جداً، لكنه كان ضعيفاً في مواجهة الإسرائيليين، فلم يريدوا أن يكون هو ممثِّلاً للمعتقلين، لذلك قالوا: «يبدوا أن يوسف صايغ رجل صلب وهو أفضل من ذلك الشخص». ويتابع فيقول في الكتاب إنه أصبح صديقاً لي منذ تلك اللحظة. كان اسمه محمد عنان. أصبح لاحقاً رئيسا للخطوط الجوّية المصرية، وقد تناولنا العشاء معاً أثناء إحدى رحلاتي.

كان هناك عدة ضباط مصريين شباب لطفاء جداً، بينهم ستة أو سبعة من ضباط سلاح الجوّ، وأحدُهم ضابط مدفعية. كانوا في الجزء المخصص للمسؤولين معنا، ولكن لهم خيمتهم ونحن لنا خيمتنا الخاصة بنا، فمعتقلات أسرى الحرب تُقسِّم الأشخاص إلى مسؤولين وغير مسؤولين «هذا ما قيل لنا على أية حال». تبيّن أن خمسة من ضباط سلاح الجوّ هؤلاء أسقطت طائراتهم في اليوم نفسه لأنهم كانوا يحملون الخرائط الخطأ. حلّقوا فوق قاعدة إسرائيلية قريبة من حيفا وأخطأوا في التعرف على الطائرات الرابضة فيها. ظنوا أنها قاعدة بريطانية وأنه من الأسلم لهم أن يطيروا فوقها فأسقطهم الإسرائيليون واحداً تلوَ الآخر. قضيتُ معهم وقتاً طويلاً، علموني لعبة الشطرنج (كان اثنان منهم لاعبيْ شطرنج بارعيْن) وعلّمتهم الاقتصاد. كما كنا نلعب الورق (الكوتشينة).

بعد الاستقرار في المعسكر، والإحساس بأنه لا يُوجد خطرٌ داهم من قتلنا - خصوصاً بعد انتقالنا من المعتقل القريب من البحر - كثرَ الحديث في الأمور السياسية، بيني وبين المصريين والسوريين والفلسطينيين بشكل خاص. كان الموضوع الرئيس في النقاش هو فيما إذا كان لدى جانبنا فرصة لكسب الحرب. ربطَ معظم الأشخاص وضعَهم كأسرى بتوقعاتهم حول نتيجة الحرب. وها نحن هنا آلاف من الأسرى - وهذا يعني أن الأمة العربية نفسَها قد هُزمَت، كانت الأمة نفسُها أسيرةَ حرب. لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً. وما صدمني، وأتذكر ذلك بوضوح، هو كيف كان هؤلاء الضباط، بدلاً من بحث هذه المسألة من زاوية ميزان القوى والاستعداد العسكري، يجدون العزاء في اقتباس آيات من القرآن أو تعبيرات دينية مثل «الله الحامي» أو «الله كبير» أو تعبيرات مكررة تتبجح بأننا سننتصر لامحالة. لكن معنويات الجميع هبطت عندما تمَّ توقيع أول اتفاقية للهدنة. بَدَا اليهود سعداء للغاية. كان ذلك في تمّوز/ يوليو. دامت الهدنة عدة أسابيع. يمكننا أن نقول إن الإسرائيليين استغلوا المعاهدة إستغلالاً جيداً جداً من الناحية العسكرية، لأن فرق الأشغال من الأسرى أُجبرت على حفر الخنادق والتحصينات، رغم أنه ليس من المفروض استخدام أسرى الحرب في المجهود الحربي. كما أن الأسرى الذين لديهم الخبرة العسكرية منهم لاحظوا وجود أنواع جديدة من السلاح، فقد كانوا يحملون صناديق فيها رشاشات وعليها علامات تدل على أنها مختلفة تماماً عن الأنواع

البدائية التي كانوا يستعملونها من قبل. ففي هذا الوقت، بدأ الإسرائيليون يحصلون على أسلحة مستوردة من أوروبا الشرقية ومناطق أخرى.

كان إحساسي الخاص هو أن العرب أخطأوا في قبول الهدنة لأن الإسرائيليين أرادوا أساساً أن يُعيدوا تسلحهم، وأن يضعوا خططاً جديدة تستند إلى المواقع التي اكتسبوها. كانوا يتسلحون، وكان لديّ شعور بأن العرب لا يتسلحون، وقد تأكّد هذا الشعور لاحقاً من خلال خبراء عسكريين من الخارج. كانت هناك قصص كثيرة حول سقوط اللد والرملة. فعلى سبيل المثال، بعد سقوط هاتين المدينتين، جاء المئات منهما إلى المعتقل. فانتقى الإسرائيليون جميع الشباب منهم وعاملوهم كأسرى. وقد أخبرَنا هؤلاء الأشخاص كيف أن الجيش العربي تركهم لمصيرهم واتجهَ شرقاً. كلّ ذلك جعلني أحسّ أننا لن نستخدم الهدنة على الوجه الصحيح للحصول على المزيد من الأسلحة، بغض النظر عن كوننا لا نملك الأموال التي يملكها الطرف الآخر لاستيراد السلاح. علاوة على ذلك، كانت الحكومات العربية باستثناء، سورية ولبنان، تتلقى الأوامر من البريطانيين، بينما الإسرائيليون لا يتلقون الأوامر من أحد - وبدلاً من ذلك، كانوا يتلقون الدعم من البريطانيين والأميركيين.

الإعدامات

في ذلك المعسكر، وقعت عدة حوادث عندما تلقى جهاز الأمن معلومات تفيد أن بعض الأسرى كانوا مقاتلين، وليسوا مدنيّين. وفي أوقات عديدة، كان هؤلاء الرجال يُؤخذون ويُقتلون رمياً بالرصاص، ويُدفنون حتى بدون طقوس دينية. كان الضباط يقولون إن فلاناً قُتل أثناء محاولته الفرار. عرفَ أحد الشباب ممن كانوا هناك أنهم أدركوا أنه كان مقاتلاً، وخشي أن يقتلوه. حاولتُ أن أخلّصهُ من الذهاب مع فرق الأشغال بجعله يعمل في تنظيف الملابس أو في المطبخ. لكنهم في النهاية قالوا: «إنت بتوفر الحماية لهذا الرجل، وهذا عمل مش مضبوط. بدنا إياه يشتغل». فودَّعَنا وهو حزين، ومضى، ولم يعُد أبداً. وعندما سألتُ عنه، قالوا إنه حاول الهرب فتم إطلاق النار عليه من قبل الحراس.

أخذت معي بعض الحُرّاس وذهبنا لمقابلة شنايدمان. أردتُ أن أخبر الصليب الأحمر عن هذا الحادث، لكنهُ لم يَسمح لي بالاتصال معهم. فقلت:

- هذا حقي بموجب المعاهدات الدولية. فقال:

- ما بَسمح لك تستعمل الهاتف.

في اليوم التالي، ذهبتُ مرّة أخرى وقابلتُ قائد المعسكر، وهو رجل مُهَذّب، وصاحب مكتبة لدى ممارسته نشاطه المدنيّ. عندما عرف أنني قرأت روايات

إنكليزية كثيرة، اعتاد أن يأتي ويتحدث معي حول الكتب التي قرأتها، أو التي قرأها هوَ. وبين فترة وأخرى كان يُعيرُني كتباً من مكتبة في تل أبيب - إنسانيٌّ جداً، على النقيض من شنايدمان. سمحَ لي باستعمال الهاتف. تحدثتُ مع الصليب الأحمر، فحضر مسؤولوه. وشكوتُ لهم أمر موت ذلك الشاب.

في نهاية المطاف، وصلَ الأمر إلى بن غوريون نفسه. حصل الصليب الأحمر على تفويض منه لمعرفة كيف أطلقت النار على الشاب. وتبيّن أن الرصاص أطلق على صدره وليس على ظهره، كما يكون عليه الحال فيما لو كان هارباً. أخبرني الطبيب - وكان اسمه على شاكلة «موير» - بعد إطلاق سراحي أنه قال لبِن غوريون:

- «إذا لم تسمح لنا باستخراج الجثة، فسوف أقترح على مقرنا الرئيسي في سويسرا سحب بعثتنا وإعلان السبب». وكان حينئذ قائماً بأعمال رئيس الصليب الأحمر «في إسرائيل». فرضخوا لذلك.

قدَّم الإسرائيليون تأكيدات للصليب الأحمر تفيد بأن مثل هذا العمل لن يتكرر. نُقل شنايدمان بعد ستة أسابيع. ولكن قبل نقله، أرسل يطلبني لمقابلته. ذهبت إلى البوابة وأخبرت الجندي أنني أريد أربعة حراس لمرافقتي. فقال:

- ليش بدّك أربعة حراس؟ إنت عادة بتاخذ معك حارسين اثنين. فقلت:

- بدي أربعة حتى لا تغريني فكرة الهروب من المعتقل. فوفّرَ لي أربعة حراس، ومضيت.

قال شنايدمان:

- شوف إحنا بنعرف بعض معرفة جيدة الآن. إذا بتعطيني كلمة شرف إنك ما تحاول تهرب، بتقدر تيجي في أيّ وقت بدون حراس. فقلت:

- عشان يقتلني جنودك، ويدَّعوا إني كنت هارب؟ إذا بتضاعِف عدد الحراس ثلاث مرّات بكون سعيد أكثر.

غضب وقال:

- إنت مثير للمشاكل، لازم تعرف إنّا بنقدر نعاقبك. أنا بعرف من سجلّك إنه عندك خمس أخوة وأخت. إذا بدّك تشوفهم مرة ثانية، حسّن سلوكك. انتابتني نوبة من الحمية العربية وقلت:

- لأنه عندي خمس إخوة، لو نقص واحد مش مُهم، في غيري يحل مَحلي.

وفي الواقع، شعرت بالقلق من أن ينفذ تهديده، ونقلتُ هذه القصة للصليب الأحمر، وبعدَ أسابيع قليلة، تم نقله.

محاولات الفرار

وقعت عدة محاولات للفرار من المعتقل. وقعَت إحداها قبل أحد الأعياد الإسلامية مباشرة. سمح للأسرى بالبقاء حتى وقت متأخّر خارج الخيام وترديد الأغاني الدينية. أخبروني مسبقاً بأن أربعة وعشرين شخصاً منهم سيحاولون الفرار. فقلت:

- هذه مجازفة كبيرة، الأمر راجع لكم، ولكني أكره أن أرى أي واحد منكم قتيلاً.

كان أقرب مكان للمعسكر مدينة طولكرم، وتبعد ثمانية عشر كيلومتراً تقريباً. وفي الثمانية عشر كيلومتراً، هناك عشرات الاحتمالات بأن تواجههم دوريات في الطريق. على أية حال، قالوا:

- حلَف أربعة وعشرون شخص منا إنا نطلع مع بعض، ونجازف.

اختاروا برجاً من أبراج المراقبة حيث توجد فجوة صغيرة عند أحد الأسلاك الشائكة يمكن لشخص أن ينسلَّ منها. فقلت:

- لكن ليش تحت البرج مباشرة؟ ليش مش مكان أبعد؟

- آه، هذا تدبير متعمّد، بدنا نخلّي الحارس يِسكَر.

- كيف يمكن تخلّوه يسكَر؟ هو موجود فوق، بعيد عدة أمتار فوقكم.

- بدنا نردّد بعض الكلمات، الله حيّ، الله حيّ، الله حيّ، لعدة ساعات.

وهذا ما جرى بالتأكيد، كنت أراقب من خيمتي. كان باستطاعتي مشاهدة كل شيء يحدث. كان الحارس فضولياً في أول الأمر، يراقب ويهزّ رأسه، ما الذي يفعله هؤلاء الأفارقة؟! ثم بدأ رأسه يميل. والذين لم يهربوا في تلك الليلة أخبروني أنهم رأوا رشاش الحارس يسقط على فخذه. وغطّ في النوم. وفيما واصل الآخرون ترديد أغانيهم الدينية، انسل الأربعة والعشرون الذين قرروا مغادرة المعتقل، من تحت السلك.

بعد شهور عديدة، عندما خرجت، قمت بالاستفسار عنهم، ووجدت أن ستة أو سبعة فقط من بين الأربعة والعشرين شخصاً استطاعوا الفرار. والآخرون، إما أُلقيَ القبض عليهم أو قُتلوا. ووفقاً لقوانين الحرب، كان يجب أخذهم إلى معسكر لأسرى الحرب يكون الأمن فيه أشدّ. وينصّ القانون على أنه إذا تمّ اعتقال أسير حرب أثناء فراره، يجب أن يؤمَرَ بالتوقف، وفي حال عدم التوقف فقط، تُطلق عليه النار.

شملت قصة الفرار الثانية أشخاصاً أكثر بكثير. لم تكن محاولة فرار حقيقية. انتشرت شائعة مفادُها أنّ عدداً من الأسرى سيتمّ إطلاق سراحهم بسبب اعتلال صحّتهم. ولكن لم يتمّ تعريف المقصود باعتلال الصحّة. وكما اكتشفنا لاحقاً، نشرَ ضابط أمن جديد هذه الشائعة ليقوم الشباب برشوته ليدرجَ أسماءَهم ضمن الأشخاص الذين يستحقون إطلاقَ سراحِهم. أحمد عبد الخالق كان من بين الذين قاموا برشوته. قلتُ له:

- لا يمكن تخرج منها بدون عواقب. يمكن تكون حيلة، وحتى لو ما كانت حيلة، لا يمكن تخرج منها بدون عواقب.

- كلها ١٥ جنيه، رايح أدفعها.

ودفعها. ولمُجرّد استكمال هذه القصة، في نهاية المطاف، بعد إطلاق سراحنا، أخبرني أحمد كيف احتجزوه لاستجوابهِ بصفتهِ أحدَ الذين قاموا برشوة ذلك الضابط. حُكم على الضابط بالسجن مدة خمس أو ست سنوات لقبوله الرشوة.

جاء بعضهم إليّ وقالوا: «عندي فتاق، بدي أكون ضمن القائمة». «أسناني بتوجع» «وغير ذلك». والقصة الوحيدة المثيرة للاهتمام هي قصة الضابط المصري، عنان، الذي ألّف الكتاب. جاء إليّ وقال:

- عايز أطلع مع الأسرى العيّانين، لكن لو عرفوا إني ضابط مصري، مش حيسبوني أخرج.

سُمحَ للأسرى الذين سيغادرون بارتداء قمصان عاديّة، فقال:

- عايز أستعير قمباز.

وجدنا له قمبازاً على مقاسه. أطلق شاربه لتغيير شكل وجهه. ثم قال:

- عايز عينيّه تبان عمشا.

طلبت من فرق الأشغال إحضار ورق التين وطلبت منه أن يفرك عينيه بها. حتى أننا أعطيناه اسم شاب وافق على ذلك. بعد يومين أو ثلاثة أيام، ادعى أنه يعاني من التراخوما. وكان يقف مُنحنياً مع مئات من الذين ادعوا أنهم مصابون بفتاق أو أظافر ناشبة في لحم أصابع أقدامهم أو غير ذلك. انتظروا ساعة بعد ساعة قدوم الحافلات، ولكن لم يحدث أي شيء، ثم أُمِروا جميعاً بالعودة إلى خيامهم. وفشلت العملية.

ولكن تمكّنت مجموعات أصغر من الفرار. لم تكن الأرض صخرية، بل كانت أرضاً زراعيّة، استطاعوا أن يحفروا في الأرض تحت السلك الشائك. وكانوا دائماً يجدون الأدوات. فالمعتقل منشأة كبيرة تضم خمسة آلاف من الشباب.

وكان يجب أن يكون لديهم مطابخ ضخمة، وأن يكونوا قادرين على إصلاح الأشياء مثل الأحذية.

الشتاء

مكثنا شهوراً في ذلك المكان إلى أن حلَّ الشتاء. كانت حالة الخيام سيئة للغاية، يتسرَّب منها الماء بغزارة. بدأت أحسُّ بألم حاد في ظهري. سقطت الخيمة كلها فوقنا في الليل مرّتين أو ثلاث مرات تحت وطأة المطر الغزير، بأعمدتها الكبيرة. كنا ننهض ونُعَدِّل هيئتنا ونحاول رفع الخيمة من جديد. في النهاية أصبح ألم ظهري مبرحاً لدرجة لم أعد معها قادراً على الحركة. وفي ما بعد تبين أنه انزلاق غُضروفي، ولكننا في ذلك الوقت لم نكن حتى نعرف هذا التعبير. بعد أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الألم الحاد، كل ما قدّموه لي كان أربعَ حبّات من الأسبرين، وحدث هذا فقط في اليوم الأخير الذي سبق وصول الصليب الأحمر لمعرفة لماذا لم أكن أتصل معهم. لم أكن قادراً على الحركة؛ كان عليّ البقاء متمدداً باستقامة على ظهري، كنت أتبوّل في وعاء، وكان الولد من عائلة سكّاب يأخذ الوعاء ويدلقه في الخارج، وعندما كنت أضطر للتغوط، كنت أمضي دقائق من الجهد المُضني حتى أتمكّن من الوقوف منتصباً.

لم أستلم أول رسالة من الأهل إلا بعد ثلاثة أو أربعة أشهر من وقوعي في الأسر. كانت الرسالة من أمي. وكانت أمي دائماً تشعر بالثقة، وتقول «بعرف إنه الله بيخليك عايش حتى أشوفك، لا تقلق عليّ. مش رايحة أموت قبل ما تطلع» (أصيبت بأول نوبة قلبية في عام ١٩٤٠). ولا تزال رسائلها معي. كتبتُ للأهل ولكن كل ما كنا نستطيع كتابته صيغة بسيطة جداً، لا شيء مما يمكن أن يشكُّوا فيه على أنه إشارات رمزيّة.

بعد أن أصبت بالمرض، قالوا لي: «لا تستطيع الاستمرار في تمثيل المعتقلين ما دمت لا تستطيع التحرك والاعتناء بالآخرين». قرروا نقلي مع ثلاثين شخصاً آخرين إلى معسكر آخر. كنت أخشى أن يكون مثل معتقل أنصار ٣، وهو مكان صعب لأنهم كانوا ينتقون الفلسطينيين القياديين وينقلونهم إليه، وجميعهم من الناشطين، من أمثال داوود جبر، وهو عفريت، نشيط جداً. كان يعرف الكثير عن الأمور الكهربائية والتقنية. نقلونا إلى مكان في منتصف الطريق بين جْليل وعتليت، بالقرب من حيفا. مكثنا هناك أسابيع قليلة فقط.

الأمر الوحيد المثير للاهتمام الذي جرى هو وقوع محاولة أخرى للفرار. هذه المرة كان داوود جبر هو القائد. كان رقيباً أول في الجيش الأردني، ويتحدث الألمانية بطلاقة لأن والده كان يؤمن بالانضباط الألماني وأرسله إلى مدرسة شنيللر، رغم أنه لم يكن يتيماً. كان مُطلعاً وشخصاً رائعاً جداً.

في ذلك المعتقل، كنا جميعاً في غرفة واحدة ضخمة، أشبه بالمهجع ، سألتهم ما هي خطتهم - لم أكن أستطيع الذهاب معهم، فظهري كان لا يزال يؤلمني في ذلك الوقت - لكن أحمد قرّر الذهاب معهم. كانت الخطة هي أن نمضي جميعاً إلى أسِرَّتنا، وأن نُغطّي أجسامنا كلها إلى الذقون، والذين يريدون الفرار سيَظلّون بملابسهم وأحذيتهم. ثم يُحدِث داوود جبر تماسّاً كهربائياً، وهو ما فعله بتخريب أحد المصابيح الكهربائية في غرفتنا. فانطفأت جميع الأضواء في المعتقل.

ولكن، لم تكد تمضي دقيقتان أو ثلاث دقائق حتى اندفع الحُرّاس إلى الداخل، وأدركوا أن شخصاً ما عبثَ بالكهرباء، فوقفوا عند الأبواب وبنادقهم في أيديهم. كان ذلك من حسن حظّ الذين أرادوا الفرار لأنه من المؤكد أنهم كانوا سيُلاحَقون على الفور ويُقتلون. تظاهرْنا جميعاً بالنوم، وعندما جاؤوا وأحدثوا ضجيجاً قلنا: «شو القصّة؟ ليش إنتو هون؟». قالوا: «شو عملتوا؟». في الصباح التالي، جاؤوا وقت الفجر، وأخذوا كل مصباح كهربائي، وتفحصوه، ثم وجدوا المصباح الذي تم تخريبه لإحداث التماسّ الكهربائي.

لم تقع حوادث أخرى هناك. بعد ذلك، نقلونا إلى معتقل آخر، إلى عتليت، كان معسكراً للجيش أيام البريطانيين. في ذلك الوقت تزايد عددنا مرة ثانية، ففي البداية انخفض العدد من ٥٠٠٠ إلى ٣٠ شخصاً، وفي عتليت وجدنا المئات. كان ممثل المعتقلين هناك من البهائيين، وقد كنت أعرفه في طبريا، كنّا أصدقاء هناك. لكنّه، هنا، كان عميلاً للإسرائيليين. عندما اكتشفتُ ذلك، اجتنبتُه. لم أرغب في أن أتحدّاه بإجراء انتخابات لأنني كنت في الحقيقة مُتعباً. فالاحتكاك المستمرّ مع الأمن لم يكن أمراً سهلاً، وكان ظهري يُسبّبُ لي الكثير من الآلام. كما أنني لم أتلقّ علاجاً على الإطلاق.

في هذا الوقت، كنا في شهر كانون الأول /ديسمبر ١٩٤٨ أو مطلع كانون الثاني/يناير ١٩٤٩. اعتدنا على أن نتلقى الصحف بين حين وآخر، مثل الجروسالم بوست (كان اسمها آنذاك بالستاين بوست)، سمعنا أن هناك اتفاقية ثانية للهدنة تلوح في الأفق. فتوقعنا أن يتمّ إطلاق سراحنا في وقت قريب جداً. بدأوا يُعِدُّوننا لذلك. أصبحَت الحياة روتينيةً تماماً، فلا مفاجآت. ثم أصبح ظهري مؤلماً للغاية، فكان عليَّ أن أظلّ في وضعية الاستلقاء.

في المدة الأخيرة من وجودنا في المعتقل الكبير، كان لي سرير عاديّ مثل كثيرين غيري، مع فرشته، وقد أُخذ الفِراش من القرى، وهو محشوّ بالقش. وكنا نحصل أحياناً على بطاطين [بطائن: جمع بطانة] جيدة. أتذكر أنني حصلت على واحدة طولها ستة أمتار. كنت أطويها ثلاث طيّات وأنام تحتها. ثم قمت بخياطتها وحولتها إلى كيس نوم بحيث تمنحني دفئاً أكثر من جميع الجهات، وكنت أضع ملاءة تحتها. استطعت الحصول على ملاءة أيضاً.

ذات يوم، جاءني قائد المعتقل - وكنت في سريري - وقال:

- أنا آسف لأنّا تجاهلنا مشكلة ظهرك، ولكنا الآن بدنا نعالجك. في دكتور بدّو يعطيك حقنة.

ففكرت: «يا إلهي، بدهم يقضوا عليّ حتى لا أخرج حُراً مع الآخرين - وكنا نتوقع تحريرنا بين يوم وآخر. فقلت له:

- لا، بديش آخذ حقنة.

بدأوا يتعاركون معي جسدياً، لإجباري على أخذ الحقنة. فقلت:

- شوفوا، هذا الشهر التاسع وأنا هون، وما أخذتش ولا حقنة. اليوم تذكرتوا تهتموا فيّ؟ ما بدّي الحقنة. إنتو شهود. إذا متت من الحقنة معناها إنه الإسرائيليين قتلوني.

لهذا، لم يقوموا بإعطائي الحقنة. وكان هناك أسرى حرب آخرون وجنود يراقبون ما جرى.

عندما كنت في المعتقل الثاني، دوَّنت بعض الملاحظات حول خطوط الدفاع الإسرائيلية، ويعود الفضل في ذلك إلى داوود جبر وآخرين كانوا يذهبون للقيام بالأشغال وينقلون لنا الأخبار. وبالطبع كان عليّ أن أخبئ هذه الملاحظات. أذكر عندما كنت على وشك أن يفتضح أمري في أحد الأيام حين دخلت عليّ مجموعة من الجنود، وبدأوا في تفتيش الخيام ابتداءً من الخيمة التي كنت فيها. كنت كلما انتهيت من تدوين الملاحظات، أقوم بإخفائها. كان في طرف الخيمة جزء مطويّ على مدار الخيمة كلها، يشبه الثنية. فجعلت فيها جيباً ووضعت أوراقي بداخله. دار الجنود ولمسوا الثنية على مدار الخيمة، ولكنهم تخطّوا الجيب الصغير الذي لا يزيد على قدم واحدة والذي كانت فيه الأوراق.

قرّرتُ بعد ذلك أن لا أُبقي ملاحظاتي على الورق، فمزقت قميصاً أبيض - في ذلك الوقت، كنا قد تلقينا بعض القمصان التي أحضروها لنا من بيوت الفلسطينيين التي احتلوها - إلى قطع بحجم المنديل العادي، وكتبتُ عليها النقاط الرئيسية التي كنت أريد أن أتذكرها وأن أطورها إلى معلومات وأفكار. ونجحَت الطريقة. حتى لو فتشوا (وقد جاؤوا مرة ثانية بعد أسابيع قليلة) فلن يجدوها، لأنها لم تكن تبدو أوراقاً، كانت قماشاً في قماش.

قبل أسبوعين من إطلاق سراحنا - وكان من المعروف أنه سيتم تبادلنا عند توقيع اتفاقيات الهدنة واحدة بعد الأخرى - فتحت بطانة سترتي ذات السحّاب «وكنت أحب أن أقوم ببعض أعمال الخياطة دائماً» ودسَستُ قطعَ القماش التي دوَّنت عليها الملاحظات، في الجهة اليمنى واليسرى، وقمت بخياطتها.

وبقيَت قطعتان. كنت ألبس سروالاً داخلياً من الطراز القديم أعدّته لي أمي. وكان فضفاضاً، لحسن الحظ، لأنني أستطيع خياطة القطعتين داخلَه، خصوصاً تحت الخِصيتين حيث توجد طبقتان من القماش للحماية. خرجتُ بهذه الأشياء. فتشونا تفتيشا كاملاً، تفتيشاً جسدياً ولكن القماش لا يصدر أصواتاً كالورق، فاستطعت الخروج بها.

الإفراج

وُضعنا في حافلات وأُخذنا إلى القدس. كان على أحمد أن يَتخلّف هناك بسبب التحقيقات. وهناك عند بوابة المندلبوم، كان عبد الله التل، ونسيب بولُس بانتظاري وأصدقاء كثيرون جداً. أحضروا صحافيين لإجراء مقابلات معي، من القدس ومن عمّان، لأن قصة مقارعتي للإسرائيليين وصلتهم على نحو ما.

الشيء المثير للاهتمام الذي اكتشفته لاحقاً هو أنه عندما كنا في المعتقل الأوّل في القدس قبل أول وقف لإطلاق النار، سقطَ الحيّ اليهودي في المدينة القديمة في أيدي الجيش الأردني. وكان للصهاينة جيْب هناك فأسرَ الأردنيون ١٢٠٠ مقاتل يهودي. كان ذلك إنجازاً كبيراً. فأسرع منير أبو فاضل إلى عمّان لمقابلة الملك. وقال:

- جلالة الملك، هناك ١٢٣ من رجالنا في أيدي اليهود. ومعنا قوائم بأسمائهم من الصليب الأحمر. ولا يقدم اليهود لهم إلا ربع أوقية من الخبز في اليوم، بينما أسرى اليهود يحصلون حتى على خرفان حيّة، ليتم ذبحها حسب أحكام الشريعة اليهودية «الكوشر»، ويحصلون على التفاح.

واقترح أبو فاضل تبادل الأسرى. فقال له الملك:

- ماذا! أنا لا أبادل عربياً واحداً حتى بعشرة من اليهود. سأحرّر رجالي بقوة السيف.

وهكذا بقينا أسرى لمدة تسعة أشهر ونصف بينما تمّ إطلاق سراح اليهود بعد وقت قليل من أسرهم.

في القدس، أُجريَت معي مقابلات من قبل كثير من الصحافيين، الأجانب والعرب. الكل كان مهتماً بالحصول على معلومات عن الجيش الإسرائيلي. على سبيل المثال، كانت لي جلسة طويلة مع عبد الله التل، قدَّمت له خلالها كل المعلومات التي حصلت عليها من الضابط المصري ومن داوود جبر - الشخصان اللذان يستطيعان تقييم الأمور العسكرية. أخبرته عن التسليح الإسرائيلي والمقاتلين، ومستواهم من حيث الانضباط والتدريب.

قال لي عبد الله التل:

- أريدك أن تتحدَّث إلى أعلى ضابط بريطاني رتبة (في القدس) وهو الذي يقود الجيش العربي.

ذهبت وتحدث معه. فقال:

- أنت رجل عسكري؟

- لا، ولكني متيقظ وعيني مفتوحة.

فصرّ بأسنانه، ويمكنكَ أن تتوقع منذ البداية أن اللقاء لن يكون ودّياً. تركني أتحدث برهة ثم قال:

- شو كان الناس يقولوا عن اللد والرملة؟ فقلت:

- كلّ واحد بيقول لو الضباط البريطانيين لم يأمروا الجنود بعدم إطلاق الرصاص، لكان من الممكن إنقاذ اللد والرملة. عند ذلك وقف وقال:

- شكراً لحضورك لمقابلتي، وانصرف.

أحد الذين تحدثتُ معهم في القدس كان أنور نسيبة. في ذلك الوقت كان قد فقد إحدى ساقيه. عندما كان يعمل في منطقة نابلس، أُصيب بعيار ناري في فخذه. كانت الخدمات الطبية ضعيفة جداً، وكانوا بطيئين في نقله إلى المستشفى، ولم تكن لديهم مُعدات. وتجمَّعت الغرغرينا فكان يجب بتر ساقه حتى الفخذ، لكنه ظل نشيطاً، ومعنوياته مرتفعة. تحدثت معه وقمت بتحليل الوضع.

أخذني نسيب بولس إلى شقته للإقامة عنده لبضعة أيام. جعلني أحلق ذقني. ثم ذهبت إلى عمّان ومكثتُ هناك فترة لأسترد عافيَتي لأنني فقدت الكثير من الوزن، وكانت صحتي مُعتلة جداً. لم أُرد أن يراني الأهل على تلك الحال.

عندما كنتُ لا أزال في عمان، أخرجت ملاحظاتي المدوَّنة على القماش، وبدأتُ أُعدُ بعض الأفكار. من بين الحكومات العربية المعنيّة، كانت الحكومة الوحيدة التي بدا أن لديها موقفاً شجاعاً وشيئاً من الصلابة إزاء القضية، هي الحكومة السورية. لذلك قررتُ أن أُعدّ مذكرة لأرسلها إلى رئيس الوزراء وأقدّم له بعض المعلومات التي جمعتها. وحين طرحتُ هذا الاقتراح على بضعة أصدقاء مثل أنور نسيبة، قالوا: «بالتأكيد لا معنى لإرسالها لرؤساء وزراء مصر أو الأردن أو نوري السعيد في العراق».

حين وصلت أخيراً إلى بيروت، أعددت مذكرة طويلة. قسَّمتها إلى عدّة أقسام: ملاحظات حول الاستعداد العسكري الإسرائيلي والأسلحة التي يمتلكونها، ملاحظات الضباط الذين كانوا حولي وملاحظاتي، ومشاعر الناس في الداخل وكيف رأى أسرى الحرب أن الإسرائيليين لم يكونوا يتمتعون بتلك

القوة الخارقة «لم يترك لدينا الإسرائيليون الأثر الذي تركوه لدى الناس في الخارج. أرسلت هذه المذكرة إلى رئيس وزراء سورية جميل مردَم بك، لكنني لم أتلق أيَّ إشعار باستلامها أبداً.

كانت معنويات معظم الناس الذين قابلتهم متدنيّة جداً. «خلص، انتهت»، كان ذلك هو الشعور العام. أحسَّ الناس أننا فقدنا الفرصة مع أوّل وقف لإطلاق النار، بشكل رئيسيّ. ولكن مع ثاني وقف لإطلاق النار، كان الأمر قد انتهى، كان ذلك يعني أننا خسرنا المعركة. بعض الناس قالوا: «بسيطة، خلال خمس سنين بنتسلح من جديد، وبنسوي كذا وكذا». ولكن لم يكونوا كثيرين. كان هناك خسارة جماعية للأمل. إحساس بأن العرب ليسوا أكفّاء. فبعد كلّ شيء، إذا كانت السلطات السياسية والعسكرية المصرية مستعدة مقابل عمولة كبيرة، أن تشتري أسلحة فاسدة لجيشها، فماذا تتوقع؟

عندما عدتُ من معتقل أسرى الحرب - وأذكر هذا كدلالة على كرم المفتي وتقديره لعملي - أرسل لي ٢٥٠ جنيهاً فلسطينياً. وقال: «أدرك أنك الآن بدون عمل ومعوز». وصلت النقود في الوقت المناسب تماماً. ولم يكن معه الكثير من نقود هو أيضاً. ويجب أن أقول إن الرجل لديه صفات كثيرة تدعو إلى الإعجاب. وكان أيضاً ماكراً في أشياء أخرى كثيرة.

عندما عدتُ إلى بيروت، حوّلت اهتمامي السياسي نحو مجموعة واحدة فقط، هي الحزب السوري القومي، الذي كنت عضواً فيه، آملاً في أن يكون الحزب نفسه عنصراً هاماً في سورية ولبنان من عناصر بث الحماسة لجولة أخرى من القتال. ويجب أن أعترف أنني كنت ساذجاً تماماً في اعتقادي بأن تكون هناك جولة أخرى من القتال. فمع كل سنة تمرّ، يصبح العرب أقَّل استعداداً لجولة ثانية «حتى منتصف عقد الستينيات عندما بدأت الأمور تتغير قليلاً».

لمّ الشمل مع الأهل

بعد أن أصبحتُ على حال أفضل، ركبتُ الطائرة متوجهاً إلى لبنان. لم يكن معي جواز سفر، فأعطاني عبد الله التل رسالة عليها صورتي تقول: لمن يهمّه الأمر، وتضيف أنني كنت أسير حرب لدى الإسرائيليّين، وأنه أُطلق سراحي للتوّ. واعتقدتُ أنهم سيسمحون لي بدخول لبنان بموجب الرسالة. ولكن كنا في شباط/فبراير أو آذار/مارس، ولم تستطع الطائرة بلوغ ظهر البيدر. كانت من تلك الطائرات التي لها جناحان مزدوجان فوق بعضهما، ومروحة واحدة. كنا سبعة ركاب، وهذا أقصى حمولتها.

عدنا إلى عمَّان وقررتُ الذهاب إلى لبنان عبر البرّ، وفي سورية، بين درعا ودمشق أوقفَ بعض رجال الشرطة الحافلة لإلقاء نظرة على وثائق سفر

الركاب. عندما وصلوا إلي، ولم يكن معي جواز سفر، سألوا عن جنسيتي. قلتُ إنني سوريّ قالوا:

- «شو هذي الورقة اللي معك؟».

أخبرتهم أنني كنت أسير حرب، واعتقدتُ أنهم سيعلقُون فوراً ميدالية على صدري، لكنهم قالوا:

- أسير حرب في إسرائيل؟ إنت لازم جاسوس! فقلت:

- أنا مش جاسوس، أوراقي في السويداء إذا بتتصلوا مع دائرة الأحوال المدنية هناك، بيخبروكم عني.

قالوا لي:

- إحنا تابعين درعا.

أنزلتُ من الحافلة، وجعلوني أستأجر سيارة أجرة لأصطحبهم معي إلى درعا. وهناك حجزوني ليلة على أحد المقاعد قيد الاعتقال، كما تبين لاحقاً. في صباح اليوم التالي، اتصلوا هاتفياً مع السويداء، وطلبوا ابن عمتي، فريد غُريِّب وسألوه:

- بتعرف واحد اسمه يوسف صايغ؟

- إيه! يوسف صايغ! هذا ابن عمتي. ولكي يختبروه سألوه:

- شو اسم أبوه؟». فأخبرهم وقال:

- طبعاً هو سوري ورقم قيده المسجَّل كذا كذا.

بعد ذلك سمحوا لي بالذهاب إلى دمشق للحصول على أوراق صحيحة، ولكن تحت الحراسة، رافقني شرطيّ. وكان عليّ أن أدفع له أجرته.

قضيتُ بضعة أيام في دمشق، وحصلت على جواز سفر جديد، وواصلت سفري إلى بيروت حيث كان الأهل. كنت قد سمعت في عمّان أن العائلة غادرَت طبريا بعد مذبحة دير ياسين ومكَثَت مدَّة أسبوعين مع عائلة بدر في بيروت، وقال لهم ألبرت بدر: «تعالوا عيشوا معنا كم أسبوع حتى تلاقوا مكان يناسبكم». انتقل هو إلى الجبل، تاركاً لهم بيته؛ كان ذلك نُبلاً منه. أقاموا هناك بضعة أيام إلى أن وجدوا شقة في نهاية خط الترام. مكثوا هناك أكثر من عام بقليل ثم انتقلوا إلى عين المريسة حيث تعيش العائلة إلى يومنا هذا.

وهكذا، حين وصلت إلى بيروت ذهبتُ إلى عائلة بدر وسألتُ عن مكان وجود أهلي فأعطوني عنوانهم عند نهاية خط الترام. كانت عائلتي تعرف أنه تمَّ

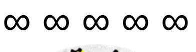
إطلاق سراحي فكانوا يتوقّعون وصولي ساعة بساعة. ولكني توقفتُ في ساحة الشهداء (البرج) لأحلق ذقني وأمشط شعري حتى لا أبدو نحيلاً جداً وأسبِّب لهم القلق.

كان لقاءً مؤثراً جداً. أبي المسكين (كان هو الذي فتح لي الباب) عانقني. لم أرَهُ في حياتي يبكي أبداً، حتى تلك اللحظة.

- «يوسف، إبني يوسف، هو فعلاً إنت؟». كانت أمي تنتظر خلفه وتقول:

- عبدالله بيكفي، أنا كمَان بدِّي أبوسُه.

تجمَّع الآخرون واحداً واحداً. توفيق وماري ومنير. كان اثنان من إخوتي في الخارج: فؤاد كان في غزة ذلك الوقت، ذهب ليعمل هناك قبل سقوط فلسطين ومكث فيها. فايز كان في أميركا، ذهب في سنة ١٩٤٧ للحصول على درجة الدكتوراه. وأنيس كان في القسم الداخلي بمدرسة صيدا الثانوية.





الفصل الحادي عشر ١٩٥٠ - الانطلاق في عالم الاقتصاد

عندما وصلتُ إلى لبنان بعدَ إطلاق سراحي من مُعتقل أسرى الحرب، عُرِضَت عليّ وظيفة من قِبَل تشارلي سعد الذي كان مديراً لشركة نقليّات. كان يَعرف أبي لكونه إنجيليّاً، وابناً لقسيس. وقد كان يعملُ لديه صديق قديم اسمه صموئيل جريديني الذي عمل فيما مضى مديراً لفندق طبريّا قَبلي. كانت وظيفةً صغيرة وبائسة وهي «مساعد محاسب غير متفرغ»، لكنها وفَّرت لي مصروف الجيب. كنتُ قد اشتريت سيارة جديدة من الأردن، من طراز فوكسهول، ومن الضروري أن يتوفر لدي ما يكفي من السيولة النقدية للتأمين على السيارة وشراء البنزين، والنفقات التي تتبع امتلاك سيارة، مثل دعوة الأصدقاء للخروج معاً لتناول المشروبات أو الشاي.

عملتُ هناك حتى نهاية ربيع عام ١٩٥٠، عندما أخبرني نسيب بولس، وهو صديق قديم منذ الأيام التي قضيتها في القدس، أن وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين (أونروا) التي بدأت أعمالها للتوّ تضم دائرةً اقتصادية، وأن الخبير الاقتصادي فيها بحاجة إلى مساعد فنّي. كان الخبير الاقتصادي إنكليزياً اسمه جيمس باستر. عرضوا عليّ الوظيفة، وقبلتُها لأنها تقدّم لي ثلاثة أضعاف المُرتب الذي كنت أحصل عليه من عملي مع سعد، ولأنها أيضاً في مجال الاقتصاد. كنت أعتقد أنه أمرٌ جيد أن أكونَ داخل وكالة الأونروا، لأعرف ماذا تعمل وكيف تؤدي وظيفتها.

في ذلك الوقت قرّرتُ، بناءً على نصيحة ألبرت بدر الذي كان في الجامعة الأميركية في بيروت، أن أقوم بالدراسات العليا في الاقتصاد. بدأت أفكر - بشيء من الغموض في تلك المرحلة - في كتابة رسالة ماجستير حول اقتصاديات تجمعات اللاجئين. قبلتُ وظيفة الأونروا وكنت سعيداً بها. كان باستر مديراً جيداً جداً؛ أتاح لي مجالاً للبحث ومواصلة الكتابة. باشرت على الفور في جمع المادة العلمية، وقمت بالتسجيل في الدراسات العليا في ذلك الصيف نفسه، ١٩٥٠، في الجامعة الأميركية في بيروت.

أعددنا، ألبرت بدر وأنا، البرنامج الدراسي للعامين اللذين تستغرقهما الدراسة، بما في ذلك كتابة الرسالة، بطريقة تساعد على تحديث معلوماتي في الاقتصاد. فعند تخرجي عام ١٩٣٨ لم أكن قد سمعت شيئاً عن كينز. فكتابُهُ ذو التأثير الواسع: «نظرية عامة حول الفائدة على الدخل والمال - General Theory of Income Interest and Money» صدر سنة ١٩٣٦، ويستغرق وصول مثل هذا العمل المَرجعي إلى بيروت أكثر من عامين. ورأى ألبرت أنه ينبغي لي أن أسجِّل وحداتٍ دراسية تشكّل جسراً بين معلوماتي

القديمة والمستجدات التي يجب أن أكون على علم بها، بما في ذلك اقتصاديات كينز والاقتصاد الكلي، والإحصاء، وكان إلمامي بالإحصاء ضعيفاً طوال الوقت.

بدأت بالدراسة، وبنهاية صيف عام ١٩٥٠، كنت أشعر بسعادة غامرة - فلديّ وظيفة ممتعة، ووِحداتي الدراسية في الجامعة الأميركية أعادتني إلى الجوّ الجامعي، ومكّنَتني من إعادة التواصل مع أصدقائي القدامى مثل بشارة طرابلسي الذي كان يعمل في الجامعة في ذلك الوقت، وشبابٍ آخرين كانوا يقومون بأعمال الدراسات العليا مثل منير تقي الدّين. كان منير قد باشر للتوّ الاستعداد لنيل درجة الماجستير، وتخرَّجنا معاً. وقد استمتعتُ بأعمالي الدراسية غاية الاستمتاع.

كانت جميع وِحدات الدراسات العليا تُعطى في المساء. وكان ألبرت بدر صديقاً لجيمس باستر، فكان من السهل ترتيب الأمور بالشكل المناسب، وتنظيم عملية البَحث. فعلى سبيل المثال، طَلَبَ مني باستر إعداد دراسة عن اللاجئين في الأردن، وقد أعجَبَته كثيراً لدرجة جعلتهُ ينشرُها في «حولية الأونروا للدراسات الاقتصادية UNRWA Quarterly Bulletin of Economic Studies».. ثم طَلَبَ مني دراسة عن زراعة القطن. وكانت زراعة القطن قد أصبحت نشاطاً هاماً في منطقة الجزيرة الواقعة شمالَ شرقيّ سورية، وهي منطقة مناسِبة لذلك الغرض. لم تكن المنطقة تتلقى كميات كبيرة من الأمطار، لكنها كانت كافيةً لزراعة القطن السوري. أدركت لاحقاً أن اهتمام باستر بهذا النشاط الزراعي يستند إلى حقيقة أن وكالة إغاثة وتشغيل اللاجئين، كما يوحي اسمها، كانت مهتمة بإمكانيات التنمية الاقتصادية في الدول العربية المضيفة للاجئين، لمعرفة كيفية استيعاب اللاجئين وتسهيل استقرارهم - بعبارة أخرى توطينهم.

كنتُ بالطبع معادياً لفكرة التوطين خارج فلسطين، وكانت لي مناقشات طويلة مع باستر حول هذه القضية، خصوصاً عندما اكتشفت أنه كان مهتماً بإجراء دراسات عن فرص التوطين في لبنان والعراق. وبسبب هذا الاهتمام، تمّ إيفادي إلى العراق لأول مرّة لإجراء بحث حول الاقتصاد، لصالح الأونروا، «كان ذلك قبل ذهابي إلى العراق لصالح مؤسسة الأبحاث الاقتصادية التابعة للجامعة الأميركية في بيروت» في عام ١٩٥٣. انتهى الأمر بنا، باستر وأنا، إلى الشعور بأنه على الرغم من نفورنا من فكرة إعادة توطين اللاجئين خارج فلسطين، إلا أنه إذا لم يكن هناك من سبيل آخر للتعامل مع المشكلة إلا من خلال إعادة توطين نسبة كبيرة منهم، فإن على المرء أن يستكشف أين يمكن تحقيق ذلك دون مواجهة عناء كبير، مع توفير فرص اقتصادية جيدة نسبياً، وبدون تحطيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية لِلاّجئين. فقمتُ بإعداد تلك

الدراسة وأعجبَ بها باستر هذه المرة أيضاَ، وقام بنشرها في حوليّة الأونروا. وهذه الأبحاث الجزئية كانت تغذي رسالة الماجستير التي أعدُّها، لأنني في ذلك الوقت كنت قد قرَّرت أن أكتب عن الأثر الاقتصادي لتدفّق اللاجئين نحو الأردن وسورية ولبنان.

وحيث إن صناعة القطن أثارت اهتمام باستر، فإنني ذهبت إلى مصر لقضاء عدة أسابيع، وأجرَيت هناك بحثاً حول صناعة القطن. كانت مصر رائدة في هذا المجال، وتسبق سورية وأيّ بلد آخر، وكان النشاط هناك على مستوى عالٍ من الكفاءة. فذهبت إلى القاهرة والإسكندرية وقمت بدراسات حول اقتصاديات القطن ابتداءً من أنواع القطن، والأوبئة التي تصيبُه، وتنسيق نظام زراعته، والرّي، ثم حَلج القطن ونَسجه وغَزْله وتصديره من الإسكندرية.

كانت السّنتان اللتان قضيتهما مع الأونروا، من عام ١٩٥٠ إلى ١٩٥٢، حافلتين بالنشاط. كنت أُعدّ رسالة الماجستير من جهة، وأعمل مع الأونروا من جهة ثانية وكان عملي يتضمن أساساً البحث، والتعليق على أوراق البحث. في كل شهر أو نحو ذلك، كان باستر يُعِدُّ بحثاً موجزاً لمُفوَّض الأونروا الذي كان لقبه الوظيفي المدير العام في ذلك الوقت، ويقوم المدير العام بدوره بتحويلها إليّ لإضافة لمسة شخص يعيش في المنطقة، ويستطيع أن يعرف فيما إذا كانت عناصر البحث هي الأوثقُ صلةً بالتحليل. استفدتُ من هذا إلى حدٍّ بعيد لأن باستر كان يناقش تعليقاتي معي، ويقترح بعض الملاحظات التحريريّة، قبل إرسالها عادةً إلى نائب المدير العام، المستر كين. واكتشفنا فيما بعد أنه كان يهودياً إنكليزياً - وهو شخص رائع ودمث الأخلاق. ولو كان لديه أيّ تحيُّز، فإن ذلك لم يَظهر في عمله، أو في موقفه من اللاجئين - ربما ظهر تحيُّزه عند مستويات أعلى لا علم لي بها، مثل شطب أسماء من سِجِلّات الإغاثة حين يكون لأصحابها مستوى مُعيّن من الدَّخل - ومثل هذا الأمر كان بمثابة قضية سياسية واقتصادية في الوقت ذاته. أتذكر كم كافحتُ من أجل رفع الحَدّ الأدنى من الدخل الذي يتم عنده شطب الأسماء.

وفي ما يتعلق بالجامعة، حققتُ نتائج ممتازة من حيث الدرجات، وسعدت بذلك كثيراً. كانت هاتان السنتان جيّدتين من الناحية الاجتماعية أيضاً، لأنه تمّ تجديد الصداقات القديمة، وإنشاء صداقات جديدة. أتاحت لي الأونروا فرصة مقابلة أشخاص جدد. كان لي صديقة فرنسية. وكنت أتمتع بدخل مناسب بمقاييس تلك الأيام وهو ٧٠٠ ليرة لبنانية شهرياً.

قرب انتهاء سنتي الدراسية الثانية، عندما كنتُ في مرحلة كتابة فصول رسالة الماجستير وتقديمها إلى بدر، بدأ يلمّح لي أنني بعد نيل درجة الماجستير، ينبغي أن أترك عملي في الأونروا وأنضم إلى الجامعة الأميركية في بيروت. فقلت:

- لكن كل ما عندي هو الماجستير، شو ممكن أعمل؟

أجاب: - بنعَينَك مُعيد في الجامعة لمدة سنة. وفي السنة اللي بعدها بوعدَك إني أساعدك عشان تصير أستاذ مساعِد نظراً لسِجلّك الأكاديمي، وقدراتك وقراءاتك. ومش رايح تكون أول واحد معه ماجستير ويعمل أستاذ مساعد. إنت الآن ناضج.

في ذلك الوقت من عام ١٩٥٢، كنت في السادسة والثلاثين من العمر. ومعظم الشباب يحصلون على الدكتوراه في السادسة والعشرين. ولكن ألبرت شجعني.

قلت في نفسي: سأرى ما ستفعله الأونروا من حيث تعديل مُرتبي بعد حصولي على درجة الماجستير. اكتشفت أن الوكالة لم تكن على استعداد لتقديم أية زيادة على الرغم من كفاح باستر في هذا الشأن. كانت أقوى فكرة في مجال مناقشتي طلبَ زيادة المُرتب هي أن سكرتيرتي الفرنسية تحصل على ثلاثة أضعاف المُرتب الذي أتقاضاه. وكان جواب مدير الشؤون الإدارية، وهو إنكليزي:

- هي أجنبية وإنت مَحَلي. فقلت:

- إذا كان الأمر هيك - لم أكن أشعر أبداً بالعنصرية في الوكالة من قبل: بحبّ أقدم استقالتي. واستقلت.

كان ذلك يعني أنني قضيتُ صيفاً بلا عمل، سوى التسكّع والسباحة وقضاء أوقات ممتعة. كانت لديّ سيارة فوكسهول، مما يعني أنني كنت أستطيع التنقل، فيمكنني أن أذهب إلى الأرز أو أن أسبح. استأجرنا، نسيب بولس وأنا، مقصورةً على شاطئ سان سيمون. وكانت شراكة جيدة لأننا كلينا كنا مهتمين بوضع الوسائد والأثاث في المقصورة. وكان باستطاعتنا التنسيق فيما بيننا بحيث لا يذهب أحدنا إلى هناك قبل إشعار الآخر في حال شغل المقصورة.

التعليم والأبحاث في الجامعة الأميركية في بيروت

بعد أن تخرجت في الجامعة الأميركية في بيروت، في أيلول/سبتمبر أو تشرين الأول/أكتوبر من عام ١٩٥٢، بدأت العمل كمعيد في الجامعة، وأصبحتُ عضواً في هيئة التدريس. شعرت بالحماسة. في ذلك الوقت من عام ١٩٥٢، بدأ ألبرت بدر يحاول إقناع مؤسسة فورد بتمويل إنشاء معهدٍ للأبحاث الاقتصادية في الجامعة الأميركية في بيروت. وكما يحدث عادةً في المؤسسات، استغرق الأمرُ شهوراً طويلة قبل أن تتمّ الموافقة على الفكرة، والاتفاق على برنامج العمل والأولويات. ولم يعلن ألبرت إلا في سنة ١٩٥٣

عن إنشاء مؤسسة الأبحاث الاقتصادية، وكان مديراً لها، وتمّ تعييني مساعداً للمدير.

كان الدّاعم الكبير لألبرت هو: أ. جي. مِيير الذي التحق للتوّ بالجامعة الأميركية في بيروت. قدّم مِيير الدعم لألبرت من حيث فكرة إنشاء المؤسسة، وأنها يجب أن تتبع كلية الاقتصاد، وليس كلية إدارة الأعمال. كان ذلك بمثابة انقلاب تام بالنسبة لهم، وليس من السهل تحقيقه لأن سعيد حمادة كان يتمتع بنفوذ في الجامعة ويحظى باحترام كبير، وأراد أن تكون المؤسسة تابعة للكلّيتين. لكنّ الناس يحبُّون إنشاء إمبراطوريات خاصة بهم ولا يريدون شركاء. نأيت بنفسي عن الجدل الذي دار حول هذا الأمر. كنت أكِنُّ الودّ لسعيد حمادة وكنت على علم بوجهتَي نظر الجانبين (كان سعيد وألبرت يصطحبانني في مشاوير طويلة في الحرم الجامعي لبحث المسألة. ولكني أوضحت لهما أنني لن أميل إلى أي جانب، فقد كنت مستجدّاً، ولم أكن أعرف الكثير على أية حال).

عندما أصبحتُ مساعد مدير، أدّى ذلك إلى تخفيف عبء التدريس عني بمقدار وحدة دراسية واحدة. فبدأت في إجراء الأبحاث. وشمل البحث الذي كنت منهمكاً في إعداده نشر ما أصبح يسمَّى «أوراق اقتصادية حول الشرق الأوسط - Middle East Economic Papers». وقد بدأ نشرها في ١٩٥٣/١٩٥٤. ولكون ذلك أوّل بحث يتمّ في ظل المؤسسة، فقد بدأ ألبرت بدر بإجراء دراسة عن الدخل القومي في لبنان، وهو عمل رائد، شارك فيه فريق من الباحثين ضمَّ سالم خميس، وأسعد نصر، وآخرين. وفي وقت لاحق، أُجريَت دراسة مشابهة حول الأردن. وأدى ذلك إلى شهرة المؤسسة وترسيخ مكانتها، لأن الأمم المتحدة اعتمدت الأرقام التي أوردناها، وبدأت تستخدمُها. كما بدأنا في إجراء دراسات حول اقتصاديات المنطقة، وكانت تدور في أذهاننا فكرة غامضة وهي أنه بعد بناء قاعدة بيانات مرفقة بشيء من التحليل، يمكننا نشر سلسلة من الكتب، ولكننا لم نبلغ تلك المرحلة إطلاقاً.

ارتبطتُ بمشروعين، «أوراق اقتصادية حول الشرق الأوسط»، وهي نشرة سنويّة كنت أتولى تحريرَها، والثاني دراسات عن دول المنطقة. كانت الدراسة الأولى عن العراق. ولأنني كنت قد ذهبت إلى العراق لصالح الأونروا، سألني ألبرت فيما إذا كنت أرغب في الذهاب مرّة ثانية، وقضاء بعض الوقت لصالح المؤسسة. في تلك الرحلة، حدث أهم الأمور وأكثرها مدعاة للسعادة. فقد قابلتُ الشابّة التي ستصبح زوجتي فيما بعد.

كنت أقومُ بالدراسة، وأبحثُ عن معلومات حول اقتصاد العراق، وأشتري الكتب، فعدتُ مُحمَّلاً بكميّات كبيرة من المادة اللازمة. وفي الوقت ذاته، تمَّ التعاقد على إجراء دراسة مع مجموعة من اقتصاديّي العمل كانوا يكتبون بحثاً

حول أثر عملية التصنيع على العمالة. كان هناك كلارك كير من جامعة كاليفورنيا (ورئيسها في وقت لاحق) وجون دنلوب من جامعة هارفارد، وتشارلز (لا أذكر لقبه) من معهد ماسوتشوسيتس للتكنولوجيا، وفريدريك هاربيسون من جامعة برينستون، - وهم أربعة اقتصاديين مرموقين جداً. وبالنسبة للشرق الأوسط، كانوا يريدون من مؤسستنا تولي مسؤولية هذه الدراسات. كانت البيانات التي أجمعها أثناء وجودي في العراق لصالحهم. وفي وقت لاحق، كتبت ما جمعته، وتناولت قوانين العمل وقوانين التصنيع في العراق. وأصبح ذلك جزءاً من الدراسة.

في السنة الأولى من عملي في الجامعة، أحسست أنني أحظى بالتقدير. وفي سنة ١٩٥٣، تمَّت ترقيتي إلى أستاذ مساعد. حدث ذلك في سنتي الأولى. كان أول مَقر للمؤسسة في مبنى المتحف. انتقلنا فيما بعد إلى مبنى مقابل صيدلية خياط.

في تلك الأيام، لم يكن هناك إحساس في الجامعة بأن عدد الفلسطينيين فيها أكثر من اللازم. بل على النقيض من ذلك، كان يُنظر إلينا كرصيد للجامعة. عندما كان يأتي لبناني متميّز، كانوا يَقبَلونهُ. لم نكُن نستولي على وظائف الآخرين. كنا نأخذ الوظائف من الأميركيين، وليس من اللبنانيين. أتذكّر أنني سألت ألبرت ذات مرة:

- هل عندك قلق من هذا الموضوع؟

- لا، إنتوا ما بتحِلوا مَحل اللبنانيين أو غيرهم من العرب. إذا الجامعة ما بتطوِّر المهارات العربية المَحلية، لتحل محل معظم الأميركيين، فإنها تعتبر فاشلة.

خلال تلك الفترة، كانت هناك بدايات لتنظيم سرّي (فلسطيني) سياسي. فوُجِدت عدة مُنظمات. كانت غير معروفة لأنها تعمل تحت الأرض - على الأقل بالنسبة لي، ولم أكن أعلم مَن هم المنخرطون فيها. كانت هناك منظمة «أبطال العودة»، و«الثأر»، كانوا يرسلون منشورات أو مجلات مُختصرة تصدر بصورة غير منتظمة. كنت أحصل عليها. كل تلك الجهات كانت ترسل نسخة لي لأنني كنت معروفاً آنذاك بنشاطي السياسي في فلسطين، وفي الحزب السوري القومي - على الرغم من أنني كنت في ذلك الوقت قد بدأت أنأى بنفسي عن الحزب.

كان نشاطي السياسي محدوداً أثناء السنوات الأولى في لبنان، من ١٩٤٩ الى ١٩٥٤، لأنني كنت شديد الانشغال بعملي مع الأونروا. إلى جانب ذلك، كنت طالباً مُتفرغاً، وعليّ أن أُعِدّ رسالة الماجستير. وكانت الرسالة تستهلك كل الوقت المتاح لي، باستثناء جانب يسير من الحياة الاجتماعية. عندما أصبحتُ معيداً في الجامعة الأميركية في بيروت، كان عليّ التحضير للوحدات

الدراسيّة، فلم أكن قد مارستُ التعليم على هذا المستوى من قبل. كان ينبغي لي أن أساعد ألبرت بدر إلى حدّ كبير، فقد كان يعتمد عليّ كثيراً في إعداد النظام الداخلي للمؤسسة، مثل كيف يوزعُ الباحثون الوقت بين التعليم والبحث، وكيف يتمّ الدفع للأفراد مقابل ما يقومون به من دراسات، وكيف يتمُّ تخصيص المُرتبات - إذ يجب أن يكون للمؤسسة إجراءاتها الخاصة بها. كان عليّ أيضاً أن أعمل في مشاريع الأبحاث والتحرير التي ذكرتها سابقاً، وتحريرها. كانت لي بعض الاتصالات مع بعض الأشخاص منذ أيام الهيئة العربية العليا - مثل عزّت طنّوس، وإميل الغوري وصدقي الطبري. كان صدقي يقيم في دمشق وكنت أراه كلّما جاء إلى بيروت. لم أكن أرى خليل الطبري كثيراً في تلك الأيام لأن عملَه مع الأونروا كان في البقاع.

في تلك الفترة، لم يكن الفلسطينيون في لبنان مسيَّسين بدرجة كبيرة. كانوا مهتمين بالعودة، ويتوقعون أن تكون قريبة جداً، لم يكونوا معنيِّين مباشرةً - في الظاهر على الأقل - بأي نشاط سياسي يجعل عودتهم ممكنة. كانوا ينتظرون أن تحدث، متوقعين أن تحققها الحكومات العربية. هناك نشاطات ثقافية، كالاحتفال بمناسبات تذكارية خاصة مثل يوم القسطل ويوم دير ياسين. وكانت الحفلات التذكارية تقام في المخيمات، ولكن على نطاق ضيق، لأن قبضة الأمن العام كانت ثقيلة جداً. حضرتُ تجمعاً أو اثنين جرى عقدُهما خارج المُخيَّمات. أحدهما عقد في نادٍ للقوميين العرب. وذهبتُ مرّة أو مرّتين إلى بيوت الفلسطينيين، أظن إلى بيت فارس سرحان. ولكن بشكل عام، بقيتُ بعيداً عن مثل هذه الأمور. قرَّرت أنه ما لم يكن هناك عمل جيد التنظيم، فإنني لن أتورط فيه. كنت منشغلاً كثيراً بأمور أخرى، كما كان لديّ دائماً موقف وهو أنني حين لا أكون قادراً على القيام بعمل ملموس في أية منظمة، فإنني لن أشارك فيها.

لم يكن هناك أي شيء ظاهر، ولم أكن أريد المشاركة في أيّ عمل تحت الأرض لأنني لم أكن أعرف من المشارك فيه. يمكن أن يكون مُخبِراً، يمكن أن يكون غبيّاً، ويمكن أن يكون له فهم خاطئ للمشاكل. أتذكر في تلك الأيام، أن أحدَهم ألقى عليّ محاضرة طويلة على غرار: «إن الجوابَ الصحيح لمسألتنا هو كذا وكذا..». قلت له:

- أول شيء، عند محاولة إيجاد الجواب الصحيح، هو طرح السؤال الصحيح. شو هي المشكلة؟ هل هي العدالة؟ أو شيء آخر؟

كان تفسيره دائماً خارجيّاً، الامبريالية فعلت كذا وكذا، مع انتباه ضئيل جداً - هذا إن توفّر انتباه - إلى ما كان من أخطاء داخلية بين الفلسطينيين، أو ضمنَ المنطقة العربية ككُل، وفي تنشئة الإنسان الفرد. فبقيتُ بعيداً. واستمرَّت الحال كذلك عدة سنِوات. أصبحت نشيطاً من جديد بعد عودتِي من أميركا

وتحوّلي التام، أخيراَ، نحو القومية العربية. أصبحت نشيطاَ في مجال السياسات المتعلقة بالقومية العربية وفي النادي الثقافي العربي، حيث اعتدت أن أقدّم ثلاث أو أربع محاضرات في السنة، وأكتب في مجلتهم.

الحياة على الطريقة البيروتية

إن لبنان، كمكان للعيش، يختلف كثيراً عن فلسطين، خصوصاً عن مكان مثل طبريا. كانت بيروت مدينة كبيرة، أكثر نشاطاً من الناحية الفكرية والثقافية. كان هناك الكثير من العرب من أقطار مختلفة يعيشون فيها، كانت أكثر «تنوعاً عربياً» وأكثر عالمية. والسياسة لم تكن تتركز على قضية واحدة فقط. في فلسطين، كانت هناك المشكلة الفلسطينية فقط. أما في بيروت، فأي قضية عربية لها صدىً هناك، سواءٌ كانت القضية هي استقلال تونس، أو القتال في الجزائر الذي وقع في وقت لاحق، أو ثورة رشيد عالي الكيلاني، أو المشكلة الفلسطينية. كل تلك القضايا كانت حاضرة، حتى قبل ظهور كمال جنبلاط (واهتماماته الدولية ومدى وَعيهِ الذي كان أوسع بكثير مما تميز به القادة الذين سبقوه). وكانت هناك السياسة اللبنانية أيضاً.

في فلسطين، لم تكن هناك سياسة بالمعنى الحقيقي للكلمة، كانت ببساطة هي الصراع ضد الصهيونية. لم تكن لدينا حكومة خاصة بنا، لم يكن لدينا تنافس على المقاعد أو الحقائب الوزارية. الحياة السياسية والاجتماعية كانت محدودة جداً، تتركّز على أمر واحد فقط. أما في لبنان، فلم يكن هناك تنوّع سياسي أكبر فحسب، بل كان هناك مجال أوسع للحياة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية. كانت حياة الشاب في فلسطين تنقسم إلى قسمين، حياته السرّية المتعلقة بالنساء - النساء الأوروبيات واليهوديات بشكل رئيسي - والقسم العام المنفتح على السياسة حيث تكون ارتباطاته مع غيره من الفلسطينيين. في لبنان كان هناك مزج بين هذين القسمين، لم يكن بينهما خط فاصل.

كانت تلك فترة تفتُّح بالنسبة لي من حيث العلاقات مع النساء والصداقات. كنت أعمل مع الأونروا حيث توجد صبايا كثر، أجنبيات ولبنانيات. كانت لديّ حياتي الاجتماعية خارج المكتب مع مجموعة أصدقائي. كنا نخرج في نزهات ورحلات. أتذكر إحدى رحلات النزهة بشكل خاص، وكانت إلى مكان قريب من بعلبك. كان منظم الرحلة فوزي معلوف - وهو نشيطٌ جداً في تنظيم مثل هذه الرحلات. كان يعرف عن صديقتي جيف، فقال: «جيب صديقتك الأميركية معك كمان». كنا عشرين أو ثلاثين شخصاً، واختلطنا معاً. لم ألازِم جيف طوال الوقت، كنت أتنقَّل هنا وهناك. شربَ الشبابُ الشاي وانطلقوا يتمشون. كانت هناك ينابيع وأشجار، - لا أستطيع تذكر اسم المكان بالضّبط. كانت هناك صبيّة

فلسطينية كنت قد التقيتها من قبل. في أحدى اللحظات وجدنا أننا منعزلان عن الآخرين. كان هناك جوّ من الغزَل والانسجام. أمسكتُ يدَها، فلم تَسحبْها، لكنها لم تُبدِ تجاوباً أكبَر. حاولتُ أن أقبّلها لكنها قالت بصرامة:

- القُبلة لما أكون متزوجة بس. فأجبتها على الفور:

- وأنا ما بتزوّج إلا بعد القُبلة.

تلك الارتباطات المتزايدة مع نساء في بيروت الجديدة - والمختلفة تماماً عن بيروت التي كنت أعرفها كطالب - جعلتني أكثر وعياً بأهمية الملابس عما كنت عليه من قبل. ولكن اهتمامي بالملابس كان قد بدأ عندما كنت في مدرسة صيدا، لأن رجال صيدا أكثر اهتماماً بالملابس من رجال حيفا أو طبريا. ربما كان ذلك بسبب وجود قدر كبير من الشذوذ الجنسي هناك، فكان عليهم أن يظهروا كالطاووس لجذب الرجال الآخرين. عندما كنت طالباً في المدرسة، أتذكر كيف كان أصحاب المحال التجارية يتباهون بعرض الأزياء أمام أعيننا عندما نذهب إلى صيدا. كانوا يقولون لنا: «اليوم الموضة البنطلون الأبيض» - عريض جداً من الأسفل بحيث يختفي الحذاء داخله. كل من كان باستطاعتهم الشراء، كانوا يسارعون إلى شراء بنطلون من ذلك النوع، وإذا لم نكن قادرين، كنا نوسِّع بناطيلنا البيضاء.

أتذكر أنني احتجتُ إلى شراء كنزة - وكان والداي قد أعطياني النقود اللازمة لذلك - فاشتريت واحدة تشبه مئات غيرها في المدرسة، كل طالب كان يرتدي الشيء نفسه، لون أبيض وأزرق، فأبيض وخطوط حمراء من الأسفل، وعلى الأكمام والياقة. شيء يرتديه الجميع. وفي وقت لاحق، بدأت أختار الألوان والتصاميم التي أحبها وكذلك قَصّة الشعر. عندما كنت في السنة الجامعية الأولى، ذهبتُ إلى الحلاق - الذي ظلَّ حلاقي إلى أن توفي قبل بضع سنوات، واسمه بخعازي - وكانت الموضة الدارجة آنذاك هي الشعر القصير، أقل من بوصتين للشَّعر من جميع الجهات، دون تخفيفهِ عند السوالف أو الرقبة، بل يظلُّ سميكاً حتى أطرافه، مثل الشعر المُستعار. عندما ذهبت إلى البيت قالوا لي:

- شو مال شعرك؟ طبيعي؟ فقلت:

- هيك الموضة.

قلت لهم إنه أفضل أسلوب مناسب للسباحة، لتجنّب وصول الشعر إلى عيني أو فمي.

كانت بيروت أنيقة بالطبع، الناس فيها تميّزوا بحُسن الهندام، على نحو أفضل من أيّ مكان آخر في العالم العربي. بدأت أفصِّل البدلات، ولعدّة سنوات كنت

أرتدي بدلات بأزرار مزدوجة يُفصّلها خصيصاً لي ربيز. ولكن عندما ذهبنا إلى أميركا تحوّلتُ إلى ارتداء الملابس الجاهزة. ولا أتذكر أنني فصلت بذلة منذ سنة ١٩٥٦.

لم يكن أبي يتمتع بحس خاص إزاء الملابس، لكن أمي اعتادت أن تحثّه على ذلك. كانت تحرص على التأكد من أنه يرتدي قمصاناً مكويّة حديثاً، وتحثّهُ على تغيير ربطة العنق إذا لبس الربطة نفسها لمدة يومين متتاليين أو ثلاثة أيام. لم يكن لديه ربطات عنق كثيرة على أية حال، وبعد وفاة أمي، ظل يلبس ربطة عنق سوداء. ربما غيرها في وقت لاحق، ولكن بعد وفاة فؤاد بعد تسع سنوات، التزمَ باللون الأسود.

كنت أستمتع بلفت الانتباه. والمرأة التي ربما أثّرَت عليّ أكثر من سِواها اعتادت على ملاحظة ثيابي والتعليق عليها. كان ذلك في القدس. كان هناك عدد قليل من الخياطين الفلسطينيين الماهرين. أتذكر خياطاً في نابلس كان ماهراً ولكنه يسيرُ وفقاً للموضة القديمة. لا يتغيّر. كان يُفصّل بدلات لها زرَّان للجاكيت وصدريّة فقط، ويُصرّ على التفصيلة نفسها للجميع. لم ألبس بذلة من تفصيله رغم أنه كان صديقاً لي. ولكني فصّلت بذلة في القدس - انتقيت قطعة قماش فاخرة جداً لونها أزرق داكن بلون بذلات رجال سلاح الجوّ ومُخطّطة، وعهدتُ بتفصيلها إلى أشهر خياط في القدس. كلّفني ذلك كلّه نحو ثمانية وثلاثين جنيهاً «إسترلينياً» - وهو مبلغ كبير، لكنها كانت موضعَ فخري واعتزازي لسنوات عديدة.

في كانون الأول/ديسمبر ١٩٥١، كما أظن، أُصبت بانزلاق غضروفي - على الأقل كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها ذلك التعبير. حدثَ ذلك عندما كنت أقود سيارتي في منطقة باب إدريس أمام محل هاشم مباشرة. كانت الطريق مرتفعة قليلا هناك، أوقفتُ السيارة بجانب الطريق لأنظرَ إلى شيءٍ ما. عندما حاولت المغادرة وقدتُ السيارة نحو منتصف الطريق، توقفَ ناقل الحركة «الجير» عن العمل. فتوقفتُ، ثم أوقفت المُحرّك. حاولت تحريك ناقل الحركة لكن بدون جدوى. وصلَ الترام وبدأ يقرع الجرَس. خرجتُ من السيارة وحاولت دفعها إلى جانب الطريق، لكن الطريق مرتفعة قليلاً، فلم أنجح في ذلك. تلفّتُّ حولي، ولاحظَ الناس محنتي، ولكن لم يأتِ أحد منهم لمساعدتي. ومع شعوري باليأس، دفعت السيارة دَفعة أخيرة. أظن أن أحدهم نزلَ من الترام لمساعدتي - كان الترام قد وصل وكان السائق يصرخ. بتلك الدفعة، انحل ناقلُ الحركة، وأصبحت قادراً على تشغيل السيارة وقيادتها عائداً إلى البيت. وفي لحظة نزولي من السيارة، شعرتُ بألم حادّ في ظهري يشبه طعنة السّكّين. لم أتمكّن من الوقوف منتصباً، مشيتُ مُستنداً إلى

الحائط نحو غرفتي وإلى سريري. بقيت في مكاني هناك مدةَ شهر كامل حسبَ أوامر الطبيب الدكتور فؤاد صبرا.

عندما كنتُ طريح الفراش - وكان عندي زائر هو جورج جورج، صديقي القديم منذ أيام طبريا - دخلت ابنة أخي هالة، ابنة فؤاد، وعمرُها سنة ونصف - كانوا يقيمون معنا في نفس المنزل آنذاك. دخلَت غرفتي وهي تبدو مختنقة، غيرَ قادرة على إصدار أي صوت. كانت عيناها شاخصتين خوفاً، ووجهُها ممتقعٌ بدأ يميلُ إلى الزّرقة، فقال جورج: «أكيد ابتلعت شي». حمَلها من قدميها وهزّها هزة قوية، فسقط شيء من فمها، «غلّة». لم يكن ذلك ليخطر لي على بال، وفي الواقع لو كنت وحيداً في ذلك الوقت، حتى لو لم أكن مريضاً، لاختنقَت. جورج جورج أنقذ حياتها.

الدراسة في جامعة جونز هوبكنز

في وقت ما من عام ١٩٥٣، عرَضَت مؤسسة أميركية تدعى «مؤسسة إيرهارت» منحة على الجامعة الأميركية في بيروت مقدارها ٥٠٠٠ دولار وقالت: اختاروا شخصاً واعداً لنيل درجة الدكتوراه من أميركا. ورشّحتني كلية الاقتصاد، وكافح ألبرت بدر وأ. جي. ميير كفاحاً شاقاً لكي أحصل على المنحة. اختارت كلية إدارة الأعمال شخصاً أميركياً حاصلاً على درجة الماجستير فقط. كان ذلك خطأً من جانبهم، لأن القصد من المنحة أن تعود بالنفع على أبناء المنطقة. وكان حمادة يكافح ضد شابّين يتمتعان بالنفوذ في الجامعة - ألبرت بدر و أ. جي. ميير. عبَّر حمادة لي عن أسفه لاضطراره إلى القيام بذلك، وقال: «لو ما اختاروك لاخترتك أنا، ولكن لأنهم اختاروك، كان عليّ أن أقاوم». في البداية كنت متردّداً حيالها، لأنني لم أرد أن أكون جزءاً من الصراع مع حمادة. ثانياً، كنت أعتقد أن ٥٠٠٠ دولار ليس مبلغاً كبيراً، إذ كانَ عليّ أن أدفع أكثر من نصفه لتغطية القسط. كما أنها تعني ابتعادي مدة عامين عن عملي. في نهاية المطاف، استطعتُ أن أكمل الدراسة في سنة وفصل واحد. على أية حال، حصلتُ على المنحة، وفي سنة ١٩٥٤ ذهبتُ إلى الولايات المتحدة لتحصيل درجة الدكتوراه. في ذلك الوقت، كنت قد تزوَّجت، وكانت روزماري حاملاً.

كنتُ أحسُّ بالفرح إزاء فرصة الذهاب إلى أميركا، بفضل المنحة، وإزاء فكرة أنني ذاهب من أجل نيل درجة الدكتوراه، وأنني أستطيع استكمال الدراسة في سنة واحدة، أو سنة ونصف على الأكثر. بذلتُ جهداً كبيراً من أجل تحقيق ذلك. كانت هناك وحدات دراسية إجبارية، ولكن كانت هناك وحدات أخرى اختيارية. فاخترتُ الوحدات التي تركز على التنمية وعلى العلاقة بين الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة. كنت مهتماً بالمَدخل المُختلط لعملية التنمية،

واخترتُ الوحدات الدراسية التي تقود إلى ذلك. كان هناك عدد من الأساتذة القديرين في جامعة جونز هوبكنز، ممّن قرأت عنهم في الأدبيّات المختلفة قبل ذهابي إلى أميركا - ومنهم سيمون كوزنيتس، وفريتز ماكلوب، وإيفزي دومر، واقتصادي/إحصائي اسمه كارل كريست، ومايكل بوستن الذي كان يحاضر عن التاريخ الاقتصادي. لم يكن عميد كلية الاقتصاد يتمتع بشخصية مؤثرة، وكانت النكتة حوله تقول: لذلك جعلناهُ عميداً. عملتُ بجدّ واجتهادٍ لأنني كنت أحسّ بمتعة العمل هناك. إلى جانب ذلك، فإن الجوّ تنافسيٌّ جداً في أميركا، كان الطلبة يتميّزون بحدة الذكاء، وأصغر مني سناً، - ولم أكن لأستطيع السماح لهم بالحصول على درجات أفضل مني.

كان لدينا ٥٠٠٠ دولار لتدبير أمور معيشتنا في ذلك العام في أميركا، لتغطية القسط، والسفر ونفقات المعيشة لسنة أكاديمية واحدة. ولتغطية نفقات الفصل الأول من العام الثاني، كان عليّ أن أسحبَ ما ادّخرتُهُ في بيروت وقدرُهُ حوالي ٢٠٠٠ دولار. استهلكت كل مدّخراتي لتمويل الفصل الإضافي. لكن المال اللازم للعودة كان مُدّخراً جانباً. كانت الجامعة الأميركية في بيروت متساهلة بشأن الفصل الإضافي. أكَّدتُ لهم أنني سأغيب مدة فصل إضافيّ واحد فقط.

في تلك الرحلة، زرتُ خالي في ديترويت. كان قد غادر فلسطين قبل وقت طويل، قبل أن تتزوج أمي في سنة ١٩١٤١٩١٥. هربَ مع زوجة رجل آخر وذهب إلى أميركا. وتلك المرأة الغنيمة العظيمة لم تكن عديمة الجاذبية فحسب بل غبيّة أيضاً. وبحلول سنة ١٩٥٥ عندما رأيتهما، كانت قد قضَت في أميركا أربعين سنة، وربما أكثر، وهي لا تعرف شيئاً من اللغة الإنكليزية. كان لهما أربعة أبناء وابنة واحدة. تستطيع قراءة أرقام هواتفهم إذا احتاجت إلى الاتصال بهم هاتفياً، ولكن هذا كل ما هنالك، لم تكن تستطيع قراءة أسمائهم. كانوا يكتبون لها الأرقام بألوان مختلفة حتى تميّز فيما بينها.

أخبروني حكاية عنها، إذْ قرّرت ذاتَ يوم إن تقوم بمغامرة، وغادرَت المنزل. ولا بدّ أنها انبهرت بما رأت، فمشَت أكثر مما كانت تَنوي، ولم تستطع معرفة طريق العودة إلى البيت. لم تكن تعرف عنوانها. رأت شرطياً، لكنها لم تستطع أن تشرح له شيئاً. وفي النهاية أخذَها إلى مركز الشرطة. أدركوا أنه، عاجلاً أو آجلاً، سيعود أحد أفراد العائلة إلى البيت، وحين لا يجدُها سيتصل بالشرطة. هذا ما حدث، فقد اتصل أحدهم وقال: «فقدت أمي، وهي لا تعرف أية كلمة إنكليزية.» فقال لهم الشرطي: «إنها تجلس هنا». فذهبوا وأحضروها.

قال لي خالي، وكان قد بلغ الثالثة والسبعين، عندما وصلت إلى هناك:

- ليش اتأخرت؟ قلت إنك بتوصل الساعة كذا وكذا»!

كنت قد دُعيت إلى فرع اتحاد الطلبة العرب في ديترويت لأتحدث معهم، وكان اللقاء في بيت طالب دعا زملاءه في الفرع. ونسينا أنفسنا في غمرة الحديث، ومكثتُ نصف ساعة بعد موعدي مع خالي. أخبرتهُ بما حدث، فسألني:

- في بيت مين كنتو؟ فأخبرته باسم صاحب البيت:

- واحد من عيلة الذيب.

احمرَّت عيناه غضباً وقال:

- ما بتعرف إنو إحنا ما بنحكي مع حدَا من عيلة الذيب.

- لكن يا خالي هاي القصة من ٤٠ سنة. الدّنيا اتغيّرت.

كان ذلك خالي، وتلك زوجة خالي.

بعد ذلك بدأتُ أعِدُّ أطروحة الدكتوراه، وأحضر وحدات دراسية أكثر في مناهج البحث لإعداد نفسي للدراسات الجادّة وكتابة الرسالة فيما بعد. قرّرت أنني سأجني فائدة أكبر لو بقيت فصلاً آخر لحضور وحدات دراسية فوق الحد الأدنى المطلق المسموح به.

بعد أن ذهبَت روزماري ويَزيد إلى إنكلترا، عدتّ إلى بلتيمور حتى نهاية الفصل، قبل أن أنضمَّ إليهما في لندن. في ذلك الوقت، استطعتُ أن أكتبَ الفصل الأول من أطروحة الدكتوراه. كنت قد اخترتُ الموضوع، وهو الأعمال التجارية الحرة، ووضعتُ مُخطّط البحث، ثم حصلتُ على دعم ماليّ لها من مؤسسة روكفيللر. خلال ذلك الفصل، أصبحتُ مهتماً بالقيام بعمل ميداني حول الأعمال الحرة، لأن قراءاتي كلها كانت حول الدول المتطورة باستثناء دراسة عن المكسيك. فقمت بتصميم مشروع البحث. ثم فكرت: لماذا لا أكتب إلى مؤسسة ما عن ذلك البحث؟ شجعني على ذلك محاضرٌ زائر، كان قد عملَ في البنك الدولي. وأصبحنا صديقين حميمين.

كان أولَ ما قالهُ: «عندما تكمل دراستك هنا في جامعة جونز هوبكنز، أضمن لك وظيفة ممتازة في البنك الدولي». لكنني قررت أن لا أقبل تلك الوظيفة. فقد أخبرتُ ألبرت بدر عنها، فغضب لأنه اعتقد أنني كنت أمهّد الطريق لكي أتركه هو ومؤسسة الأبحاث بعد أن قدّم لي المساعدة لأحصل على تلك المنحة الدراسية. فطمأنتهُ. أما ذلك الرجل، فقد قال لي أيضاً: «يبدو موضوعاً مثيراً للاهتمام، لماذا لا تحاول الحصول على منحة لبحثك؟». أعطاني اسم مدير البحث الاجتماعي في مؤسسة روكفيللر، وهو رجل اقتصاد اسمه سيدني بوكانان. أعددتُ مذكرة، وكتبت رسالة وأرسلتها إليه في نيويورك. وفي رِدِّه، دعاني لتناول الغداء معه والتحدّث في الموضوع لأن الاقتراح كان

مثيراً للاهتمام. ذهبت إلى نيويورك، وأثناء الغداء قال: «سأقدم توصية بالأخذ باقتراحك لمجلس الإدارة. لا أريد أية تفاصيل أخرى، لكنني أريد منك أن تعدّ موازنة زمنية ومالية». كان ذلك هو ما فعلته في بيروت. وسارت الأمور حسب الإجراءات. بعد بضعة أشهر، قدّموا لي منحة قدرها ٤٤.١٠٠ دولار.

هناك شيءٌ آخر أودُّ أن أقوله حول تلك السَّنة التي قضيتُها في بلتيمور. تمَّ اختيار رسالتي للماجستير من قِبَل شخص كان يعمل في المؤسسة الباكستانية للشؤون الدولية. أطّلعَ على نسخة منها في بيروت، وأراد نشرَها. فكتبوا إليّ رسمياً واتفقنا على الشروط. قرأ محرِّرُهم المخطوطة وأدخل بعض التعديلات ثم أرسل لي المادة لمراجعتها في بلتيمور. وأعدتها إلى باكستان. وعدوني - أتذكر ذلك بوضوح بالغ - بتقديم مبلغ قدره ٣٥ جنيهاً «إسترلينياً» وبعض النسخ. لم أتسلّم المبلغ إطلاقاً - ولم أكترث لذلك - لكنني أيضاً لم أتسلم النسخ على الإطلاق. لم أرَ الكتاب مطلقاً، رغم أنني رأيت اقتباسات عنه.

الخبزُ مع الكَرامة

بعد سنة دراسية ثانية في الولايات المتحدة مع مركز هارفارد لدراسات الشرق الأوسط وجامعة برينستون (١٩٥٩١٩٦١)، كنا نستعد للعودة إلى بيروت. قمنا بحجز مقاعدنا على متن سفينة شحن هولندية. استغرقت الرحلة ٢٣ يوماً للوصول إلى بيروت. خلال هذه المدّة، ألّفتُ كتاباً نال جائزة أصدقاء الكتاب لعام ١٩٦١، وهو «الخبز مع الكرامة». كان فصلان من الكتاب عبارة عن موضوعين نشرتهما سابقاً. أحدهما عن التنمية بعنوان «اليد اللامرئية أو المرئية»، ونُشر في مجلة مرموقة تدعى «وورلد بولتكس»، ولفتَ الانتباه هناك. حضرَ مُحرّر المجلة الندوة التي قدَّمت فيها تلك الورقة في برينستون، وطلبها مني لنشرها على الفور. كان هناك فصل آخر نُشر من قبل في مكان ما. لكنني أكملت الكتاب أثناء الرحلة. كنتُ أكتب لمدة ثلاث أو أربع ساعات يومياً ثم آخذ حمّاماً شمسياً.

المؤتمرات

حضرتُ مؤتمراتٍ عديدة. لم تبدأ مشاركاتي في المؤتمرات بشكل فوري. بعد حصولي على درجة الدكتوراه، بدأتُ أتلقّى دعوات لحضور المؤتمرات. عُقد أول مؤتمر دعيتُ لحضوره، في القاهرة، حيث تلقيتُ دعوة من إبراهيم حلمي عبد الرحمن، مدير عام «مؤسسة التخطيط»، وهي مؤسسة رسمية تتبع الحكومة المصرية. كان صاحب الدعوة يُعتبر أبا التخطيط في مصر، وكانت المؤسسة تتلقّى التمويل من مؤسسة فورد. كما كانت مؤسسة فورد تموِّل

«مؤسسة الأبحاث الاقتصادية» في الجامعة الأميركية في بيروت التي ارتبطتُ بها كمساعد ألبرت بدر الذي كان مديرَها في سنة ١٩٥٧. ولا بدَّ من أن «مؤسسة التخطيط» في القاهرة أرادت دعوة عدة أشخاص من خارج مصر، ولا بدَّ كذلك من أن مؤسسة فورد اقترحت اسمي للمشاركة. لم أكن متأكداً من هذا الأمر لأنني لم أكن أعرف إبراهيم حلمي عبد الرحمن شخصياً. كان هذا أول مؤتمر ضمن سلسلة طويلة من المؤتمرات التي حضرتها.

منذ المرة الأولى، شعرتُ بمتعة كبيرة في حضور المؤتمرات. وكان المصدر الرئيس لهذه المتعة، إلى جانب الالتقاء مع أشخاص جُدُد وتبادل الأفكار - وقد تعلّمتُ دائماً أشياء جديدة من المؤتمرات وكنت آخذها على محمل الجدّ - هو أنني كنت أستمتع بالمداخلات. كنت دائماً أمزج مساهمتي الفكرية بشيء خفيف بحيث لا تكون المداخلة مملة أو جادّة أكثر من اللازم. وكان هذا يلقى قبولاً حسناً، وحافظت على ذلك طوال الوقت. في كل عام، كنت أذهب للمشاركة في مؤتمريْن على الأقل. وبذلك يبلغ مجموعها أكثر من ستين أو سبعين مؤتمراً حتى الآن، إذا كنت تحسب الندوات الصغيرة وورشات العمل أيضاً. كنتُ أحبُّ السفر.

هناك عدة مؤتمرات ماثلة في ذاكرتي لخصوصيتها الشديدة. يرِد على ذهني منها مؤتمر عقد في الفيليبين، وهو أحد المؤتمرات الأولى، في ١٩٦٣. طُلب مني إعداد ورقة بحث حول موضوع لا أعرف الكثير عنه، وهو أثر الدِّين - والمقصود هو الإسلام - على التنمية. كانت هناك نظرية في ذلك الوقت تقول بأن الإسلام عقبة أمام التنمية. والشخص الذي سحبَ النظرية على المنطقة العربية كان اسمه ألفريد بونيت، وهو رجل اقتصاد إسرائيلي. عندما كتبتُ ورقة البحث، استفدتُ من مؤتمر سابق حول الأعمال التجارية الحرّة في جامعة هارفارد نظّمَهُ مركز تاريخ الأعمال التجارية الحرة بالتعاون مع فريتز ردليخ وكول.

في هارفارد، قدم بونيت ورقة بحث كرّرَ فيها ما قاله في كتاب حول اقتصاد الشرق الأوسط، وهو أنه لأنّ العربَ مسلمون، فإنهم لا يمكن أن يكونوا رجال أعمال مُبدعين، لسبب بسيط هو أن دينهم يأمرهم بالسعي وراء ما هو معروف، وتجنّب المجهول. وأسّسَ تفسيرَهُ على آيات من القرآن تدعو إلى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». والكلمتان الأساسيتان هما «المعروف» و«المنكر» - وهنا ارتكبَ خطأً فظيعاً. فالمُنكر هو الشيء المكروه - ولا علاقة له بعالم الأعمال أو المعرفة. لقد أساءَ الفهم. إما أن لغته العربية لم تكن جيدة أو أن شخصاً ما غرّر به.

في ذلك المؤتمر في هارفارد، قطَّعت تفسيره إرباً إربا، وكان ذلك سهلاً. فنظريته كلها قامت على أساس ذلك الاقتباس. فسألتهم:

- حتى لو كان ذلك صحيحاً، هل تؤسسون نظرية كاملة، وتُدينون ديناً كاملاً وحضارة كاملة عمرها خمسة عشر قرناً على هذا الأساس الوحيد؟ وهو أساس خطأ. أتذكر أنني قلت أيضاً:

- أدعو السيد جيب - وكان يحضر المؤتمر - لأن يقول من مِنّا على حق.

تحدّث جيب بإيجاز شديد، فقال:

- إن الترجمة التي قدمها بونيت خطأ مطلق.

حملَ بونيت أوراقه وانصرَف، ولم يعُد لحضور سائر جلسات المؤتمر. كان ذلك نسفاً تاماً لنظريته.

بعد ذلك قرأتُ القرآن، ولم أجد ما يؤيّد نظرية بونيت. في الوقت الذي لاح فيه مؤتمر الفيليبين، قبلتُ مهمة كتابة البحث وبدأت أفكر فيه. كانت الورقة التي قدمتها استنتاجية أكثر من أي شيء آخر. لم أقم بأي بحث أو تنقيب عن مادة علمية، بقدر ما قمت بالتحليل، والنظر من حولي بعينين مفتوحتين. وكانت استقرائية أيضاً بمعنى أنني اعتمدت على الملاحظة، فرجال الأعمال المسيحيون لم يكونوا أكثر مهارة من رجال الأعمال المسلمين. وسائر الأمور متساوية عند الجانبين. فإذا كانت الحوافز المالية قوية بدرجة كافية، فإن الدروز والبوذيين والمسيحيين والمسلمين سيسعون جميعاً بحماسة للقيام بمشاريع الأعمال وكسب المال. أسهبتُ في شرح هذا الجانب في ورقتي، ولقي هذا البحث قبولاً حسناً في الفيليبين، وتمّت الإشارة إليه كثيراً في المؤتمر.

كان ألبرت حوراني هو الذي رشحني لمؤتمر الفيليبين، لأنه كان أحد المُنظمين كما أخبرني لاحقاً إذ قال:

- شعرت باستمرار أن اهتمامك بالاقتصاد غير منفصل عن اهتمامك بالثقافة والسياسة وعلم الاجتماع.

عُقدَ مؤتمر في الهند للاقتصاديين الزراعيين. ومرة أخرى، رشحتني مؤسسة فورد للمشاركة فيه. وُجّهت إليّ الدعوة بفضل شخص من مؤسسة فورد، أظن انه كلارك بلوم. اقترح أيضاً أن أقضي شهرين في الهند لزيارة مؤسسات البحث فيها، لأنني أصبحت مدير مؤسسة الأبحاث في بيروت آنذاك، لكنني قضيتُ ستة أسابيع فقط بدلاً من الأسابيع الثمانية التي اقترحَها، لأن «جمانة» كانت على وشك أن تُولد.

أودُّ أن أمعنَ التفكير أكثر في هذا الفصل فيما يتعلق بالمؤتمرات لأن عدداً منها كان مثيراً للاهتمام بشكل خاص، ولم تكن مؤتمراتٍ عاديةً أحضرها

وحسب. كالمؤتمر الذي أعددتُ له إستراتيجية للجامعة العربية، وكان من المؤتمرات الهامة. وكان هناك مؤتمر في العراق وآخر في الأردن.

[لم يَكتمل تسجيل هذا الجزء].

∞ ∞ ∞ ∞ ∞



الفصل الثاني عشر «بدونها، لن تكون الحياة كما كانت» وفاة أم يوسف (١٣ تشرين الأول ١٩٥٠)

تفتح الورد والذبول

كانت فترة «١٩٤٩١٩٥٠» كلّها فترةَ تغيّرٍ في التوَجُّهات أو توطيدِ وتطويرِ مَساراتِنا المِهَنية المتنوّعة كافّة. اخترنا توجُّهاتٍ مِهَنية مُختلفة، وتحمَّلنا المسؤوليّة كلها تقريباً، دون أن نستشير أبي. كان يسألنا واحداً واحداً:

- شو بتفكّر تدرُس؟

وكنا نقدِّم له إجاباتنا المختلفة. اختار فؤاد الهندسة، وأحسسنا جميعاً أن تلك فكرة جيدة، لأنه أحب دراسة الهندسة، وكانت شيئاً عملياً يبدو واعداً أكثرَ من تخصّصي في إدارة الأعمال، وبالتأكيد، أكثر من تخصّص فايز في الفلسفة. تزوّج فؤاد سنة ١٩٤٩، وفي سنة ١٩٥٠، جاء من غزة ليقيم في لبنان. عمل في شركة التابلاين مهندساً مسؤولاً عن إنشاء خط أنابيب النفط من المملكة العربية السعودية إلى ميناء الزهراني في لبنان. أقامَ وزوجته كليمانس في درعا، بسورية، ثم أقاما في القنيطرة في وقت لاحق. ولكن عندما كان في درعا، طمع ضابط في الجيش، كان مهندساً أيضاً، في وظيفة فؤاد، واستطاع أن يستخرج معلومات تفيد بأن «فؤاد» لديه جواز سفر سوري وأنه لم يؤدِّ الخدمة العسكرية. فاستُدعيَ فؤاد إلى الجيش، وتدرّب وأصبح ضابطاً. عمل في منطقة القنيطرة في بناء «الدّشم» والتحصينات. ثم عاد وزوجته إلى لبنان في سنة ١٩٥١ أو ١٩٥٢.

اختار فايز دراسة الفلسفة منذ البداية. قرأ كثيراً في الفلسفة، وكان مهتمّاً بها منذ سنوات المراهقة. بدأ يستعيرُ الكتب، كما أظن، من مدرسته في صفد. وعندما كان يستعدّ لدخول الجامعة الأميركية في بيروت كان في سنّ الخامسة عشرة، ولم يتمّ قبوله فيها بسبب صغر سنّه. عاد إلى طبريا، وأتذكر أنه كان يستعير كتباً من الدكتور طورانس الذي كان يملك مكتبة كانت لوالده إضافة إلى مكتبته. ثم بدأ يشتري الكتب، ويتعمّق في دراستها. لم يحدثني في الفلسفة لأنني لم أكن ميالاً للفلسفة، ولكنه كان يتحدث قليلاً في اللاهوت مع أبي. وبين الفينة والأخرى كان يلمعُ في عيون أمي وأبي بريقٌ ساطعٌ ويقولان: «يمكن يدرُس اللاهوت ويطلع قسيس». وفي الواقع، مرَّ فايز بمرحلة من الورَع، فأصبَحا يأملان في ذلك أكثر، خصوصاً عندما شاهداهُ وهو يقرأ الكتاب المقدس. غيرَ أني أعتقد أنه قرأ الكتاب المقدس قراءةَ فيلسوف، ككتاب يضمّ موضوعات مثل «موعظة الجبل». نالَ درجةَ الدكتوراه في الفلسفة في كانون الأوّل/ديسمبر من سنة ١٩٤٩ من جامعة جورجتاون.

كان لدَى توفيق اهتمامٌ بالكتابة، منذ البداية أيضاً. فعلى سبيل المثال كان ميّالاً إلى اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني، وحصل على أعلى الدرجات في اللغة اللاتينية والآداب في فلسطين في امتحان المترك «المعادل للثانوية العامة أو البكالوريا». كما بدأ يكتب في وقت مُبكّر أيضاً. وفي وقت لاحق، أخبرني أنه بدأ يكتبُ الشعر حين كنا في طبريا، ولكنه لم يقل لنا ذلك في حينه إطلاقاً. عندما ظهر أول ديوان شعر له - وكان عنوانه «ثلاثون» لأنه نشرَهُ وهو في الثلاثين من العمر، أتذكّر أنني قلت له:

- شو! مجموعة قصائد؟ فقال:

- نعم، كنت بكتبها من سنين.

لم أكن أعرف، لا أدري إن كان يتحدّث أكثر حول ذلك مع منير - فقد كانا متقاربين - ولكن ليس مع فايز، وأنا متأكد من هذا لأن توفيق كان يحسّ بانزعاج من أسلوب فايز الذي يكاد يكون اضطهاداً لفؤاد. كان توفيق حسّاساً جداً، وربّما كان الأكثر حساسية بيننا. يمكن معرفة ذلك من ردود أفعاله إزاء ما يحدث من موت أو مرض... يمكنكِ رؤية شفتيه ترتعشان كأنه يريد أن يحبس الدمع، لكنه لم يكن يبكي، والمرة الوحيدة التي أتذكر أنني رأيته فيها ينتفض من شدة البكاء كانت حين توفيت أمي.

إذن، اختار توفيق دراسة الأدب، وأعتقدُ أن والديّ شعرا الشعور نفسه عندما اختار فايز الفلسفة - ها هو ولدٌ آخر لن يستطيع كسب المال! صحيحٌ أنهما لم يهتمّا كثيراً بالمال، لكنهما أرادا أن لا نعاني من الضغوط التي عانيا منها. أرادا أن نحيا حياة بسيطة ولكن في وضع مادي أفضل قليلاً. لقد ضحَّيا بالكثير من أجلنا. أتذكر أنه حين يكون عندنا تفاح - وسعرُهُ كان مرتفعاً إلى حدٍّ ما في فلسطين، بعكس البرتقال، كانت أمي تقول لنا، ولا أتذكر كم مرة كانت تقول: «مش جاي على بالي تفاح اليوم»، وذلك لكي نتناول المزيد. لم تكن تشتري لنفسها شيئاً جديداً إلا بعد أن تتأكد من أن لدينا جميعاً أشياء جديدة سواء كان ذلك قميصاً أو حذاءً جديداً. لكنني أتذكر أن أمي كانت تقول لنا، وكأنها تجيب عن سؤال في ذهنها: «يمكن أن تكسبوا مالا أكثر مما كسبَ والدكم وأن تكونوا في الوقت ذاته ورعين وصالحين». أتذكر كيف كان أبي يُنظم حساباتِه، كيف كان يسجّل في كل ليلة، كل فلس أنفقه؛ كانت لديه مفكرة صغيرة، مفكرة جيب، يُسجِّل فيها كل شيء. يوماً بيوم، ثم يقوم بجمع كل ما فيها في ملخص شهري. وقد مكَّنه ذلك من ضبط النفقات.

بعد فترةٍ من البطالة، وجدَ توفيق وظيفة أمين مكتبة في ما أصبح يدعى لاحقاً مركز كنيدي، المركز الثقافي الأميركي في بيروت. وأثناءَ عمله هناك، قابلَ شخصاً اسمهُ مارشال من مؤسسة روكفيللر. اعتاد مارشال أن يزور الجامعة

الأميركية في بيروت لأن مؤسسة روكفيللر كانت من المساهمين الهامّين في الخدمات الطبية وفي تقديم المنح الدراسية للأساتذة الشباب الواعدين أو المعيدين، للدراسة في الخارج. قابلَ توفيق لأنه كان يذهب إلى المركز الثقافي الأميركي وأصبحا صديقين. عرفَ أن توفيق يكتب الشعر - وهو ما لم أكن أعرفه أنا في حينه - وقال إنه سيحاول أن يدبّر له منحة دراسية. وهذا ما فعله. كانت منحة راقية اسمها «منحة مؤسسة روكفيللر للفنانين المبدعين» وقد مَوّلت توفيق لمدة سنتين في جامعة هارفارد، حيث التقى ثانية مع جبرا جبرا الذي عرفهُ في فلسطين، ومُنَح خوري الذي كان يدرس الآداب. لكن توفيق أصرّ على ألا يدرس من أجل الحصول على درجة جامعية، ولم تكن مؤسسة روكفيللر تشجع الحصول على الدرجات الأكاديمية لِما تتضمّنه من وحدات دراسية روتينية وامتحانات لأن ذلك يعتبرُ انحرافاً عن العمل الخلاّق. بعد قضاء السنتين هناك، عاد توفيق، وقامت المؤسسة المذكورة بتمديد منحته الدراسية. قضى سنة واحدة - ولا أعرف بأية صفة ولا في أية كلية، في جامعة أكسفورد. ثم قام بتدريس اللغة العربية والأدب العربي لمدة ثلاث سنوات في جامعة كمبردج. ومنها انتقل إلى كلية الدراسات المشرقية والإفريقية بجامعة لندن، لتدريس الأدب العربي.

رفضت ماري الذهاب إلى الجامعة. لم تكن تريد أن تمرّ بتجربة النظام المدرسي مرة ثانية. ولكن من أسباب ذلك أيضاً أنها كانت تريد أن تبقى إلى جانب أمي، وأن تعتني بها - أن لا تتركها وحيدة - رغم أنه كانت لدينا دائماً خادمة تساعد أمي، كما أن أبي كان في البيت معظم الوقت.

خلال السنوات ١٩٤٩١٩٥٣، كان منير يتلقّى التدريب كطبيب - بكالوريوس في العلوم الطبية، ويتبع ذلك أربع سنوات لدراسة الطب. ومنذ البداية، كان منير يريد أن يكون طبيباً. كانت أمي تشجعه، وتقول له: «شو رأيك تصير دكتور، وتكون طبيبي الخصوصي؟». والذي سهّل أمرَ دخول منير إلى كلية الطب كان أولاً قبولهُ مجاناً في الكلية العربية نظراً لسِجلّه الدراسيّ الممتاز، وثانياً، عند تخرجه، وعدَت حكومة الانتداب بتمويل دراسته الجامعية أسوة بالعشرات من الطلبة الآخرين الأوائل في امتحان المدرسة النهائي «المترك». وكان ينبغي أن يسافر إلى الخارج بسبب عدم وجود كلية للطب في فلسطين، فلم تكن فيها أية كليات على الإطلاق باستثناء الحقوق. وكانت تلك مدرسة للحقوق فقط. لا أتذكر إذا كان يتمّ تمويل دراسته كلياً أو جزئياً من قِبَل حكومة الانتداب.

اختار أنيس التخصص في التاريخ. في ذلك الوقت، كان والداي قد فقدا الأمل، فلم يثيرا أي لغط حول هذا الأمر. فالتاريخ أيضاً لا يطعم خبزاً. ولكنهما كان سعيدين من أجله. بدأ أنيس دراسته الجامعية قبل وفاة أمي.

بالرغم من أن والديّ كانا في أعماقهما يرغبان في أن يتجهَ بعضنا نحو الأعمال التجارية أو مهن عمليّة - أو اللاهوت - إلا أنهما كانا فخوريْن إزاء حقيقة أن ستة من أبنائهما اختاروا ستّةَ مجالات دراسية مختلفة. كان ذلك يظهر حين يأتي الناس لزيارتنا ويسألون: «كيف حال الأولاد؟». كانت سعادتهما مضاعفة أيضاً لأننا نحقق نجاحا طيّباً. كلنا حصلنا على قدر من العون من المؤسسات التي درسنا فيها. لكن العون المتصل كان ما أقدّمهُ من مساهمات. فمنذ السنة الثانية في الجامعة، كنت أكسب من المال ما يكفي لتقديم المساعدة. حصلت بالطبع على مِنَح دراسية في بداية مرحلة الدراسة الثانوية، وفي السنة الأولى من الجامعة، حصلت على منحة. ثم بدأتُ أحصل على وظائف إضافة إلى ذلك. وهذا ما جعلني قادراً على مساعدة إخوتي جميعاً وصولاً إلى أنيس. كان دخلي أفضل كثيراً من دخل أبي، وربما ساهمتُ، على الأقل، بمقدار ما ساهمَ أبي. وكما ذكرت سابقاً، استدان والداي المال حين كنا نحن الثلاثة، فؤاد، وفايز، وأنا، في الجامعة في وقت واحد - كانت تلك أصعب سنة. وتوقفَت مساهماتي المالية للعائلة سنة ١٩٥٣ عندما تزوّجت.

إذا كنتُ بعيداً عن البيت، في القدس مثلاً أو العراق، كنت أرسل حوالة بريدية إلى أبي، ولكن حين أكون في البيت مع العائلة، كنت أسلِّم النقود إلى أمي. كنت أشعر بالحرج من تسليمها إلى أبي. ثم حين توفّيَت أمي، بدأت أسلمها إلى ماري التي كانت تتولى مسؤولية تدبير شؤون المنزل. في ذلك الوقت كان أبي يتلقى مرتباً مُخفّضاً، أعتقد أنه كان يتلقى لمدة سنتين أو ثلاث سنوات بعد وصولنا إلى لبنان، مرتباً تقاعدياً من الإرسالية، كانوا يرسلون إليه حوالة كل ثلاثة أشهر؛ تبلغ قيمتها ثلث مرتبه السابق تقريباً. ومن ممتلكاته في سورية، كان يحصل على مبالغ قليلة، تبعاً لحالة الموسم، وذلك من مبيعات القمح والعدس - ولم تكن مبالغ كبيرة. وكلما سمعَ أن أخواته في وضع صعب، كان يطلب من الوكيل أن يترك النقود لهنّ.

بدأنا ندخل دائرة الضوء، كلٌّ في مَجاله، عندما بدأنا نكتب أو نلقي المحاضرات أو نشارك في مناقشات. وبدأت أمي تشعر أن أبناءها يحققون النجاح. الأمر المحزن هو أنها لم تعش طويلاً لترى ثمارنا. فقد حدث ذلك لاحقاً. حضرَت زواجَ فؤاد - كانت تريد أن ترى أحد أبنائها أو اثنين منهم متزوجين قبل أن تفارق الحياة. كنت أنا الذي تمارس عليه معظم الضغط لكي أتزوج. ثم بدأت تضغط على فؤاد. أتذكر أنني قلت لها ذات مرة: «إنت بتقوليلي تزوّج، شو رأيك في ابنك فايز اللي عنده صاحبِة؟» فقالت: «أحسن له».

حققنا نتائج ممتازة في الجامعة، حصلتُ على الامتياز، وحصل فايز على مرتبة الشرف الأولى. عندما حان وقت تخرّج فايز، كانت الجامعة قد بدأت في

تطبيق نظام منح مراتب الشرف الأولى والثانية والثالثة. نالَ كل من فايز وتوفيق مرتبة الشرف الأولى. منير كاد أن يحصل على درجة الامتياز، إذ حصل على معدل ٨٤ وبضعة أعشار الدرجة، وكان عليه أن يحرز ٨٥ درجة. وحصل أنيس على إحدى مراتب الشرف الأولى، كما أعتقد. أما فوق درجة البكالوريوس، فلم تكن هناك مراتب شرف، وإنما نجاحٌ أو رسوبٌ فقط.

على مستوى الدكتوراه، كِدنا نحن الأربعة الذين نلنا درجة الدكتوره نحصل على الامتياز، ولكننا لم نظفر به. قيل لي إنني كنت قريباً جداً من تحقيق ذلك، وكان هناك نقاش حول الأمر. فبعد مناقشة أطروحتي للدكتوراه، أبلغني البروفيسور ماكلوب أن سبب البطء في اتخاذ قرار لم يكن ناجماً عن بحثهم فيما إذا كنت سأنجح أم لا، بل فيما إذا كنت سأحظى بالامتياز. ولكني لم أحصل عليه.

أعتقد أنني اتجهت إلى مهنة حققتُ فيها سمعة طيبة. وكذلك فايز. ظل فؤاد مهندساً وكان ناجحاً في عمله مع شركة «كات». أرسوا عليه مناقصة كانت خاسرة فحوَّل الخسارة إلى ربح. بدأ يحقق شيئاً من البريق كشخص أنقذ وضعاً مُتردّياً، وكان نزيهاً في عمله. ولكن، بعد ذلك، انتزعه المرض بعيداً. كوّنَ توفيق اسماً له كشاعر ورئيس تحرير مجلة أدبية. ظلَّ منير طبيباً يعمل مع الأونروا وانتهى به المطاف إلى تولّي منصب نائب مدير الخدمات الطبية في لبنان. وحقق أنيس نجاحاً مرموقاً كرئيس تحرير لثلاث مجلات أنشأها وأوصلها إلى الشهرة، وكرئيس تحرير للموسوعة الفلسطينية. وهكذا أحرزنا نحن الإخوة الستة نجاحات طيبة، باستثناء أننا لم نكن محظوظين في النواحي الصحّية، وتوفّي أربعة منا في سن الشباب نسبياً.

أعتقد أنها كانت مشكلة لها علاقة بالكوليسترول، رغم أنها، بالنسبة لحالة فؤاد، كانت حمَّى روماتيزمية أصيبَ بها عندما كان صغيراً وأدَّت إلى إصابة قلبه بالضعف، دون أن ندري عنها شيئاً. وفي حالات فايز وتوفيق ومنير، كان الكوليسترول هو السبب. والنوبة القلبية التي أصابتنا، أنيس وأنا، (١٩٨٩) كانت أيضاً بسبب الكوليسترول. في حياتنا العائلية، لم نكن نشعر أننا واقعون تحت الضغط. ربما كان هناك، بين فترة وأخرى بعض التوتر الذي يمكن أن يكون عنصراً من عناصر الضغط، ويؤثر على الكوليسترول. وهو رأي توصلت إليه بعد استرجاع الماضي. فربما كان الصراع العام في فلسطين عاملاً مؤثراً. ولكن حقيقة كون أمي مريضة وإحساسنا بالقلق الشديد عليها كان عامل ضغط أكبر. لم يكن الفقر. لم نشعر إننا فقراء. ولم نشعر بأننا ميسورو الحال مثل عائلة الخوري أو الصبّاغ أو الطبري، غير أننا لم نشعر بأننا فقراء. كانت هناك أزمات مالية، لكنها لم تكن خطيرة أبداً، لأننا كنا نتغلب عليها

بسرعة. والآن إذا نظرت إلى الحصاد، فإن الإنجازات التي حققناها والكتب التي ألّفناها، ابتداءً من أبي إلى أنيس، تصل إلى رقم معتبر.

بدأ أبي يكتب عندما جئنا إلى لبنان. ألَّف سبعةَ أو ثمانيةَ كُتب. لست متأكداً من عددها. وحقَّقَت مبيعات ممتازة بين المتدينين. بدأ بالكتابة عن شهود يهوه، مُفنِّداً عقيدتهم. وجدَهُم هنا في لبنان، وكان منزعجاً جداً لأنهم كانوا يؤثّرون على الناس - الإنجيليّين وغير الإنجيليين، ويحوّلونهم عن معتقداتهم. كان أبي يخشى من أن يكون لذلك تأثير متزايد ككرة الثلج المتدحرجة، فبدأ حملته ضدّهم إلى جانب نفر يشاطرونه الإحساس نفسَه، مثل أم بهجت الخَوْلي والسيدة سعادِة وآخرين. جاءت جماعة شهود يهوه وكان أعضاؤها يتميزون بالنشاط، فيذهبون من بيت إلى بيت، يوزّعون نشراتهم. كانوا يدَّعون أن عقيدتهم تقوم على فهم سليم للكتاب المقدس من خلال أشخاص يعرفون اللغة الآرامية - وبعبارة أخرى، أشخاص يرجعون إلى النصوص الأصلية. وحيثما ورد ذكرٌ للسيد المسيح على أنه الله، كانوا يقولون إن هذه الكلمة لا تعني الله حقيقةً وإنما تعني كذا وكذا. وهم مموَّلون من أميركا وموالون جداً للصهيونية. أتذكّر أنه كان لي نقاشٌ ساخن مع أحدهم في بيت الخَولي، حول الصهيونية.

كتب أبي آخر مؤلفاته قبل وفاته بسنوات قلائل، وعنوانُه «ذكرياتي». ولم يتم توزيع هذا الكتاب كثيراً، وكنت أنا السبب وراء ذلك لأنه يحتوي على أجزاء قد تثير المشاكل، وإشارات شديدة القسوة إلى المذاهب الأخرى. ويمكن أن تتحوَّل إلى قضايا في المحاكم. كان أبي دائماً ينشر كتبه بنفسه، ثم يقدِّم لنا نسخاً منها. لم يطلب منا إطلاقاً أن نقرأها قبل النشر لنعبّر له عن آرائنا فيها. عندما كتبَ مذكراته ونشرَها، قلت: «بتمنى لو أعطيتني إياه للتعليق عليه قبل نشره». لديّ آلاف النسخ منه في مكتبي. تركَها عندي. في ذلك الوقت، لم يكن يتحرك كثيراً، فلم يتابع الأمر. ولحسن الحظ أنه لم يقدّم سوى بضع مئات من النسخ إلى صديق له ليتولى توزيعها - لم تكن للبيع. قال إنه وضع الكتاب ليقرأه أبناؤه وأصدقاؤه. ولم أوزع منه أية نسخ. وفي الكتاب فصل عن طفولته، وعنّا.

ألَّفَ أنيس خمسةَ كتب أو ستة، وكذلك فعل توفيق. وكتب فايز ثلاثة كتب أو أربعة وكتيبات كثيرة، ودراسات وتحليلات سياسية تتعلق بفلسطين. فإذا جمعت الكتب التي ألفناها جميعاً، فقد تبلغ خمسة وثلاثين أو أربعين كتاباً. وضع منير كتاباً بالاشتراك مع شخص آخر ولم يكن الكتاب باسمه، وكان عن علوم الطب في فلسطين المحتلة، نشرَهُ مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية.

كان فؤاد وحدَهُ من بيننا الذي يتعجّل الزواج؛ كلما رأى صبية، كان يعتقد أنها مناسبة تماماً. وما إن يقابلها لعدة أيام حتى يتقدم لخطبتها. فكانت هناك ثلاث

خطبات قبل أن يتزوج، وبذلك يصبح مجموعها أربع خطبات. كان وسيماً ومحبوباً، وأكثر شعبية من أبناء صايغ الآخرين، مع الصبايا، ولكن ليس مع الصبايا وحسب. كان ظريفاً وكريماً مع أصدقائه جميعاً. حين كانوا يخرجون، كان أول من يضع يدهُ في جيبه ليشتري المشروبات للجميع. وكان أكثرنا انفتاحاً. تميّز بيننا بحبه للزهور والنباتات والحيوانات. أتذكر كيف كان في حوران يُميِّز قطعاننا من الخراف والماعز ويحدّدها وهو صغير السن، أقل من خمس أو ست سنوات. حين ترجع القطعان - وكان هناك راع يرعى ماشية عدة عائلات - كان فؤاد يحدد قطعاننا واحداً واحداً.

أذكر عندما ذهبنا لطلب يد خطيبته الثالثة، من عائلة ن... في حيفا. كان فؤاد يعمل في حيفا آنذاك وحصل تعارف بينه وبينهم. كان أبوها صاحب دكان، ويبدو أن دكانه كان مزدهراً. جاء فؤاد إلى طبريا وأخبر والديّ. كان الوقت قريباً من فصل الصيف. فانتظرنا حتى ذهبنا إلى البصّة، ومنها ذهبنا، أبي وأمي وأنا وفؤاد، إلى حيفا لطلب يد الفتاة.

كان الجو رسميّاً وجامداً. وضعوا كراسي على شرفة خارجية أمام بيتهم. على أحد الجانبين، وضعوا عشرة مقاعد لأقاربهم ولنا، وقبالتنا وضعوا كرسيّين يشبهان كراسي الأسقف، لهما ظهران مرتفعان، للخطيبين. وينبغي أن يَجلسا هناك. كان ذلك سيئاً بما فيه الكفاية، ولكن هذه الرسميّات استمرَّت إلى حين وافقت عائلة العروس: «موافقين، إلنا الشرف». لم أستطع تحمّل المزيد. فقلت: «من شان الله ما دام مخطوبين ليش ما يبوسوا بعض؟». وتجمّدت الشرفة. ابتسم والداي ولكن والديها أصيبا بصدمة، وقالا: لأ، لأ، مِش عندنا. فقلت: بدل القبل السريّة في المطبخ، ليش ما يبوسوا بعض قدامنا؟ وهذا زاد الطين بلّة. كان فؤاد أكثرنا وسامة، مندفعاً، لا يخجل من النساء أبداً.

ذكرتُ أشياءَ حلوة كثيرة عن عائلتنا، عشنا لحظات سعيدة كثيرة. ولكن كانت لدينا أحزان كثيرة أيضاً. منها أن أربعة من الإخوة توفوا وهم شباب. فؤاد كان في الأربعين عند وفاته. وأظن أنه كان سيعيش مدة أطول لو توفر لديه المال للبقاء في المستشفى عندما أحسَّ أول مرة باضطراب في القلب، أصيبَ بنوبة قلبية بسيطة، قبل سنة من وفاته. لم يمكث في المستشفى طويلاً، مجرد أيام معدودة. لم يكن معه من المال ما يكفي للبقاء في المستشفى. لم أكن أعلم بمرضه. لم أكن أعلم حتى أنه في المستشفى، إلى أن أخبرني منير. ذهبت لزيارته، وكان مكتئباً جداً. عندما كنت سأغادر إلى أميركا سنة ١٩٥٩، جاء ليودّعنا. قلت له: «أرجوك لا تيجي، فيها انتظار طويل في المطار»، لكنه أصرَّ وظل حتى النهاية. أصيب بالإرهاق، فجعلناه يجلس. عندما عانقني قال: «يوسف، مش رايح أعيش كثير، دير بالك على الأولاد». ثم بدأ يبكي. كان أول من رحل منا. كان عُمر ابنه هاني سنة وتسعة أشهر فقط.

توفّي توفيق سنة ١٩٧١، عندما بلغ السادسة والأربعين. ثم توفي منير سنة ١٩٧٥، وفايز في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٠. كان فايز أكبرهم سناً عند وفاته. بلغ الثامنة والخمسين، منير وتوفيق توفيا وكل منهما في سن السادسة والأربعين. كان فايز هو أول من أصيب بنوبة قلبية سنة ١٩٥٢، ولكنه كان في الولايات المتحدة آنذاك، وتلقى علاجاً طبياً ممتازاً، لأن لديه تأميناً صحياً. فؤاد لم يكن لديه تأمين. عندما أصيب بالمرض كان بين وظيفتين، في «CAT» و«CCC» فلم يستفد من التأمين الطبي من أي منهما. توفيق، كما تبين لاحقاً، من مذكراته، كان يعرف بوجود اضطراب ما في قلبه، ولكنّه لم يُرد الذهاب إلى طبيب. كان يقول - وأظن أنني ذكرت هذا من قبل - منذ كان مراهقاً: «رايح أموت في الثلاثين». وحين بلغ الثلاثين بدأ يقول: «رايح أموت في الأربعين». كان يتجنب الذهاب إلى الأطباء. منير، من جهة أخرى، كان يقوم بإجراء فحوص طبية منتظمة.

الحياة في بيروت

كنت خارجَ لبنان عندما انتقل الأهل من نهاية خط الترام إلى عين المريسة. ذهبت إلى الأردن لشراء سيارة، حيث كانت السيارات أرخص سعراً هناك. كان ذلك عندما اشتريت سيارة الفوكسهول. بعثَت إليّ الهيئة العربية العليا مبلغ ٢٥٠ ديناراً، ووقّعتُ أوراق تعهد بسداد الباقي. اشتريت السيارة من شركة طنّوس ودفعتُ أقساطاً شهرية من مرتّبي. كانت السيارات الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أقترض من أجله.

كان أبي نشيطاً للغاية في ذلك الوقت. عندما جاءَ إلى لبنان أول مرة، يبدو أنه قال لأمّي منذ البداية: «شو أعمل؟ ما عندي كنيسة ولا رعيّة». فاتخذت الموقف ذاته الذي تتخذه دائماً: «الله بيدبِّر. بتلاقي رعية من جديد». وذلك ما حدث. اعتبر جميع اللاجئين الذين جاؤوا، حتى لو كانوا مسلمين، جزءاً من رعيته. راح يدور ليزور مئات العائلات بالمعنى الحرفي، كان يمشي كل يوم خمسة كيلومترات على الأقل، من بيت إلى بيت، يزورهم، وقد منحه ذلك قدراً كبيراً من الرضا. كانت أمي سعيدة لقيامه بذلك. وكان عمله كله تطوعاً. لم يكن لديه أي منصب. كان يأخذ جزءاً من مرتبه من الإرسالية، وجدوا عنوانه بطريقة ما، وبدأوا يرسلون له حوالات ربع سنوية، حوالات مصرفية من اسكتلندا. كانت مبالغ قليلة جداً.

عندما كنت مقيماً في البيت مع العائلة، كنت أقدم ما تيسّر، وحين اشتغل فؤاد مع شركة التابلاين بدأ يساعد، ولكن على نحو غير منتظم. كان قد تزوّج. فكان يرسل حوالة بين وقت وآخر، بضع مئات من الليرات، ومعها دائماً هدية، شيء خاص لماري. وبالنسبة لفايز، لم يجد وظيفة منتظمة إلا بعد ذلك بعدة

سنوات. كان موظفاً بعَقدٍ مَحليٍّ مع السفارة اللبنانية، عملَ باحثاً مع شارل مالك، وفي الواقع كان يكتب معظم خطابات شارل مالك التي اشتهر من خلالها. بدأ يرسل مائة دولار شهرياً. ثم حين وجد توفيق وظيفة، بدأ يساعد قليلاً. وحدث الشي نفسه مع منير. فكنا نتدبّر أمورنا على نحو جيد.

لم يكن أبي يزور الفلسطينيين في رأس بيروت فحسب، بل كان يذهب إلى المخيمات البعيدة. كان يذهب إلى الناس الذين عرفهم في فلسطين، ومنهم كان يتعرف إلى أشخاص جدد. وبالنسبة للعائلات المسيحية التي كان يزورها، كان يصلي معهم ويشجعهم، ويزرع الأمل في نفوسهم بأنه بالإيمان بالله ستُفتح لهم الأبواب. كان على أمي أن تبقى في البيت، لكننا كنا نستقبل ضيوفاً كثيرين جداً، معظمهم من الفلسطينيين ممن كنا نعرف سابقاً. بدأنا نكوِّن صداقات جديدة من خلال نورا هداوي، تعرّفَت عائلتنا بعائلة ناصيف وأحد أبناء عمّ نورا، خلَف، وهو إنجيلي كان محامياً، وكان من زوارنا. وكان سعيد عقل يزورنا لمعرفته بي وبتوفيق. وكنت قد تعرفت به، من خلال آل معلوف. كان شخصية شهيرة في رأس بيروت أكثر مما هو معروف في الأشرفية في تلك الأيام. وفي وقت لاحق غيَّر موقعه. هكذا كان هناك زوار طوال الوقت. اعتاد أبي أن يخرج في المساء، فكان الزوار يأتوننا في فترة الصباح.

رحيل أم يوسف

الوفاة الأولى في العائلة كانت وفاة أمي. توفيت في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٠ عن سبع وخمسين سنة. كانت وفاة أمي مصاباً جللاً، ليس لأنها أول وفاة تقع في العائلة. والوصف الموجز لهذا المصاب جاء في برقية فايز بعد أن تلقّى برقيتنا، إذ قال: «رحمها الله، بدونها لن تكون الحياة كما كانت». أحسَّت العائلة بالانهيار. افترضنا أنها ستعيش معنا عشرين سنة أخرى. كان من الواجب أن ينصحها الأطباء في طبريا بأن تتحرك وأن تمشي. ولكن عندما ذهبنا إلى لبنان سنة ١٩٤٨، كان قد فات أوان البدء بممارسة التمرينات، ذلك لأن جسمها لم يعد يستطيع تحمّل الحركة. ولعلّ وفاتها المبكرة ترجع إلى حقيقة اضطرار العائلة إلى ترك كل شيء وراءها للمرة الثانية سنة ١٩٤٨، وأن نصبح لاجئين مرة أخرى. ولا بدَّ أن وقوعي في الأسر أثناء الحرب أصابها بصدمة مريعة. عندما وُلد أنيس سنة ١٩٣١، فقدت كمية كبيرة من الدم، واعتقد الطبيب أن ذلك أصابها بالضعف. ومن المثير للسخرية أن تلك كانت المرة الأولى التي تلدُ فيها في مستشفى. كان أبي هو الأقوى بدنياً في العائلة، وقد توفي في ١٣ آذار/مارس، ١٩٧٤ عن تسع وثمانين سنة.

كانت أمي تلازم البيت طوال الوقت. كانت تتلقى رعاية طبية على يد الدكتورة بيكامجيان التي كانت تقيم بجوارنا في عين المريسة. شعرت الدكتورة بيكامجيان بأن أمي لا تستطيع الخضوع لعلاج جديد، وأن أفضل شيء بالنسبة لها هو أن تبقى بمنأى عن التوتر، وأن لا تقوم بأية أعمال بدنيّة يمكن أن ترهقها. كانت أم جوزيف تزورنا مراراً؛ وكانت تقوم بأعمال في مدرسة الشويفات، وتتولى مسؤولية أعمال تنظيف الملابس. كانت تذهب في أيام محددة حين تكون هناك ثلاث أو أربع نساء يعتنين بماكينات التنظيف. فكانت تتحكم بقطع الغسيل التي تدخل وتخرج من الماكينات. أبو جوزيف لم يكن يعمل على الإطلاق. وكان يزورنا أيضاً أقاربنا من حوران.

شكلت مغادرة طبريا صدمة لوالديّ، لكنهما نادراً ما كانا يذكران الأمر. تكتم الناس على النكبة. بعد وفاة أمي، أعتقدُ أنه مرّت عشر سنوات أو خمس عشرة سنة قبل أن يذكر أبي اسمها. أنا وإخوتي كنا نذكر اسمها أو نستعيد ذكرياتنا معها في أحاديثنا كطريقة لإبقاء ذكراها حية. لكن أبي كان يقطب جبينه ويغيّر الموضوع. كان ذلك يؤلمُه كثيراً. كان مرتبطاً بها على نحو غير عاديّ.

لا أستطيع أن أنسى كيف ذهب أنيس إلى غرفتها، ووجدها قد فارقت الحياة. لم يدرك ذلك لأنه لم يرَ إنساناً مُتوفى من قبل. جاء إليّ، وكنت في غرفتي، أحلق ذقني، وقال: «يوسف تعال شوف ماما شو مالها». حين قال ذلك، بتلك اللهجة، أدركتُ أنها توفيت.

والأمر الغريب أنها غادرت الفراش في ذلك الصباح وحين قابلَت اثنين أو ثلاثة منا في غرفة الجلوس، قالت: «ما أظن عندكم أكل يكفّيني اليوم، حاسّة إنه صحتي تمام مع هيك شهية مفتوحة». قالت لها ماري: «أجهز لك صينية الأكل؟». قالت: «لا، أنا جاي أقعد معكم على الطاولة». عادت إلى غرفتها. كان على أنيس اللحاق بمحاضرته في الصباح عند الساعة ٧.٣٠، وعندما ذهبَ إلى غرفتها لإلقاء التحية عليها، كانت مستلقيةً هناك على السرير.

اندفعت إلى غرفة أمي، حتى دون أن أخبر أبي الذي كان يحلق ذقنه. وجدتها بعينين نصف مفتوحتين، وكان لونها يميل إلى الزرقة. لا بدّ أنها توفيت. لم أذهب حتى إلى غرفتي لألبس حذائي، ركضت حافياً إلى الدكتورة بيكامجيان عند زاوية الطريق، وصرخت من أسفل الدرج: فيرونيكا! الدكتورة بيكامجيان! لا أعتقدُ أنه كان باستطاعتي صعود الدرج، كان قلبي يدق بعنف. أطلّت، ولحسن الحظ أنها سمعتني سريعاً. قلت: أرجوك انزلي، أرجوك تعالي لأمّي. جاءت فيرونيكا على الفور، وأدركَت بسرعة أن أمي فارقَت الحياة. أطبقَت جفنيها، وقبّلتها، وغطّت وجهَها بملاءَة السرير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر في السياسة الفلسطينية

عندما جئتُ إلى بيروت من معتقل أسرى الحرب، وجّهتُ اهتمامي السياسي نحو مجموعة واحدة فقط هي الحزب السوري القومي، آملاً في أن يكون الحزب عاملاً هاماً في سورية ولبنان في خلق الحماسة لجولة ثانية من القتال. ويجب أن أعترفَ بأنني كنتُ ساذجاً تماماً حين اعتقدتُ أنه ستكون هناك جولة أخرى قريباً. فمع كلّ عام يمُرّ، كان استعداد العرب لخوض جولة ثانية يقلّ. وظلَّ هذا صحيحاً لعدة سنوات، حتى منتصف الستينيّات حين بدأت الأمور تتغيّر قليلاً. وطوال سنوات عديدة وحتى سنة ١٩٥٦ والهجوم على السويس، مرَرْتُ بمرحلة من اليأس التام تقريباً، حيث كنت أحسّ بأنه ليس هناك الكثير الذي يمكن أن نفعلَهُ من أجل فلسطين بسبب اللامبالاة المُخجلة التي أبدتها الحكومات العربية عندما كانت إسرائيل تؤسِّس كيانَها كدولة.

برَزَت نقطة التحول عندما كنت مُتوجِّهاً من بيروت إلى مرتفعات الأرْز، أقود سيارتي بصحبة عددٍ من الأصدقاء. بثَّ المذياع أخبار وقوع انقلاب في مصر. وعلى نحو ما، أحسسنا جميعاً أن هذه كانت معجزة، تختلف عن انقلاب حسني الزّعيم في سورية، الذي تلاشى سريعاً وتبعَتهُ انقلاباتٌ أخرى.

يمكن للمرء آنذاك أن يحسّ بأن الأمل بدأ يعود من جديد، ويُبشِّر بأن هناك إمكانيةً لعمل شيء ما من أجل فلسطين. ولكنه أملٌ ظلَّ معلقاً في الهواء، بدون أيّ شيءٍ ملموس يبرّرُهُ، حتى سنة ١٩٥٦ عندما هاجم الإسرائيليون مصر. هجَموا ليُدمّروا القوة العسكرية المصرية، بعد انتشار الأخبار حول شراء مصر طائراتٍ من تشيكوسلوفاكيا. شاركَت بريطانيا وفرنسا في الهجوم الذي كان شرارةً لتنفيذ خطة لتدمير العالم العربي. صُعقَ العالم العربي كلّه بهذه الأحداث، وبرَزَ عبد الناصر على أنه رجلُ مصرَ القويّ. وحين بدأ يتخذُ موقفاً عروبيّاً، بدأ الناس من أمثالي يأملون في أن يُركّز على الشؤون العربية بقدر تركيزه على الشؤون المصرية. وبالفعل، ركّز في خطاباته ومؤتمراته الصحافية على فلسطين والقضايا العربية بشكل عام - التحرير والتنمية. كانت السنوات منذ ذلك الحين وحتى وفاته سنة ١٩٧٠ حافلةً بالتوقّعات والآمال المعقودة على عبد الناصر. لكن حرب سنة ١٩٦٧ كانت نكسةً كبرى. فآمالنا في أن يكون هو المُخلّص وأن ينجح على نحوٍ ما في توحيد العرب تلاشت كالهَباء، خصوصاً أن الخطوات الوحدويّة الأولى بين مصر وسورية كانت قصيرة الأمد. وعلى الرغم من أن عبد الناصر حافظ على مكانتهِ في عقول وقلوب العرب، إلا أنني أعتقد أن الآمال المعقودة عليه بدأت تنحسر عند ذلك الحَدّ.

قبل أن أسترسلَ أكثر، يجبُ أن أشير إلى أمرين. الأمرُ الأول هو ما شعرت به عندما أُعلنت الوحدة بين مصر وسورية؛ والثاني هو كيف بدأ ارتباطي النشط بالعمل الفلسطيني بعد سنة ١٩٤٨. أُعلنت اتفاقية الوحدة بين مصر وسورية في شباط/فبراير ١٩٥٨. وبصفتي أحملُ جواز سفر سورياً، شعرتُ بأنه ينبغي أن أمنحَ صوتي للوحدة. ذهبتُ مع صديق لي، كان أحد زملائي في الجامعة، واسمه محمد دياب. كان محمد ابناً لأحد الشركاء الخمسة في «الشركة الخُماسية»، وهو رأسماليّ حتى النخاع، في مواقفه، ومنشغلٌ كثيراً بالمال، لكنني أتذكر كم كان مُتحمّساً، ومُصِرّاً على أن نذهب في سيارته. كانوا قد وضعوا صناديق التصويت في منطقة المَصنع - على الحدود بين سورية ولبنان - فتوقّفنا هناك وأدلينا بأصواتنا لصالح عبد الناصر، وعُدنا. ولم يُخيِّب عبد الناصر أملنا. استمرّ يستحوذ على اهتمامنا ويُغذّي آمالنا حتى سنة ١٩٦٧.

كانت تلك الفترة المبكرة خصبةً أيضاً، ظهَرت فيها حركاتٌ جديدةٌ صغيرة، مثل مجموعة «الثأر» وهي الشكل الأول للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. كانت تَنشر مجلّة «شباب الثأر» وكنت أعرف المُفكرين فيها، جورج حبش، ووَديع حداد، وهاني الهندي. ولم أكن أعرف أحداً من شباب المُعسكرات. كان ذلك هو الوقت الذي تشكلت فيه أيضاً منظمة فتح سِرّاً، وبدأ المَرءُ يرى لمحاتٍ من حركات تظهر، لكنهم لم يكونوا يذكُرون مَن يُدير ماذا. كانوا يأتون ويتحدثون معي حول وجوب القيام بعمل ما، وأعتقد أن ذلك كان بهدف معرفة رأيي. ربّما كنت ساذجاً جداً بحيث لم ألحَظ أن هناك هدفاً لزياراتهم. ولم أكن لأنضمّ إليهم على أية حال، فتجربتي مع الحزب السوري القومي كانت كافية لتحذيري من الالتحاق بأيّ تنظيم سرّيّ، لأنه ما دام سرّياً، فلن تستطيع معرفة كل ما يجري حولك.

تميّز عقد الخمسينيات بقِلّة نشاطي السياسي. كنت منشغلاً بتكوين ذاتي من الناحية الأكاديميّة. ولكن في مطلع الستينيّات، كنت في الكويت عندما زارها أحمد الشقيري. في ذلك الوقت كان يتجوّل ويقابل الناس ويستعدّ لإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. كنتُ واحداً من بين الخمسين أو ستين شخصاً الموجودين في الدول المحيطة بفلسطين الذين طلب الشقيري رأيهم. كان يتحدّث إلى التجمّعات ويكوّن أفكاره. دعاني إلى مائدة إفطار في بيت الضيافة الحكومي؛ تجوّلنا لمدة ساعتين ونحن نناقش الأهداف والطموحات التي ينبغي تحديدُها بشكل واقعيّ، بحيث يكون هناك أمل في منظمة التحرير الفلسطينية، وليس توقعاتٍ مبالَغ فيها يمكن أن تتلاشى سريعاً. تمَّ اختياري عضواً في أول مجلس وطنيّ فلسطينيّ لمنظمة التحرير الفلسطينية. لم تكن هناك إمكانية لانتخاب الأشخاص في ذلك الوقت، فكان هو وعددٌ محدود من الشخصيات المحيطة به يختارون الأعضاء. فقام بإنشاء ثلاث مؤسّسات

أساسية تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وهي: المجلس الوطني الفلسطيني، والصندوق القومي، والجيش الوطني.

كانت جامعة الدول العربية هي التي مَنحت الشقيري الصلاحية للقيام بذلك. اختارته لهذه المهمة لأن عبد الناصر كان موافقاً عليه، وفي ذلك الوقت، كان المفتي قد فقدَ أهليّته. أما موسى العلمي الذي كان من المحتمل اختياره، فلم يكن راغباً - كان مثالياً، ولا يريدُ أن يغوص في أوحال السياسات والنزاعات الحزبية. كنت على صلة وثيقة بالمفتي، وواصلتُ زياراتي له في بيروت، مع خليل الطبري أو وحدي. كان لكلٍّ من المفتى والشقيري أتباع رغم أن أتباع الشقيري لم يكونوا بمستوى أتباع المفتي، لكن الدول العربية لم تكن تريد أن يقود المفتي منظمة التحرير الفلسطينية. ربّما كان الضباط الشباب المحيطون بعبد الناصر لا يريدون إقامة أية علاقات معه نظراً لارتباطهِ السابق بهتلر، وبالهزيمة.

استطاع المفتي أن يقيم لفترة قصيرة في القاهرة بعد الثورة، ولكني أظنّ أنه أحسَّ بأن حرية الحركة في لبنان أكبر، وعدد الفلسطينيين فيها أكثر من عددهم في مصر. فجاء إلى لبنان. لم يكن يستطيع الذهاب إلى الأردن لأن علاقاته مع الملك كانت متردّيةً جداً. أقام في عاليه، وكان الناس يأتون لزيارته. لم تعترض الحكومة على وجوده، لكنها وضعت شروطاً عليه، ومنها مثلاً، أن لا يكون «واسع النشاط». لم يكن وجودُهُ يخيفُهم من الناحية الأمنية. كانت هناك شخصيات في الحكومة متعاطفة مع الفلسطينيين، في تلك السنوات المبكّرة.

بدأنا نسمعُ عن حركات فلسطينية في مطلع الستينيات. في سنة ١٩٦٥، عندما قامت فتح بأولى عملياتها داخل فلسطين، ظهر كل شيء علناً - ليس كلياً، ولكنهم سمحوا لعرفات بأن يُعرَف على أنه الناطق الرسمي باسم فتح. وضعهُ الآخرون في دائرة الضوء وظلّوا هم في الظلّ. كان الناس يعرفون عنهم، ربما المئات كانوا يعرفون، لكنني لم أكن منهم. فقد كنت مستقلاًّ دائماً. وأعتقد أن ذلك راجعٌ أولاً، وأساساً، إلى كوني أرفض ادّعاء أيّ مجموعة امتلاكَ الحقيقة. كلُّهم كانوا يدَّعون ذلك، ابتداءً من الحزب السوري القومي وحزب البعث.

ثانياً، كان بينهم اقتتال داخليّ وصراع على السلطة، وأنا أكرهُ ذلك. كنت أعتقد أنني مؤهّل فكرياً لأن أكون ضمن الدائرة الصغرى للقيادة، لكنني أعرف أنني لن أدخلها لأنني كنت أكره الصراع من أجل المناصب. وهكذا بقيتُ بعيداً عمّا يجري. شعرت أن جميع قادة هذه الأحزاب والحركات لديهم ما يُخفُونه، لم يتميزوا بالشفافية. لم أكن أريد التورّط. كنت أعرف معظم قادة تلك الحركات - الحزب السوري القومي بالطبع. ثم عرفت جورج حبش

ووديع حداد سنة ١٩٦٨، في الاجتماع الأول للمجلس الوطني الفلسطيني الذي حضرته. كنت قريباً منهم أيضاً من خلال النادي الثقافي العربي في بيروت الذي كان يرأسهُ جوزيف مغيزل طوالَ عقد الستينيات. ألقيتُ هناك عدّة محاضرات وتمَّ نشرُها. كان وليد الخالدي نشيطاً في تلك الدائرة آنذاك - كان يلقي محاضرة واحدة في السنة. وكنا نمزح فنقول إن المحاضرة هي المولود الذي يحمله وليد مرّةً كل سنة. كان حبش وحدّاد يعملان بسرّيّة أكبر. ولكن كان هناك أيضاً برهان الدّجاني، ووليد الخالدي، وحسني مجذوب، ومغيزل بالطبع، وقسطنطين زُريق، وحليم أبو عز الدين... كان النادي الثقافي العربي مُهمّاً رغم أن محاضراته لم يكن ليحضرها أكثر من خمسين أو ستين شخصاً، لأنه يضمّ مجموعة راسخة بقوة في فكرة القومية العربية.

عضوية المجلس الوطني وتأسيس مركز التخطيط

كنت أحدَ أعضاء أوّل مجلس وطني ينعقد في القدس في أيار/مايو ١٩٦٤. لكني لم أتمكن من حضوره لأنني، قبل أيام من عقد الاجتماع، أُصبتُ بنوبة قلبية. وفي السنوات ١٩٦٥ و٦٦ و٦٧، عُقدَت الاجتماعات في غزة، كما أظن. كنت أنوي حضور اجتماع سنة ١٩٦٧ في غزة، ولكن نشبت الحرب في ذلك الحين، فلم أتمكّن من الحضور. عُقدَ أول اجتماع ذهبت إليه في تموز/يوليو ١٩٦٨ في القاهرة. كان ذلك هو الاجتماع الذي شعرت خلاله بوجوب وضع أفكار جديدة للمجلس الوطني. كان هناك نظام جديد للمجلس، فقد انتهت رئاسة الشقيري. أُجبر على الاستقالة أواخر سنة ١٩٦٧، وتسلّم الرئاسة مؤقتاً نائب الرئيس. عُقدت انتخابات جديدة. اقتُرحَ أن أتولى رئاسة المجلس، وحاول الكثيرون جاهدين إقناعي بالقبول. وكان في ذلك جمعٌ غريب بين أشخاص مثل وديع حداد وزهير العلمي.

في الاجتماع الأول، قبل اجتماع الانتخابات، قدَّمتُ بعض المُداخلات، فاكتشفوني على نحو ما، لأنني لم أكن مُنخرطاً في أيٍّ من مُنظمات المقاومة، ومعظمهم لا يعرفني. كانت فصائل المقاومة داخل المجلس، ولكنها لم تكن قد أمسكَت بزمام الأمور بعد - حدثَ ذلك في سنة ١٩٦٩. ترددت لأنني كنتُ مرتبطاً بالجامعة، ولم أكن لأستطيع التغيُّب. إلى جانب ذلك، لم أكن أشعر بإنني أستطيع العمل في السياسة - فهي تتطلّب قدرة على المناورة وحَبْك المؤآمرات. لاحظتُ أن هناك مجموعاتٍ كثيرةً، لها أفكارٌ مختلفة، وولاءاتٌ مختلفة، وسياساتٌ مختلفة.

رفضتُ ترشيحي لرئاسة المجلس الوطني الفلسطيني، على الرغم من أنه حين جاء زهير العلمي الذي كان ذا تأثير كبير في فتح، ووديع حداد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، لإقناعي بالقبول، بدَا وكأنني أتمتع بفرصة كبيرة

لشَغل المنصب. ولكن عبد المحسن القطّان أراد أن يكون مرشحاً، فجاء إليّ واقترحَ أن لا نترشّح ضد بعضنا بعضاً. عندما رشحوني في الاجتماع، رفعتُ يدي وقلت: لا أريد أن أكون مرشحاً. فترشح عبد المحسن القطان. ولكن في نهاية المطاف، قبلتُ منصباً اضطرني إلى الحصول على إذن بالغياب عن الجامعة.

حدثَ ذلك بعد أن قمتُ بالمداخلة التي أعدَدتُها. بدا لي أن رجال المقاومة كانوا غير مُنظّمين، ولم تكن لديهم فكرة عن تسلسل الخطوات العملياتية، أو كيفية مقاربة أهدافهم. لذلك ركّزت على أهمية التخطيط. فقلت: «إن التخطيط أمرٌ ضروري حتى على مستوى دكان صغيرة، إذ يجب أن يكون لها ما نسمّيه في الاقتصاد «الجدوى الاقتصادية للتكلفة». وحين تقرّرون، كجماعة مقاتلة، مهاجمة إحدى التلال أو احتلال موقع ما، يجب أن تأخذوا بعين الاعتبار ما إذا كان الموقع يستحق التكلفة، أي تحمّل الخسائر في الأرواح. وهذا يعني أن عليكم أن تخططوا». أسهبت في شرح فكرة التخطيط، واقترحت إنشاء مركز للتخطيط لإعداد شتى أنواع الخطط العسكرية والسياسية والإعلامية والمالية. وفي وقت لاحق، بعد أن تمّ إنشاء المركز، أضفت الخطة العلمية.

قوبلَت المداخلة بالتصفيق من جميع الحاضرين، وطلب أحدُهم على الفور اتخاذ قرار بأن أصبح عضواً في اللجنة التنفيذية، وأن أقوم بوضع تلك الخطة. حاولت أن أقاوم، لأنني لم أكن متحمساً للدخول في ذلك المعترك. رأيت أن أطرح الفكرة وحسب، وسوف يتولى غيري تنفيذها. لكنهم قالوا:

- لأ، هذه فكرتك، وعليك تنفيذها.

- أنا مرتبط بالجامعة.

- احصل على إجازة، حاول تتحرر من التزامك.

كانت هناك لجنة تنفيذية قائمة، وكان منافياً للأحكام إضافة عضو للّجنة في سنة لا تُعقد فيها انتخابات. فاتخذوا قراراً، وكان بالإجماع. واتخذ المجلس كلّه قراراً مفتوحاً يُخوِّل اللجنة التنفيذية تخصيص الأموال التي قدّرتُ أننا سنحتاج لها في السنة الأولى. وفي وقت لاحق، عيَّنتني اللجنة التنفيذية مديراً عاماً لمركز التخطيط الوطني، وحين شكّلوا مجلس إدارة للمركز، عُينت رئيساً لمجلس إدارة مركز التخطيط. جعلني ذلك أباشر العمل المكثف في الشؤون الفلسطينية لمدة ست سنوات؛ كانت فترة حافلة بنشاط مكثف من سنة ١٩٦٨ إلى ١٩٧١ في مجلس التخطيط، ومن ١٩٧١ إلى ١٩٧٤ في الصندوق القومي.

عُقدَت جميع جلسات المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة حتى سنة ١٩٧٩ حين انتقلَت إلى دمشق. خلال تلك السنوات الحافلة بنشاط مُكثَّف ضمن منظمة التحرير الفلسطينية، كان في ذهني دائماً أنني كنت أعمل ضمن السّياق العربي الأوسع نطاقاً. وشعرتُ دائماً بأنه ما لم تتم تعبئة العالم العربي بشكل فعّال، خلفَ الفلسطينيين وإلى جانبهم، فإننا لن نستطيع تحرير فلسطين. كنا لا نزال نفكر في تحرير فلسطين في ذلك الوقت، كان أمراً يمكن أن نأمل في تحقيقه.

هكذا أصبحتُ المدير العام لمركز التخطيط، وبدأنا نعمل على وضع خطة. استغرق الأمر عدة أشهر لإيجاد الكادر الوظيفي، ووضع القوانين والإجراءات. ثم بدأنا نضع الخطط في مختلف المجالات التي ذكرتُها. ومن أجل تحقيق ذلك الغرض، نجحتُ في حشد ما مجموعُهُ ثمانية وثلاثون شخصاً ساعدوا في أعمال التخطيط من خارج المركز. لم يكونوا جميعاً من الفلسطينيين، كان هناك عرب كذلك، مثل قسطنطين زُريق. وأتذكّر أننا كنا نتعاون مع لطفي دياب وليفون مليكيان لإعداد شيء عن الحرب النفسية. وهناك أشخاص في المركز أيضاً مثل ابراهيم العابد، وسعيد حمود، وباسم سرحان، ساعدوا في إجراء البحوث. تمَّ استكمال الخطة سنة ١٩٦٩. في ذلك الوقت، كان المكتب الرئيس لمنظمة التحرير لا يزال في عمَّان.

انتهت مدة عضويتي في اللجنة التنفيذية في شباط/فبراير ١٩٦٩، عندما انضمَّت إليها فتح والمنظمات الأخرى. كانوا من قبل قد انضمّوا إلى المجلس الوطني، وليس إلى اللجنة التنفيذية، فكانت فترة عملي قصيرة من تموز/يوليو ١٩٦٨ إلى شباط/فبراير ١٩٦٩. في الجلسة الخامسة للمجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة، شعرتُ بألم حادّ جداً في كتفي اليسرى، وكان حادّاً لدرجة أنني أُصبت بالإغماء وقت تناول الإفطار في الفندق. كان أخي أنيس هناك. وكان يوم الانتخابات. أحضروا لي طبيباً مُتخصصاً في القلب، وهو الذي أصبح فيما بعد طبيبَ عبد الناصر. أحضر الطبيب جهاز تخطيط القلب، لكنه لم يَجد في القلب عِلّة - تبيّن أنه انزلاق غضروفي في العنق. حمَلوني إلى غرفتي في الفندق. مكثتُ هناك أسبوعاً إلى أن سَمحَ لي الطبيب بالسفر. ففاتني ذلك الاجتماع، ولا يُسمح بانتخاب أحد أثناء غيابه. أرادوا أن يُعاد انتخابي لعضوية اللجنة التنفيذية، ولكن، لأنني لم أكن موجوداً، لم يكن ذلك ممكناً. فانتُخِبَ كمال ناصر بدلاً مِنّي.

بقيتُ في مركز التخطيط حتى سنة ١٩٧١ - فأكملت بذلك ثلاث سنوات. شعرت عندئذٍ أنني منحته ما يكفي من الوقت. في البداية أخذت إذناً بالغياب نصف الوقت من الجامعة الأميركية في بيروت، إذ لا أستطيع أن أتركَ

الجامعة فجأة، قبل أن يجدوا من يتولى مسؤولية وحداتي الدراسية، ولكني في السنة التالية، أخذت إذناً بغياب كامل غير مدفوع الرّاتب.

نجدة في آخر لحظة

عندما اكتمَلَت الخطة، أعددنا نسخاً عنها لكل أعضاء اللجنة التنفيذية، وعددُهم أحد عشر أو اثنا عشر عضواً. قبل أخذ النسخ إلى عمّان، ذهبتُ إلى هناك بنفسي لاتخاذ ترتيبات تضمن وجود من يقابلني في المطار، بسبب الطبيعة الحسّاسة للوثائق. فقد كانت تحتوي على معلومات حول قضايا سياسية، علاقاتنا مع الأردن، والتخطيط العسكري - كل شيء. جلست مع «أبو إياد» وعرفات، وأبلغتهما أنه من الضروري أن يقابلَني شخص في المطار، لأن الوثائق ستُحزم في صناديق كرتونية، وأنهم بالتأكيد سيفتحونها في الجمارك الأردنية. ويمكن أن ينتهي الأمر بزجّي في السجن جنوب الأردن لمدة عشر سنوات على الأقل. اتفقنا على يوم مُحدّد. ولأني لم أكن واثقاً من أن يتذكروا الموضوع، اتفقنا على ترميز معيّن، بحيث أذكّرهم بذلك. أرسلت إليهم الرسالة المُرمَّزة وذكرتُ فيها أنني أرغب في القيام بزيارة للأردن، وأنني قادم على الرحلة رقم كذا بتاريخ كذا. فأرسلوا ردّاً قالوا فيه: «أهلاً وسهلاً»، وهو ما كان يُفترض أن يعني أن شخصاً سيكون في انتظاري.

عندما وصلتُ إلى هناك، لم أرَ أحداً في قسم الجمارك وأنا أقدِّم جواز سفري. فحمّلت حقيبتي والصناديق الثلاثة التي تحتوي على النسخ الأحد عشر الكاملة، ووقفتُ في نهاية الطابور. كانت طائرتنا آخر طائرة تصل إلى عمّان في تلك الليلة، فلم يكن الطابور طويلاً. بدأ خطّ الطابور يقصُر أكثر فأكثر. وبدأتُ أدور متظاهراً أنني أبحث عن إحدى الحقائب. وحين بقي ثلاثة أشخاص فقط، قال لي رجل الجمارك:

- يا أستاذ قرّب! ليش واقف هناك؟

- لما ييجي دوري بتحرّك.

عندما جاء دوري تركت الصناديق على الأرض، وحملت حقيبتي وذهبت إليه. فقال:

- ما بتهمني شنطتك، بتهمني الصناديق. جيبها جاي.

أحضرت الصناديق، فقال:

- شو فيها؟

- كتب.. اقتصاد، أشياء فنّية، ما في شيء مهم. فقال:

- بدّي أشوفها.

رفعت أحد الصناديق ووضعتهُ على الطاولة أمامَه. انحنيت وبدأت أفكّ عقَد الحبل، واحدةً بعد الأخرى. وبدأ العرق يتصبّب مني. قال:

- يلّلا يا أستاذ.. عَجِّل! هذي آخر طيّارة، وأنا بدّي أروِّح. فقلت:

- أنا بعمل كل جهدي، لكن مش سهل حلّ العقد كلها.

سحَبَ من جيبهِ مُوسى صغيرة وقطعَ الحبل. كان على وشك فتح الصندوق ليُلقي نظرة، وكنت أفكر في روزماري والأولاد، وكيف أنني لن أتمكّن من رؤيتهم لفترة لا يعلمُ مداها الا الله.

بعد ذلك، فجاة، شعرتُ بيدين تضغطان بشدّة على كتفيّ، وسمعت صوتاً يقول:

- يوسف! شو بتسوّي هون؟

استدَرتُ فكان داوود زبانة من رام الله، الذي كان أسيرَ حربٍ معي في فلسطين. تعانقنا وقلت له همساً:

- شو هالصدفة الإلهية!

- شو القصة؟

ثم استدارَ نحو مسؤول الجمارك - تحدّث معهُ بلهجة مَن له سلطة:

- ليش موَقفُه؟. فقال له موظف الجمرك:

- معه وثائق هون، طلبت منه أشوفها. فقال داوود:

- طيِّب، يلّلا، سكِّر الصناديق، ونادِ حَمّال.

جاء الحمّال، وحمَل كلّ شيء. سار معي داوود طوال الطريق إلى سيارة الأجرة. وحين صرنا بعيدين عن مسؤول الجمارك سألته:

- كيف بتقدر تسوّي هيك؟ فقال:

- أنا مدير الجمارك في المطار. فقلت:

- يا إلهي، لو تعرف شو معي!

أخبرتُه. لم أرَه ثانية، توفي بعد اثنتي عشرة سنة، بالسرطان. حزنتُ كثيراً حين عرفت بوفاته.

توجهتُ إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية مُباشرة، لأنني كنت أعرف أنهم يعملون حتى ساعة متأخرة من الليل، وأودعتُ الصناديق هناك، وأقمت الدنيا ولم أقعدها، قلت لهم:

- معجزة إني مش معلّق على المشنقة. فقالوا:

- نسينا..

صار كلٌّ منهم يُلقي باللوم على سِواه. لم أستطع النوم في تلك الليلة، من شدة الغضب، والإحساس بالراحة في الوقت نفسه. لم أمكث هناك لمناقشة الخطة معهم لأنني لم أكن [عضواً في اللجنة التنفيذية]. لكنني طلبت منهم أن يخبروني بتعليقاتهم على الخطة. فقالوا: «طبعاً». بعد عودتي إلى بيروت، لم أسمع منهم شيئاً. مرَّ أسبوع، أسبوعان، ثلاثة أسابيع. ثم أخبرني شخص ما أنه عندما حان وقت مناقشة الخطة - ولم يكونوا قد فتحوا الصناديق بعد - رأوا أن عليهم قراءة ٣٠٠٤٠٠ صفحة، ولم يكن هناك ملخّص تنفيذي للخطة، فلم أكن أعرف عن ذلك في حينه، ولكن كانت هناك قائمة بالموضوعات. نظروا إلى العناوين الموجودة على الغلاف وقالوا:

- ما بنقدَر نقرا مثل هذي الأشياء، ما في معنا وقت.

التفتوا إلى شخص يحمل شهادة دكتوراة من جامعة كمبردج، وهو حسام الخطيب، وقالوا له:

- إنت مُفكّر. اقرأ المادة وقدّم لنا ملخّص في أربع صفحات. فقال لهم:

- شو قصدكُم، أربع صفحات؟ شوفوا حجمها!

من الواضح أنه لم يقرأ الخطة كلَّها سوى شخصٍ واحد أو اثنين، لكن حسام لم يقم بتلك المهمة قط.

في وقت لاحق، بعد إخراج منظمة التحرير من الأردن، كانت الوثائق في مكتب المنظمة، لم تُوزَّع، باستثناء نسختين أو ثلاث نسخ أخذها بعض من لديهم الفضول الفكري لقراءتها. لم أذهب إلى الأردن إلا بعد مرور عشر سنوات على تلك الواقعة، في سنة ١٩٨٠. كان ذهابي لحضور اجتماع وزاري تمهيداً للقمة الاقتصادية. وأثناء تلك الزيارة، شكَّل الأمير حسن منتدى الفكر العربي، وكان من المفترض أن أكون عضواً في المجموعة المؤسِّسة للمنتدى والتي اجتمعت في العقبة لذلك الغرض. وفي الواقع لم أذهب لأنني كنت منشغلاً باجتماعات الوزراء، أقدِّم عرضاً لاستراتيجية للعمل العربي الاقتصادي المشترك.

عندما قابلني كمال ناصر أثناء زيارة له لبيروت قادماً من عمّان، قلت له: لم أتلقَّ أيّة تغذية عكسية على الخطة. فقال:

- ليش إنت مشغول فيها؟

- التخطيط مُهم، لا يمكن تستمروا بدون تنظيم، فعل بدون فكر. فقال:

- لازم أقول لك شو قال عضو في اللجنة التنفيذية: «ثورة وتخطيط ما بيصير». فسألته:

- مين قال هيك؟

- أبو اللطف.

فاستغربت، كنت أعتقد أنه شخص مثقف، ويحمل شهادة ماجستير من الجامعة الأميركية في القاهرة. فقلت لكمال:

- خبّره عني إنُّه الثورة مُشتقّة من ثارَ، مش من ثور. ضحكَ وقال:

- واللهِ لأخبْرُه.

هناك أمر آخر يتعلّق بمركز التخطيط. عندما قررتُ أن أستقيل، ذهبتُ إلى عرفات - في ذلك الوقت، كانوا قد أُجبروا على الخروج من الأردن، ووصلوا إلى بيروت، فاستقرّ في إمبراطوريتهِ في الفاكهاني. ذهبتُ لأخبره أنني أريد أن أستقيل. فقال:

- ما بتقدرش تترك! إنت أبو الفكرة، مين غيرك بيقدر يستلم المركز؟. فقلت:

- ما بدا منك اهتمام كبير بمركز التخطيط. شو بتفرِق مين يكون المدير؟ ولكن أعتقد أن نبيل شعث يصلح كمدير للمركز. فقال:

- نبيل شعث! أستاذ متفرّغ في الجامعة، ومُستشار مُتفرّغ لإعلانات شركة سَفِن - أب وعضو مُتفرّغ في فتح. وبدّك ايّاه يكون مدير مُتفرّغ للتخطيط! فقلت:

- إذا قدِر يدير ثلاث وظائف بدها تفرغ، بيقدر يدير الرابعة. أعتقد إنه بيقدر يخصّص وقت للتخطيط.

رفض عرفات، واستغرقَ الأمر عدّة أيام لإقناعه. ثم قال: أنا بعرف نبيل شعث أكثر مما بتعرفه. وعندما قبلَ استقالتي أخيراً، شعرتُ بالارتياح.

قررتُ الاستقالة لأنني شعرتُ أنهم إذا لم يحملوا الخطة على مَحمَل الجدّ، فلا يمكن أن يحملوا أيّ شيءٍ آخر على محمل الجد. كان أهم شيء في مركز التخطيط هو وضع الخطط. فما هي الحكمة من البقاء؟ لم يكونوا مهتمّين

بذلك. ثبتَ هذا مرة أخرى في نهاية سنة ١٩٧٠. في ذلك الوقت بدأ هشام شرابي يقوم بزيارات للمنطقة بعد غياب طويل. أتذكر أننا جلسنا معاً نشكو من طريقة إدارة الأمور، ومن عملية صنع القرار، وكيف كانت سيئة. فقلت:

- ليش ما ندعو القيادات إلى خلوة، اجتماع سِرّي بدون تليفونات؟

كان زهير العلمي موجوداً، وأعجبته الفكرة، وكذلك نبيل شعث، كما أُعجبَ هشام شرابي بها.

جاء هشام تحيط به هالَة المُفكّر، لجأنا إليه لإعداد ورقة موجزة جداً لتبرير الاجتماع وشرْح مَغزاه: رفع كفاءة عملية صنع القرار وصدقيتها وتأثيرها إلى المستوى الأمثل، وأهمية تحقيق ذلك. بدأنا نفكر: إلى أين نذهب، وأيّ فندق نختار. ولكن لم يكن من الممكن إجراء ذلك في مكان مفتوح. فقلت: «ليش ما يكون في بيتنا في الجبل؟». اتصلنا مع عرفات وقررنا تحديد أسماء الأشخاص الذين ستتم دعوتهم. والمدعوّون هم: أبو عمار، أبو اياد، خالد الحسن - لست متأكّداً إذا كان خليل الوزير بينهم - زهير العلمي، نبيل شعث، هشام شرابي وأنا - كان هناك نحو خمسة عشر أو عشرون شخصاً - كلهم من فتح باستثناء بعض المستقلّين - لأنني شعرت بأن فتح هي قاعدة النفوذ في منظمة التحرير الفلسطينية. فإذا تمكّنا من إقناعهم، فإن ذلك سيكون أمراً جيداً.

وافقَ أبو عمار، وقمنا باتخاذ الترتيبات مع أحد مطاعم النّزهات لإعداد الطعام. لم نُرِد أن يُحضروا الطعام بأنفسهم، فاتخذنا إجراءات لإحضارها بطريقتنا. مَكثنا ليلتين هناك في الجبل نعقد الاجتماعات. استعرنا لوحاً لرسم الجداول البيانية والأشكال التوضيحية، وفعلنا ذلك بطرق حديثة جداً. قدَّم هشام شرابي ورقته وتمّت مناقشتها. قال أبو عمار كلاماً مقتضباً جداً. لم تكن هناك حماسة كبيرة إلا عند أصحاب الفكرة - أنا ومن كان معي. سألَ الآخرون أسئلة قليلة لمُجرد أن يُظهروا أنهم لم يكونوا نائمين. كان الدافع الرئيسي من ذلك العرض هو أن لا يظلّ أبو عمار متفرّداً في اتخاذ القرار. فالمسائل أخطر من أن تُترك له وحدَه - «الحرب أخطر من أن تُترَك للجنرالات». اتفقنا دون أن نشركَهُ معنا بالطبع، على أن نبيل شعث يجب أن يرافقهُ كظلّه، وأن يحاول التأثير عليه، لأن نبيل كان مُقنِعاً وفصيحاً. كان ذلك هو الدافع. ثمّ اكتشفنا لاحقاً أن عرفات أدركَ ذلك. بعد انتهاء الاجتماع الأخير، عند منتصف الليل تقريباً، توجّهوا إلى سياراتهم. وعند مغادرتهم - كنت أودِّعُهم خارج بيتنا الجبليّ - سمعت عرفات يقول لزهير: «زهير، بدي أروّح معك». ظننتُ أن ذلك من الاحتياطيات الأمنية؛ أعني تغيير السيارات.

في تلك الليلة، بدأت أحسُّ بمغص كلويّ حادّ. لم أستطع القيام وأن أقود السيارة إلى بيتي لأن مفاتيح السيارة والبيت كانت مع أحمد جواد الذي أحضر لنا الطعام في ذلك المساء، فأخذها معه عن طريق الخطأ. ولم يكن الهاتف يعمل. في الصباح، عند الساعة السادسة تقريباً، جاء يدقّ الباب لأنه أدرك أنه أخذ المفاتيح معه. كنت أحس بألم شديد، فقلت له: «جيت في الوقت المناسب». لبست وطلبت منه أن ينقلني إلى المستشفى، ولكن أولاً، أن يأخذني إلى مكتب زهير العلمي. وصلنا إلى هناك الساعة الثامنة تقريباً.

كان زهير هناك. فقال:

- بتعرف شو قال عرفات لمّا نزل معي؟ قال: «شو بيحاول يوسف صايغ وهشام شرابي يعملوا؟ يلَزقوا لي واحد؟ نبيل شعث؟ حتى لو كان نبيل شعث توأم سِيامي معي بسوّي عملية وبفصلُه عنّي. ما بدّي حدَا يساعدني على اتّخاذ القرارات!».

قال لي زهير: كلّ اللّي عملتوه راح سدى! كان ذلك هو ما دعاني إلى الاستقالة من مركز التخطيط.

اتصلتُ بروزماري من مكتب زهير العلمي لأقول لها إنني في طريقي إلى المستشفى. كان ذلك وقت ورود خبر وفاة أخي توفيق. بعد إزالة الحصوة من الكلى - وفي آخر يومين من إقامتي في المستشفى، أبلغوني بالخبر. كان ذلك نهاية فصل من ارتباطي بمركز التخطيط. وتولّى نبيل شعث مسؤولية إدارته.

كان أولَ ما فعله نبيل هو نقل المركز. عندما كنت أسلّمُهُ المركز، ألقى كلمة مُطوّلة أثنى فيها عليّ، وعلى الفكرة الرائعة، وحسن التنظيم. وفي اليوم التالي، دعا العاملين في المركز إلى اجتماع: وقال لهم:

- خلَص. إحنا جزء من ثورة، جميعكم شبان وشابات على قدر كبير من المسؤولية. وأقلّ من مستواكم ومستواي إني أطلب منكم تكونوا في الدوام الساعة الثامنة كل يوم وتوقعوا على الحضور في دفتر وترَوحُوا الساعة الواحدة، وترجعوا الساعة الرابعة. كل واحد فيكم عنده مُهمة. اشتغلوا عليها في البيت، غيبوا أسبوع، أسبوعين. أنا واثق فيكم. لما تكونوا مستعدين لمناقشة المواضيع معي، تفضلوا.

فعلَ ذلك حتى لا يلاحظ أحد أنه كان يقضي معظم الوقت خارج المكتب، ثم نقل المكتب إلى الفاكهاني، فدخل المركز مرحلة الموت البطيء. بدأ يُعِدّ تقارير بالآراء في الأحداث ويرسلها إلى عرفات. ثم بدأ يُعِدّ قصاصات من الصحف العربية والأجنبية ويرسلها يوماً بيوم إلى عرفات.

قصة الشيك المفقود

أعتقد أنه في سنة ١٩٧١، قُتل خالد اليَشرُطي الذي كان رئيساً للصندوق القومي، سقط شيءٌ ما على رأسه من مبنى كان يشرف عليه - إذ كان مهندساً معمارياً. قيل إن عرفات كان وراء ذلك الحادث لأنه كان يريد زوجة اليشرطي. كان هناك اجتماع بعد ذلك، وانتخبوني رئيساً لمجلس إدارة الصندوق. كنت متردّداً جداً، لكنهم قالوا: «إنت اقتصادي، وهذا هو المجال الواجب أن تعمل فيه».

توليتُ مسؤولية الصندوق لفترتين، وكان العمل هناك كالجحيم. كان العمل مع عرفات أمراً في غاية الصعوبة. أُجبرتُ على العمل معهُ لأن النظام في الصندوق يتضمن تقديم المخصصات المالية للمؤسسات فقط مثل مركز الأبحاث، ومركز التخطيط والجيش. وذلك يعني أن هناك ثلاثة شيكات بمبالغ كبيرة تُدفع كل ثلاثة أشهر أو كل سنة، حسب الحالة، ضمن الميزانية. وللصندوق ميزانية يعتمدها المجلس الوطني، ولا يستطيع أحد أن يخترق القوانين أو يتجاوزها. ووفقاً لقانون الصندوق القومي، يجب أن يقوم بالتوقيع على كل أمرِ دَفع أو شيك شخصان - رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، عرفات، ورئيس الصندوق القومي - أنا. وبين كل فترة وأخرى، كانت هناك حالات طارئة أو وضع جديد يتطلب تمويلاً جديداً. فكانت هناك آلية تسمح بإدخال ميزانيات فرعية لتلك الأغراض. كان يجب إجراء ذلك بالتصويت بالإجماع من قِبَل أربعة أشخاص - رئيس مجلس الإدارة، الرئيس عرفات، والمدير العام للصندوق الوطني، درويش الأبيض، وعضو اللجنة التنفيذية صاحب العلاقة بالموضوع قيد التمويل.

كان هناك نوعان من المشاكل مع عرفات. النوع الأول، كان يرسل لي أشخاصاً معهم قصاصة ورق تقول: يرجى دفع مبلغ عشرة دنانير أو عشرين ديناراً لهذا الرجل. لم أكن صرّافاً. ولم تكن لديّ سيولة نقدية. إلى جانب ذلك، فإن كل فلس يُدفع يجب أن يكون ضمن الميزانية. كان لدينا مدقّقو حسابات، وكان كل شيء منظماً تنظيماً تاماً. وصل الأمر إلى درجة أنه ذات يوم، جاءني رجل وأبرز غلاف علبة سجائر «بافرا». لم يجد عرفات ورقة حوله، فكتب على علبة السجائر: «الأخ يوسف، أرجو أن تدفع لهذا الرجل مبلغ عشرين ديناراً». قلت للرجل:

- عرفات عارف إن المبلغ مش ضمن الميزانية. وفوق هذا، لازم يكون في توقيعين.

- هذا توقيعُه وإنتَ عندك توقيعك.

- على هذي العلبة؟ بتفكر إني حامل دنانير في جيبي؟

- لكن عرفات قال إنك بتقدر تدفع.

- بدّي اتصل مع عرفات وإنت قاعد عندي.

اتصلت مع عرفات وقلت له:

- ليش بعثت لي هذا الرجل؟ لم يكن عرفات يدري أن الرجل كان موجوداً عندي. فقال:

- بدي أتخلّص منه. فقلت:

- أعطيه فلوس من فتح. هل إحنا بندفع للجنود في سورية واحد واحد؟

غادر الرجل، ولا أعلم ماذا فعل مع عرفات.

النوع الثاني من المشاكل، كان حادثاً جعلني أفتح عينيّ على احتمال أن يكون عرفات يتسلم أموالاً للصندوق، لكنه يعطيها لفتح. كان ذلك قربَ انتهاء مدة رئاستي - انتُخبتُ مرة ثانية لرئاسة مجلس إدارة الصندوق، وفي نهاية تلك المدة، في مطلع عام ١٩٧٤، تحول الإشكال مع عرفات إلى شيء أكبر. كان أخطر لأنه انطوى على مبلغ كبير. وقعَت حادثة مُعيّنة تضمّنت أموالاً جاءت من حكومة الكويت لمنظمة التحرير الفلسطينية، وكانت تعادل عشرة ملايين دولار.

سمعتُ عن ذلك المبلغ لأول مرة أثناء رحلة لي إلى القاهرة، عندما قابلت في مقهى فندق هيلتون عن طريق الصدفة وزير المال الكويتي، عبد الرحمن سالم العتيقي، (أبو أنور). رآني وعانقني - كنا أصدقاء. قال لي:

- إنت بتشكي دايماً لما نتقابل إنا ما بندفع فلوس للصندوق القومي، بدي أقولّك خبر سارّ، قرّرنا في مجلس الوزراء تقديم عشرة ملايين دولار، قبل أيام من رحلتي للقاهرة. قلت:

- خبر عظيم! بنتأمل المبلغ يوصلنا. فقال:

- ليش قلت هالكلام؟ فأجبته:

- لأن الأمر يعتمد على تحديد لمين أرسلتوا الفلوس. أنا لم أسمع عنها، لا بالتلكس ولا بالتليفون.

- لا، رح تسمع عنها، أرسلناها من فترة بسيطة.

مرَّ أسبوع ولم يحدث شيء. كان هناك اجتماع ستعقده اللجنة التنفيذية وسأحضرهُ كرئيس للصندوق القومي. قبل الاجتماع، أخبرت ثلاثة أصدقاء

كانوا في اللجنة، عبد الوهاب الكيّالي وأحمد اليماني وزهير محسن بقصة اجتماعي مع وزير المال الكويتي، وقلت إني لم أسمع عن وصول المبلغ. كان مبلغاً كبيراً، ولا بدّ أن أسمع عنه. قلت لهم: «ليش ما تقولوا في الاجتماع إنكم سمعتوا إنه حكومة الكويت قرّرت إرسال المبلغ وتسألوني شو صار فيه؟».

أثاروا السؤال في الاجتماع. فقلت: «سمعت القصة نفسها» - ولم أقل ممّن سمعت - «لكني ما سمعت أن المبلغ وصل». كان أبو عمار في الاجتماع ولم يقل كلمة واحدة. في الأسبوع التالي، بادر أبو عمّار نفسه بالقول:

- يا دكتور! وين الفلوس؟ - العشرة ملايين دولار؟! ما بلّغتنا عنها. بتستلم الفلوس وما بتبلّغنا عنها؟. فقلت:

- ما سمعت أيّ شيء.

ذلك ما جعلني أقرر فوراً أن أستقلّ طائرة وأسافر إلى الكويت. زرتُ الوزير وأبلغته أنني لم أتسلم المبلغ. فقال: «لكن أنا وقّعت الشيك». رفع سماعة الهاتف واستدعى خالد أبو السعود - وهو فلسطيني، وكان مديرَ مكتبه. فسأله:

- يا خالد، شو صار في الفلوس اللي قرّرنا إرسالها لمنظمة التحرير؟ قال خالد:

- أرسلنا الشيك. ولكن هل تتذكر أنه بعد يوم من اتخاذ القرار، جاء عرفات لمكتبك - شخص ما كان قد أخبر عرفات عن الشيك - وقال لك، بحضوري، إنه من الأسهل عليه صرف الشيك إذا كتبنا عليه: لأمر القائد العام للثورة الفلسطينية؟

ذلك ما حدث. وضعَ المبلغ في جيبه.

قلت للوزير:

- أبو أنور، دستورياً لا يوجد شيء اسمه القائد العام للثورة الفلسطينية. هناك رئيس اللجنة التنفيذية، رئيس الصندوق القومي، رئيس المجلس الوطني - لا شيء آخر. فقال:

- وكيف ندري؟ تصرفنا على أساس الثقة. بالتأكيد بتوصل للصندوق القومي. فقلت:

- لا، سجِّل كلامي، الفلوس مش رايحة توصل للصندوق القومي.

ثم طلبت إليه أن يصنع معروفاً بإعطائي تفاصيل الشيك - اسم البنك ورقم الشيك وتاريخه. وضعتُ هذه المعلومات في جيبي وعدتُ إلى بيروت.

في الاجتماع التالي، قال عرفات:

- يا دكتور! سألناك من أسبوعين عن الفلوس، وينها؟ قلت بكل برود:

- في جيبك. فقال:

- شو! أنا مش حرامي.

وضع يدهُ على مسدّسه. كنت أعرف أنه لن يسحبهُ ولن يطلق النار، كان يتظاهر فقط بأنه غاضب جداً. ثم قال:

- أنا الرئيس هون، لا أُهان بهذي الطريقة. مش رايح أحضر الاجتماع ويوسف صايغ موجود فيه.

وقفَ وغادر الغرفة. كنا مجتمعين في شقة زهير محسن في حرش ثابت، وبصفته المُضيف، لحق به وأعاده إلى الغرفة. جلس مكانهُ وقال:

- يا دكتور، كيف بتتجرأ وبتوجه لي إهانة؟. فقلت:

- إذا بدك تصرّخ، أنا كمان بقدَر أصرّخ.

نظرَ إليّ كل الموجودين، لم يتكلّم أحد من قبل معهُ بتلك الطريقة. حتى مَن كانوا يعارضونه لم يتكلموا معه على ذلك النحو، أبداً. كانوا يتجادلون معه، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم أبداً. كان يرفع صوته، ولكنهم لا يفعلون. لكني لم أكن أخاف منه.

قال عرفات:

- كيف تدافع عن نفسك لتوجيه إهانة إلي، بتقول إنه الشيك في جيبي؟ قلت:

- خلّيني أحكي قصة الشيك.

أخبرته بالقصة كلها. بعد ذلك استراح وابتسم قائلاً:

- آه، العشرة مليون دولار، هذاك المبلغ، ما كان للصندوق، كان لفتح. فقلت:

- لأنك قلت يُصرف فقط إذا كان باسم «القائد العام» وهو انت. ولكن هذا غير صحيح، هذي فلوسنا. فقال:

- لأ، لأ هذي فلوس فتح.

لم نرَها أبداً. لم نكن نستطيع أن نفعل شيئاً. شعرَ الأعضاء الآخرون بالخجل، وأحنوا رؤوسهم. حتى أبو ماهر لم يقف إلى جانبي.

في الكويت، رجعوا إلى محضر الاجتماع الذي نصَّ بوضوح على أن المبلغ يجب أن يحوّل إلى منظمة التحرير الفلسطينية.ِ ذكرتُ هذا في مواجهتي مع

عرفات، لكنه قال: «لأ، إنت غلطان». كان كذّاباً على طول الخط. في ذلك الوقت طفح الكيل، وقرّرت أن لا أسمح لنفسي بأن أنتخب ثانية لذلك المنصب.

كانت مدة رئاستي للصندوق القومي تنتهي في آخر حزيران/يونيو ١٩٧٤. وقبل اجتماع المجلس الوطني المقرَّر عقدُه في تموز/ يوليو، مباشرة، اتصل بعضهم بي، وقالوا:

- بدنا ننتخبك مرة ثانية. فقلت:

- لأ، ما تعملوا أي شيء، مش رح أقبل.

واستمروا في الضغط عليّ، وفي النهاية أدركتُ أن أفضل مَخرج لي هو أن لا أحضر الاجتماع الذي تُجرى فيه الانتخابات.

قبل الاجتماع، كان عرفات يقول لكل شخص: «إذا كان يوسف صايغ رئيس الصندوق القومي، مش رايح أقبل أكون في اللجنة التنفيذية» - كان ذلك نوعاً من الابتزاز بالطبع. كتبت رسالة إلى رئيس المجلس الوطني، خالد الفاهوم في ذلك الوقت. أرسلت إليه رسالة وتأكَّدت من وصولها إلى مكتبه. قلت فيها إنني سأغيب عن جلسة الانتخاب، لأنني لا أريد أن يُعاد انتخابي، والسبب هو أنني لا أستطيع أن أنسجم مع عرفات. فانتخبوا وليد قمحاوي مكاني. وكان ذلك آخر ارتباط رسميّ لي على المستوى التنفيذي بمنظمة التحرير الفلسطينية. وبالطبع بقيت عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني.

المؤسسات الفلسطينية الأخرى

انتهت فترة ارتباطي المكثف مع منظمة التحرير الفلسطينية في حزيران/ يونيو ١٩٧٤. ولكن خلال تلك الفترة كانت لديّ نشاطات أخرى تقوم على قاعدة فلسطينية. في البداية، بين سنتي ١٩٥٦ و١٩٧٤، حافظت على العلاقات مع المفتي، كنت أذهب إلى عاليه لزيارته بين وقت وآخر. وفي مناسبة أو اثنتين طلبَ من رجائي الحُسيني أن يتصل بي لمناقشة مسألة ما.

بين ١٩٥٦ و١٩٦٧، قام المفتي بمحاولة للعودة إلى الزعامة. طلبَ من مؤيّديه تنظيم مؤتمر عام حول فلسطين، يُعقد في بيروت، في أحد المُخيمات، أعتقد أنه برج البراجنة. كانت هناك جلسة تحضيرية قبل أن يُفتتح المؤتمر رسمياً، لتداول الأفكار حول ما يجب أن يفعلهُ المؤتمر، وفيما إذا كان يجب أن تكون له آليّة دائمة أم لا. وأثناء تلك الجلسة، يبدو أن فايز قام بمداخلات مؤثّرة. كان في بيروت في تلك السنة، ١٩٥٩، قادماً في زيارة من أميركا. فانتُخب رئيساً للمؤتمر. وهذا أزعج الحاج أمين كثيراً، لأنه كان يأمل في أن يتم انتخاب أحد رجاله مثل فارِس سرحان، أو خليل الطبري، لكن الأمور لم تسر في ذلك

الاتجاه. وقد أظهر له ذلك أن مكانته بين الجماهير لم تعد كما كانت في فلسطين.

ما حقق لي بعض المكانة من الناحية الفكرية في العالم العربي كان كتابي عن الاقتصاد الإسرائيلي، والذي نُشر سنة ١٩٦٣. بدأ كسلسلة من عشرين محاضرة ألقيتها في القاهرة، ثم ظهرت على شكل كتاب صدر عن جامعة الدول العربية. ثم صدرت طبعة ثانية بمواد محدَّثة في سنة ١٩٦٦، ونشرَها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. ولا يزال الحديث عن ذلك الكتاب مستمراً، على أنه عمل مرجعيّ باللغة العربية للمرحلة التي يتناولها.

شهدَت تلك الفترة أيضاً ظهور مؤسّسات هامة. والمؤسسة التي سبقت إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية هي مؤسسة الدراسات الفلسطينية، وقد ظهرَت إلى حيّز الوجود قبل سنة من إنشاء مركز الأبحاث الفلسطيني. كانت المؤسسة من بنات أفكار وليد الخالدي، بمساعدة برهان الدجاني، وسعيد حمادة، وعصام عاشور. والمؤسسة الأخرى، مركز الأبحاث الفلسطيني، من بنات أفكار أخي فايز. أنشئت مؤسسة الدراسات الفلسطينية بطريقة سرّية جداً. كانت هناك فترة إعداد طويلة. ذلك لأن وليد الخالدي بالغ العناية ويتأنّى كثيراً. لم يُخبرني بتاتاً بما كان يجري على الرغم من أننا كنا أصدقاء وجيراناً أيضاً.

أتذكّر أنني كنت ذاهباً ذات مرة لزيارة وليد، وبيته في الجانب الآخر من الشارع، دون أن أتصل هاتفياً أولاً لأخبره بقُدومي. اعتدنا أن «نَطُبّ» فجأة لزيارة بعضنا في تلك الأيام بدون رسميّات. فتحوا لي الباب، وإذا بمجموعة تجلس في الغرفة الداخلية بعد غرفة الجلوس - وليد وبرهان وعصام وشخص رابع. بدا عليهم الارتباك عندما دخلتُ وبدأتُ أتحدث في موضوع مختلف. استشعرتُ إحساسهم بالحرج فاعتذرت لمجيئي بدون إشعار مسبق. قال وليد: «أهلاً وسهلاً، اقعد، واشرب شي». فقلت: «لا، شكراً، جيت بس أقول مرحبا». أدركتُ آنذاك أن هناك شيئاً ما «يُطبخ». وفي وقت لاحق، عندما ظهرَت أسماء مجلس الإدارة، كان من الواضح أن سبب السرّية في عملهم هو أن لا نعرف، فايز وأنا، بالموضوع. لم تتم دعوتنا إطلاقاً لنكون أعضاء في المجلس.

لا أعتقد أن لذلك أيّة علاقة بانتسابي القديم للحزب السوري القومي. كان السبب هو الشجار الذي وقع بين فايز ووليد. ولولا ذلك، أعتقد أن وليد كان في النهاية يرغب في أن أكون عضواً في مجلس الإدارة. لكن ذلك الشجار يعني أنه لم يكن يريد أن يكون أيٌّ من آل صايغ في المجلس. كان موقف وليد هو: «ليش ننشىء مؤسستين لإجراء أبحاث عن فلسطين؟»، كما قال لفايز.

«ليش يقبل شخص مثلك بالعمل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وبتأسيس شيء ليس له استقلالية؟ ستمارس عليك ضغوط فيما يتعلق بالتعيينات ومواضيع الأبحاث». كان وليد يقبل دائماً القيام بدور المستشار المحترم لعرفات، في الخفاء، ولكنه لم يدخل في ارتباط مفتوح، أبداً، ولم يحضر أيّة جلسة من جلسات المجلس الوطني على الإطلاق.

أتذكر أنني عندما عُيّنتُ رئيساً لمجلس التخطيط، دعوتُ وليد لتناول مشروب لأحدِّثه في هذا الموضوع. ذهبنا إلى الروشة. قلت له:

- بدّي نتعاون مع بعض.

كنت أحترم قدرة وليد وتحليله السياسي. نظرَ إليّ وقال:

- يوسف، إنت حمار.

ضحكَ ليخفّف من وطأة الكلمة، فقلت:

- أنا عارف إني حمار في بعض النواحي، ولكن ليش في هذي الحالة؟ فقال:

- إنت عارف إنه مهما تخطّط، ومهما تكون خطتك ممتازة، وذكية، ومهما تكون إلها علاقة بالعمل، إذا ما كان عرفات مقتنع بالخطة، ما بتمشي. وحتى يقبلها عرفات، لازم تيجي من واحد قريب جداً من مركز النفوذ، وهي فتح، وانت مش فتح. حتى لو انت عبقري، عرفات مش رايح ينظر لك نظرة جدّية.

لم أعِرهُ اهتماماً في ذلك الوقت لأنني كنت متفائلاً. كنت أعتقد أن المرء يمكنه أن يؤثر في الناس بقوة أفكاره، بعقله. لا، لم أُحمِّل المسألة أكثر مما تحتمل، ولا كنت سأستقيل على الفور. أصبح النزاع بين فايز ووليد خطيراً. ظلّ فايز في بيروت، في الجامعة الأميركية، مدة ثلاث سنوات من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٧، وكان عضواً في أول لجنة تنفيذية لمنظمة التحرير برئاسة الشقيري، مع شفيق الحوت، وأحمد صدقي الدجاني وعدد قليل غيرهم. كانت مجموعة جيّدة. ولكن فايز لم يكن يستطيع البقاء مدة أطول كمدير لمركز الأبحاث في منظمة التحرير لأن الأمر يحتاج إلى وقت أطول مما يتوفر لديه كأستاذ في الجامعة. لا أعتقد أنه حصل على إذن بالغياب عن الجامعة. كنا في فصل الصيف عندما انتُخب لأول مرة عضواً في اللجنة التنفيذية - وفي الواقع عيّنه الشقيري. وطوال ثلاثة الأرباع الأولى من السنة، كان في الجامعة الأميركية في بيروت، وكذلك عضواً في اللجنة التنفيذية للمنظمة. كانت اجتماعات اللجنة التنفيذية تُعقد مرةً كلّ أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، وبالتالي لم يكن الأمر صعباً، كان يستطيع الحضور. استقال من اللجنة التنفيذية بعد سنة. وفيما بعد، ترك مركز الأبحاث، لأنه لم يستطع المواءمة بين الجامعة والتفرّغ للمركز، فعيّنَ الشقيري أخي أنيس مديراً عاماً لمركز الأبحاث. سمّمَ ذلك النزاع

العلاقة بين وليد وبيني، واستطراداً بين وليد وأنيس، على الرغم من عدم وجود أي سبب لإقحام أنيس في الأمر. وفي وقت لاحق، دُعيَ فايز من قِبَل حكومة الكويت ليكونَ المتحدّث الرسمي لها في أميركا فيما يتعلق بفلسطين.

قلّ نشاطي في المجال الفلسطيني بين عامي ١٩٧٤ و١٩٨٤. كان ذلك في وقت تركتُ فيه الجامعة الأميركية في بيروت، وكنت أحاول أن أكون مستشاراً اقتصادياً مستقلاًّ. كانت تلك أيضاً فترة الآمال الخائبة. فحرب عام ١٩٧٣ جعلت الأمر يبدو وكأن العرب يمكن أن يقفوا في وجه إسرائيل، ولكن ذلك الأمل انهار عندما فشل السادات في الاستفادة سياسياً من عبور قناة السويس. وأصبح من الواضح أنه كان يلعب لعبة أميركية صمَّمها هو وهنري كيسنجر معاً. وقوة النفط العربي التي ظهرت أول مرّة سنة ١٩٧٣ استمرّت خلال ذلك العقد وجعلت العرب أكثر انشغالاً بالأموال، وأقل انشغالاً بالسياسة، وبالسياسة الفلسطينية خاصةً. وكفلسطينيّ، شعرت بالاكتئاب خلال تلك الفترة كلها.

التوتر السوري/الأردني داخل منظمة التحرير

في سنة ١٩٨٤، بينما كنت أشارك في اجتماع المجلس الوطني في عمّان، قدمت مداخلة أغضبت عرفات كثيراً. قبل ذلك الاجتماع كان هناك توَتّر شديد بين منظمة التحرير الفلسطينية والحكومة الأردنية والملك. ثم تصالحوا على نحو ما. وبالرغم من أنه كانت قبل ذلك اتهامات من شتّى الأنواع ضد الملك حسين، قرّرَت المنظمة عقد اجتماعها في عمّان. كنتُ في أكسفورد في تلك السنة، معيّناً لدى مؤسسة الدراسات النفطية وكلية سانت أنتوني.

اتصلَت بي منظمة التحرير الفلسطينية هاتفياً لدعوتي إلى الاجتماع الذي كان سيعقد في عمّان. قالوا:

- الرئيس عرفات بدّو يحكي معك بنفسه. جاء صوته عبر خط الهاتف:

- عايزك تكون معنا يوم الجمعة قبل بداية الاجتماع يوم السبت. إنت واحد من العشرين اللي استمروا أعضاء في المجلس الوطني طول المدة من تأسيسه في سنة ١٩٦٤، عايز أتصور معاكم إنتو العشرين.

كنت أعرف أن ما يريده، حقيقةً، هو التأكد من أن لديه النصاب القانوني للمجلس، فالكثيرون - من أنصار دمشق - فضَّلوا عدم الحضور. أنا كنت أخطط للحضور. وفي الواقع اتصلت من أكسفورد هاتفياً مع خالد الفاهوم في دمشق، وقلت له إنني سأذهب لأنني أؤمن بالنقد من الداخل، وليس من الخارج. فقال: «أنا فاهم موقفك، ولكن سيُساء فهمُه من قِبَل الكثيرين».

أصرّ عرفات، وفي الواقع أرسل لي ممثل منظمة التحرير، عويضة، من لندن إلى أكسفورد في منتصف الليل، لإقناعي بالحضور. أخبرته أن ذلك مستحيل لأن عليّ إلقاء محاضرة في كلية سانت أنطوني يوم الجمعة، ولا يَظفر المرء بفرصةٍ كهذه كلّ يوم. وقلت إنني سأغادر في وقت مبكر من صباح السبت، على أول طائرة إلى عمان. وبما أن المجلس لن يبدأ أعماله إلا بعد الظهر، فإنني سأتمكن من تحقيق ذلك. اتصل عويضة مع عرفات من منزلي وأعاد على مسامعهِ ما قلتهُ له. فكلّمني عرفات وأخذ يضغط عليّ للحضور قائلاً:

- ببعث لك طيارتي الخاصة، وإذا بتفكر إنه طيارتي ما فيهاش أمان، ببعث لك طيارة حسيب صبّاغ عشان تجيبك يوم الخميس. بناخذ الصورة وبنرجّعَك لأكسفورد عشان تلقي محاضرتك، وبترجع تاني للمجلس. قلت:

- بقدرش أقوم بكل هذي الرحلات في يومين، أنا عارف بدّك ايّاني أكون هناك لأنك قلق من عدم اكتمال النِّصاب القانوني.

غضبَ عندئذٍ، وقلت:

- يوم السبت بتشوفني هناك. وبالفعل كنت هناك يوم السبت قبل افتتاح الاجتماع.

افتُتح الاجتماع مساء السبت. قابلني عرفات وخالد الحسن وأبو جهاد وأبو إياد بحرارة، وأعربوا عن تقديرهم لمجيئي عبر تلك المسافة من أكسفورد لحضور الاجتماع، كما وعدت. شهدت الجلسة الأولى كلمات ألقاها عدد كبير من الضيوف الذين لم يكونوا من أعضاء المجلس الوطني. تمَّ تقديم أحدهم على أنه رئيس المعارضة في سورية، وهو شخص لم أسمع باسمه من قبل، وبالتأكيد لم يكن يعيش في سورية. وقف وشنَّ هجوماً شرساً على حافظ الأسد قائلاً إنه خائن. شعرتُ أنّ ذلك الكلام ليس من النوع الذي يجب أن يُقال في اجتماعات المجلس الوطني. فالضيف يجب أن يَعرف كيف يتجنب إحراج مُضيفيه. عندما انتهى الرجل من كلمته، مشيت نحو عرفات وقلت له:

- كان لازم توقفه عن الكلام، هذا مش الأسلوب اللي كنا نتّبعه في اجتماعاتنا السابقة.

- أنا ديموقراطي، بقدرش أوقف أي ضيف عن الكلام.

شعرتُ بالغضب الشديد. وعدتُ إلى مكاني وأعددتُ ملاحظاتي لاجتماع اليوم التالي، عندما يحين دوري لتقديم مداخلة.

بدأتُ بالقول «إن عشرين عاماً بالضبط قد مرّت على إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية. حتى صاحب بقالة صغيرة يُجري جَرداً لحساباته في نهاية السنة، ليرى إذا كان يكسب أو يخسر. وأعتقد أن منظمة التحرير الفلسطينية حركة

هامّة تقوم بحَملَة من أجل التحرّر الوطني، يجب، بعد مضي عشرين سنة، أن تقف وتفحص ذاتها. إن أحد الأسئلة الهامة التي يجب أن نطرحها على أنفسنا هو: هل أهدافُنا لا تزال هي الأهداف نفسُها التي كانت لدينا سنة ١٩٦٤ عند تأسيس منظمة التحرير؟ إذا كان الأمر كذلك، فماذا حققنا منها؟ وإذا لم نحقّق معظمها، فلماذا فشلنا؟ ما هي التغييرات التي يجب أن نقوم بها، سواء في الأهداف أو في الطريقة التي نقاربُ بها أهدافنا؟ على الأقل، ذلك يثبت أننا قادرون على النقد الذاتي، بحيث نتحرك في المستقبل بطريقة موجَّهة على نحو أفضل».

بعد ذلك قلت: «أريد أن أختم الآن بالحديث عن موضوع مختلف كلياً. في جلسة مساء أمس التحضيرية، استمعنا إلى كلمات قاسية قيلت ضدّ الرئيس السوري، الأسد، ولم يتم وقف المتكلم من قبل الرئيس عرفات. وهذا يشكّل صدمة. دعوني أذكِّر كلّ من سعِدَ بذلك الهجوم على الأسد، أننا منذ السبعينيات وما بعدها، كانت لنا علاقات متردِّية جداً مع الأردن. مع ذلك فها نحن هنا نجتمع في الأردن، تحت شعار «استقلالية القرار الفلسطيني». لست متأكداً من أن شتمَ القادة العرب هو أفضل الطرق للتعبير عن استقلاليتنا. دعوني أذكِّر الفلسطينيين بالقول الفلسطيني: «خلوا للصلح مطرح». إن علاقاتنا مع سورية تمرّ بسحابة سوداء، ولكنها ليست بسواد السحابة التي مرت على علاقاتنا مع الأردن. يجب أن نترك باباً للصلح وأن لا نحرق جسورنا كلها». كان هناك تصفيق من جانب كبير من الحضور، وعدتُ لأجلس مكاني.

صعدَ عرفات بعدي مباشرة، وَكالَ إهانات أكبر للرئيس حافظ الأسد، أكثر مما فعل ذلك الرجل. قال: «لديّ هنا في جيبي رسالة من كمال جنبلاط، الله يرحمه، مرسلة إلى السادات» - اغتيل جنبلاط والسادات قبل ذلك الوقت - «تَنُصّ على أن حافظ الأسد حاول إقناع جنبلاط بفصل المناطق الدرزية اللبنانية عن لبنان وضمّها إلى جبل الدروز في سورية، لتكون لهم دويلة هناك برئاسة كمال جنبلاط. لكن كمال جنبلاط، لأنه رجل شريف، رفض. وبدلاً من ذلك أعطاني الرسالة وأرسلتُها إلى السادات، الله يرحمه». - كان ذلك كله تلفيقاً بالطبع. فهو دائماً يسحب من جيبه أشياء ويقول: «استلمت هذه البرقية للتوّ». - واستطرد قائلاً «إن مثل هذا الرجل لا يمكن إلا أن يوصف بأنه خائن للقضية العربية والقضية الفلسطينية».

بعد هذا، لم يتكلم معي أحد كلمةً واحدة، باستثناء خالد الحسن، طوال الأيام الخمسة أو الستة التي استغرقها المؤتمر. لم يقل عرفات لي حتى كلمة مرحبا، عندما كنا نلتقي. أبو جهاد لم ينطق بكلمة، تصرفوا كما لو كنت شبحاً. عندما عدتُ إلى أكسفورد، اتصلتُ مع خالد الفاهوم، لأنني عرفت أن الاجتماعات كانت تُبَث تلفزيونياً على الهواء مباشرةً. فقال: «نعم شفناها.

وسألت عبد الحليم خدام شو رأيك في مداخلة يوسف صايغ؟ فقال: «ممتازة، بس ما كان لازم يكون موجود هناك».

أثناء ذلك الاجتماع في عمّان، جاء شخصان وجلسا إلى جانبي. وهما: أبو علاء (أحمد قريع)، وماهر الكرد وهو مساعد أبو علاء في مؤسسة «صامد»(٣١) ودائرة الشؤون الاقتصادية. قال أبو علاء:

- أعطنا نَصّ كلمتك، فقلت:

- أنا بتكلم من ملاحظات مدوّنة. فقال:

- مش مهم، اكتبها لو سمحت بالكامل، الآن، بنقدر نسوّي منها نسخ وبنوزّعها.

فَعَلا ذلك في جلسة لاحقة، وذلك ما أزعج عرفات أكثر. فقد كانا من فرع في فتح لم يكن راضياً عمّا كان يجري.

كان الاجتماع مُهمّاً بالنسبة لي لأنه أثَّر على اتجاه عملي لعدة سنوات قادمة، من ١٩٨٤ إلى ١٩٩٣. أخبرني أبو علاء حينذاك أن الصندوق العربي للتنمية قدَّم لمنظمة التحرير الفلسطينية بعض المال لدائرة الشؤون الاقتصادية والتخطيط، للتعاون مع اقتصاديين أكفاء لإجراء بعض الدراسات. وقال لي:

- إنت مش في الجامعة في الوقت الحاضر؟

- لأ، لكن ما بدّي أكون موظف.

- لأ، كنت بدّي أطلب منك تقوم بأعمال استشارية.

جرى كل ذلك في عمان، في ذلك الاجتماع أثناء استراحة تناول القهوة. وقال إن شروط المنحة المالية المقدمة من الصندوق العربي هي أن يدفعوا مبلغاً قدره ٢٥٠ دولاراً في اليوم للدراسة بالإضافة إلى تحمُّل النفقات التي تستوجبها أيام العمل. وقال: «ستُقدَّم لك دفعات على أساس العمل وليس على أساس شهري. وإدارتنا تعاقدت على إجراء عدة دراسات، والمطلوب اقتصادي قدير ومستقل لتقويم جودة الدراسات. يمكنك القيام بذلك. وإذا وافقت، يمكن تجهيز العقد الآن».

استمرّ هذا الترتيب مدّة ثلاث أو أربع سنوات قبل أن ألتحق بهم [في تونس]. والتقينا مرّة ثانية في مؤتمر حول الصناعة في المناطق المحتلة. انتخبتُ رئيساً للمؤتمر وكان ذلك، ببساطة، لأنني قدمتُ، في اجتماع تمهيدي، تعليقات جذبت انتباه الحاضرين، واقترح ممثل منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية «اليونيدو» أن أرأس الاجتماع. كان ذلك في سنة ١٩٨٧ أو ١٩٨٨ في فيينا. حاول أبو علاء منذ ذلك الحين أن يجذبني إلى تونس، وذلك لكي أُحسِّن نوعية العمل الذي يقوم به موظفوه بشكل أساسي. قلت له:

- أنا موافق من حيث المبدأ، لكني غير متفرغ الآن، عندي موضوع أكتبه ويحتاج إلى وقت. وفي الواقع استغرق الأمرُ سنتين(٣٢)، بين ١٩٨٨ و١٩٩٠ قبل أن أقرر الذهاب.

طلب أبو علاء مني أن اقوم بدراستين مهمتَيْن. واحدة حول تقويم عمل اللجنة الأردنية - الفلسطينية لدعم صمود الشعب الفلسطيني، والتي حصلَت على أموال من مؤتمر القمة العربي في بغداد. فبدأتُ أذهب إلى تونس بين وقت وآخر، للحصول على مواد للدراسة وإعداد ورقة البحث. ظهرت الورقة في حجم كتاب، رغم أنها لم تُنشر، كانت للتوزيع الداخلي فقط.

التخطيط لاقتصاد دولة فلسطينية مستقبلية

في سنة ١٩٨٨، بعد الإعلان عن قيام الدولة الفلسطينية، طلب مني أبو علاء إعداد دراسة حول الدعائم الاقتصادية لدولة فلسطينية مُستقلّة. أنجزتُ الدراسة في أواخر سنة ١٩٨٩، وأدخلتُ بعض التعديلات بعد ذهابي إلى تونس والاستماع إلى بعض التعليقات. في تلك الدراسة، وهي دراسة طويلة، تقع في أربعمائة صفحة مطبوعة تقريباً، قلت إن بحثي عن الدعائم الاقتصادية اللازمة [الدولة] جعلني واثقاً من أنه يمكن إقامة دولة إذا تمَّت تلبية شروط معينة. يجب أن نستعدّ منذ الآن، قبل إنشاء الدولة، لوضع برنامج للتنمية.

أُعجب أبو علاء بالفكرة إعجاباً شديداً. دعا سبعة عشر شخصاً من داخل فلسطين - اقتصاديين وتقنيين وعلماء اجتماع ومهندسين - إلى اجتماع آخر في منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية «اليونيدو»، في فيينا، للجلوس ومناقشة رؤيتي للبرنامج، وكيفية الاضطلاع به وما يجب أن تكون عليه فرضيّاته. كتبتُ مذكرة من خمس عشرة صفحة، تمَّ توزيعها على المشاركين، وأخذ أبو علاء وماهر الكرد نسخاً عنها. كان هناك تأييد بالإجماع للفكرة، ولكنهم اشترطوا أن أكون مسؤولاً عن وضع البرنامج.

عند هذا الحد، في مطلع سنة ١٩٩٠، قال أبو علاء إنه ينبغي أن أتخذ قراراً بالذهاب إلى تونس والإقامة فيها. قلت له إنني سأذهب في تموز/ يوليو وأبدأ العمل. ولكن في نيسان/أبريل، ذهبت إلى تونس لإلقاء كلمة في اجتماع ضمّ أربعمائة من رجال الأعمال الفلسطينيين. شعروا بأنه أمر أساسي أن أقدم لهم دراستي عن الدعائم الاقتصادية للدولة، بسبب الإعلان عن قيامها(٣٣). خصَّصوا لي جلسة كاملة في اليوم الأول لتقديم العرض. كان عرفات يرأس الاجتماع وكالَ لي المديح. ثم أنهينا إجراءات انتقالي إلى تونس، وعدتُ إلى بيروت. وفي مطلع تموز/يوليو انتقلت إلى تونس. وفَّروا لي منزلاً هناك. وفي وقت لاحق، انضمّت إلي العائلة لقضاء فصل الصيف.

تطلبَ البرنامج الكثير من الإعداد. قرّرتُ في البداية وضع قائمة بأسماء الخبراء الأكفاء الذين يمكن أن يساعدوا في إعداد برامج للقطاعات المختلفة - الزراعة بفروعها الخمسة أو الستة، والصناعة، والسياحة، والحكومة، وغيرها. كانت لي صلة بالوحدة الفلسطينية في مؤتمر الأمم المتحدة للتجارة والتنمية «أونكتاد» في جنيف، حيث يعمل رجا الخالدي، وحصلت منهم على قائمة تضمّ أشخاصاً داخل فلسطين كانوا يتعاونون معهم - بين خمسين وسبعين اسماً. وحصلت أيضاً على قوائم من الدائرة الاقتصادية في منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تعرف العديد من الخبراء. كما اتصلنا بالداخل لنسألهم عن الأسماء التي يُوصون بها، وفي النهاية حصلنا على نحو ثلاثمائة اسم.

حان وقت اتخاذ القرار السياسي. إكتشفتُ أنه لم يكن كافياً أن يكون الشخص مؤهلاً من الناحية الفنّية ليُشارك. فالقرار النهائي بقبول (س) أو (ص) كان قراراً سياسياً. كان أبو علاء هو الذي تفحّص القائمة - لا أدري إن عُرضت على شخص آخر أعلى رتبة منه - فكان يقول:

- لا يمكن نقبل هذا الشخص، لأنه مُقرّب من الجبهة الشعبية. وكان جوابي:

- إذاً، لا يمكن نقبل هذا الشخص لأنه مُقرَّب من فتح. هذا مش برلمان، هذي مسؤولية فكرية. لا بد من اختيار أشخاص بيعرفوا اقتصاد، وعندهم خبرة، واستقامة فكرية وكفاءة مهنية.

في نهاية المطاف، استقرَّ الأمر على اختيار مائة وعشرين اسماً من الثلاثمائة إسم. فأعدَدتُ رسالة تعريف بفكرة الخطة. كانت الصفحات الخمس الأولى من المذكرة مُكررة لجميع الأشخاص. فإذا طلبتُ من أحدهم أن يكتب في السياحة، فإن باقي الرسالة مكرّس للسياحة. وإذا كان الموضوع عن الصناعة، فباقي الرسالة عن الصناعة. كانت الرسالة تتألف من إحدى عشرة صفحة، خمس منها للجميع، والجزء الباقي لكلٍّ منهُم على حدة.

استغرق ذلك ثلاثة أو أربعة أشهر؛ إعداد القائمة والرسائل؛ ومضت ثمانية أشهر بعد استلام الرسائل في الداخل [في فلسطين] حتى وصل المشروع الخاص بالقطاع الأول. وهذا هو سبب استهلاك الكثير من الوقت. توقعت أن العملية سوف تستغرق بين سنتين وسنتين وثُلث السنة، لكنها استغرقت ثلاث سنوات. كان أبو علاء ممتازاً طوال المُدّة، لم يتدخل في أي مشروع حول أيّ قطاع من القطاعات. وفي الواقع اطّلعَ على عدد من برامج المشاريع التي أردتُ أن أطلعَهُ عليها بوجه خاص، إما لأنها كانت ضعيفة جداً أو لأنها كانت جيدة جداً. كان يجب أن أناقش معه الفرضيات الأساسية للبرنامج والتي قُسّمت إلى أربع فئات: الأولى، فرضيات سياسية - كيف نبرّر الحديث عن

برنامج لتنمية الضفة الغربية وقطاع غزة؟ كان ذلك على أساس فهم معيّن للحُكم الذاتي، لأن اجتماعات مدريد كانت تُعقد في ذلك الوقت، وكان هناك حديث يجري مفادُهُ أن كل ما يمكن أن نحصل عليه هو حكمٌ ذاتيّ. كانت الفِرق في الداخل تُعِدّ تصوراتها للحكم الذاتي فيما يتعلق بالقوانين، والأرض، والمياه وغيرها. فشرحتُ قضيتنا بشأن الحكم الذاتي - القضية القانونية، قضية الحقوق الطبيعية - إذا لم نكن سنحصل على الاستقلال مباشرة.

وهناك الفرضيات الديموغرافية السكانية - ما هو عدد السكان الذي نتحدث عنه؟ كم من النازحين في سنة ١٩٦٧ سيُسمح لهم بالعودة؟ كان علينا أن نضع الفرضيات هنا. افترضتُ عودة ربع مليون من النازحين. انتقدني نبيل شعث حول هذا الموضوع، بقوله إنه ليس من الوطنية أن أقترح عودة ربع مليون فقط، وفي رأيه، يجب عودة المليون. ولكننا كنا ننظر في مسألة النازحين من غزة والضفة الغربية سنة ١٩٦٧. أما لاجئو ١٩٤٨ فيجب أن ينتظروا حتى تحدث تطورات أخرى تجعل عودتهم ممكنة. أجبته بأن ما أقوله هو أن تكلفة عودة ربع مليون، أو نصف مليون أو مليون من النازحين تتفاوت. وهناك فرضيّة حول المناطق - أيّ المناطق يجب تغطيتها؟ افترضنا بالطبع أنها تشمل كل الضفة الغربية وقطاع غزة - والحِمّة!

من خلال الدراسة التي أجريتُها حول الدعائم الاقتصادية للدولة، أحسست بأن الفلسطينيين يملكون الموارد البشرية اللازمة، والمُدَرّبة والمؤهّلة لإدارة اقتصاد يتميز بالكفاءة. ولكن ثبت خطأ ذلك بسبب الطريقة التي تطوّرت بها اتفاقية أوسلو، غير أن الأساسيات البشرية والمادية كانت موجودة. كان هناك ما يكفي من الأرض - هذا إذا عادت إلينا الأرض والمياه. وما كان ينطوي على إشكالية هو تمويل البرنامج. في اجتماع رجال الأعمال، أتذكر أنني استدرتُ نحو عرفات الذي كان يرأس الاجتماع وقلت له: «سيادة الرئيس، أريد أن أؤكد لك أن جميع الدعائم الاقتصادية متوفرة - باستثناء التمويل. سيكون عليك الاهتمام بذلك.» وما جرى هو العكس - كانت الأموال متوفّرة، ولكن الموارد البشرية لم يتمّ استثمارُها على النّحو المُناسب.

بدأَت الدراسات ترِدُ إلينا، ووجدنا، بصورة عامة، أن الدراسات القادمة من الداخل دون مستوى توقعاتنا بكثير. حين يكون أحدهم حائزاً شهادة دكتوراه، وهو أستاذ مساعد في جامعة، فإنك تتوقع مستوى معيناً من الكفاءة. لم ترقَ عدةُ أوراق إلى المستوى المطلوب. مَنحنا الباحثين وقتاً وفيراً، وصلَت أول ورقة بعد ثمانية أشهر من استلام التكليف. وعند الانتهاء من إعدادها، كانت تصلنا بسرعة - كان هناك دائماً مَن يأتي إلى تونس من الداخل. صحيح أننا لم نكن نستطيع أن نتحدث معهم كلَّ يوم عمّا يجب أن تسير عليه الأمور، ولكني كنت أتصل بهم كتابةً. قابلت بعضهم في مؤتمرات، واستطعت مناقشة نقاط

معينة معهم. جاء محمود عبد الفضيل(٣٤) من مصر وأعاد كتابة عدد من الأوراق. كان هناك خمسة وستون شخصاً من الداخل يقدّمون المساعدة وستّةٌ وعشرون من الخارج. ومن بين الأشخاص الستة والعشرين، كان أربعة غير فلسطينيين، ثلاثةٌ منهم مصريون، وتونسيٌّ واحد.

كان أبو علاء هو الحكَم الرئيسي. اعتمد عليّ في قراءة كل ورقة. قرأتها كلها - المياه، الهجرة، اللاجئون - والورقة الوحيدة التي لم أقرأها كانت عن الأمن. أُعدَّت الورقة الخاصة بموضوع المياه في الداخل، وكانت ضعيفة جداً لدرجة أنني قمت بإعادة كتابتها بنفسي. كانت تلك فترة صعبة جداً، ووظيفة صعبة جداً تتضمن عملاً كثيراً، كنت أعمل حتى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساءً كل ليلة. كان ذلك عندما بدأتُ أحسُّ بضغط في رأسي. وحين كنت ذاهباً أنا وأبو علاء إلى اجتماع في باريس لمقابلة وكيل وزارة الشؤون السياسية، قال لي: «لازم تروح تعمل كشف طبي كامل في المستشفى الأميركي. عندهم خدمات ممتازة. خلّيك بقدر ما يلزم الأمر». ذهبت، ولم يجدوا أيّ علّة في رأسي. كان السبب ضغط العمل الزائد.

المحادثات متعددة الأطراف

انتهيت من إعداد الخطة في صيف سنة ١٩٩٣، وأرسلتها من أكسفورد بالبريد الخاص إلى تونس للطباعة. ولكن أثناء تلك الفترة لم يكن عملي مقتصراً على الخطة. فقد بدأت المحادثات متعددة الأطراف وفقاً للإجراءات المقررة في مؤتمر مدريد(٣٥). في أيار/مايو ١٩٩٢، كان هناك خمس مجموعات عمل، وطُلب مني أن أرأس مجموعة العمل الخاصة بالتنمية الاقتصادية والتعاون. ورأسَ إيلي صنبر مجموعة العمل الخاصة بقضية اللاجئين. قال الإسرائيليون فوراً ومنذ البداية إنهم لن يحضروا إذا كنت أنا رئيس الوفد الفلسطيني. وقفَ أبو علاء إلى جانبي، وطلب من عرفات اتخاذ قرار بإيفادي رئيساً للوفد سواء حضر الإسرائيليون أم لم يحضروا. ولم يحضروا. كان الاجتماع في بروكسل، وهو الاجتماع الأول.

قاطع الإسرائيليون أول مؤتمر حول اللاجئين أيضاً. وكانت ذريعتهم أننا، صنبر وأنا، كنا عضوين في المجلس الوطني الفلسطيني. ثم قال الإسرائيليون: يمكنكم إبقاء يوسف صايغ طالما أنه سيبقى في الفندق، ويجتمع مع أعضاء الوفد، ولكن دون أن يحضر الاجتماعات. أبقت منظمة التحرير اسمي رئيساً للوفد، ولكنها أعلنت أنني لن أحضر لأنني مُتوعك. غضبتُ لذلك، لأنني كنت هناك في باريس وبصحّة ممتازة. عيّنوا زين مياسي بدلاً مني. وكان تعيينه كارثة. وأسوأ ما فعلَهُ كان عندما سألهُ الصحافيون: «كيف ترى حركة المحادثات المتعددة والمحادثات الثنائية؟ هل هناك أي رابط بينهما؟» فقال:

«لأ، هما شيئان منفصلان». وطوال الاجتماع الأول، كنت أقول إن هذين الخطّين المتوازيين يجب أن يلتقيا. لا بدّ من تحقيق نجاح في المحادثات الثنائية ليكون للمحادثات المتعددة معنى. لا تستطيع أن تعقد اتفاقيات اقتصادية بين حكومات في حالة حرب، لا بدّ من الوصول إلى نوع من التسوية أولاً.

بدأتُ العرض الذي قدمتُه في المؤتمر بالقول: «إن هناك أربعة مبادىء. الأول هو سلام مقبول للطرفين. هذا هو الحصان الذي سيَجُرّ العربة، ويجب أن يسبق أي فكرة للتعاون. المبدأ الثاني، هو أن التعاون يتطلّب الأخذ والعطاء، ولكن الفلسطينيين ليسوا في وضع يمكّنهم من إعطاء أي شيء لأنّ اقتصادنا مُتخلّف على نحو مُريع، يجب أن تعاد إلينا أرضنا ومياهنا قبل أن نبدأ التعاون. والثالث هو أنه يجب أن نتفق على معنى التعاون. يجب أن يكون التعاون ندّياً وطوعياً، فهو ليس شيئاً يفرضه طرفٌ منتصر على الطرف الآخر. لا أستطيع تذكّر المبدأ الرابع الآن. الفكرة هي أن هذا كان عكس الخط الذي تبنّته منظمة التحرير في ذلك الوقت. فقد حدث هذا قبل أوسلو، لكن عرفات كان يُعِدّ نفسه لمقاربة أخرى. ووفقاً للكتاب الذي وضعه أبو مازن، كانوا يقيمون اتصالات خلف الكواليس من خلال ما يُسمى بعض الأكاديميين الإسرائيليين(٣٦). ولقيَت ورقتي في اجتماع بروكسل قبولاً حسناً جداً.

عُقد الاجتماع الثاني في روما. ذهبتُ إليه لكنني لم أحضر المناقشات. بقيت هناك، وكانوا يأتون ويخبرونني أن الإسرائيليين أثاروا هذه المسألة أو تلك، وكنت أقدّم المشورة حول ما يجب أن يفعلوا. وقعَت حادثة مثيرة للاهتمام قبل بداية الاجتماع الثاني. كان رئيس الوفد الأميركي في كل الاجتماعات امرأة متخصصة في الاقتصاد. بدَت غير سعيدة بالعرض الذي قدمتُهُ، ودخلنا في جدال. كان رئيس الاجتماع من البرتغال، لأن البرتغال كانت رئيسة الاتحاد الأوروبي في ذلك الوقت. وأثناء استراحة الغداء، جاء ووضع يده في يدي وقال: «تفضل واجلس إلى طاولتي». كان هناك عشرة أشخاص لكل طاولة. وكان هناك شاب ذكيّ جداً من عُمان يثير الإعجاب، يجلس على الطاولة نفسها، وآخرون. وكان هناك كرسيّان خاليان.

دخلَت إلى قاعة الطعام رئيسة الوفد الأميركي. جاءت إلى طاولة الرئيس وقالت: «تسمحوا لي أجلس معكم؟». واتخذت كرسياً خالياً. ولكي تبدأ الحديث، استدارت نحو الشخص الجالس إلى جوارها، وهو ذلك الشاب العُماني. كانت لغته الإنكليزية ممتازة. عندما سمِعَته يتكلم، سألته أين درَس اللغة الإنكليزية. ثم نظرَت إليّ وسألتني: أين درَست دكتور صايغ؟ قلت لها: «في جامعة جون هوبكنز». وفجأة، ابتسم ذلك الوجه المتجهّم، ثمّ قالت: «أنا خرّيجة جامعة جون هوبكنز - وزوجي يُعلِّم هناك حالياً». قلت: «شهادتك في

الاقتصاد السياسي، أليس كذلك؟». قالت: «نعم»، فقلت: «لماذا تجادلين إذن داخل الاجتماع بأن من الواجب فصل الاقتصاد عن السياسة؟». ضحكت وقالت: «كان ذلك في الداخل».

في اليوم الذي سبقَ الاجتماع، تلقّى وفدنا دعوة لتناول الشاي. قال أبو علاء - الذي كان يحضر مثل هذه الاجتماعات لأن عليه أن يُطلع عرفات دائماً على ما كان يجري - إن دعوة جاءت من رئيسة الوفد الأميركي - وقد نسيتُ اسمها الآن. وقالت له: «أرجوك أن تتأكد من قدوم الدكتور صايغ أيضاً». ذهبتُ إلى حفل الشاي لأنني أردت مواجهتها. وبعد تناول الشاي، قالت: «هل يمكنني أن أتحدث على انفراد معك ومع السيد ميّاسي؟». دخلنا، وقلت لها: «أفهم أنك أيدت الفيتو الإسرائيلي ضدي؟». قالت: «نعم، قالوا إنهم لن يحضروا إذا كان شخص من المجلس الوطني الفلسطيني يشارك في الوفد حتى كعضو». فقلت لها: «ولكن السيد ميّاسي عضو في المجلس فلماذا تمّ قبوله؟ مع احترامي للسيد ميّاسي، فإنه يدرك أن هناك شيئاً غير منطقي هنا». فقالت: «لست أنا مَن اتخذ هذا القرار».

أقيمَ حفل عشاء في ذلك المساء نفسه على شرف الوفود المشاركة - كانوا يمثلون أربعين حكومة، بالإضافة إلى الفلسطينيين والإسرائيليين. وللمرّة الثانية، أجلسني المضيف البرتغالي إلى يمينه. وجلست رئيسة الوفد الأميركي إلى يساره، وكان [رئيس الوفد] الإسرائيلي يجلس قبالتنا. استدار البرتغالي نحوي وقال هامساً: «أنا آسف لأنك لست رئيس الوفد الفلسطيني، ولكننا لم نستطع فعل أي شيء. فقد أصرَّ الأميركيون، والإسرائيليون أيضاً، على موقفهم - كما رفضوا حتى أن تكون عضواً في الوفد». وقال إن ذلك كان بناءً على أوامر عليا من إسرائيل. ويقول أبو مازن في كتابه «عبر القنوات السرية» إن رابين لم يكن يريد تسميتي أنا ولا الياس صنبر لرئاسة الوفد. ولفهم السبب، يجب أن نعرف ماذا كان يجري حقيقةً في المحادثات متعددة الأطراف. سياسياً، كان الغرض الرئيسي هو تقديم كعكة اقتصادية تُغري العرب بحيث يقدّمون تنازلات سياسية. استطعت أن أدرك ذلك. ولهذا كانت ورقتي تُعارض ذلك الخط. وقلت في العشاء لرئيسة الوفد الأميركي: «أعرف أن إخراجي من الوفد يعود إلى أن وفدكم لم يعجبه تقرير الموقف الذي قدمتُه». عندما خرجنا، فهم زين ميّاسي مغزى ملاحظتي وقال:

- وانا حمار يعني؟ فقلت:

- لأ، مش حمار، لكن خطّك السياسي مختلف.

على الرغم من أن ورقتي لم تعبِّر عن الخط السياسي لمنظمة التحرير، إلا أنها بدَت كورقة تعبّر عن موقف الوفد الفلسطيني. قدَّمتها في الجلسة

الأولى. أردتُ الدعم من الوفود العربية لموقفي وهو أنه من السابق لأوانه الحديث عن التعاون الاقتصادي قبل التوصل إلى تسوية سياسية. نجحتُ في ذلك مع الوفد الأردني، بعد مناقشة جرَت وجهاً لوجه. كان رئيس الوفد الأردني فايز الطراونة، سفير الأردن لدى واشنطن حالياً، فهمَ وجهة نظري وسألني: «شو بدّك أقول؟». قلت: «قول مع أن التعاون أمر أساسي إلا أنه سابق لأوانه. هذا كل ما أريده منك». قال ذلك، وتلقّى نظرةً عدائية من رئيسة الوفد الأميركي.

ولكن الانقلاب حدثَ على أيدي المصريين. أقمتُ صداقة مع رئيسة الوفد المصري، وهي امرأة قديرة جداً، وأظن أنها سفيرة مصر لدى اليابان حالياً، قلت لها: «من المخجل أن تتحدث الوفود العربية بأصوات مختلفة. وإحنا بحاجة إلك، يا مصر، أختنا الكبيرة، وقائدتنا. مش لازم يكون في بيننا تنسيق؟» قالت: «نعم، لمَ لا تدعونا جميعاً إلى اجتماع؟». قلت: «لا، إنت ادعينا إلى اجتماع». كانت سعيدة بتلك الفكرة، وقامت بدعوتنا. قلت لها: «دَعينا، أنت وأنا، نتوصل إلى تفاهم. هل تعتقدين فعلاً أن هناك معنى للحديث عن التعاون، في الوقت الذي لا يوجد فيه اتفاق سلام إلا بين دولتك وإسرائيل، دون الدول العربية الأخرى؟ هل يمكن أن تقولي إن التعاون سابق لأوانه؟» قالت: «نعم ممكن أقول». ويبدو أن القاهرة منحتها شيئاً من حرية الحركة.

جاء الدعم غير المتوقَّع من مندوب السعودية الذي جاء متأخراً إلى الاجتماع. أيّدني تأييداً تاماً في مداخلته، وظلّ يكرر الإشارة إلى العرض الذي قدّمتُه. لم يكن ذلك مستغرباً جداً. فحتى الآن يقول السعوديون إنه لن تكون لهم علاقة مع إسرائيل إلى أن تتحقق تسوية مقبولة. بعد الاجتماع، ذهبت لأقدّم له الشكر، فقال: «لا تشكرني، أشكر أخاك الراحل فايز. عرفته معرفة جيدة في أميركا. لا يُمكن أقول أيّ شيء يُخالف ضميري. كنت سأرفض حضور الاجتماع لو طُلب مني أن أقول أيّ شيء آخر، ولكن ما قلته يتفق تماماً مع موقف حكومتي».

كان على الأميركيين أن يُظهروا نتائج لعملهم، فاقترحوا تشكيل لجان فرعية لبحث مجالات «التعاون» عندما يحين الوقت. تدخلتُ وقلت: «سيادة الرئيس، ألا تعتقد أن ذلك استباق للأحداث؟ نحن ما زلنا بعيدين جداً عن التسوية. دعونا نركز على المبادىء، دعونا نحدد المصطلحات، ماذا نعني بكلمة تعاون؟». استمرّ الاجتماع على ذلك النحو، لأن المحادثات الثنائية في واشنطن كانت مُتوقفة. لم يكن الأميركيون سعداء إزائي - لا شكّ في أنّ كل شيء كان يُنقل إليهم عبر التقارير.

كل ما كنت أستطيع فعلَهُ منذ تلك اللحظة هو أن أعدّ أوراق العمل لوفدنا، للوفد الثاني والثالث. عُقد الاجتماع الرابع بعد اتفاق أوسلو، وأُزيلَ الاعتراض،

«الفيتو» ضدي. رأستُ الوفد مرةً ثانية، لكنني اتخذتُ نفس الموقف السابق. لم أردِّد الكلمات ذاتها، ولكن عندما وصلوا إلى بحث «التعاون» واصلتُ الاعتراض. الاتحاد الأوروبي الذي كانت له الرئاسة في تلك المحادثات المتعددة - كتنازل من الأميركيين للأوروبيين - خرج بوثيقة تحتوي على ثلاثين أو أربعين مشروعاً يمكن للفلسطينيين والإسرائيليين الدخول فيها معاً - إضافة إلى بعض العرب - عندما تتحقق التسوية. كان جاكوب فرانكل، حاكم المصرف المركزي الإسرائيلي هو رئيس الوفد الإسرائيلي في ذلك الاجتماع. أردتُّ الردّ على هذا الاقتراح، فخاطبته قائلاً: «هل يبدو لك أي معنى اقتصادي يا دكتور فرانكل في أن نتحدث عن مشاريع محدّدة الآن؟ نحن لا نعرف كم من المال سيتوفّر عندما تتحقق التسوية. نحن لا نعرف من يدخل في التسوية ومن لا يدخل. أليس ذلك مُبكّراً جداً؟». فقال: «أتفق معك ولكن - طبعاً كان هناك «ولكن» - دعنا نفترض أن هناك تسوية مقبولة، ونتحدث عن مجالات التعاون، وليس عن مشروعات معيّنة بذاتها. على الأقل دعنا نتفق مع الأوروبيين الذين يريدون أن يقتسموا هذه المشاريع فيما بينهم». لم يكن باستطاعتي القيام بأكثر من تمييع المسألة. كانت تلك آخر جلسة حضرتُها. وقد عُقدت في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣ في الدانمارك.

المفاوضات مع البنك الدولي

بعد أوسلو، قال لي أبو علاء: «هذا هو الوقت اللي إحنا محتاجينك فيه، حتى أكثر من أوَّل. إنت بتقول إنه تقديرات البنك الدولي غير كافية أبداً للبنية التحتية للقطاع العام». - كانت ٣ بلايين دولار على مدى عشر سنوات. وفي برنامجنا الذي استكملناه في تموز/يوليو ١٩٩٣، وصلتُ إلى خلاصة مفادُها أننا بحاجة إلى ٤,٦ بليون دولار على مدى سبع سنوات. أضاف أبو علاء: «مين بيقدر يناقش القضية غيرك؟». حصلَ على رسالة من عرفات مُوجّهة إلى الاجتماع القادم في واشنطن، في ٢٠ أيلول/سبتمبر، بعد سبعة أيام من توقيع اتفاقية أوسلو، تفيد بأن أرأس وفداً مكوناً من ثلاثة أشخاص، مع سمير عبدالله ومحمد شتيّة. حضر الاثنان لمدة يوم واحد ثم اختفى كلاهما. كنت أكافح للحصول على ٥ بلايين دولار على مدى عشر سنوات. حضرت أربعون دولة ولكن لم يقل أحد شيئاً، كان النقاش بيني وبين مدير البعثة في البنك الدولي، الذي رأسَ البعثة سابقاً إلى فلسطين. ذهبَت خمسُ بعثات من البنك الدولي لمسح الوضع والنظر في احتياجات الشعب الفلسطيني.

كان رئيس الاجتماع من الهند، وهو الثاني في التسلسل القيادي بعد كايو كوتش - ويسر، نائب رئيس البنك الدولي. رأيتهُ يكتب شيئاً. جاء إليّ في الاجتماع الأخير في اليوم الثاني وقال: «هل يمكن أن تقبل هذه الصيغة، بحيث نتوصل إلى نتيجة؟». كانت الصيغة تنُص على ما يلي: «بعدَ النظر بعناية في

احتياجات الفلسطينيين، وفي ضوء النتائج التي ذكَرها برنامج التنمية الذي أعدَّته منظمة التحرير الفلسطينية، فإن قيمة المبلغ ستُرفع من ٣ بلايين دولار إلى ٤,٨ بليون دولار على مدى عشر سنوات. ولتغطية نصف هذا المبلغ، فإن حكومة الولايات المتحدة ستطلب تعهّدات من المشاركين في الاجتماع الذي سيُعقد بعد أيام في واشنطن، على أساس توفير ٢,٤ بليون دولار على مدى خمس سنوات». سُررت بهذه النتائج. لم يفتح الإسرائيليون أفواههم في الاجتماع، شعروا أن هذه قضية بين الفلسطينيين والبنك الدولي، فليلعبوا اللعبة فيما بينهم. وعلى الفور، أصبح الأمر معروفاً في الخارج. كان هناك طوفان من المكالمات الهاتفية. طلبوا مني التحدث إلى التلفزيون والإذاعة، ولكن لم يكن لديّ وقت.

وهنا برزت مشكلة بين الأميركيين والأوروبيين. مَن منهم سوف يرأس لجنة الاتصال؟. بما أن الدول المانحة لن تكون جميعها قادرة على حضور كل الاجتماعات، فقد كان من المقرر تشكيل لجنة للاتصال تتكوّن من خمسة أو ستة مانحين رئيسيين - أوروبا وأميركا وبعض الدول الأخرى. وذاتَ يوم، اتّصل بي السكرتير الأول في السفارة البلجيكية وقال: «متى يمكن أن نلتقي معاً؟». اتفقنا على وقت مُحدّد، فجاء وقال: «نحن في أوروبا متحمسون لرئاسة لجنة الاتصال هذه لأننا تعهدنا بتقديم ٦٠٠ مليون دولار مقابل ٥٠٠ مليون دولارات عهّدت بها أميركا. لا نفهم لماذا يجب أن ترأس أميركا اللجنة. قلت له: «لا أعتقد أنه من العدل أن تطلبوا منا نحن الفلسطينيين الذين ليست لنا حتى دولة، أن ننحاز إلى أيّ طرف في هذه المسألة، ونلحق الضرر بعلاقاتنا مع أي منكما». تقبلَ ذلك، واتصلَ بي لاحقاً وقال: «تمّ التوصل إلى صيغة نتبادل بموجبها رئاسة اللجنة. لا تقلق بشأن الدور الفلسطيني في هذا الشأن».

بعد يومين من اجتماع البنك الدولي الذي تمّ فيه بحث مسألة الأموال، اتصلوا بي وطلبوا نسخة من البرنامج، وأعدّوا ثلاثمائة وخمسين نسخة. قالوا إنهم يريدون أن ألقي محاضرة عن البرنامج لهيئة العاملين في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي المعنيين بشؤون الشرق الأوسط. وحصل كل شخص على نسخة من البرنامج، كان عنوانه البرنامج الاقتصادي الفلسطيني. تحدثتُ في عدد من المقابلات القصيرة، لكنني كنت بالفعل قد وصلت إلى درجة الارتجاف من شدة التعب والتوتر. كنتُ هناك وحدي.

اتصل بي أبو عمار بعد ذلك وقال:

- إحنا فخورين بيك، إنت عِزنا وتاج راسنا. إنت جبت لنا بليون و٨٠٠ مليون دولار أكثر مما كان البنك الدولي ناوي يدفع. قلت:

- مش أنا، الفضل راجع لقبول البرنامج.

لم يكن قد قرأ البرنامج على الإطلاق، رغم أنني أرسلته إليه. وكان ذلك لؤماً من جانب «أبو علاء» - فقد كنت أعتقد أننا سنذهب معاً لمقابلة عرفات ونأخذ معنا البرنامج، لكنه أخذه بنفسه ليستأثر بالفضل(٣٧).

اغتنمتُ هذه الفرصة لأخبرَ عرفات أنه: «سيتمّ عقد اجتماعين لتقديم التعهدات من قبل الدول المانحة» - الدول التي شاركت في الاجتماعات أشارت إلى رغبتها في التعهد، وكان عددها بين خمس وثلاثين إلى أربعين دولة تقريباً، وبعضها لم يكن قد أتى بعد - وقلت: «الاجتماع الأول يُعقد في ٢٨ أيلول/سبتمبر، وأنا ممكن أتولى أمره. ولكن في ١ تشرين الأول/أكتوبر، يُعقد اجتماع برئاسة إما كلينتون أو آل غور، وجميع المشاركين الرسميين فيه على مستوى وزراء، باستثنائي. أريد أن يحضر عضو من اللجنة التنفيذية». فقال: «لا، لا ما بدنا أيّ شخص آخر. مين بيمَثلنا أحسن منك؟». قلت: «هذي مسألة رسميّات - بروتوكول. وأنا رايح أكون موجود هناك إذا بدّك أحكي عن شيء معيَّن». قال: «إنتَ بتكَفّي».

ذهبتُ إلى اجتماع التعهّدات. قبلَ ذلك كنت قد عقدتُ اجتماعين مع وزارة الخارجية، واستغرق كل اجتماع ٣ ساعات، مع دنيس روس(٣٨)، كورتزر، وميللر(٣٩) - لم يكن [مارتن] إنديك موجوداً هناك - وذلك لمناقشة المشاكل الاقتصادية في فلسطين كما أراها. أخذوا نسخة من البرنامج وأعدّوا نسخاً عنها للدول المانحة التي ستحضر الاجتماع النهائي. كان رئيس الاجتماع جوان سبيرو(٤٠)، والذي كان وكيل وزارة الخارجية للشؤون الاقتصادية، قدَّمني وقال: «نعطي الكلمة الأولى للدكتور صايغ. أرجو أن تحدّثنا عن البرنامج. لم يكن لدينا جميعاً وقت لقراءته». قلت: «هذا اجتماع للتعهدات. علينا نحن [الفلسطينيين] أن نتعهد باستعمال الأموال بطريقة مفيدة، ومثمرة» - وكل ما قلتُه آنذاك تمّ عكسُه فيما بعد.

بعد ذلك وفي ٢٩ أيلول/سبتمبر، حوالي الساعة التاسعة مساء، رنّ جرس الهاتف، وكان نبيل شعث على الطرف الآخر يقول: «جينا بسبب الضغط اللّي مارسته على أبو عمار - رغم أنه ما حدا بقدَر يضغط على أبو عمار. حضرَ نبيل شعث وياسر عبد ربّه(٤١) للمشاركة في الاجتماع. أخبرتهما بما جرى حتى تلك اللحظة، وماذا ينبغي أن يقولا وما لا ينبغي، وأشرت عليهما بأن لا يذكُرا شيئاً عن النزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي حول رئاسة لجنة الاتصال. قلت لهما إن الأميركيين، خصوصاً وكيل وزارة الخزانة، لاري سَمَرز، حاولوا إقناعي بأن أنحاز إلى الجانب الأميركي. إذ قال لي: «أنا واثق أنك تدعم رئاستنا للجنة الاتصال لأننا رفعنا مساعدتنا من ١٠٠ مليون دولار إلى ٥٠٠ مليون دولار». فأجبته: «رفعتوها من ١٠٠ مليون في السنة إلى ٥٠٠

مليون على مدى خمس سنوات. نحن، الفلسطينيين، قد لا نكون متقدّمين في العلوم كثيراً ولكننا نعرف الحساب. الأوروبيون يعرضون ٦٠٠ مليون دولار في ٥ سنوات». احمرّ وجهه، وغيّر الموضوع.

قلت لهما [نبيل وياسر] إن هذا الجدَل استمرّ طيلةَ الأسبوع الماضي، وكيف جاء السكرتير الأول في السفارة البلجيكية لمقابلتي في الفندق ليحملَنا على التصويت لصالح رئاسة أوروبا للجنة الاتصال، وكيف طلبتُ منه أن يبعدنا عن ذلك، فنحن أصغر من أن نتصدّى لصراع مع أيٍّ من الطرفين، وكيف أنه قبِلَ بهذه الصيغة. قلتُ لهما: «أرجو عدم ذكر هذا في الاجتماع. لكل وفد مدة دقيقتين للحديث، لمُجرد أن يقول «نحن نتعهّد بكذا وكذا»، وكمعروف خاص أعطي الوفد الفلسطيني ستّ دقائق. ما بدنا نضيعها على مسائل لا علاقة لها بالموضوع».

وأضفت:

- ما بدهُم أيّ حدا يحكي في السياسة. الأمر الأساسي بالنسبة إلنا هو الإشارة إلى احتياجاتنا، وكيف ناويين نلبّيها، من خلال أية مؤسسات وعمليات.

وعلى الفور، قال ياسر عبد ربه:

- «لا، لا أقبل. إحنا بدنا نحكي في السياسة». قلت:

- إذا أردت. ولكن لا يبقى وقت للأمور الثانية اللي جيتوا لأجلها، خصوصاً عندما نتكلم إحنا الفلسطينيين في السياسة، بنضيّع عادةً نُص ساعة في المقدمة. قال:

- لا، لا أنا بدي أتحدث عن القدس، والأربعمائة فلسطيني المبعدين إلى «مرج الزهور»(٤٢) - كانوا آنذاك في لبنان. قلت:

- أنا لا أنصح بذلك، ما في وقت لهذا الحديث. قال:

- على أية حال، حضّرنا ورقة، وهذي هي. وبكون ممنونك لو تقراها وتراجعها وتقترح التعديلات والتغييرات. قلت:

- الاجتماع بكرة الصبح - كانت محادثتنا صباح ٣٠ أيلول/ سبتمبر لا أظن أنه عندكم وقت لإعداد ورقة جديدة. الأسهل أن نحذف بعض الأمور لأن الورقة طويلة جداً.

أخذتُ الورقة، ثم قلت:

- ما دام معنا ست دقائق فقط، بدّي نفكر كيف نوزّع الوقت. أفتَرض إنكم رايحين تقولوا شيء. لكن أنا بدّي دقيقتين. عِشت كل هذي العملية خلال ١٢

يوم قضيتها في واشنطن، وكانت لي مناقشات مهمة مع كثير من الأشخاص، وأظن أني بعرف كيف أخاطبهم وكيف أبرّر زيادة تعهدات الميزانية. قال نبيل:

- لا يا يوسف، أنا وانت لن نتكلم. ياسر هو اللي رايح يقول كل شيء. إحنا جينا كوزيرين، أنا كوزير مالية، وياسر كوزير للشؤون الخارجية. قلت:

- هذي مفاجأة. إنت مش عضو لجنة تنفيذية، لذلك ما بتقدر تدّعي إنك في منصب وزاري، إلا إذا عُيّنت من قبل اللجنة التنفيذية.

- أنا لم أعيَّن ولكني وزير. فقلت:

- وزارة المالية في يد محمد النشاشيبي، فإذا كان وزير المالية هو اللي لازم ييجي، يبقى لازم يكون محمد النشاشيبي. وبالنسبة للشؤون الخارجية، وزير الشؤون الخارجية فاروق قدومي هو حالياً في الأمم المتحدة في نيويورك. وياسر وزير الإعلام. قال نبيل:

- كل هذا مش مُهم. إحنا هون بهذي الصفة. قلت:

- طيّب، إذا بدكُم إنتو اللي تحكوا، أنا مش رايح أقعد مثل «مندوب اليمن» —

[كان] يقال ذلك عن أي شخص يحضر اجتماعاً ولا يتكلّم: «هيدا مندوب اليمن»، لأن مندوب اليمن لا يقول شيئاً في اجتماعات جامعة الدول العربية.

قال نبيل:

- لا، لا، إنت بتحضر لأنك عضو في الوفد. أنا عندي رسالة من أبو عمار، بروح أجيبها من غرفتي. قلت:

- أنا مصدقك يا نبيل لما تقول إني عضو من الأعضاء الثلاثة. لكن ما في حَدَا بيجبرني على الحضور. أنا متعاقد للقيام بعمل ثاني ليس له علاقة بهذي الاجتماعات. هذه أمور إضافية بعملها. ولحسن الحظ، في هذي الأمور الإضافية، حصلت لفلسطين على بليون وثمانمائة مليون دولار أكثر مما قدّر البنك الدولي في بداية الأمر. إذا كنتوا شاعرين إني غير مُخوّل بالحديث، مش رايح أحضر. قال:

- ليش ما تحضر، إكتب اللي بدّك ايّاه، وبيقوله ياسر في كلمته. قلت:

- أنا مش كاتب خطابات عند ياسر. قال نبيل:

- ولكن يا يوسف لما يلقي رئيس وزراء أو رئيس دولة كلمة، بتفكِّر إنه كتبها بنفسه؟ شوف الخطاب الأخير للرئيس كلينتون، بالتأكيد مش هو اللي كتب الخطاب. قلت:

- بيكون الرئيس كلينتون عرض وظيفة كاتب خطابات على شخص ما والشخص قبل الوظيفة. هذي الوظيفة لم تُعرَض عليّ، وأنا لا أقبلها.

عند هذا الحدّ، احمرّ وجه ياسر عبد ربّه وجحظت عيناه أكثر مما هما جاحظتان أصلاً، وقال:

- أنا ما بسمح بِبَحث الموضوع. قلت له:

- أنا بناقش الأمور مع «أبو عمار» أو مع أشخاص أهمّ من «أبو عمار». ولا أتنازل عن حقي في النقاش. ما بتسمَح؟ هذا موقف سُلطوي. نظرَ إليّ وأشار بالسبّابة في وجهي مباشرة وقال:

- نعم، لأنّه أنا السلطة.

قلت لهما: ما دام إنتو الاثنين بهذي الأهمّية، شو بعمل أنا هون؟

نهضت لأغادر الاجتماع. قالا:

- لا، لا، بتكون هون بكرة. فقلت:

- لا، لا مش رح أكون هون بكرة، أنا طالع عالطيارة.

خرجتُ على الفور واتخذت الترتيبات لتغيير الحجز. وبدلاً من الذهاب إلى تونس، قررت الذهاب إلى القاهرة، لأنه كان هناك اجتماع قلت إني لن أتمكن من حضوره ولكني غيّرت رأيي. علمت فيما بعد أن كثيراً من أعضاء الوفود في الاجتماع سألوا أين كنت. قُبلت جميع التعهدات لأنها كانت قد حُسمَت من قبل. عُقد اجتماع يوم ٢٧ أو ٢٨ أيلول/سبتمبر، كتدريب أخير قبل الاجتماع النهائي، حيث أشار الأعضاء إلى ما تريد دولهم التعهد به. ولكن كان عليهم عقد اجتماع آخر إذْ لم يتسلّم كافة الممثلين تعليمات من حكوماتهم. قُدِّمت التعهدات النهائية في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، وهو اليوم الذي غادرت فيه.

الصراع مع عرفات حول بكدار PECDAR

عدتُ إلى تونس. قبل أن أحزم حقائبي، بدأت ببذل الجهود لتوقيع الأمر الذي أصدره عرفات بتأسيس المجلس الاقتصادي. كان المجلس الاقتصادي فكرة طوّرناها، أنطوان زحلان(٤٣) وأنا، مضينا وناقشنا تركيبة المجلس ووظائفه وتسميته. كان سيُدعى بيدرا - الوكالة الاقتصادية الفلسطينية للتنمية وإعادة الإعمار. عمِلنا حتى وقت متأخر ذات مساء، واستعار زحلان جهاز حاسوب «كمبيوتر» من مكتب هناك، وظل حتى الثانية صباحاً يضع الشكل النهائي طباعةً بالإنكليزية. أخذ أبو علاء الوثيقة إلى عرفات الذي تمعّنَ فيها ووافق

عليها شفوياَ. ما كنا نريده من عرفات هو التوقيع على تلك الوثيقة. كنتُ قد أعلنتُ عن موافقته الشفويّة للبنك الدولي وللأميركيين والاتحاد الأوروبي، وكل المشاركين الآخرين في الاجتماع عندما ألقيت محاضرة حول البرنامج الفلسطيني. وفي تونس، حاولت أن أحصل على توقيع عرفات على الوثيقة. كانت كل اتصالاتي تتمّ عن طريق «أبو علاء». لم أذهب لمقابلة عرفات بنفسي.

كان أبو علاء يأتي في كل مرة أكثرَ إحباطاً من سابقتها، لأن عرفات كان يؤجل التوقيع، ويقول إنه سيناقش الموضوع مع اللجنة التنفيذية. من الواضح، أنه كانت هناك مشاكل، وفيما بعد أدركنا، أبو علاء وأنا، أن أعضاء اللجنة التنفيذية كانوا يريدون أن يكونوا أعضاء في مجلس المديرين في بيدرا. أدركوا أن ذلك يعني المال والنفوذ. وأهمية مجلس المديرين جاءت من حقيقة أننا أوكَلنا إليه كلّ الوظائف الهامة - اختيار أولويّات التنمية، اختيار المشاريع، تخصيص الأموال، الإشراف على الأشغال - كان كل ذلك في يد مجلس المديرين. وفوق مجلس المدرين هناك مجلس استشاري يتألف من خمسين أو ستين شخصاً. والفكرة من وراء ذلك إدخال عدد كافٍ ممن اسمهم «أبو...» في المجلس - القادة، السياسيون، الشعراء، الوُجهاء وأيّ كان - لإرضائهم وإسكاتهم، لكي لا يعرقلوا عمل «بيدرا». أدخلناهم في المجلس الاستشاري الأعلى الذي يرأسه عرفات، ولكن لم تكن لهذا المجلس صلاحيّة اتخاذ القرارات. ويجتمع مرة واحدة في العام. كل الصلاحيات كانت في يد مجلس المديرين. اقترحنا عدداً من الأسماء ليكونوا في المجلس - أبو علاء، رئيساً للمجلس، وكان هذا هو إقتراحنا، ثم هناك أنطوان زحلان وابراهيم الدقاق(٤٤) وطاهر كنعان وخليل الهندي وأنا - أعتقد أننا اقترحنا سبعة أسماء وتركنا الأمر مفتوحاً أمام عرفات ليضيف أربعة أو خمسة أسماء إضافية.

استمرّت جهودنا في محاولة حمل عرفات على توقيع هذه الوثيقة حتى منتصف تشرين الأول/أكتوبر. عندها، اتصل بنا ونحن في تونس البنك الدولي ليقول إن نائب الرئيس كايو كوتش ويسر(٤٥) يريد أن يأتي، برفقة المسؤول عن قسم الشرق الأوسط، وهو هندي اسمه رام تسوبرا(٤٦) وعبد الله أبو حبيب(٤٧) الذي كان يعمل في العلاقات العامة في ذلك القسم. حُدّد يوم لاجتماع يُعقد بين عرفات وهذا الفريق، فكان ١٦ تشرين الأول/أكتوبر الساعة السادسة والنصف مساء. جاؤوا بعد ظهر ١٥ تشرين الأول/أكتوبر واتصلوا بي، وقالوا إنهم سيقومون في صباح اليوم التالي بزيارة ودّية لوزير الشؤون الخارجية التونسي. ولكنهم أرادوا التحدث معي قبل مقابلة عرفات، فطلبوا مني أن أتناول معهم طعام الغداء. ذهبت وأخبرتهم كيفية مقاربة الموضوع، وأن يؤكدوا إصرارهم على جعل عرفات يدخل في صلب الموضوع لا أن يواصل الدوران حوله. وأن يبدأوا بتهنئته علىِ اتفاقيات أوسلو. وقلت: لا

«أعتقد أن الاتفاقيات تدعو إلى تهنئته شخصياً، ولكن سيتوقع ذلك منكم». كانت لنا جلسة طويلة.

قبيل الاجتماع، علمت أن عرفات كان غاضباً. وقال: «همّ مش جايين يقابلوني، ولكن جايين زيارة عمل مع الحكومة». كان غاضباً لدرجة أنه لم يرسل سيارة لإحضارهم من الفندق. وبالطبع يمكنهم أخذ سيارة أجرة، ولكن من المعتاد أن يرسل المضيف سيارة لإحضار الضيوف. قرّرت أنني يجب أن أذهب إلى غرفة الاجتماعات وأقابله قبل أن يحضروا، بحيث لا يتم تسميم جوّ اللقاء.

دخلت وقلت له:

- سمعت إنك زعلان لأنك بتفكر إنهم جايين لهدف آخر، وإنك مُهمَّش، هذا غير صحيح. هم جايين يقابلوك، ولكن بدهم يقوموا بزيارة ودية، لا يمكن يتجاهلوها.

ظل صامتاً، وفي ذلك الوقت دخل علينا ابن أخته، ناصر القدوة(٤٨)، ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة، وكان عرفات قد طلبه. قال له عرفات:

- عايزك تحضر الاجتماع مع يوسف. ولكن إنت لابس قميص نصّ كُم، روح إلبس كرافته وجاكيت. قال ناصر:

- ما عندي كرافته ولا جاكيت.

دقَّ عرفات الجرس لأحد عمال الخدمة وقال له: «إطلع معه على الطابق بتاعي وخلّيه يختار جاكيت وكرافته». ذهب ناصر ولم يعد أبداً إلى الاجتماع، كان غاضباً من خاله «أبو عمار». وفي صباح اليوم التالي قال ناصر لي:

- شو مفكّرني ولد زغير! ليش ألبس جاكيت وربطة؟ هذول الناس عصريين، مش راح ينبهروا بجاكيت وربطة.

ذهبنا إلى الاجتماع. بدأوا بتهنئة عرفات. ثم قالوا:

- الآن تم التعهّد بتقديم الأموال، نريد أن نقول إننا سعداء جداً لأن دائرة الشؤون الاقتصادية عندكم صمّمَت شيئاً كنا نريد نحن أنفسنا أن نقترحه عليكم، ولكننا تردّدنا لأننا لم نشأ أن نظهر بمظهر من يُعلّم الآخرين ما يفعلونه. سُررنا لأن أفكارنا تتطابق مع أفكار الوثيقة التي حدّثتنا عنها يوسف صايغ. نودّ أن نهنئكم لموافقتكم عليها. والآن نريد الموافقة كتابةً.

قال عرفات:

- ستكون الموافقة كتابةً في اللحظة المناسبة.

- نأمل أن نأخذ معنا وثيقة مطبوعة وموقعة من جانبكم قبل سفرنا.

- لا، بِدها وقت. لازم أناقش الموضوع مع مؤسساتي. (كنت قد حذّرتهم من ذلك). قالوا:

- طبعا يا سيادة الرئيس، من حقك أخذ الوقت اللازم لمناقشة الوثيقة مع اللجنة التنفيذية.

- اللجنة التنفيذية، وفي مؤسّسات غيرها - قالها بمنتهى الجدّية. قالوا:

- كم يستغرق ذلك؟

- لا أستطيع أن أخبركم. عدد من الأسابيع، بلا شك.

- سيادة الرئيس، في ٤ و٥ تشرين الثاني/نوفمبر، يُعقد اجتماع في باريس لجميع المانحين، إضافة إلى البنك الدولي والفلسطينيين. لا يمكن عقد الاجتماع ما لم تكن معنا وثيقة مطبوعة في أيدينا، حول بيدرا، مطبوعة وموقعة من قبلكم، لتوزع على جميع المشاركين قبل حضورهم للاجتماع، وإلا فلن يكون هناك اجتماع. وإذا لم يعقد الاجتماع، لن يكون هناك تدفق للأموال. فقال:

- طيّب، أنا آسف، لكن بدها وقت.

قبل ذلك، عندما قالوا: «دعونا نتكلم في الأعمال»، قاطعهم عرفات قائلاً:

- أريد أن أقول لكم شيئاً: الكويت مدينة لي بمبلغ ١٠٦ ملايين دولار، والسعوية مَدينة - كان المبلغ أكبر - وهذه الأموال لي. الأموال اللي دفعها شعبي، الناس اللي بشتغلوا في السعودية والكويت، تُخصم من مرتباتهم.

استمرَّ في حديثه عن ذلك مدة، وظلّ يكرر ما يقول. وعندما سكت قليلاً لكي يتنفّس، قال كوتش ويسر:

- سيادة الرئيس، ما جئنا لهذا الغرض. فقال عرفات:

- عارف، ولكن يجب أن تخبر الأميركيين أن يضغطوا على دول الخليج هذي. فقال كوتش:

- أعتقد أن لكم تأثيراً أكبر على الحكومة الأميركية منا، لماذا لا تفعل ذلك؟ أرجوك دعنا نركّز على العمل الذي جئنا من أجله.

انتهى الاجتماع وكوتش وتشوبرا يكرّران الكلام نفسه، «سيادة الرئيس هناك ثلاثة أمور نودّ أن نوضّحها تماماً. أولاً، الأمر الأساسي هو تشكيل آلية، وهي

مؤسسة بيدرا، لتقوم بالمهام المختلفة التي ذكرناها. ثانياَ: الأموال ستأتي من المانحين مباشرة للمشاريع، لن تكون هناك أية محطات في الطريق» - كنت قد قلت لهم قبل ذلك إنه إذا كان هناك محطة توقف، فإنه يستطيع التحكم في مصير الأموال - «وثالثاً، مجلس الإدارة هو الذي يقرّر الأولويات ويُشرف على تنفيذ المشاريع، وكل عملياته يجب أن تلتزم بمبادىء الكفاءة والمساءلة والشفافية وكذلك الخضوع للتدقيق الداخلي والخارجي. لا شيء يمكن عمله من تحت الطاولة. هذه النقاط الثلاث أساسية لجعل المانحين راغبين في تقديم الأموال. فالمبلغ كبير. سيادة الرئيس، تمّ التعهد بمبلغ بليونين وأربعمائة مليون دولار على مدى خمس سنوات».

- قال عرفات: نعم، سأوقعها.

- متى؟

في نهاية الاجتماع قالوا:

سيادة الرئيس، إذا لم تعطِنا تاريخاً مُحدّداً، فمن واجبنا أن نقول لكم إن الوثيقة يجب ان تُوقَّع وتُرسَل بواسطة الفاكس لنا بنهاية تشرين الأول/أكتوبر، بحيث يمكننا توزيع نسخ عنها على المانحين قبل اجتماع باريس.

قبيل نهاية شهر تشرين الأول/أكتوبر، بدأتُ أستفسر عمّا إذا كان أبو عمار قد وقع الوثيقة، فيقول أبو علاء: لم يوقّع بعد، في قَدْر كبير من الاختلاف في اللجنة التنفيذية.

أدركنا، أبو علاء وأنا، أنهم لا يريدون أن تتحكّم «بيدرا» في اتجاه تدفق الأموال، أرادوا أن يتحكموا بالأموال بأنفسهم. بعضهم أرادوا أن يكونوا أعضاء. وأخيراً في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر، قرّرتُ أنه إذا لم يكن عرفات يريد التوقيع، فذلك يعني أن نبلّغ «البنك الدولي» أنه لا معنى للاجتماع. كان من المفترَض أن أغادر إلى باريس في ٣ تشرين الثاني/نوفمبر، على متن طائرة تغادر بعد الظهر، بحيث أكون في صباح الرابع منه مستعداً للاجتماع. في ذلك الوقت كان أبو علاء قد سافر إلى واشنطن. وكان من المقرّر أن يجيء إلى باريس في وقت لاحق. استفسرت من أشخاص ضمن دائرة عرفات، المستشارين، كان لي صديق في الدائرة الاقتصادية لديه الكثير من الاتصالات هناك، وكان أشبه بمخبِرٍ لي، فيقول: «لا توقيع». في الأول والثاني من الشهر بدأت أسال أبو مازن فيقول «لم يحدث شيء».

في الثالث من الشهر نفسه، في الساعة العاشرة صباحاً - كنت سأغادر إلى المطار في منتصف النهار لأن الطائرة تقلع الساعة الثانية بعد الظهر - اتصلت مع فاروق قدومي، أبو اللطف وقلت:

- شو صار؟ لازم أغادر لكن أبو عمار ما وقّع الوثيقة، وأبو علاء مش موجود هون.

فقال بالطريقة الخطابية التي يتحدث بها بالعربية:

- لأ، هذه الوثيقة لم توقَّع. فقلت:

- لازم تتوقع إذا الفلوس لازم توصل. فقال:

- هذا البنك الدولي يريد أن يركب على ظهورنا لأجل حفنة دولارات يعطونا ايّاها؟ قلت:

- عم تمزح؟ ٢,٤ بليون دولار على مدى خمس سنوات مش حفنة. قال:

- لا، بتكلم جدّ. لم نوقّع. يمكن نوقّع بعد أسبوع، عشرة أيام..

رأيتُ أنه لا يمكنني عمل شيء أكثر من ذلك سوى التحقق من «أبو مازن» الذي هو دائماً لطيف ومهذّب. قلت له ما قاله فاروق القدومي، فضحك وقال:

- الفلوس مهمة. ولكن لسوء الحظ اجتمعنا الليلة الماضية حتى بعد منتصف الليل، وكان جدل شديد وصراخ. وظلّت الوثيقة بدون توقيع لمّا رجعت للبيت.

هيأتُ نفسي للذهاب إلى باريس بدون أن تكون الوثيقة بين يديّ.

غادرتُ المكتب ظهراً، ولأنني كنت ذاهباً إلى المطار بالسيارة كان معي سائق ليعيد السيارة، شغّل المحرك، بدأنا نتحرك، عندما ظهر «المخبِر» فجأةً ولوّح لنا: «وقفوا وقفوا». ركض نحوي وقال: «أبو عمار وقع الوثيقة للتوّ. وكتب تاريخها في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر بدلاً من ٣ تشرين الثاني/نوفمبر، ولكن هذا مش هو المهم. المُهم إنه لخبَط التنظيم اللّي حضّرتوه رأساً على عقب. ظل الجهاز الاستشاري تحت رئاسته، ولكنه نقل كل المهام اللي خصصتوها لمجلس المديرين لتكون للجهاز الاستشاري. والدوائر اللّي تحت مجلس المديرين ظلّت كما هي، قبل توصياتكم المتعلقة بأعضاء المجلس ولكن مع إضافة أشخاص جُدُد. وأخيراً، عيّن نفسه رئيساً لمجلس المديرين ورئيساً للجهاز الاستشاري، وأضاف نائبين للرئيس، قدومي والنشاشيبي. قلت:

- مش رايحة تمُرّ.

ركبتُ الطائرة إلى باريس وذهبت إلى الفندق المُقرر أن نقيم فيه، أبو علاء وأنا. بعد ساعة أو نحو ذلك اتصل بي أبو علاء هاتفياً ليقول إنه وصل. ذهبت إلى غرفته وكنت أقف بالباب حين قال:

- عندي أخبار سارّة لك. قلت:

- وأنا عندي أخبار غير سارّة لك. شو أخبارك السارّة؟. قال:

- إتصلت للتوّ مع الحكم بلعاوي(٤٩)، (ممثل منظمة التحرير في تونس) وبلّغني أن أبو عمار وقع الوثيقة مثل ما صممتها إنت وزحلان. قلت:

- أبو عمار وقّع الوثيقة ولكن وضع التاريخ الغلط عليها - وهذا مش مهم - ولكنه قلبها رأساً على عقب، لخبَطها.

- شو بتقصد؟ أكيد إنت غلطان. أخبرته بما قاله لي «المخبِر».

قال أبو علاء:

- أكيد غلطان. معي نسخة الحكم بلعاوي، حكيت معه بعد وصولي مباشرة، وقال كلّ شي تمام.

- بعد نحو نصف ساعة، وصل الفاكس من أبو عمار، الوثيقة.

حين وصل الفاكس، التهَمَهُ أبو علاء، اكفهر وجهه. قال:

- يا إلهي ، إنت صح، مش الحكم بلعاوي. قلت:

- إما إنه كان يكذب عليك، أو انكذَب عليه في المقام الأول، أو ما فهم الفرق بين هذي النسخة والنسخة اللي قدمناها لعرفات للتوقيع. قال:

- شو بقدر أعمل؟ بقدرش ما أوزعها لأنه لازم تكون بين أيديهم. ولكن ما بقدر أدافع عنها. بوزّعها فقط، ويسوّوا اللّي بدهم ايّاه. نظرَ إليّ وسألني:

- بتقدر تدافع عنها؟ قلت:

- لا طبعاً، مش رايح أدافع عنها. بتكون محظوظ إذا أنا ما هاجمتها في الاجتماع، بنَصّها الحالي. فقال:

- إنت محظوظ لأنك مستشار محترف، مش موظف.

في صباح اليوم التالي، ذهبنا إلى الاجتماع. كانت نسخ الوثيقة قد وُزّعَت على المشاركين. بدا التجهم على وجوه الجميع. بعد المقدمات، بدأ رئيس الاجتماع، وهو وزير الخارجية النرويجي هولست(٥٠) - الذي تُوفّي بعد ذلك ببضعة أسابيع - بالقول: «نحن نشعر بالاستغراب والصدمة لاستلام هذه الوثيقة. وهي مختلفة تماماً عمّا فهمناه من العرض الذي قدّمه يوسف صايغ في واشنطن، عندما أعلن عن تأسيس بيدرا. أود أن أسأله الآن إذا كان متأكداً من أن ما أخبرَنا به في ذلك الوقت حول هيكل الصلاحيات في بيدرا هو نفسه ما قام بإعداده وتصميمه». قلت: «نعم، ولكن الوثيقة الحالية عكس الخطة التي قدّمناها». قال هو والبنك الدولي والأميركيون: «ولكنك عضو في مجلس

المديرين» - كانت الأسماء مدرجة في قائمة - قلت: «أنا عضو في مجلس المديرين في الوثيقة، ولكن لن أجلس في المقعد المُخصّص لي». قالوا: «لا بدّ أن نبحث هذا خارج الاجتماع. دعونا نرفع الجلسة للتشاور». عُلِّق الاجتماع على أساس نصف ساعة فقط، لكننا لم نجتمع ثانيةً إلا بعد ساعتين.

كانت الدول المانحة موجودة في ذلك الاجتماع الداخلي - نحو أربعين دولة - والبنك الدولي وصندوق النقد الدولي. لم أعرف ما دار في الداخل، لكنهم بدأوا يدعونني إلى مكاتبهم. كنا نجتمع في قصر قديم في باريس، ولكل وفد غرفة واسعة جداً يستخدمها كمكتب. نحن، الفلسطينيين، أبو علاء وأنا، لدينا غرفة كبيرة كأنها شقة واسعة، كنا فقط اثنين، فقد كنا نحن الوفد. كان مندوبو الوفود يجيئون ويسألون عني، فأبو علاء لم ينطق بكلمة واحدة وقرر التزام الصمت. كلهم كانوا يعبّرون عن غضبهم. قالوا: «لقد فعل أبو عمار الشيء الصحيح بالتأكيد إذا كان لا يريد أيّة أموال». صحيح أننا حصلنا على الأموال في نهاية المطاف، ولكن بعد أن تمّ تغيير كل شيء من جديد بصورة كاملة، على الرغم من أن الوثيقة لم تعُد كما صمّمناها في البداية.

كرّر مندوبو البنك الدولي ما قالوه في الاجتماع. كذلك فعل أعضاء الاتحاد الأوروبي. كان الأميركيون أكثر المتحدثين صراحة، قالت جوان سبيرو: «نريد أن نعبّر عن استيائنا وغضبنا، وقد كتبنا وثيقة بهذا الشأن». وقرأتها لي: كانت تتضمّن سبع نقاط تفسر سبب عدم قبولهم بالصيغة التي وقعها أبو عمار. ذهبنا إلى الاجتماع المفتوح، وأعلنَ عن ذلك. وطلب المجتمعون من الرئيس أن يقابل عرفات وأن يبلغه أن الاجتماع يرفض تلك الصيغة، ويجب أن تعود كما كانت من قبل. يمكن إدخال تعديلات ثانوية، ولكن جوهرها يجب أن يبقى كما أعلنتُ عنه شفوياً أمامهم في واشنطن. كان ذلك في ٥ تشرين الثاني/ نوفمبر.

عُدنا، أبو علاء وأنا، إلى تونس. في ذلك الوقت كان أبو علاء يشعر بالاشمئزاز تماماً. كان قد انتفخَ «بنجاحه» في أوسلو حيث كان المفاوض الرئيسي. والآن أبو عمار يسحب البساط من تحت قدميه، من خلال تغيير صيغة «بيدرا» التي كانت ستصبح مؤسسة قوية جداً. انزعج من ذلك. ورأى أن عرفات نصَّب نفسه رئيساً ل«بيدرا»، وهو، أبو علاء، لن تكون له صلاحيات لأن الأموال ستمرّ عبر قنوات عرفات.

في الواقع، بمجرّد أن عادَ «أبو علاء» - من أوسلو - بدأ أبو عمار يُقصقِصُ أجنحته. على سبيل المثال، كان أبو علاء مسؤولاً عن التنسيق الشامل للمباحثات المتعدّدة، اللجان الخمس - وهو الذي يختار فرق العمل - اللجنة الاقتصادية التي كنت أرأسها، ولجنة اللاجئين التي يرأسها صنبر، ولجان المياه، ومراقبة التسلحِ، والبيئة. ولكن، حتى يكسب هاني الحسن(٥١) من جديد، نقل

أبو عمار أربعاً من تلك اللجان ووضعها تحت إدارة هاني الحسن وأبقى «أبو علاء» مسؤولاً عن التنمية والتعاون، حيث كنت أنا الرئيس. وهذا ما جعل «أبو علاء» أكثر صراحة واعتراضاً، فكان يشتم عرفات بوجود آخرين. أخذته إلى ركن بعيد وقلت له: «على الأقل نص الموجودين مُخبرون عند «بو عمار». قال: «مش مهم، خلّيه يسوّي اللي بدّو يسوّيه».

لم يدُم الجمود طويلاً. بعد عشرة أيام فقط من عودتنا، في ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر، حضر وزير الخارجية النرويجي - هولست - لزيارة عرفات، ومكث عنده ساعات. كان اجتماعاً مطولاً. بعد يوم أو يومين من مغادرته، وصل فاكس منه إلى عرفات مع نسخة إلى «أبو علاء» ونسخة لي. ولا زلت أحتفظ بالفاكس حتى الآن. كان الفاكس طويلاً، ست أو سبع صفحات - رسالة ومرفقات. قالت الرسالة:

«عزيزي الرئيس عرفات،

«يسرُّني أنه بعد اجتماعنا المطوّل، اقتنعت بوجهة نظرنا، وأصبحت على استعداد لمراجعة هيكل مؤسسة «بيدرا». وبناءً على موافقتك على ذلك، فقد منحتُ نفسي الحرية في توزيع هذه الرسالة والمرفقات على جميع الدول المانحة ليعرفوا أننا توصلنا إلى اتفاق» - لا شك بأنه كان يريد إحباط أية محاولة من جانب عرفات [للقيام بالمزيد من الإجراءات] - «وهكذا لن يكون هناك سوء فهم. أرفق لكم مخطط هيكل واختصاصات بيدرا».

ذكرَت الوثيقة أربع مرات أن المجلس الاستشاري، الذي يرأسه عرفات يجتمع مرة واحدة في السنة فقط، وأنه [المجلس] لا يتمتع بصلاحية اتخاذ القرارات. كما جاء في الوثيقة أن جميع المهام وجميع القرارات تقع تحت سلطة مجلس المديرين. كانت لدينا خمس أو ست فئات من المهام، وأضافوا إليها مهمة جديدة. وجميع الإدارات تعمل تحت إشراف مجلس المديرين. ورئيس (المجلس) سيكون فاروق القدومي - ولم يقترحوا نائباً للرئيس - والمدير العام سيكون أبو علاء، والأعضاء هم: أنطوان زحلان، خليل الهندي، طاهر كنعان، وأنا وآخرون. لم يُغيّروا العدد، لكنهم نحّوا عرفات عن رئاسة مجلس المديرين، كما نحّوا أبو اللطف وزهدي النشاشيبي عن منصب نائبَي الرئيس، وقالوا إن «أبو علاء» و»أبو عمار» هما مرجعية التقارير، واستغربنا ما يقصدونه بذلك. وفي وقت لاحق، شرح أحدهم أن ذلك يعني الأشخاص الذين تُرسل إليهم التقارير. أي «نسخة إلى عرفات»، وليس أكثر من ذلك. كان عرفات غاضباً جداً جداً. أغلق على نفسه الباب وألغى المواعيد كلها. وبعد أسبوع ركب طائرته وذهب إلى أوسلو لمقابلة هولست. ولكن في تلك الأثناء، حدث شيء آخر.

ينبغي أن أشرح أنه عندما كان الاجتماع منعقداً في باريس، كان الصحافيون ومراسلو محطات التلفزيون ووكالات الأنباء، يملأون المكان. وأثناء ساعتَي المشاورات، تصادف مروري بالمكتب الصحافي فأمسكوا بي. كان الجميع يطرحون السؤال نفسه عليّ:

- كيف يمكن أن تقبل الصيغة التي تختلف عما أعلنتَه في وقت سابق، وأنت عضو في مجلس المديرين؟ قلت:

- أنا لن أنضمّ للمجلس.

- لماذا؟

- لأن اتجاه الأمر كلّه انتقل من مجلس المديرين إلى المجلس الاستشاري وعرفات سيكون الرئيس. أبو عمار صمّم الوثيقة ليتحكّم في كل شيء. فقد عمل على تسييس المؤسسة - بيدرا - والتي كان المقصود بها أن تكون مؤسسة للتنمية. وبدلاً من احترام المؤسسات، اهتم أكثر بالإمساك بكل الخيوط.

وقد نُشر ذلك كلّه.

بعد عدة أيام من عودتنا من باريس، ووصول الرسالة من هولست، اتصل بي مراسل رويتر في تونس. وقال:

- علمنا أن هولست أرسل رسالة إلى عرفات. ما هي النقاط الرئيسية؟ هل تعرف عنها؟

- أعرف عنها، ولكن هناك تغييرات ثانوية فقط.

- ما هي؟ من هو رئيس المجلس الآن؟

- فاروق القدومي.

- ليس عرفات؟

- لا، لا ليس عرفات.

- من نائب الرئيس؟ النشاشيبي؟

- لا، لا يوجد نائب للرئيس.

لم أطلب إذناً من أحد للتحدث إلى الصحافة. وألقيتُ الحذرَ في مهَبّ الريح. لم أكن أستطيع أن أكذب وأقول لهم إن كلّ شيء على ما يرام، أو أن صيغة عرفات قُبلت. فقد غطّوا الاجتماعات في باريس، وكانت الصحافة على دراية بالقضية. قال مراسل رويتر:

- ماذا عن مجلس المديرين، هل حصل على مهام جديدة؟

- لديه المهام التي استولى عليها الرئيس عرفات.

أرسل المراسل ذلك بالفاكس إلى رويتر، وسمعوا عنه في تونس.

كان ذلك عندما أصدر عرفات تصريحاً ضدي في مقابلة مع صحافي محلي قائلاً:

- هذه كذبة، أنا رئيس مجلس الإدارة، والنشاشيبي لا يزال نائب الرئيس.

وطلب من أحد العاملين في مكتب «أبو علاء» - الشؤون الداخلية والتخطيط - أن يكتب مقالة ينتقدني فيها. ثم استلمتُ رسالة من النشاشيبي، من عشرة أسطر تقول:

«قرأت في الصحف المعلومات الخاطئة التي قدمتها لها، وأنا لا أفهم كيف يكون لديك الوقاحة لفبركة مثل هذا التضليل الإعلامي. لا يزال الرئيس عرفات رئيس مجلس المدراء، وأنا لا أزال نائب الرئيس. لا أعلم لصالح من تفعل هذا» - ربما كان المقصود أبو علاء، أو قوى أجنبية. وختم الرسالة بالقول: «لو كنت أعلم طبيعتك الحقيقية لتصرّفت معك تصرفاً آخر».

كتبتُ إليه رسالة، على الرغم من أنه كان في تونس، وأرسلتها إلى مكتبه، كما أرسلتها بالفاكس إلى مكتبه في عمان بحيث يقرأها الجميع. وشرّحتُه تشريحاً، تناولت رسالته كلمة كلمة، وقلت: «دعنا نرى من الذي يزوّر، أنت أم أنا». لم أكفّ عن ترداد أنه قد تمّ تضليلُه «من الواضح أن عرفات لم يخبرك عن الرسالة التي تسلّمَها من هولست والتي تُظهر أنه [عرفات] وافق على هيكل بيدرا وعلى مهامها. ولا بد أنك تتحدث عن جهل، لأنك لو كنت تعرف ذلك، لما أرسلت لي هذه الرسالة». وأضفت: «ولتعويض تقصير عرفات في إبلاغك، أرفق لك نسخة عن رسالة هولست». فسكتَ بعد ذلك تماماً.

عندما ذهب عرفات لمقابلة هولست في أوسلو، لم يحصل على ما كان يريد. تحدث عن الأيتام والأرامل وقال: «يجب أن تكون السلطة لي» ولكن بعد ذلك أرسلوا إليه رسالة أخرى أبقت على القدومي رئيساً، وليس هو، وأبقت النشاشيبي خارج المجلس، وظل المجلس الاستشاري بدون صلاحية اتخاذ القرارات، فلم يكن هناك تغيير على الإطلاق. وقد أضافوا فقط بنداً حول تقديم التقارير - «بالطبع سيادة الرئيس، المجلس سيرسل لك تقارير عن جميع النشاطات». وافق عرفات على صيغة هولست، والسبب - بكل بساطة - هو أنه لن يعترف بها.

المعارك الأخيرة

بقيت بيدرا كما هو مُخططٌ لها إلى حدٍّ ما، ولكن على الورق فقط. ما حدث هو أن الإسرائيليين والأميركيين كانوا يأتون لمقابلة عرفات كلما كان ذلك ضرورياً لهم من الناحية السياسية، وبدأوا يدعمونه أكثر فأكثر، ويغضّون النظر عن خرقه لقوانين بيدرا ولوائحها. وعلى سبيل المثال، أرسل البنك الدولي وثيقة ضخمة حول الإجراءات: كيفية طلب مناقصة للمشاريع، تحديد بيدرا بملبغ ٢٥ ألف دولار فقط لاعتماد المشاريع المعلن عنها سابقاً بموجب مناقصة بالظرف المختوم، ومهام الدوائر المختلفة التابعة لمجلس المديرين وما إلى ذلك. كل هذه النظم اختُرقت. بدأ يتدخل في التعيينات، كما لو أنه رئيس بيدرا، أو عضو في مجلس مديريها. ولكنهم [الاميركيين] التزموا الصمت.

كل إصرارهم في البداية على المساءلة والشفافية - ربّما كانوا جادّين في ذلك الوقت - أصبح في النهاية مسألة سياسية، كان رجلَهم، فتخلّوا عن إصرارهم. كان يجلس في اجتماعات بيدرا كأنه الرئيس. قلت للقدّومي: ذات يوم:

- ليش بتسمح بهذا؟ قال:

- يا خيّي بستحي مِنُّه، رجّال كبير و..

ولأنّ عرفات كان قلقاً من أن بيدرا ستصبح بارزة وتوطّد كيانها إلى حدٍّ يتعذر معه إزاحتها من موقعها، فَعلَ أمرين. أولاً: بدأ يقوم بجولات سريعة على مختلف الدول، ويحاول أن يحصل على موافقتهم على مشاريع معينة، ليحصل على الأموال بنفسه. كان يأخذ معه أشخاصاً من الدرجة الثانية ممن يحيطون به. وثانياً: أنشأ لجنة اقتصادية استشارية تألفت من خالد سلام(٥٢) رئيساً - وهو عراقي كردي، ولم يكن اقتصادياً - وأم اللطف التي ليست لديها أية مؤهلات على الإطلاق لذلك النوع من العمل، وهايل الفاهوم، مساعد القدومي في الدائرة السياسية لمنظمة التحرير ويحمل شهادة في العلوم السياسية، ومروان عبد الحميد، شقيق أبو الهول، وهو مهندس، وأكرم هنية، وهو كاتب قصة قصيرة وصحفي. كان ذلك هو الجهاز الاقتصادي المفترض فيه أن يكون مركز الثقل المقابل ل«بيدرا». كانت تلك مهزلة. وسريعاً ما تخلّى عن الموضوع برمته، لكنه أبقى على خالد سلام.

أُعيد تعميد «بيدرا» لتصبح «بكدار» لتجنّب كلمة وكالة، فأصبح اسمها «المجلس الاقتصادي الفلسطيني للتنمية والإعمار»، «بكدار» واختصارها باللغة العربية هو «مافتا». وفي كلمة لي في القاهرة، في المؤتمر، تلاعبتُ بالألفاظ قائلاً: «إن المافيا ابتلعت المافتا». كان المؤتمر في تشرين الثاني/ نوفمبر، قبل أسبوعين أو ثلاثة من عقد زحلان لمؤتمره حول أعمال إعادة

الإعمار والتنمية(٥٣). نظّمَت مؤسسة الإنعاش الاجتماعي المؤتمر بالتنسيق مع جامعة الدول العربية. قدمتُ ورقة العمل الافتتاحية وكان عنوانها: «الفرص الممكنة والمعيقات الفعلية للتنمية في فلسطين». والمعيقات الرئيسية كانت بالطبع إسرائيلية وعربية ودولية. لكنني ركّزت على المعيقات الداخلية، سلوك السلطة الفلسطينية، وسلوك عرفات.

قبل أن أغادر تونس، جرت حادثة مثيرة للاهتمام. اتصل مكتب عرفات هاتفياً - كان ذلك هو الاجتماع الثاني لمؤسسة «بكدار». لم أكن قد حضرت الاجتماع الأول، لكن عرفات حرص على أن أحضر الاجتماع الثاني. كان يرأس كلَّ اجتماع. وعلى الرغم من أنني كنت سأغادر، قاموا بدعوتي. وبلّغت أبو علاء أنني لن أذهب. أصرَّ أبو عمار. اتصل هاتفياً وبدأ حديثه بالقول:

- يا دكتور، عرفَ الحبيبُ مقامَهُ فتدَلّلا.

- سيادة الرئيس عرفات، أنا مش بتدلّل، ما بدّي أشارك، قلت هذا على الملأ، وقلته للصحافة، وأرسلت لك رسالة بهذا المعنى. من حيث المبدأ أرفض المشاركة.

- تعال وقول لنا شو هذي المبادىء.

- إذا بَس بتوعدني إنك تعطيني نُص ساعة لعرض قضيتي بدون مقاطعة.

- أوكي.

فذهبت. كانوا قد بدأوا الاجتماع عندما دخلت.

أراد أن أكون هناك لأن اسمي يحمل بعض القيمة ولا يزال موجوداً في مجلس الإدارة رغم أنني أرسلت له عدّة رسائل بالفاكس أطلب شطبه. أراد مني حضور ذلك الاجتماع بالتحديد لأنه عرف أنني سأغادر قريباً. عندما دخلت قال: «إحنا بنبحث مسألة إنشاء بنك لتمويل التنمية برأسمال قدره ٥٠٠ مليون دولار، وأنا كنت أقول للأعضاء الحاضرين...» - كان هناك تسعة أعضاء وياسر عبد ربه يجلس معهم، لم يكن عضواً، ولكنّه كان في زيارة لعرفات فظلّ جالساً. كان النصاب مكتملاً، تسعة من أصل أربعة عشر. وكان هناك شخصان أو ثلاثة أشخاص من الداخل [من فلسطين] - سِري نسيبة وابراهيم الدقّاق. القدّومي كان موجوداً بالطبع، والنشاشيبي. كان عرفات يجلس خلف مكتبه الكبير، يرأس الاجتماع رغم أن القدومي كان يجب أن يكون الرئيس. فهو أساساً من يُدير «بكدار». ذلك ما قلته لاحقاً عندما سَنَحت لي الفرصة.

قال عرفات: «بيقولوا بدهُم وقت لدراسة الفكرة. شو رأيك؟». قلت: «أظن أنهم على حق تماماً». قبل سنوات قليلة، طلبت مؤسسة الإنعاش الاجتماعي من إدموند عصفور(٥٤)، وهو اقتصادي فلسطيني بارز ومن كبار المسؤولين

في البنك الدولي، إعداد اقتراح لإنشاء بنك صناعي للتنمية. قلت إن ما يحتاجون له الآن هو بنك للتنمية العامة. كان اقتراح عصفور، الذي كان مدروساً ومكتوباً بعناية، اقتراحاً جيداً قبل أوسلو، والآن هناك حاجة لإجراء تغييرات فيه. على سبيل المثال، اقترح عصفور أن يكون المقر الرئيسي خارج فلسطين، لكي يستطيع مجلس الإدارة العمل بحرية. الآن الوضع مختلف، كذلك فإن سلطة البنك ومهامه يجب أن تشمل قطاعات أخرى - الزراعة والصناعة والسياحة. اقترحت أن يقوم أبو علاء الذي لديه نسخة من الدراسة بتصويرها وتوزيعها على أعضاء مجلس الإدارة، وأن يمهلهم أسبوعين أو ثلاثة أسابيع للتعليق عليها. وهذه التعليقات بالإضافة إلى رأي مُحام مُتخصص في القانون الدولي، يجب أن تعاد إلى عصفور ليعيد كتابة الدراسة.

فقال عرفات: هذا بدّو عدة أسابيع. قلت:

- نعم ولكنه يستحق. فالمبلغ ٥٠٠ مليون دولار. قال:

- لكن هذا مُستعجَل، بدّي يصير فوراً. كلامك كلاسيكي.

- «مش عارف شو بتقصد بكلمة كلاسيكي. ولكنّ ما أقوله صحيح. لا يمكن عمله بطريقة أخرى. خلّيني أختبر المسألة». وتوجهت نحو الحاضرين وقلت: «يا إخوان، إذا عندكم ١٠ آلاف دولار للاستثمار، هل بتستثمروها في بنك أنشىء في اجتماع مدته ٢٤ ساعة؟».

بالطبع لم يقل أحد «نعم». ياسر عبد ربه من بينهم قال: «دكتور صايغ عنده حق». إبراهيم الدقّاق وافقه على ذلك، وأبو علاء قال: «نعم، أنا عندي نسخة من الدراسة يمكن نصوّرها ونوزعها». لم يقل إنني كنت على حق، ولكنه كان يعني ذلك ضمناً. ولم ينطق الآخرون بكلمة. قال أبو عمار غاضباً: «طيب إذا ما بتحبوا طريقتي في الشغل، بصدر مرسوم». وأخرجَ قلماً من جيب قميصه وورقة من درج المكتب أمامه.

قلت: لحظة! قبل كتابة المرسوم، خلّيني أذكرَك إنه في إجراء لإصدار المراسيم. ومتطلبات الإجراء غير متوفرة هون، أولاً: إنتَ مش على الأرض الفلسطينية، إنتَ في تونس. ثانياً: المراسيم تشير عادةً إلى بعض المواد في الدستور أو القانون الأساسي، وإحنا ما عنا دستور. ثالثاً، في أيّة حكومة، إذا كان في مشروع «س»، فالوزير المسؤول يقترحه. وتتم مناقشته في اجتماع أو أكثر. وعند التوصل إلى اتفاق، فالوزير المسؤول يوقع عليه بالأحرف الأولى، ثم يوقعه رئيس الوزراء استناداً إلى قرار الوزير، ثم ينشره رئيس الدولة. هناك عملية طويلة وعناصر هذي العملية غير متوفره بالمرّة هون.

ظل صامتاً للحظة ثم قال: عندي حل، أصدر مرسومين. قلت:

- سيادة الرئيس عرفات، إذا كان مرسوم واحد خطأ، فكيف يمكن أن يكون إصدار مرسومين صحيحاً؟. فقال بغضب ونفاد صبر:

- انتظر لحظة! انتظر لحظة! سأصدر مرسوماً بصفتي رئيس دولة فلسطين، أفوض بموجبه ياسر عرفات بصفته رئيس مجلس الإدارة لكي يصدر مرسوماً بتأسيس البنك. قلت:

- لديّ اعتراض على ذلك أيضاً، أولاً، لا تستطيع أن تصدر مرسوماً لصالحك، الأمور لا تدار بهذه الطريقة. ثانياً: إنت مش رئيس مجلس الإدراة، فاروق القدومي هو الرئيس.

وواصلت الكلام:

- وهذا بيوصّلني للسبب اللي جيت من أجله، مثل ما اتفقنا على التليفون. جيت أبلغك إني لا أستطيع الاستمرار في العمل. أولاً: انت ما بتراعي العملية الدستورية. ثانياً المُساءلة مُخترقة تماماً. قال:

- إيش هادا؟ كل واحد بيقولّي المساءلة. قلت:

- نعم، كرئيس «بكدار» - الآن عيّنت نفسك رئيساً لمجلس المديرين - بتكُون مسؤول أمام نفسك، بصفتك رئيساً للمجلس الاستشاري. وإنت والمجلس الإستشاري مسؤولين أمام نفسك كرئيس للسلطة الوطنية الفلسطينية، اللي ستُشكّل لما تدخل فلسطين. وإنت والسلطة مسؤولين أمام اللجنة التنفيذية، اللي إنت رئيسها، وإنت واللجنة التنفيذية مسؤولين أمام رئيس الدولة، وهو إنت. وهيك بتكون مسؤول أمام نفسك على خمس مستويات.

وتابعت: ولمّا تتصرّف كرئيس، هل ستأخذ برأي الأغلبية؟ إذا صوّتَ جميع أعضاء المجلس وعددهم ١٣ لصالح مشروع «س» وانت بدّك مشروع «ص»، رأي مين بيغلب؟ قال:

- طبعاً رأيي أنا. قلت:

- وهيك لا تُحتَرَم الديموقراطية كمان. ولمعرفتي فيك كرئيس للجنة التنفيذية، أعرف انك تحتفظ بكل الأسرار في جيبك. فالأمور لن تدار بشفافية. ولهذه الأسباب كلها، وما لم تزُل هذه الأسباب جميعها، لن أجلس في مقعدي. إعتبر إني مُش عضو في المجلس. تصبح على خير. وغادرت.

كان ذلك في أواخر تشرين الثاني/نوفمبر. بدأتُ أستعدّ للمغادرة. ثم غادرت تونس في ٣ كانون الأول/ ديسمبر.

أبو عمار في القاهرة

لم أقابل عرفات ثانية بعد ذلك، إلا مرة واحدة، في القاهرة. ظهر في مؤتمر هناك في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥، على غير المتوقع، في صباح اليوم نفسه الذي بدأ فيه الاجتماع الساعة العاشرة صباحاً. كانت عريفة الحفل سيدة، مذيعة مشهورة في التلفزيون المصري. كالَت المديح لعرفات. لا أعرف لماذا كانت هناك، فقد نظَّم الاجتماع كلٌّ من مدير مؤسسة الإنعاش الاجتماعي والأمين العام لجامعة الدول العربية. قضى أبو عمار أكثر من نصف الوقت المُخصص لهُ ليعلن عن ألمِهِ وحزنهِ لموت صديقه، صديقنا، إسحق رابين. تخيّل! في قاعة جامعة الدول العربية! ثم تحدّث كيف أن لديه آمالاً عريضة للتنمية، وتحدث عن قدرات الفلسطينيين، وقال: «أنتم رجال الأعمال الناجحون..» ومن هذا الكلام الفارغ. ثم غادر.

قدمتُ ورقتي في الجلسة الأولى من ذلك المؤتمر، وكذلك أبو علاء. تحدثتُ عن الأخطاء التي ارتُكبَت في أوسلو. قلت: إن الخطأ الرئيسي هو أنه كان يمكننا الحصول على قوة أكبر في المجال الاقتصادي لو أن المفاوض الرئيسي، صديقي العزيز «أبو علاء» - ووضعت يدي على كتفه - كان يعرف أهمية الورقة التي يملكها بين يديه. كان يجب أن يقول للوفد الإسرائيلي في أوسلو: «نحن نعرف أنكم تريدون توقيع اتفاق معنا، ليس لأن إسرائيل لا تستطيع البقاء بدون اعتراف منظمة التحرير بها، بل لأنكم بتوقيعنا على الاتفاق، يمكنكم الدخول إلى البلاد العربية». كانت تلك هي «الورقة الرابحة» بين أيدينا.

كنت قد قرأت كتابَي «أبو مازن» وممدوح نوفل(٥٥) المستندين إلى محاضر اجتماعات أوسلو - كان نوفل المنسق في مكتب «أبو مازن» - ولم تكن هناك كلمة واحدة توحي بأن أبو علاء استعمل تلك الورقة الرابحة. وقلت: «هذا هو السبب في أننا الآن في وضع بالغ السّوء في ما يتعلق بالتنمية. إذا أردت أن تَبني بيتاً، يجب أن تحصل على موافقة إسرائيل، وكذلك إذا كنت تريد أن تروي مزرعتك...». كانت تلك هي الورقة التي قلتُ فيها إن المعيقات الذاتية أهمّ وأخطر من المعيقات الموضوعية - «وبالإضافة إلى ذلك، فإن عرفات أحاط نفسه بمجموعة من المستشارين الذين لا يقبل أحدٌ منكم في هذه القاعة أن يُوظفهم كَتبَةً في شركته».

جاء شخص إلى المؤتمر من الداخل، من فلسطين، لكنه جاء في الجلسة الأخيرة من المؤتمر فسألته:

- ليش تأخرت؟ راحت عليك المتعة. فقال:

- أبو عمار ما كان عنده وقت يوقّع موافقته على تذكرتي. فسألته:

- معقول بسوّي هيك؟ فقال:

- أه طبعاَ. بيسوّي كل شي. بيتدخل في نقل شرطي من شارع لشارع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞




متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات